دير القديس أنبا مقار

المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا

دراسة وتحليل



الأب متى المسكين

اهداءات ٢٠٠٢

القمص/ متى المسكين

دير القديس أنبا مقار

المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا

دراسة وتحليل

الأب متى المسكين

كتاب: المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا
(دراسة وتحليل)
المؤلّف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأُولى: ١٩٨٩.
إعادة الطبعة الأُولى ١٩٩٧
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب: ٢٧٨٠ القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٩/٥٤٧٥
رقم الإيداع الدولي: ٦-٠٨٠-٥٤٨-٤٤٨-٩٧٧

محتويات الكتاب

الصفحة

الباب الرابع

مراجع الكتاب :

Bibliography I

Ancient Literary Sources أ ــ المراجع الآبائية:

AUGUSTIN, St., *Homilies on the Gospel of St. John,* NPNF, 1st Ser., Vol. VII, Eerdmans, Grand Rapids, 1956.

CYRIL of Alexandria, St., *Commentary on the Gospel according to St. John,* LFC, London, 1874.

EPIPHANIUS, *Adversus Haereses,* PG 41-42.

EUSEBIUS, *Historia Ecclesiastica* (= Hist. Eccl.), or *Church History,* NPNF, 2nd Ser., Vol. I, Eerdmans, Grand Rapids, 1971.

IRENAEUS, *Adversus Haereses,* (= Adv. Haer.), *Against Heresies,* ANF, Vol. I, Eerdmans, Grand Rapids, 1973.

JOHN CHRYSOSTOM, *Homilies on the Gospel of St. John,* NPNF, 1st. Ser., Vol. XIV, Eerdmans, Grand Rapids, 1956.

ORIGEN, *Commentary on the Gospel of John,* ANF, Vol. X, Eerdmans, Grand Rapids.

Bibliography II

Modern Works ب ــ المراجع الأجنبية الحديثة:

BARCLAY, WILLIAM, *The Gospel of John,* vol. 1,2, USA, 1955.

BARRETT, C.K., *The Gospel according to St. John, An Introduction with Commentary and Notes,* SPCK, London, 1955, reprinted 1958.

BERNARD, J.H., *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel According to St. John,* edited by the Rev. A.H. McNEILE, 2 vols., Edinburgh, 1928, reprinted 1958.

BLACK, MATTHEW, *An Aramaic Approach to the Gospels and Acts,* 3rd ed. 1967.

BROWN, Raymond E., S.S., *The Gospel according to John,* Introduction, Translation, and Notes, The Anchor Bible, London, 1984.

BULTMANN, Rudolf, *The Gospel of John, a Commentary,* translated by G.R. Beasley-Murray, the Westminster Press, Philadelphia, 1971.

BURNEY, C.F., *The Aramaic Origins of the Fourth Gospel, Oxford,* 1922.

CINTI, *Current Issues in N.T. Interpretation,* New York, 1962.

DANIELOU, JEAN, *Christian Centuries,* translated from French *"Nouvelle Histoire de l'Eglise",* New York, 1964.

DODD, C.H., *The Interpretation of the Fourth Gospel,* Cambridge, 1953.

EDERSHEIM, Alfred, *The Life and Times of Jesus the Messiah,* Eerdmans, Grand Rapids, 1965[40].

EXELL, Rev. Joseph S., *The Biblical Illustrator, Saint John,* London, 1905.

HENGSTENBERG, E.W., *Commentary on the Gospel of St. John,* translated from the German, Edinburgh, 1871.

HOSKYNS, Edwyn Clement, *The Fourth Gospel,* edited by Francis Noel Davey, London, 1967[8].

HOWARD, M.A., *Christianity According to St. John,* London, 1943, reprinted 1958[5].

HUNTER, A.M., "Recent Trends in Johannine Studies", ET 71 (1959-60), 164-67, 219-22.

JONES, Clifford M., *Old Testament Illustrations,* Cambridge, 1984.

KITTEL, G., *Theological Dictionary of the New Testament,* Eerdmans, Grand Rapids, 1964.

LAGRANGE, M.-J., *Evangile selon Saint Jean,* Paris, 1925.

LEON-DUFOUR, Xavier, *The Gospels and the Jesus of History,* London and New York, 1968.

LIGHTFOOT, J.B., *The Epistle of St. Paul to the Galatians,* Zondervan, 1962.

LIGHTFOOT, R.H., *St. John's Gospel, a Commentary,* Oxford, 1960.

MARSH, John, *The Gospel of St. John,* the Pelican Gospel Commentaries, London, 1968.

MORRIS, Leon, *The Gospel According to John,* London, 1974[4].

NEANDER, Aug., *General History of the Christian Religion and Church,* Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh, 1847.

QUASTEN, J., *Patrology,* 3 vols., 1st published 1950, reprinted by Christian Classics, Inc., 1983.

REYNOLDS, H.R., *Gospel of John, Introduction and Exposition,* The Pulpit Commentary, Vol. 17, Eerdmans, Grand Rapids, reprinted 1981.

SCHAFF, Ph., *History of the Christian Church,* Vol. I, Apostolic Christianity, Eerdmans, Grand Rapids, 1966.

SCHNACKENBURG, Rudolf, *The Gospel According to St. John,* New York, 1982.

TEMPLE, WILLIAM, *Readings in St. John's Gospel,* London, 1952.

WESTCOTT, B.F., *The Gospel According to St. John,* Eerdmans, Grand Rapids, 1962.

WESTCOTT, B.F., *The Epistles of St. John,* 1st edition 1883, reprinted by Eerdmans, Grand Rapids, 1966.

WIKENHAUSER, Alfred, *New Testament Introduction,* New York 1958, 1967[6].

مقدمـــة

مقدمـــة

في ختام القرن الأول المسيحي كتب القديس يوحنا الرسول إنجيله في مدينة أفسس تحت إلحاح أساقفة كنائس آسيا الصغرى الذي كان هو أسقفاً على أهمها وهي كنيسة أفسس. هذا بحسب مصادر التقليد الكنسي المنحدر إلينا من القرن الثاني ومن مصادر عديدة أخرى سنأتي على ذكرها.

ومعلوم أن القديس بولس الرسول هو الذي أسس كنيسة أفسس قبل ظهور إنجيل القديس يوحنا بما يقرب من ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً. وتأسيس كنيسة بالمفهوم اللاهوتي يعني إرساء قواعد الإيمان المسيحي بكل أركانه. والرسالة التي أرسلها القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس تكشف عن المستوى اللاهوتي الذي بلغه ليس القديس بولس فحسب، بل والذين كُتبت الرسالة لهم، هذا الشعب الذي اتخذ هذه الرسالة منهاج إيمان وعقيدة وحياة وسلوك. من هذا نفهم لماذا كان هذا العمق اللاهوتي الذي اجتهد القديس يوحنا بإلهام الروح أن يستودعه إنجيله لهذا الشعب! إذ تحكمه نسبة المثيل للمثيل، لذلك حُسب إنجيل القديس يوحنا كضرورة تحتِّمها المناسبة. فالقديس يوحنا كتب إنجيله لشعب كان قد بلغ شأواً كبيراً في النضج الإيماني والوعي المسيحي، وقدم نماذج لإيمانه بحالات استشهاد رفيعة المستوى. ولكن كان يعوز هذا الشعب الإطار الإنجيلي الذي يشرح لهم المصادر الفائقة التي انحدر منها الإيمان المسيحي بكل أسراره، ويقنِّن لهم المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة لكرازة القديس بولس الرسول محققاً إياها من فم المسيح مباشرة. الأمر الذي اشتاق أن يتممه القديس بولس الرسول يوماً ما بصفة خاصة وشخصية، كما يقول هو نفسه: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم... بموجب إعلان وعرضتُ عليهم (أي على القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا) الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بانفراد على المعتَبَرين لئلا أكون أسعى أو قد سعيتُ باطلاً» (غل٢: ١و٢). وها هو القديس يوحنا يضع ختم إنجيله على كل تعاليم بولس الرسول ليس بالإنفراد ولكن على الملأ على مشهد من الدنيا كلها.

وواضح أن إنجيل القديس يوحنا لا يهب الكنيسة في أفسس أو غيرها إيماناً جديداً بل يوثِّق ويشرح الذي وُضِع. ولا يستحدث لها أسراراً ولكن يستعلن اللاهوت فيها حيًّا مشروحاً من فم

الرب. كما أنه لم يرفع إدراكات الكنيسة لترى مخلِّصها جالساً في السموات، فهذا وضَّحه أول مَن وضَّحه الشهيد إستفانوس بعد يوم الخمسين بقليل، كما قالت به الأناجيل وصوَّره سفر الرؤيا أروع تصوير. فكانت هذه كلها حقائق يعيش الشعب على هداها ويستمد منها إيمانه وحرارته. ولكن جاء إنجيل القديس يوحنا محمولاً بالروح ليتتبَّع هذه الحقائق في أصولها وينابيعها الأولى قبل أن توجد الأرض أو تُصوَّر السماء مستقصياً عن المسيح — صاحب هذا الإيمان والخلاص والنور — لا في التاريخ في سجلات هيرودس ملك اليهودية ولا في منشور أوغسطس قيصر للإكتتاب العام ولكن في الأزلية، متعرِّفاً على المسيح ليس ضمن أسباط إسرائيل بل في حضن الله بصفته الكلمة الأزلي الكائن معه وفيه منذ البدء وهو الخالق، وقد صاحَبَه بالإستعلان فيما وراء الدهور والأزمان في خلقة الأكوان حتى إلى تجسده حينما صار الكلمة جسداً، نازلاً من السماء حاملاً رسالة حب الآب لخلاص العالم. واضطلع الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا وعلى يد القديس يوحنا بعمل هو من أعظم أعمال الروح القدس إذ استعلن علاقة الآب بالإبن وعلاقة الإبن بالآب الكائنة منذ الأزل في ذات الله الواحد: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). وهكذا كشف عن لاهوت المسيح بأبلغ بيان وبأوثق بنيان. هذا السر أي سر بُنُوَّة المسيح لله الذي نلنا منه وفيه بتجسد الإبن وتكميل الفداء حق التبنِّي وتكميل الخلاص وانفتاح الحياة الأبدية علينا. وقد صوَّر إنجيل القديس يوحنا ومن فم المسيح سر انكشاف علاقة الله الآب بالمسيح هكذا: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال (كما في الثلاثة الأناجيل على قدر نموهم الروحي) **بل أُخبركم عن الآب علانية**» (يو١٦: ٢٥). فكانت هي ساعة كتابة هذا الإنجيل بلا شك!

هذا هو إنجيل القديس يوحنا الذي قُدِّم للكنيسة في ميعاده المحدد منذ الأزل، حينما بدت الكنيسة في نُضجها متعطشة غاية التعطُّش لمعرفة المزيد عن المسيح إلهها لتردَّ به شوقها إليه وترد على الذين يعيِّرونها كل يوم أين ومن أين جاء إلهها!! حينما وقفت أمام نشاط وثني وفلسفي منقطع النظير ولا قِبَلَ لها بمواجهته إلاَّ بقوة إيمان وحب!

ونحن نعلم ما هي أفسس ومَن هم الذين كانوا في أفسس سواء أيام بولس الرسول أو أيام كتابة سفر الرؤيا. فسفر الأعمال يحكي ضمن ما يحكي عن مغامرات بولس الرسول هناك هكذا: «ثم سكَّن الكاتب الجمع (الهائج ضد بولس) وقال أيها الرجال الأفسسيون مَن هو الإنسان الذي لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس الإلهة العظيمة والتمثال الذي هبط من زَفْس» (أع١٩: ٣٥). فأفسس كانت إحدى مواطن الحضارات اليونانية وكانت تموج بالآلهة الكاذبة وعُبَّادها هم أقوى الفلاسفة والمعلمين وغيرهم من أدباء اليونان ذائعي الصيت، وشعرائهم الأفذاذ الذين ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة والجمال والحب والمجون والفن، واجتذبوا إلى صفوفهم

حتى من الطبقات العليا ذوي المعارف الفلسفية من المسيحيين وأضلُّوهم. ولقد جال القديس بولس الرسول جولاته الأولى في هذه المناطق، واستقطب غليان هذا النشاط المفرط في المعرفة الفلسفية وطوّعه بكل الجهد، وعن أصالة روحية وإقناع إلهي، وذلك لحساب المسيح باعتراف الوثنيين أنفسهم «وأنتم تنظرون وتسمعون أنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاغ بولس هذا جمعاً كثيراً... فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع١٩: ٢٦و٢٧)

فلما دخل الإيمان المسيحي في الصراع مع منطق الفلاسفة، كان الإيمان مجرد قوة فعّالة تستمدها الكنيسة من حياة المسيح، كما في الأناجيل الثلاثة، تلهبها قوة صليبه. ولكن كان يعوزها منطق «الكلمة»: مَنْ هو المسيح ومن أين أتى؟ إزاء آلهة الفلاسفة التي هبطت من زَفْس؟ وهكذا ظهرت الحاجة أشد ما تكون الحاجة إلى «اللوغُس» النازل من السماء باسم الآب، والصاعد إليها بمجد الله، والعتيد أن يأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته. ثم كان يعوز الكنيسة في محنة هذا الصراع الفلسفي التعبير عن الحق الذي لها وفيها، لا بالمنطق الفلسفي الأرضي، بل بالمنطق والإقناع الإلهي بحسب فكر المسيح ونُطقه، فجاء دور المعايير الروحية الفائقة التي هي كنوز الكنيسة والتي غطّاها المسيح جميعها في عظاته المتوالية في إنجيل القديس يوحنا. ونجحت أيّما نجاح على أساس خبرة القديس يوحنا «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٦و١٧). وقام الروح القدس في هذا الصراع الرهيب بعمله السري والعلني: «ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣). ولما عزَّت الشهادة شهد: «فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو١٥: ٢٦و٢٧). ولما شاءوا أن يرفعوا من قدر المسيح ويمجّدوه في أعين المتعظمين بعلمهم انبرى الروح يمجّد «ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦: ١٤). ولم تكن الوثنية ولا الفلاسفة والأدباء اليونان هم وحدهم الجناح الذي دخل الحرب الطاحنة ضد المسيحية أيام القديس يوحنا الرسول، بل واليهود أيضاً كانوا يشكّلون الجناح الأكثر حقداً وإثارة، الذين كانت لهم أكبر جالية في العالم بجوار مدينة أفسس، وكان لها مجمع ضخم ذكره المسيح في سفر الرؤيا بالأسى والحزن «اكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا هذا يقوله القدوس الحق... ها أنذا أجعل الذين من **مجمع الشيطان** من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون. ها أنذا أُصيِّرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك.» (رؤ٣: ٧و٩)

كان هذا هو دور إنجيل القديس يوحنا الذي أعدّه الله وسلّحه بكل أسلحة الدفاع عن الحق والحياة للمحنة الكبرى التي أتت على الكنيسة من جناحي عالم الظلمة. ولكن نجحت الكنيسة

بإنجيلها وواجهت أخطر منحدراتها التاريخية بعد أن انتقل مركز وجودها الرسولي الأول من موطنه فلسطين بعد أن خُرِّبت أورشليم وهُدِم وحُرِق هيكلها، إلى أفسس في قلب العالم الوثني المتسلح بضراوة بكل أسلحة الضلال.

ولكن لم تكن الكنيسة تواجه صراع الخارج السافر وحده سواء من فلاسفة أو يهود متعصبين — غير يهود([1]) — بل وكانت تواجه فراغاً مخيفاً من داخلها شعر به أساقفتها وشعبها خاصة من اليهود الذين دخلوا الإيمان المسيحي بتراث عبادتهم الأولى الزاخر بالقوانين والنواميس. الكل بدأ يطالب بعلاج المشاكل والتساؤلات التي نشأت كحتمية فرضها توقف العبادة اليهودية بعد خراب أورشليم ونزوح اليهود منها سنة ٧٠م. فأين سيكون مركز العبادة المسيحية؟ في أورشليم أم في جرزيم؟ أم في روما. ثم كيف ينبغي أن يكون السجود؟ وما عدده وما أصول التطهيرات اللازمة لحصوله؟ كل هذا وخلفية الكنيسة الذهنية نشطة من جراء تعاليم القديس بولس الرسول الذي شجب هذا كله وأمر ببطلان الإتكال على أعمال الناموس، وعدم توسُّط الفرائض التي تؤدّى جسدياً، والمناداة بحرية البنين، وإعطاء الأهمية القصوى للإيمان الشخصي للفرد، وعمومية الإنجيل والإيمان لكل الأمم، واستعلان لاهوت المسيح كأساس للإيمان وكقوة فعّالة تعمل عملها لخلقة الإنسان خلقاً روحياً. هذا كله أصبح على ألسنة الأساقفة قبل الشعب، أسئلة تحتاج إلى شرح إنجيلي، تقدم بها الأساقفة رسمياً إلى القديس يوحنا بإلحاح ضاغط مع توسل وصلاة وصوم لكي يكتب إنجيله بصفته الرسول الوحيد على قيد الحياة وهو الذي عاين وشهد وشهادته حق باعتبار الجميع. وبحسب التقليد ارتضى القديس يوحنا بضغط آخر من الروح القدس أن يكتب إنجيله. وهذا ما يقوله التقليد من الشرق والغرب.

يقول القديس إكليمندس الذي عاش (١٥٠ — ٢١٥م):

[إن التقليد الذي استلمناه هو أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية τὰ σωματικά صارت واضحة في الإنجيل (الثلاثة أناجيل الأولى) ألحَّ عليه أحباؤه. وبإلهام الروح القدس كتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον.]([2])

هذا تقليد الشرق.

ثم جاءنا التقليد من الغرب في وثيقة موراتوري والمعروف أنها لهيبوليتس. وهذه الوثيقة يرقى تاريخها إلى سنة (١٦٠ — ١٧٠م). تقول الوثيقة:

(١) «وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ٢: ٩)

2 Euseb., Eccl. Hist. VI, 14, 7.

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ، إذ عندما توسل إليه زملاؤه التلاميذ والأساقفة في ذلك قال صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعض بكل ما يوحي به الله إلينا. وفي هذه الليلة عينها أُعلن لأندراوس أحد الرسل (السبعين) أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علّمت بها الأناجيل الأخرى وكلها استُعلنت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد والآلام والقيامة وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول والثاني، الأول باتضاع وتواضع وقد أكمله، والثاني يأتي بالمجد وبالقوة الملكية. فأي عجب، إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بآذاننا ولمسناه بأيدينا». هذه الأمور كتبها Scripsimus لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.](٣)

كما يصادق القديس إيرينيئوس على ما جاء في الوثيقتين، وقد سجّلنا كل أقواله في هذا الكتاب.

بهذا يتأكد لنا أن إنجيل القديس يوحنا اختص في التقليد بالروحانية واللاهوتية. وهذا تسجّل في قانون الأسفار المقدسة عدة مرات. ويقول عنه القديس أغسطينوس ما يلي:

[إن كل هذه الأناجيل الثلاثة لم تفارق نظرتها للأمور الأرضية إلاَّ قليلاً يعني الأشياء التي أكملها المسيح على الأرض. أما بخصوص لاهوته فإنها جاءت قليلاً جداً. إذ تحدثوا بصفتهم بشراً يسيرون معه على الأرض، أما هذا الأخير هذا «النسر» يوحنا المبشر بالحقائق العليا فهو الذي حدّق بنظره مثبتاً إياه نحو النور العميق الأزلي] (العظة السادسة والثلاثون).

كذلك جاء في نفس هذه العظة:

[إن القديس يوحنا ليس كأنه بلا استحقاق من جهة العمق في الروحانيات شبّهوه بالنسر فهو قد رفع بشارته أعلى وأسمى كثيراً عن الثلاثة أناجيل الأخرى] (العظة السادسة والثلاثون).

ولكننا مع كل هذه الشهادات بخصوص القيمة اللاهوتية التي اختص بها إنجيل القديس يوحنا، نود لو نخفّض قليلاً من علياء أغسطينوس وغُلْوائه، فالأناجيل الأخرى وإن كانت قد قسّطت في استعلان لاهوت المسيح إلاَّ أنها ما قصّرت قط وما أنقصت، فلاهوت المسيح يدمغها منذ بدء

---

[3] Muratori, cited by: Barrett, Acc. to St. John., pp. 96, 97.

صفحاتها: «وهو ابن العليّ يُدعى» (لو١: ٣٢)، «القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو١: ٣٥)، «ويُدعَى اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت١: ٢٣)، «وهذا هو الذي سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت٣: ١١، لو٣: ١٦)؛ وهل ننسى أول آية جاءت في إنجيل القديس مرقس هكذا: «بدءُ إنجيل يسوع المسيح ابن الله» (مر١: ١)، وهي آخر آية جاءت في إنجيل القديس يوحنا «لكي تؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله» (يو٢٠: ٣١)؛ ولكن كانت كل هذه الشهادات تحتاج بالفعل إلى شرح لاهوتي مفصَّل من فم المسيح مع تطبيق بالآية المباشرة.

نفهم من هذا أن كتابة إنجيل القديس يوحنا في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الكنيسة كان حصيلة إرادة إلهية استجابة إلى حاجة كنسية أمْلَتْها ظروف تتعلق بحياة المؤمنين ونضجهم الروحي وبحياة الكنيسة واستمرار وجودها.

لذلك صحَّ القول أن إنجيل القديس يوحنا هو أصدق وثيقة تصوِّر لنا حالة الكنيسة المسيحية في ختام القرن الأول.

ولكن يلزم قراءة هذه الوثيقة، أي إنجيل القديس يوحنا هذا، على أصول لاهوتية قبل الأصول التاريخية مع دراسة واستقراء لنفهم ما فهمناه معاً الآن وأكثر.

ونحن لا نستطيع أن نختم مقدمتنا هذه عند هذا الحد؛ إذ يتحتَّم علينا أن نضيف، أن إنجيل القديس يوحنا كُتب في زمانه ليس لمواجهة صعاب زمانه وحاجة زمانه فحسب. فقد أسس الروح القدس هذا الإنجيل لكي يكون سهماً مبرياً في كف الكنيسة وسلاحاً مشهوراً في وجه الباطل أينا وُجِد في أي زمان ومكان، والتاريخ يقص علينا ذلك:

فقد دخلت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي في حربها الضروس ضد آريوس الكافر الذي أنكر لاهوت المسيح ودوَّخ الكنيسة مع أتباعه، وأتباعه كانوا أساقفة صفًّا وراء صف، لأنها كانت رجعة تنذر بالخطر الوبيل، وقف فيها القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية ورئيس أساقفة مصر يحارب وحده، ولكن كان إنجيل القديس يوحنا هو معتمدهُ، وكان سلاحه الأول والأمضى «تجسد الكلمة»، فهذا المعيار خير مَن يدافع به عن لاهوت المسيح. وكان إنجيل القديس يوحنا بمثابة الحصاة الناعمة في مقلاع داود التي غرسها في جبين جليات فأرداه صريعاً إزاء ما عيَّر به إله إسرائيل، هكذا فعل أثناسيوس وهكذا صرع الآريوسية التي عيَّرت الكنيسة في إلهها، فخرَّت صريعة تحت رجليه وهو رافعٌ إنجيل القديس يوحنا نحو السماء ينطق بقانون الإيمان الذي اعتمدته الكنيسة حتى اليوم.

وبعد القديس أثناسيوس بقرن من الزمان قام نسطور ليزعج الكنيسة من نحو إيمانها وأيضاً من جهة لاهوت المسيح وناسوته ففرَّقهما إلى اثنين كما إلى مسيحين. وهكذا بطعنة مسمومة أراد هدم الإيمان الأرثوذكسي من أساسه. فانبرى له القديس كيرلس الكبير أسقف الإسكندرية أيضاً ورئيس أساقفة مصر، شاهراً نفس السلاح — إنجيل القديس يوحنا — و «بالكلمة صار جسداً» ، وما يؤول إليه هذا المعيار اللاهوتي من الحقائق الزاخرة بالمعاني؛ انطلق القديس كيرلس الكبير في حربه حتى دارت دائرتها على نسطور فانهزم وولَّى، وارتفع قرن كنيسة الإسكندرية فوق العالمين وفي يدها أيضاً إنجيل القديس يوحنا مع الإيمان القويم.

ولكن كان لا يزال يخفي الدهر حربه الأمضى سلاحاً ضد هذا الإنجيل نفسه لأنها كانت حرباً مزيَّنة بالعلم ومسلَّحة بالفلسفة والتاريخ فكانت أخطر الحروب. لأن الحروب السالفة صُوِّبت ضد الكنيسة من خارجها، فكان إنجيل القديس يوحنا دِرْعَها وسلاحها فغلبت به وغَلَب هو لها! أما هذه الحرب فجاءت مصوَّبة ضد صحة هذا الإنجيل ومِصْدافيته وكأنما شاء رئيس هذا العالم أن ينتزع من الكنيسة أعزَّ وأمْضَى سلاحٍ لها، فعلى مدى مئتين من السنين تضافرت قوى العقول الجبارة لمؤرخين وفلاسفة وعلماء لاهوت من ألمع الشخصيات قامت تنقد إنجيل القديس يوحنا: من جهة زمان كتابته قالوا أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، ومن جهة كاتبه أنكروا على القديس يوحنا الرسول كتابته، ومن جهة تقليده الخاص قالوا أنه مأخوذ من رسائل بولس الرسول، ثم قالوا لا بل مأخوذ من الثلاثة الأناجيل الأخرى، ومرَّة وهذا هو الأمرُّ قالوا أنه من مصادر عديدة منها الغنوسية والمانوية التي تعتبر يوحنا المعمدان مسيحها، ومنها مخطوطات وادي القمران اليهودية، ومنها فيلو العلاَّمة اليهودي ومنها الأسفار الخاصة بالحكمة. وأخيراً وما أخطر هذا الأخير قالوا أنه يجانب التاريخ ولا يتبع خط التقليد التاريخي للأناجيل لذلك لا يُعتبر إنجيلاً! غير ما قالوا أن الكنيسة ليست ممثَّلة فيه، وأن الأسرار الكنسية غائبة عنه. ولم يُبْقُوا فيه على شيء صالح!

ولكن الله — في وسط هذه الترهات التي بُليت بها جامعات وكليات اللاهوت في أوروبا وأمريكا — قيَّض لهذا الإنجيل نخبة من أنقى رجال الروح واللاهوت تبوأ أغلبهم رئاسة جامعات وكليات لاهوت أيضاً وكراسي أسقفيات، حيَّا الله أساقفة كراسي أكسفورد ودورهام ومانسفلد بانجلترا لأنه من بين الذين جلسوا على هذه الكراسي بالذات انبرى ثلاثة منهم على التتابع هم علماء لاهوت عظام مشهودٌ لهم بالتقوى والإقتدار تصدوا لهذه التيارات فصدُّوا وفنَّدوا وردُّوا حتى كسروا حِدة هذا الهجوم النقدي المرير وذلك مع غيرهم من عشرات العلماء الأوفياء في ألمانيا وفرنسا، وانجلترا على وجه الخصوص، وقد أتينا على ذكر كثير منهم في كتابنا هذا. وبدفاعهم الحرِّ أخرجوا إنجيل القديس يوحنا بعد مائتي سنة سليماً مبرَّءاً على قدر ما أعطاهم الروح وعلى قدر ما سمحت به

تِقْنيَّة العلم الشحيحة في تمشِّيها مع الروح.

وهنا يمكننا بشيء من الإطمئنان أن ننهي هذه المقدمة، لهذا الكتاب الذي سميناه «**المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا**». وقصدنا من إصداره أن يكون تمهيداً لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا، لأنه يصعب إلى حد كبير البدء في شرح هذا الإنجيل قبل أن يكون القارىء قد أصبح على وعي عام بالمبادىء والإصطلاحات والرموز والخطوط العامة التي يسير عليها هذا الإنجيل.

وأملنا أن يقرأ القارىء ويتأنَّى ولا يعبر على التوضيحات التي فيه سريعاً بل يحتفظ بها في ذاكرته. فهذا هو قصد الكتابة الأساسي من هذا المدخل حتى يتجلى الشرح فيما بعد أمامه، وتُستعلن له كنوزه ومكنوناته.

مقدِّماً الشكر لله الذي قوَّاني حتى أنتهي من هذا الكتاب،
بالرغم من ضعفي وهزال إمكانياتى،
داعياً للقارىء بالنعمة الإلهية الفائضة من هذا الإنجيل؛؛؛

الأب متى المسكين

الباب الأول

إنجيل القديس يوحنا

كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول
القديس يوحنا الرسول

١ ــ شخصيته:

هو كاتب الإنجيل الرابع بحسب التقليد الكنسي، الأمر الذي سنعود إليه بالتفصيل.

وهو ــ غالباً ــ الإبن الأصغر لأبيه «زَبْدي» وأمه «سالومة» التي استقرأنا اسمها من مطابقة الآيتين: «وكانت أيضاً نساءٌ ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة» (مر١٥: ٤٠)؛ «وكانت هناك نساءٌ كثيرات ينظرن من بعيد وهن كُنَّ قد تَبِعْنَ يسوع من الجليل يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي **وأم ابني زبدي**» (مت٢٧: ٥٥و٥٦). وواضح أنها كانت تتبع المسيح أيضاً كتلميذة وتخدمه من أموالها الخاصة، وظلت تتبعه حتى الصليب والقبر، فكانت من اللواتي حملن الطيب يوم الأحد لتحنيط الجسد: «وتبعته نساءٌ كُنَّ **قد أتين معه من الجليل** ونظرْنَ القبر وكيف وُضع جسدُه، فرجعن وأعدَدْن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرحْن حسب الوصية» (لو٢٣: ٥٥و٥٦)؛ «وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أُم يعقوب **وسالومة** حنوطاً ليأتين ويَدْهنَّه.» (مر١٦: ١)

والإنجيل يركِّز بشدة على تقوى هذه السيدة العظيمة سالومة (سالي، كما يختصرها الفرنجة)، فيوحي إلينا بأنها كانت مشبَّعة برؤى المجد الآتي ومتيقِّنة من شخصية المسيا الذي كانت تخدمه. فهي التي يقدمها لنا إنجيل القديس متى: «حينئذ تقدمت إليه أُم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قُل أن يجلس ابناي هذان واحدٌ عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك» (مت٢٠: ٢٠و٢١). وهذا يعطينا انطباعاً عن خلفية الأسرة التي نشأ فيها القديس يوحنا الذي كان يصغر الرب بعشر سنين، ولكن لشدة غيرته ومحبته للمسيح صار أقرب إلى قلب المسيح لأنه كان أيضاً أصغر التلاميذ سناً. وفي التقليد اليهودي، فإن الأصغر في الأولاد يجلس دائماً على شمال أبيه تعبيراً عن الأقرب للقلب، وهذا سنراه في طقس العشاء الأخير.

أما «زبدي» أبوه فكان صاحب مركب للصيد في بحيرة جنيسارت (طبرية) ويقتني صيادين أُجراء مما يدلُّ على تيسُّر حاله (مر ١: ٢٠). وكانت العائلة من بيت صيدا تحترف الصيد: «ثم اجتاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه وهما في السفينة يصلحان الشباك» (مر ١: ١٩). ودعوة يوحنا جاءت مع دعوة أخيه يعقوب لأن بقية الآية السابقة تقول: «فدعاهما للوقت فتركا أباهما زبدي في السفينة مع الأجْرَى وذهبا وراءه» (مر ١: ٢٠). ولكن يعقوب المدعو بـ«الكبير» استشهد كأول شهيد من الرسل سنة ٤٤م.(١). والمعروف في التقليد أن سالومة هي أخت مريم أم الرب، فيوحنا يُعتبر بالتبعية ابن خالة الرب. ومن هنا بدأت التلمذة على كل مستوياتها التي أهّلته أن يسجل حتى نبضات قلب الرب.

٢ — ألقابه:

لقد لقّبته الكنيسة بـ«اللاهوتي» و«يوحنا البتول» و«يوحنا الحبيب» و«التلميذ الذي يحبه يسوع» و«ابن الرعد» و«النسر الطائر في الأعالي» و«رسول المحبة» و«رائي العهد الجديد المبشِّر بالسماء الجديدة والأرض الجديدة، الذي قاس أورشليم الجديدة طولاً وعرضاً ونظر العرش السماوي وعاين الحياة الأبدية وعاشها».

ويوحنا في التقليد(٢) يُرسم دائماً بوجه هادىء وديع كوجه امرأة ويجعلون تحت قدميه نسراً حادّ البصر شديد المراس كمحاولة للتعبير عن شخصية يوحنا الوديعة المتحفِّظة والذي هو في نفس الوقت جسور ملتهبٌ غيرةً. وهكذا يراه القديس أغسطينوس في عظته السادسة لشرح إنجيل يوحنا: [ليس جديداً على آذانكم، يا أحبّة، أن يوحنا الإنجيلي يشبه النسر الذي يحلّق في العلالي مرتفعاً فوق أجواء الأرض المعتمة ليثبّت نظره بعينين تخترقان نور الحق.]

وتحفُّظه الشديد هو الذي دعاه ليُسْقِط اسمه عمداً من إنجيله ليتوارى عن أعين الناس، بل وأسقط اسم أمه سالومة واسم أخيه يعقوب واسم القديسة العذراء مريم، وفي نفس الوفت هو نفسه الذي طار وحلّق في الأعالي واخترق لا السموات فحسب بل والزمان أيضاً وعاين أسرار الله في الأزل وكشف طبيعة «**الكلمة**»: «في البدء كان الكلمة.» (يو١: ١)

ويوحنا متحفِّظ، محترق بالمحبة الإلهية متحد بالرب ذهناً وقلباً.

وليس من بين البشر جميعاً من استطاع مثل يوحنا أن يخترق أعماق طبيعة الله فيرى جوهره،

---

(١) أع ١٢: ٢.

[2] Jerome, Comm. ad. Matt., PG VIII, 10.

المحبة، «الله محبة» (١يو٤: ٨)، و يرى لاهوت المسيح قبل مولده بالجسد: «وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، بل و يستعلن «الحياة الأبدية» و يلمسها: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولَمَسته أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرتْ لنا.» (١يو١: ١و٢)

عاصر المناداة بالملكوت على يد المعمدان منذ أول لحظة وتفتحت أذناه على البشارة الأولى لعهد النعمة المجانية: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). لم ينْسَ يوحنا قط هذه اللحظات الأولى من حياته وهو ينتقل من تحت يد المعمدان إلى تحت رِجْليّ المسيح وهو ابن عشرين سنة، فظل محتفظاً بها في قلبه يرددها على مدى الليالي والسنين حتى سجلها وهو ابن مئة سنة(٣).

٣ — صفاته كما تظهر في الإنجيل:

يوحنا كباقي التلاميذ كلهم من الجليل، وإن كانت اليهودية هي الموطن الأصلي للعائلة — بيت لحم اليهودية. أما يهوذا الإسخريوطي فكان من اليهودية. ولو أن الجليليين كانوا في عُرْف المتحذلقين من الفريسيين جهلة (أع٤: ١٣)، أي لا يجيدون حفظ تقاليد الربيين، إلا أنهم كانوا معروفين بغيرتهم الملتهبة ذوو بأس وأبطال لهم نفس مسحة أجدادهم الأوائل وروحهم المكافحة الوثّابة. ونحن لا ننسى كيف اتحدت كلمتهم مرَّة أن يمسكوا المسيح بالقوة ويجعلوه ملكاً، لولا أنه خرج من وسطهم واختفى عنهم (يو٦: ١٤و١٥).

كان يوحنا واحداً من هؤلاء، إلا أن الإنجيل يذكر أن يوحنا كانت له صلة برؤساء الكهنة «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ **معروفاً عند رئيس الكهنة**» (يو١٨: ١٥)، (التقليد في الكنيسة يشير إلى أنه كان كاهناً(٤))، مما يكشف عن المستوى الخاص الذي يلمِّح به يوحنا عن نفسه من جهة درايته بالشئون الدينية العليا وسياسات رؤساء الكهنة وعن درايته التعليمية الخاصة. ومهنة الصيد لا تمنع أن يكون يوحنا كاهناً — كما يظن بعض المؤرخين — وأن يدرس تحت رعاية أمه سالومة التقية على أيدي معلمي اليهود. و يقيناً أنه تعلم كثيراً أثناء تلمذته للمعمدان عن كل ما يختص برجاء إسرائيل وملكوت الله الآتي سريعاً.

ولم يكن يوحنا فقط من الإثني عشر بل وكان أيضاً المحبوب من بين الثلاثة المختارين بطرس

---

(٣) القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد أنه كتب إنجيله وهو ابن مائة سنة وعاش بعدها عشرين سنة أيضاً:

Exell, Rev. J.S., The Biblical Illustrator, Saint John, London 1905, vol. 1, p. vii.

4 Euseb., Hist. Eccl., III, 31; V, 24.

ويعقوب ويوحنا. وإنه وإن ذُكر على مدى الأحداث كآخر الثلاثة، إلا أنه في النهاية وعند الصليب انكشف سِرُّ العلاقة العظمى التي كانت تربطه بالرب، ومستوى الثقة التي لا تُحدُّ عندما تسلَّم من فم المسيح أغلى وديعة تركها المسيح على الأرض: «فلما رأى يسوعُ أُمَّه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة **هوذا ابنُكِ**. ثم قال للتلميذ **هوذا أُمُّكَ**. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.» (يو١٩: ٢٦و٢٧)

وهنا يقول المؤرخ «فيليب شاف»(٥) أنه يبدو أن القديس يوحنا كان يمتلك بيتاً خاصاً في أورشليم وهو الذي أخذ إليه القديسة مريم حالما سلَّمها له المسيح على الصليب، لذلك أيضاً لم يحضر القديس يوحنا ولا العذراء مريم مراسم دفن المسيح. وهنا يتحفنا العلاَّمة أوريجانس(٦) في تأملاته بخصوص قول المسيح «هوذا ابنكِ» فيقول **إن العذراء ليس لها إلا ابن واحد هو المسيح**(٧)؛ فبقول المسيح للعذراء «هوذا ابنُكِ» فكأنه يقول لها عن يوحنا، هذا هو المسيح!!. ثم يعود أوريجانس ويقول: «أليس كلُّ من يحيا بتقوى المسيح يمكنه أن يقول أيضاً لستُ أحيا أنا بل المسيح يحيا فيَّ؟» وهكذا يريد أوريجانس أن يرفع من مرتبة القديس يوحنا كاتب إنجيل المسيح، وكأنه يقول أنه مع شركة سِرّ الأم وبروح المسيح كتب يوحنا إنجيل المسيح، وهكذا كلُّ [من أراد أن يشرح هذا الإنجيل أو يفهمه فعليه أن يتكيء على صدر يسوع وأن يأخذ العذراء شفيعة].

ويوحنا هو التلميذ الذي اتكأ على صدر يسوع وعرف سِرَّ الخائن. فعندما خرج يهوذا في الظلام بعيداً عن قلب المسيح كان يوحنا في النور أقرب ما يكون من القلب المجروح يُطيِّب بالأمانة جُرْح الخيانة.

يوحنا عاين مع التلميذين الآخرين يوم التجلي وسمع الصوت من المجد الأسنى يشهد للإبن الحبيب. ولكن العجيب أن يوحنا لم يسجل في إنجيله حادثة التجلي متشبثاً بأنه كان يعيش التجلي كل يوم مع المسيح: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١: ١٤). ويوحنا أيضاً أحد الثلاثة الذين رافقوا الرب مع باقي التلاميذ في جثسيماني وكانوا على قُرْب. ولكن لم يسمع أحدٌ الصلاة التي صلاَّها وسجلها كلمة كلمة إلا يوحنا!!

ولكن يوحنا كان الوحيد الذي حضر كل محاكمات الرب عن قرب؛ ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه أن القديس يوحنا **رافق الرب بشجاعة** نادرة وجرأة وإقدام، فكان وهو في وسط المحاكمات

---

5 NPNF, 2nd series, vol. XIV, p. 4, note 9.

6 Origen, Comm. on John, ANF, vol. X, p. 300.

(٧) شهادة متقدمة من تقليد الكنيسة على أن المسيح لم يكن له أخوة من أمه.

والإتهامات في أمان كل الأمان ونجا. أما بطرس فرافق من بعيد والخوف والرعبة جعلاه يستبقي نفسه مع العبيد والخدم، وخوفه وبُعْده عن الرب أوقعاه في الإنكار والتجديف. وسار القديس يوحنا في موكب الصليب والعذراء تتوسد كتفه حتى الجلجثة، فاستحق أن يفوز بهذه الجوهرة في بيته. وتمّ رجاء سالومة أمه، فقد وقف عن يمين عرش الصليب في مُلْكِه الغالب! ولكن كم بكى وكم سالت الدموع! وظل يوحنا رابط الجأش يتأمل مليًّا في معلّمه المصلوب ولكن دون أن تلمحه الأم الحزينة التي وقف يشاركها وقفتها المصلوبة وقد جاز في قلبها السيف تماماً كنبوة سمعان الشيخ (لو٢: ٣٥).

يوحنا كان أول من نظر القبر فارغاً والأكفان وحدها موضوعة، فآمن أنه قام. يوحنا أول من تعرَّف على الرب عندما ظهر بعد القيامة لتلاميذه على بحيرة طبرية (يو٢١: ٧). وهذا ليس بحذق العين الفاحصة بل بالروح الكاشفة.

٤ — «بوانرجس»:

عجيب هذا الإسم الذي أعطاه الرب ليوحنا وأخيه يعقوب: «ابني **الرعد**» (مر٣: ١٧). فالمعروف عن «**الرعد**» أنه التعبير اليهودي عن صوت الله «إله المجد أرعد» (مز٢٩: ٣)، وكأن التسمية تحمل سر التعبير عن صوت أو كلمة الله. والمعروف أن المسيح شبَّه نفسه أيضاً بالبرق «...كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه» (لو١٧: ٢٤). ولا يمكن أن تبرق السماء دون أن ترعد. وهكذا تأتي التسمية بإحكام أن يوحنا ابن الرعد سيشهد للنور والكلمة.

وعجيب أن يشهد يعقوب للمسيح مبكِّراً، فكان بداية الرعد، إذ كان أول من استشهد من الرسل تحت سيف هيرودس «وفي ذلك الوقت مدَّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (أع١٢: ١و٢). فطارت روحه ترعد بالشهادة في أنحاء السموات كلها. أما يوحنا فكان آخر دمدمة للعهد الرسولي أرعدت بالشهادة للنور ولا يزال صداها تتجاوب به السموات والأرض بإنجيله الحي حتى يجيء يوم البرق الموعود: «قال له (أي لبطرس الرسول) يسوع: إن كنتُ أشاء أنه (أي يوحنا) يبقى حتى أجيء فماذا لك؟...» (يو٢١: ٢٢). وإن وعد الرب ببقاء يوحنا حتى يجيء أليس يعني استمرار صوت إنجيل يوحنا الذي ما يكفُّ عن أن يرعد معلناً عن النور الحقيقي في العالم كله حتى اليوم وإلى النهاية؟

٥ — رسول المحبة:

هذا اللقب هو صدىً لروح بشارته الملتهبة بالمحبة سواء في إنجيله أو رسائله. اسمعه يقرر: «كلُّ

من يحب فقد **وُلد** من الله **ويعرف** الله. ومن لا **يحب** لم **يعرف** الله، لأن **الله محبة**» (١يو٤: ٧و٨). هكذا عاش يوحنا الرسول بهذا المفهوم اللاهوتي للمحبة معتبراً أن محبة المسيح هي الحياة الأبدية كمعادلة عملية لا تقبل النقاش: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة»، «من لا يحبُّ أخاه يبقَ في الموت»، بل إن «كلّ من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١يو٣: ١٤و١٥). هكذا المحبة عند القديس يوحنا الرسول تعادل الحياة الأبدية بل وتعادل «النور»: «مَنْ قال إنه في النور وهو يبغض أخاه فهو إلى الآن في الظلمة. من يحب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة.» (١يو٢: ٩و١٠)

والمحبة عند القديس يوحنا الرسول ليست مسألة فكر أو عاطفة: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق. وبهذا نعرف أننا من الحق ونسكّن قلوبنا قدّامه.» (١يو٣: ١٨و١٩)

أما مصدر المحبة العامل والمتأجج في القلب فمصدره الوحيد محبة الله التي استُعلنت بمجيء المسيح: «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٤: ٩). وكان عمل محبة الله في حياتنا متركّزاً ومتأسّساً في رفع قوة الخطية المميتة عن طبيعتنا: «في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله (أولاً) بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفّارة لخطايانا» (١يو٤: ١٠). لهذا أصبحت المحبة تعني رباط الحياة، أو شركة في عدم الموت! «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤: ١٩)

أما أيٌّ من الإثنين أولاً، هل نحب الله أم نحب الإخوة؟ فيرد يوحنا على ذلك هكذا: «ولنا هذه الوصية منه أنَّ مَنْ يحبُّ الله يحب أخاه أيضاً» (١يو٤: ٢١)، ولكن هو نفسه يقول: «من لا يحبُّ أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصرْه» (١يو٤: ٢٠). بمعنى أن النجاح في محبة الإخوة دليل على النجاح في محبة الله. هكذا يضع القديس يوحنا الطريق العملي للمحبة ويكشف سرَّها العجيب أنها دائماً أبداً تبدأ من الله وإلى الله لتفيض على الآخرين.

وإن هذين اللقبين «ابن الرعد» و«رسول المحبة» يظهران بصورة واضحة في حياة القديس يوحنا الرسول، فمرّة نجده في غيرته وحماسته للرب يسأل — بصفته ابن الرعد — أن ناراً تنزل من السماء لتفني أهل السامرة حينما رفضوا أن يعبر الرب في أرضهم وهو متجه إلى أورشليم (لو٩: ٥٣و٥٤). ثم هو نفسه وبغيرته نفسها — بصفته ابن المحبة ورسولها — يذهب بعد ذلك مغلوباً من محبته إلى أهل السامرة أنفسهم ليكرز لهم ويهبهم الشفاء والعماد وإعطاء موهبة الروح القدس «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما

نزلا صلَّيا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذٍ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع٨: ١٤—١٧)

كما يظهر تبادل انطباع هذين اللقبين في كل مواقف كتاباته، فإن أشدَّ وأعنف مواقف المسيح مع أعذب وأرقِّ مجاملاته وتعاليمه يجمعهما معاً في سهولة ويُسْرٍ. فخبر عرس قانا الجليل بلطفه وبركاته المشبَّعة بروح المجاملة والإيناس استطاع أن يجمعه القديس يوحنا في أصحاح واحد مع خبر تطهير الهيكل تلك العملية العنيفة التي استلزمت استخدام السياط وقلب موائد الصيارفة وتوبيخه الصارم لحفظة الهيكل ورؤسائه.

وحتى سفر الرؤيا المملوء بالرعود والبروق والويلات لا يعدم مواقف للسلام ونشيد الراحة مع صورة مشرقة للسماء الجديدة والأرض الجديدة ونهر الحياة البللوري وأورشليم العروس المزيَّنة لعريسها وانتهاء عهد الحزن والكآبة والتنهد.

٦ — القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر أعمال الرسل:

أصبح القديس يوحنا معتبراً في الكنيسة الأولى أحد الأعمدة الثلاثة: بطرس ويعقوب ويوحنا. أما عمله في هذه الفترة الأولى من حياة الكنيسة فيكاد يكون بلا مظهر برَّاق مع أنه كان من أهم وأخطر الأعمال التي قام بها الرسل المسئولون بالنسبة للكنيسة الخالدة على ممر الدهور وهو التوفيق بين كنيسة الختان (اليهود) وكنيسة الغُرْلة (الأمم) ووضع الأساس اللازم للداخلين إلى الإيمان من الأمم. ويذكر ذلك القديس بولس الرسول: «فإذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا ويوحنا المعتَبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (غل٢: ٩). وهذه إشارة إلى تبادل أسس الإيمان بين القديسين يوحنا وبولس وبطرس.

ويقدِّم سفر الأعمال يوحنا الرسول باعتباره الشخصية الثانية بعد بطرس الرسول في قوة البشارة وإتيان الأشفية والعجائب وقيادة كنيسة المسيحية الأولى. وهكذا أيضاً اعتبره سنهدريم اليهود حينما قبضوا على القديسَيْن بطرس ويوحنا للمحاكمة، ولكنهما أفحماهم بإجابات قاطعة فأطلقوهما. «فدعوهما وأوصوهما أن لا ينطقا البتَّة ولا يُعلِّما باسم يسوع. فأجابهم بطرس ويوحنا وقالا إنْ كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا. لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا. وبعد ما هدَّدوهما أيضاً أطلقوهما إذ لم يجدوا البتة كيف يعاقبونهما بسبب الشعب. لأن الجميع كانوا يمجِّدون الله على ما جرى. لأن الإنسان الذي صارت فيه آية الشفاء هذه كان له أكثر من أربعين سنة.» (أع٤: ١٨—٢٢)

وقد تصدر القديس يوحنا مع القديس بطرس أول إرسالية للكنيسة خارج أورشليم: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا» (أع٨: ١٤). وعاد القديس بطرس مع القديس يوحنا إلى أورشليم مركز كرازتهما: «ثم إنهما بعد ما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبشّرا قرىً كثيرة للسامريين» (أع٨: ٢٥). ولكن عند هذه الإشارة يتوقف سفر أعمال الرسل عن متابعة رسالة القديس يوحنا. إذ يبدو أنه غادر أورشليم حوالي سنة ٤٩م.(٨) أي بعد مجمع الرسل الأخير الذي حضره جميع الرسل والمشايخ وكل الكنيسة (أع١٥: ٢٢و٣٢؛ غل٢: ٩). إذ لا نسمع عنه عند زيارة القديس بولس الرسول إلى أورشليم في المرة الخامسة والأخيرة التي حدثت سنة ٥٨م.، وربما يكون ذلك بسبب نياحة القديسة العذراء مريم، لأنه معروف في التقليد أنها تنيحت حوالي سنة ٤٨م.، بينما غادر هو أورشليم بعد نياحتها مباشرة(٩)، وربما يكون قد ذهب إلى أنطاكية ومكث هناك مدة قبل استدعائه إلى أفسس(١٠).

٧ — القديس يوحنا الرسول في أفسس:

سفر الرؤيا يقدم لنا تأكيداً قاطعاً أن القديس يوحنا الرسول كان على رأس كنيسة أفسس، وكان مسئولاً أمام الله عن جميع كنائس آسيا السبع في ذلك الوقت: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا»، «وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق»، «الذي تراه أكتُبْ في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس التي في آسيا، إلى أفسس وإلى سميرنا وإلى برغامُس وإلى ثياتيرا وإلى ساردِسْ وإلى فيلادلفيا وإلى لاوُدكية.» (رؤ١: ٤و١٠و١١ وراجع رؤ٢و٣).

وقد شهد جميع الآباء القديسين الأوائل بهذه الحقيقة، وبأن القديس يوحنا قضى أيام حياته الأخيرة في أفسس؛ أمثال القديس إيرينيئوس(١١) وهو تلميذ القديس پوليكاربوس الأسقف الشهيد والذي كان تلميذاً للقديس يوحنا الرسول سنين طويلة؛ والعلاّمة اكليمندس الإسكندري يؤكد أن القديس يوحنا الرسول رُسم أسقفاً على كل نواحي آسيا(١٢)، والعلاّمة أوريجانوس والعلاّمة ترتليانوس والمؤرخ يوسابيوس والقديس چيروم، هؤلاء كلهم شهدوا شهادة قاطعة أن القديس يوحنا الرسول عاش في أفسس حتى زمن حكم تراچان (٩٨—١١٧م). فإذا علمنا أن القديس يوحنا يصغر الرب بعشر سنوات فإن سني حياة يوحنا الرسول تكون حوالي ٩٠ سنة. ولكن القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد — من جهة أخرى — أنه عاش ١٢٠ سنة.

---

8 Daniélou, Jean, Christian Centuries, translated from French "Nouvelle Histoire de l'Eglise", New York, 1964, p. 41.

9 Ph. Schaff, History of the Christian Church, I, p. 424.

10 Temple, William, Readings in St. John's Gospel, London 1952.

11 Adv. Haer. III, 1,1; 3,4; II, 22,5; Epiph. Haer. XXX, 24.

12 Daniélou, Jean, op. cit., I, p. 41.

ولكن لم يتعرف المؤرخون المدققون على السنة التي دُعي فيها القديس يوحنا إلى أفسس ولكنهم استقروا جميعاً على أنها ليست قبل سنة ٦٣م. لأنه حتى هذا التاريخ كان القديس بولس الرسول لا يزال حيًّا وعلى صلة بأفسس، ولم يَذكُر في أيٍّ من رسائله ما يدلُّ على أن القديس يوحنا قد وصل إلى هناك.

ويُظَن أن استشهاد القديسين بطرس وبولس هو الذي دفع القديس يوحنا لتبني كنائس آسيا المترمِّلة، بحسب ترتيب الله ودعوته لإنقاذ هذا البناء الروحي الضخم الذي شيَّده القديس بولس الرسول بالجهد والدموع والآلام التي لا حصر لها قرابة ٣٠ سنة، والذي كان هدفاً لهجمات شريرة مفسدة من اليهود الدخلاء والوثنيين المتربِّصين للإنتقام لآلهتهم المدحورة.

وأفسس كانت في ذلك الوقت عاصمة آسيا الصغرى ومركزاً للثقافة اليونانية وللتجارة والدين أيضاً، فكان بها أكبر جالية يهودية مستوطنة منذ أن تفرقوا بعد السبي من بلاد ما بين النهرين. وقد وصف القديس يوحنا مجمعهم بمجمع الشيطان (رؤ٢: ٩). كما كان بها هيكل أرطاميس المشهور مركز عبادة «**ديانا**». وكانت أفسس ذائعة الصيت بسبب اشتغال شعرائها بأغاني هوميروس وفلسفة طاليس وأناكسيمينوس وأناكسيماندر.

وقد ظل القديس بولس يخدم فيها ثلاث سنوات متتالية من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٧م. حتى أسس فيها كنيسة مركزية ظلت مصدراً للإشعاع في كل ظلمات آسيا الوثنية قروناً عديدة وهي التي كانت تباشر رعاية الكنائس الفرعية في البلاد الأخرى المتاخمة.

وفي ذلك يقول الوثنيون أنفسهم كما سجل عليهم ذلك سفر الأعمال: «...إنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاغ بولس هذا جمعاً كثيراً قائلاً: إن التي تُصنع بالأيادي ليست آلهة، فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصُلَ في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يُحسب لا شيء وأنْ سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع١٩: ٢٦–٢٧)

وهكذا مهَّد القديس بولس الرسول آسيا الصغرى كلها لتكون إيبارشية صالحة تقبل خدمة القديس يوحنا الهادئة العميقة، وذلك بأن مهَّد الفكر الفلسفي لتقبُّل حقائق لاهوت المسيح — كما جاء في إنجيل يوحنا — مع المبادىء الروحية العميقة التي كان يستحيل أن تجد في ربوع فلسطين التربة التي تخصب فيها وتنمو. لذلك أصبحت أفسس بالنسبة لخدمة القديس يوحنا أعظم مركز يمكن أن يُطلّ منه على كل العالم المسيحي لا من جهة جغرافيتها المكانية الملائمة فقط بل وأيضاً من

جهة تزعُمها لكل التيارات العنيفة المعادية للمسيحية سواء كانت يهودية أو وثنية بآن واحد، إذ كانت أفسس أمّ البدع التي لا حصر لها ومهبط كل التعاليم الفاسدة.

لذلك كان تقلُّد القديس يوحنا لهذه الأسقفية عملاً إلهياً محكماً. وهذا يبدو بصورة أوضح لو علمنا أن هذا قد تم قبيل خراب أورشليم وسقوطها بسنوات قليلة. وهكذا انتقلت القيادة الرسولية انتقالاً هادئاً طبيعياً من أورشليم — موطن اليهودية الذي كان يضغط بشدة على المسيحية المتفتحة حديثاً — إلى أفسس حيث البيئة المتفتحة الخصبة المهيَّأة لنمو حقائق الروح المسيحية العميقة. وظلت أفسس تنبض بالروح الرسولية الحرَّة بأنفاس يوحنا إنما بتحفُّظ شديد حتى نهاية القرن الأول أو أكثر قليلاً. ومن بعد القديس يوحنا استلم هذه الروح تلميذه القديس پوليكارپوس الذي كان أسقفاً على سميرنا (١١٠—١٥٥م.)، ثم القديس إيرينيئوس الذي استمد دفاعه عن الإيمان من روح يوحنا وإنجيله قبل أن ينتقل إلى أسقفية ليون بفرنسا.

وإنجيل يوحنا ورسائله يعتبران المصدر الوحيد للتعرف على حالة المسيحية والكنيسة على مدى أربعين سنة تقريباً أي منذ استشهاد القديس بولس الرسول حتى ختام القرن الأول(١٣)، والتي لولاها لظلت هذه الحقبة مظلمة في صفحات التاريخ الكنسي.

٨ — ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول في كنيسة أفسس:

إن الكنائس التي أنشأها القديس بولس الرسول في أفسس لم تحتفظ من جميع الإحتفالات الكنسية الطقسية إلا بطقس خدمة السواعي، وطقس شركة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا والصلاة كل يوم أحد من كل أسبوع(١٤)، والعماد طبعاً. ثم يسجِّل لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن القديس بوليكراتس أسقف أفسس في نهاية القرن الثاني أنه بمجيء القديس يوحنا الرسول تثبَّت الإحتفال السنوي بطقس عيد الفصح، أي القيامة، إنما بالمعنى المسيحي الكامل. وقد حدد له الرسول اليوم الرابع عشر من نيسان كما هو تماماً في الطقس اليهودي(١٥) — وذلك بخلاف جميع كنائس العالم آنئذ وبعدئذ التي رفضت أن يكون عيدها الفصحي مع اليهود(١٦) — ولكن ليس بالمعنى ولا بالممارسة اليهودية، فالقديس يوحنا الرسول لم يكن يرى في طقوس اليهود وأعيادهم أي

---

13 Iren., Adv. Haer. II.22.5.

14 Neander, Aug., General History of the Christian Religion and Church, Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh 1874, p. 388.

15 Hist. Eccl., III.31; V.24.

(١٦) وقد صارت أسقفيات الكنائس في العالم تعيِّد للفصح في الأحد الأول بعد ١٤ نيسان.

معنى مسيحي. ولكن كان العامل الأول لتحديد هذا اليوم بالذات هو الذكرى المقدسة لليوم الذي تألم فيه الرب وذُبح وصار فصحاً أبدياً. فهذا وحده هو الذي كان يملأ كل قلبه وإحساسه.

كذلك يقول القديس بوليكراتُس إن القديس يوحنا الرسول عيَّد للعنصرة الذي هو عيد الخمسين على أن يكون في اليوم الخمسين تذكارٌ أبديٌ لحلول الروح القدس على الكنيسة([17]). علماً بأن إنجيل يوحنا هو الإنجيل الذي اهتم اهتماماً بالغاً بموضوع إرسال الروح القدس وإعطائه اسمه **«الباراكليت»** وصفاته وأعماله أي وظائفه في الكنيسة. وقد أسهب الإنجيل في موضوع شهادته للمسيح وتمجيده بصورة كبيرة. وطبعاً كان القديس يوحنا يكتب بعد حلول الروح القدس وعمله واستعلان قوته على مدى أكثر من خمسين سنة، فجاء الوصف مطابقاً للواقع وخصوصاً لدى القديس يوحنا الذي كان ممتلئاً وفائضاً من نعمته.

كما يصف المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن بوليكراتُس أسقف أفسس([18]) أن القديس يوحنا الرسول كان كاهناً (إبريزفيتروس πρεσβύτερος)، وكان يحتفظ بملابس للخدمة الكنسية وكان يلبس الصدرة المقدسة على طقس نظام خدمة رؤساء الكهنة في العهد القديم([19]). وهذا يرجحه ما جاء في سفر الرؤيا أصحاح ٢: ١٧.

ومن عدة ملابسات يمكننا أن نتأكد من صحة تقرير القديس بوليكراتُس من جهة كهنوت القديس يوحنا. فنحن نعرف أن أمه اسمها سالومة([20]) وهي أخت القديسة مريم العذراء([21])، كما نعلم أن العذراء القديسة مريم هي نسيبة أليصابات (لو١: ٣٦)، وأن زوج أليصابات هو الكاهن زكريا (لو١: ٥)، أي أن هناك صلات قوية للقديس يوحنا بالكهنوت والهيكل. ومن هنا جاءت معرفة القديس يوحنا برؤساء الكهنة وحضوره في دار رئيس الكهنة محاكمة المسيح دون التلاميذ جميعاً (يو١٨: ١٥)، كما يتضح لنا سبب وصية المسيح على الصليب للقديس يوحنا أن يعتني بالعذراء أمه كأُم له (يو١٩: ٢٥—٢٧) فهي خالته.

كذلك نفهم سِرَّ تركيز القديس يوحنا على خدمة المسيح في اليهودية وأورشليم دون بقية الأناجيل لأن العائلة كلها سواء العذراء أو يوحنا هما من اليهودية — بيت لحم([22]).

---

17 Neander, op. cit., p. 391.

18 Eccl. Hist., III,31; V,24.

19 Ibid., V, 24,3.

(٢٠) أنظر صفحة ٢٨.

(٢١) أنظر صفحة ٢٨.

22 Raymond E. Brown, The Gospel acc. to John, p. xcviii.

كما نفهم سِرَّ انفراد القديس يوحنا بذكر المعجزات التي تمت في اليهودية وأورشليم، إذ أنه كان مرافقاً دائماً للمسيح هناك.

كما نفهم سِرَّ التقليد القديم في إنجيل يوحنا، أي الأقدم من المسجَّل في الثلاثة الأناجيل، لأن القديس يوحنا التحق بتلمذة المسيح مبكراً جداً أثناء وجود المسيح في اليهودية مع يوحنا المعمدان، ولأن القديس يوحنا انتقل من التلمذة ليوحنا المعمدان إلى التلمذة للمسيح (يو١: ٣٥—٣٩)، حيث كان المسيح يسكن في اليهودية: «فأتيا ونظرا أين كان يمكث.» (يو١: ٣٩)

كما نفهم أيضاً سِرَّ تركيز القديس يوحنا على ذكر شهادة المعمدان بدقة وإسهاب دون الثلاثة الأناجيل لأن القديس يوحنا كان تلميذاً للمعمدان ورأى وسمع كلَّ ما قاله المعمدان عن المسيح.

كما نفهم سِرَّ المركز العالي الذي كان يحتله القديس يوحنا مع أخيه القديس يعقوب بصفتها من عائلة كهنوتية ومع القديس بطرس الرسول في الكنيسة الأولى في أورشليم، دون بقية الرسل، كأعمدة للكنيسة؛ إذ يقول القديس بولس الرسول عندما ذهب إلى أورشليم ليعرض خدمته على الكهنة وليأخذ منهم سلطان الخدمة هكذا: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً... وعرضتُ عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالإنفراد على المعتَبَرين... (فهؤلاء) المعتَبَرون... يعقوب وصفا ويوحنا المعتَبَرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة...» (غل٢: ١—١٠)

كما نفهم سِرَّ تسجيل القديس يوحنا لتقرير مجمع السنهدريم ونبوة رئيس الكهنة قيافا كلمة كلمة (يو١١: ٤٧—٥٠) باعتباره واحداً من عائلة زمرة الكهنوت.

ويعود القديس إبيفانيوس أسقف قبرص ويردد لنا حقيقة استخدام القديس يوحنا للملابس الكهنوتية نقلاً عن القديس هيجسبوس. و يتفق المؤرخون الكنسيُّون دين ستانلي(٢٣) ولايتفوت(٢٤) وفيليب شاف(٢٥) أن هذه الإشارة تُعتبر أقدم وثيقة عن قدسية الملابس الكهنوتية المستخدمة في الكنيسة الآن.

٩ — رعاية القديس يوحنا لأسقفيته:

ينقل لنا العلاّمة اكليمندس الإسكندري (نهاية القرن الثاني)(٢٦) صورة مبدعة للقديس يوحنا

[23] Stanely, A.P., Sermons and Essays on the Apostolical Age, 1847, p. 285.

[24] Lightfoot, J.B., The Epistle of St. Paul to the Galatians, Zondervan, 1962, p. 362.

[25] Schaff, Philip, op. cit., p. 431.

[26] Clement of Alex., What Rich Man, 42; Cited by: Eusebius, Hist. Eccl. III, 23.

الرسول كأسقف حارٍّ بالروح وخادم خلاص أمين على نفوس رعيته، فيقص لنا كيف أنه حتى بعد أن صار متقدماً في السن كان يطوف بالكنائس يزور رعيته و يفتقدهم ويسأل عن التائبين الذين تابوا على يديه. ويقصُّ ضمناً قصة الشاب الذي ضلَّ بعد توبته، وكان قد سلَّمه لكاهن المدينة لرعايته، فصار لصّاً خطراً. فلما علم بذلك لم يرحم شيخوخته بل ذهب يبحث عنه في الجبال حتى وجده. فلما حاول الهرب منه جرى وراءه حتى لحق به وأعاده إلى حظيرة الإيمان مرة أخرى. هكذا كان القديس يوحنا الرسول نموذجاً لخدمة الأسقف.

وينقل لنا كلٌّ من القديس إبيفانيوس(٢٧) والقديس إيرينيئوس(٢٨)، وذلك على لسان القديس پوليكارپوس أسقف أزمير الشهيد، قصة واحدة عن أن القديس يوحنا تقابل مرة مع أحد الهراطقة، وهو كيرنثوس الذي كان ينكر التجسد ولاهوت المسيح، تقابل معه في حمام عمومي وتحت سقف واحد، فرفض أن يبقى معه في الحمام لئلا يسقط السقف بسبب غضب الله. وبالفعل فإنه بعد خروج القديس يوحنا سقط السقف على مَنْ فيه. وهذا السلوك الذي اتَّبعه القديس يوحنا مع كيرنثوس يتوافق مع دعوته في رسالته: «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلامٌ. لأن من يسلِّم عليه يشترك في أعماله الشريرة» (٢يو١٠و١١). وهذا بدوره يتفق مع الآية: «إن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة.» (١كو١٥: ٣٣)

كما ينقل لنا يوسابيوس القيصري على لسان أبولونيوس الكاتب الكنسي الذي يُظن أنه كان أسقفاً على أفسس، خبر معجزة أجراها القديس يوحنا الرسول إذ أقام ميتاً بمعونة القوة الإلهية في مدينة أفسس(٢٩).

وهناك تواتر في التقليد الكنسي المبكِّر قد وصل إلينا عن طريق العلاَّمة ترتوليانوس يفيد بأن القديس يوحنا قد أُلقي في غلاية بها زيت مسخن إلى درجة الغليان ولكنه نجا منها بمعجزة(٣٠).

كما ينقل لنا القديس چيروم(٣١) صورة عن القديس يوحنا الرسول وهو يمارس خدمة المحبة حتى آخر لحظة من حياته وكان قد بلغ الشيخوخة. فكان يحمله تلاميذه على أذرعتهم ذاهبين به إلى الكنيسة ليقول عظته القصيرة التي كان يكررها بلا ملل: «يا أولادي الصغار أحبُّوا بعضكم بعضاً. هذه وصية الرب. وإذا عملتم بها وحدها فهذا يكفيكم».

---

27 Adv. Haer. XXX,24.
28 Adv. Haer. III,3,4.
29 Euseb. Hist. Eccl. V, 18,4.
30 Tertullian, Praescrip. Haer. 36.
31 Comm. ep. ad. Galat. VI:10.

كما يعطينا الراهب كاسيان(٣٢) (حوالي ٣٦٠—٤٣٥م.) صورة وديعة عن القديس يوحنا الرسول تكشف لنا عن نموذج حياته البسيطة واتساع إدراكه لمتطلبات النفس البشرية، فيقصُّ علينا كيف مرَّ بالقديس يوحنا يوماً من الأيام صيّادٌ يصطاد بسهم وقوس، فوجد القديس يوحنا يلاعب طائراً صغيراً فاندهش، فابتدره القديس قائلاً: «لماذا يدهشك أسلوبي البسيط في الترويح عن النفس والعقل الذي بدونه تتأذى الروح من الضغط والإرهاق؟ هل يمكنك أن توتِّر قوسك وتتركه هكذا دون أن ترخيه؟» فأجابه الصياد: «إنه يتلف». فقال له القديس يوحنا: «وهكذا ذهن الإنسان أيضاً».

ومن رسائل القديس يوحنا الرسول ندرك مدى قرب هذا الرسول المحبوب من شعبه بصورة فريدة لم نلحظها قط في رسول قبله بترديده: «أكتب إليكم أيها الأولاد» ... «أكتب إليكم أيها الآباء» ... «أكتب إليكم أيها الأحداث» (١يو٢: ١٣و١٤) ... «أيها **الأولاد** هي الساعة الأخيرة... والآن أيها **الأولاد** اثبتوا فيه» (١يو٢: ١٨و٢٨)، وكأنه بذلك يعكس روح المودة التي لمسها في الرب يسوع في تعامله مع التلاميذ في أيامه الأخيرة: «**يا أولادي** أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (يو١٣: ٣٣)

١٠ ــ القديس يوحنا في جزيرة بطمس:

مؤثرٌ للغاية مطلع رسالته الرؤيوية هكذا: «أنا يوحنا، **أخوكم وشريككم في الضيقة وفي** ملكوت يسوع المسيح **وصبره**، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس **من أجل كلمة الله** ومن أجل **شهادة يسوع المسيح.**» (رؤ١: ٩)

وتقع جزيرة بطمس في بحر إيجة في الإتجاه الجنوبي الغربي من أفسس. وهي جزيرة صخرية قاحلة ما تزال قائمة حتى الآن تحمل الشهادة لصدق الإنجيل والرائي. وكلُّ مَنْ فيها وما فيها يشهد للقديس يوحنا حتى جبالها وصخورها والمغارة العميقة في سفح أحد الجبال الشمالية المنفردة حيث رأى القديس يوحنا رؤياه، وحيث قامت هناك الآن مئات الكنائس وبيوت كثيرة سكانها عُشّاق لسيرة القديس يوحنا الرسول. وقد سمعت من أحد السائحين أن كل بيت يحتفظ بمبخرة يملأونها بخوراً كل صباح ويفتحون النوافذ المطلّة على المغارة ويبخرون بخوراً مع صلوات عطرة تشفُّعاً بصلوات صاحب الرؤيا والإنجيل.

أما الزمان الذي نُفي فيه القديس يوحنا إلى هذه الجزيرة فغير محقَّق تاريخه، ولكن معظم

---

32 John Cassian, Conference XXIV,21.

المؤرخين يؤكدون أنه كان حوالي سنة ٩٥ ميلادية، ومنهم چيروم ويوسابيوس وبالأكثر إيرينيئوس (١٣٠–٢٠٠م.) الذي يقول بأن نفي القديس يوحنا كان في أواخر حكم الإمبراطور دوميتيان (تولى الحكم من ٨١–٩٦م). ولكن العالم «وستكوت» وهو مؤرخ وعالم لاهوتي يرى أن مضمون سفر الرؤيا يفيد أن النفي كان قبل خراب أورشليم أي قبل سنة ٧٠م. والمعتقد أنه بمجرد موت دوميتيان (سنة ٩٦) عاد القديس يوحنا إلى أفسس وكتب بعد ذلك إنجيله.

١١ – تلاميذ القديس يوحنا الإنجيلي:

يعرِّفنا التقليد الكنسي المبكِّر أن تلاميذ القديس يوحنا الرسول ثلاثة هم: القديس إغناطيوس والقديس پوليكارپوس والقديس پاپياس[٣٣].

أ – القديس إغناطيوس: وقد سُجِّل في رواية استشهاده أنه «تلميذ يوحنا الرسول ورجل له كل الصفات الرسولية». وينص التقليد الكنسي أنه هو الولد الصغير الذي قرَّبه إليه الرب (وربما حمله على ذراعه) في وسط التلاميذ كرمز للتواضع، ولهذا سُمِّي حامل الإله «ثيئوفوروس» θεόφορος. وقد صار أسقفاً للكنيسة السريانية بأنطاكية. وتقبَّل الإستشهاد على يدي تراچان الإمبراطور، في روما حيث أُلقي للأسود.

ب – القديس پوليكارپوس: يقول عنه القديس إيرينيئوس إنه تعلَّم على يد الرسل وكان رفيقاً لكل من رأوا المسيح. وكان بحسب قول القديس إيرينيئوس هو أسقف أزمير (سميرنا). ولما أُمر قبل استشهاده أن يحلف باسم الإمبراطور ويجحد المسيح قال قولته المشهورة: «ستة وثمانين عاماً خدمت المسيح ولم يسيء إليَّ قط، فكيف أجحد ملكي ومخلِّصي؟» وفي وسط لهيب النار التي أُلقي فيها سبَّح الله قائلاً: «أشكرك لأنك حسبتني أهلاً أن أكون شريكاً في عداد شهدائك الذين شربوا من كأس مسيحك لقيامة الحياة الأبدية للنفس والجسد في عدم الفساد بروحك القدوس.»[٣٤]

ج – القديس پاپياس: وهو أسقف كنيسة هيرابوليس بفريجية مكان ميلاد القديس إبيكتاتيس. ويقول عنه القديس إيرينيئوس[٣٥] إنه من الأقدمين الذين استمعوا لتعاليم القديس يوحنا الإنجيلي، وهو رفيق لپوليكارپوس واستمع لكل من استمع للمسيح مباشرة. وقد جمع خمسة

---

33 Excell, Rev. Joseph S., op. cit., p. viii.

(٣٤) رسالة أهل سميرنا عن استشهاد پوليكارپوس – فصل ١٤.

35 Adv. Haer. V,33,4.

كتب من أقوال الرسل والذين رافقوا المسيح ولم يتبقَّ منها إلا قصاصات. كما أنه هو الذي قال إن القديس مرقس الرسول كتب إنجيله عن إملاء من فم القديس بطرس. وهو الذي بلّغنا أن القديس متى الإنجيلي كتب إنجيله باللغة العبرية. وقد استشهد في نفس الوقت مع القديس پوليكارپوس(٣٦).

١٢ — «يبقى إلى أن أجيء»:

قول المسيح هذا الذي خاطب به بطرس الرسول: «فلما رأى بطرس هذا (يوحنا) قال ليسوع: يا رب. وهذا (يوحنا) ما له (أو ما الذي سيصيبه)؟ قال له يسوع: إن كنتُ أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك؟ اتبعني أنت! فذاع هذا القول بين الإخوة إن ذلك التلميذ لا يموت...» (يو٢١: ٢١—٢٣)؛ على هذه الرواية تألفت مئات القصص وقد قرأت منها الكثير الذي يحكي أن يوحنا لا يزال يعيش. ولكن أطرف ما قرأت هو هذه الرواية، وقد وردت في أخبار أيام «يوحنا برومتون» كما يقصها كتاب:

The Biblical Illustrator, Saint John, by Rev. Joseph S. Exell, p. IX.

[حدث في أيام ملك إنجلترا المشهور القديس إدوارد الثامن المعترف (١٠٠٣— ١٠٦٦م.)(٣٧) وهو قديس قنّنته الكنيسة الإنجليزية سنة ١١٦١م. وتعيّد له في ١٣ أكتوبر من كل سنة، أن كان يسير بعد خروجه من الكنيسة عقب الإحتفال بعيد القديس يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الملك التقي يوقّر القديس يوحنا بعد الرب يسوع والعذراء مريم، وكان ذلك في دير وستمينستر. وإذا بشحاذ يعترضه وطلب منه حسنة على اسم المسيح ومحبة في القديس يوحنا الإنجيلي. وكان الملك بطبعه كثير العطف على الفقراء. ففي الحال خلع خاتمه الملكي من أصبعه وأعطاه له دون أن يراه أحد. وبعد أن حكم الملك إدوارد أربعاً وعشرين سنة حدث أن إنجليزيّيْن كانا يحجّان في أورشليم في الأرض المقدسة. ولما همّا بالرجوع إلى وطنهما إنجلترا قابلهما سائح. وكعادة السوّاح استفسر منهما عن وطنهما، فقالا له إنهما من إنجلترا، فقال لهما: «عندما تعودان إلى بلدكما اذهبا إلى الملك إدوارد وبلّغاه السلام باسمي واشكراه على الحسنة التي أعطاني إياها في الشارع الفلاني في وستمينستر، لأنه حدث في يوم أني طلبت منه حسنة فأعطاني خاتمه هذا (يبدو أن اسم الملك كان منقوشاً على الخاتم). وقد احتفظت به حتى اليوم، والآن احملاه إليه وقولا له إنه بعد ستة أشهر من اليوم سوف يغادر

36 Exell, Joseph, loc. cit.

(٣٧) ورد اسم هذا الملك القديس وتاريخ حياته الحافل بأعمال القداسة وتلقيبه بالمعترف وتقنينه قديساً للكنيسة الإنجليزية في قاموس: Oxford Dict. of Chr. Church, Cross, p. 439.

العالم و ينضم إليَّ ليكون معي إلى الأبد». فاندهش السائحان وقالا له: «ومَنْ أنت؟ وأين تسكن؟»، فأجابهما قائلاً: «أنا يوحنا الإنجيلي، وإدوارد ملككم هو صديقي، ولأجل قداسة حياته أعتبره عزيزاً عندي، فاذهبا و بلِّغاه هذه الرسالة وأعطياه الخاتم على أني سأصلِّي لله من أجله». واستلم الملك الرسالة والخاتم بابتهاج وأكرم السائحين الإنجليزيَّيْن وعمل لهما وليمة ملكية. وابتدأ يعدُّ نفسه للرحيل. وفي عشية عيد ميلاد سنة ١٠٦٦م. مرض، وفي عشية عيد الظهور الإلهي أي «الغطاس» لنفس السنة توفي. أما الخاتم فسلَّمه لرئيس رهبان دير وستمينستر ليحفظه كأثر هناك.]



الفصل الثاني

ظروف وملابسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها

١ – شهادات من التقليد الكنسي المبكر:

بحسب التقليد الذي استلمته الكنيسة الأولى وفي أول عصورها، فإن القديس يوحنا الرسول ابن زبدي أخا يعقوب الكبير هو الذي كتب الإنجيل الرابع في سنّ شيخوخته الأخيرة وذلك في مدينة أفسس بآسيا الصغرى وذلك في نهاية القرن الأول.

وسنقدّم فيما يلي أقدم الشهادات التي وصلت إلينا من التقليد الكنسي المبكّر عن نسبة هذا الإنجيل للقديس يوحنا الرسول:

أ – معروف أن علم اللاهوت الكنسي المهتم بفحص قضايا الإنجيل واللاهوت عامة يبتدىء بالقديس إيرينيئوس أسقف ليون الذي عاش وتربى في سني حياته الأولى في آسيا الصغرى وتربى تحت يدي القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن). فهو مواطن أزميري. عاش ما بين عام ١٣٠ إلى ٢٠٠ م. ويُعتبر وَصْلة هامة بين الشرق والغرب. وأهم مخلّفاته كتابه المعروف بـ«ضد الهرطقات» والذي فيه استخدم إنجيل يوحنا في دفاعه ضد الغنوسية والتي كان أهم زعمائها «ڤالنتينوس»، وضد المونتانيين، وقد كتبه سنة ١٨٠م. وهو الذي سجل أن الإنجيل الرابع هو من عمل القديس يوحنا الرسول حيث قال: (ويسجل المؤرخ يوسابيوس القيصري هذه الشهادات في كتابه «التاريخ الكنسي» – ٣:٢٣:٣):

[... وإن جميع الشيوخ Elders الذين رافقوا **يوحنا** تلميذ الرب في آسيا يحملون الشهادة أن **يوحنا** سلّمه (أي سلّم الإنجيل) إليهم. لأنه بقي معهم حتى حكم تراچان.][1]

---

[1] Adv. Haer. II, 22; 5.

ب – وفي نفس الكتاب يؤكد ذلك مرة أخرى بقوله:

[ولكن الكنيسة في أفسس أيضاً التي أسسها بولس والتي بقي فيها **يوحنا** حتى زمان تراچان هي شاهد أمين للتقليد الرسولي.](٢)

ج – هذا الكلام عينه الذي للقديس إيرينيئوس يعود المؤرخ يوسابيوس ويوضحه في كتابه «التاريخ الكنسي»(٣) وذلك بلسان القديس إيرينيئوس نفسه هكذا:

[ولكن بوليكاربوس ليس فقط تعلم على أيدي الرسل وتعرّف على كثيرين من الذين عاينوا المسيح؛ بل أيضاً قد عيَّنه الرسل في آسيا (الصغرى) على كنيسة سميرنا (أزمير الآن). ونحن أيضاً رأيناه في شبابنا المبكّر لأنه عاش زمناً طويلاً وتوفي شيخاً متقدماً جداً في العمر، وقد مات ميتة شهيد، جليلة ومجيدة. وكان يعلّم دائماً الأمور التي تعلّمها من الرسل والتي كانت الكنيسة قد استلمتها أيضاً والتي هي الحق وحدها. وكنائس آسيا كلها تشهد بهذه الأمور. وكذلك يشهد بهذا حتى اليوم كل الذين جاءوا تباعاً بعد بوليكاربوس الذي كان أميناً ومؤتمناً ومستحقاً بتفوق كبير عن المدعو ڤالنتينوس ومارسيون (هرطوقيان) وبقية الهراطقة. وكان بوليكاربوس أيضاً في روما على عهد أنيسينتوس **Anicentus**، وقد ردَّ هناك كثيرين من الذين وقعوا تحت تأثير هؤلاء الهراطقة وعادوا إلى كنيسة الله. وكان يعلن أنه فد استلم من الرسل هذا المنهج الوحيد للحق الذي كان قد سُلِّم إلى الكنيسة. كما أنه يوجد (عندنا) مَنْ سمع منه أن **يوحنا تلميذ الرب** عندما كان ذاهباً إلى الحمام في أفسس ورأى كيرنثوس في الداخل، خرج مسرعاً من الحمام دون أن يستحم زاعقاً: «نخرج ونهرب لئلا يقع سقف الحمام لأن كيرنثوس عدو الحق فيه». وحدث مرة أن قابل مارسيون بوليكارپ فابتدره قائلاً: «ألا تعرفني مَنْ أنا؟» فأجابه بوليكاربوس. «نعم! أعلم: الإبن البكر للشيطان»].

د – كذلك احتفظ لنا التاريخ بصورة واضحة للعلاقة بين القديس إيرينيئوس والقديس بوليكاربوس في خطاب أرسله القديس إيرينيئوس إلى «فلورينوس» نقله لنا يوسابيوس المؤرخ الكنسي(٤)، يصحح له جنوحه عن الأرثوذكسية لأن تعاليمه الغنوستية لم تكن هي التعاليم التي استلمها من معلميه الأرثوذكس الأوائل. فيقول له القديس إيرينيئوس:

---

2 Adv. Haer. III, 3,4; all cited by Barrett, Acc. to John, p. 83.

3 Hist. Eccl. IV, 14, 3-8.

4 Ibid., V, 20, 4-8.

[عندما كنت صبياً رأيتك في آسيا الصغرى مع پوليكاربوس تتمشى في خيلاء في الدهاليز الملكية محاولاً أن تلقى الإستحسان. إني أذكر حوادث تلك الأيام بأكثر وضوح من حوادث هذه الأيام. لأن ما يحصِّله النشء فإنه ينمو مع عقولهم ولا يفارقها. حتى إني أستطيع أن أصف نفس المكان الذي كان يجلس فيه المغبوط پوليكاربوس عندما كان يتحدث، كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس **وتصريحه عن علاقته مع يوحنا** ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب فيما يخص معجزاته وتعاليمه، باعتبارهم شهوداً لـ «كلمة الحياة». وكان يقصُّ هذه الأشياء التي كانت متفقة مع الأسفار. هذه الأشياء التي قيلت لي برحمة الله، كنتُ أستمع إليها بانتباه وكنت أحفظها ليس بورق وقلم ولكن في قلبي. وكنت أرددها باستمرار بنعمة من الله، وأستعيدها بأمانة].

هـ — وتوجد أيضاً شهادة أخرى للقديس إيرينيئوس يسجلها له المؤرخ يوسابيوس(٥):

[وبعد ذلك (أي بعد كتابة الأناجيل الثلاثة) فإن **يوحنا تلميذ الرب** الذي اتكأ أيضاً على صدره أخرج ἐξέδωκε إنجيله بينما كان في أفسس].

وهذه الشهادة غاية في البساطة والكفاية.

وتعتبر شهادة القديس إيرينيئوس هذه ذات وزنٍ عالٍ، لأنه وكما يخبرنا هو بنفسه أنه وهو شاب كان يستمع إلى القديس پوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن) الذي استُشهد سنة ١٥٥م. ومعلوم أن القديس پوليكاربوس أدرك القديس **يوحنا** وعاش في أيامه(٦).

و — وثمة مصدر آخر يسجل أن القديس يوحنا عاش ومات في أفسس يجيء لنا من پوليكراتُس أسقف أفسس كاتباً ذلك سنة ١٩٠م. للبابا ڤكتور بابا روما الذي خدم أسقفية روما ما بين عام ١٨٧ — ١٩٩م ذاكراً له:

[إن من بين النجوم الراقدة في أفسس **يوحنا** الذي اتكأ على صدر الرب الذي **كان كاهناً** والذي كان يلبس حزام الصدر الكهنوتي (الصّدْرة)، والذي كان شاهداً (للرب) ومعلّماً. هذا أيضاً رقد في أفسس.](٧)

---

5 Ibid., V, 8, 4.

6 Ibid., V, 20, 6.

7 Ibid., III, 31, 3; V, 24, 2f.

وقد دلّت الحفريات الحديثة في سلقوك Selcuk وهي تلّة بجوار أفسس وتحت كنيسة البازيليكا التي كانت قد أُقيمت تكريماً للقديس يوحنا الإنجيلي، على وجود قبر فخم البناء يعود زمنه إلى القرن الثالث الميلادي. وقد فحص العالم براون Brown في شرحه لإنجيل يوحنا (الجزء الأول صفحة ٣٧٤) هذه الأبحاث وقال إن هذا الأثر يؤكد شهادة بوليكراتُس عن قبر القديس يوحنا الرسول.

ز — كذلك تأتينا الشهادة أيضاً من الإسكندرية من العلاّمة اكليمندس الإسكندري (١٥٠—٢١٥م)، وهو تلميذ بنتينوس رئيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وقد خلفه عليها عام ١٩٠م.، فيقول:

[إنه بعد موت الطاغية (يقصد الإمبراطور دوميتيان) رجع يوحنا إلى أفسس من جزيرة بطمس.](٨)

ح — كذلك يسجل لنا في كتابه المدعو «هيبوتيبوزيس Hypotyposis»:

[إن التقليد استلم أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية (الخارجية) τὰ σωματικά قد صارت واضحة في الإنجيل، وإذ ألحَّ عليه أحباؤه، وبإلهام من الروح القدس، ألّف الإنجيل الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον.](٩)

ونعتقد أن المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أخذ عن العلاّمة اكليمندس الإسكندري قوله عن رجوع القديس يوحنا الرسول من بَطْمُس بعد موت دوميتيان(١٠).

ط — كذلك يأتي ذكر إنجيل يوحنا ضمناً في وثيقة قديمة تصف أسفار العهد الجديد ردًّا على أتباع ماركيون (نهاية القرن الثاني) Anti-Marcionite Prologue وأيضاً في وثيقة «الموراتوري(*) Muratori» المنسوبة لهيبوليتُس، التي اكتُشفت سنة ١٧٤٠م. وهي ترقى إلى ما بين سنة ١٦٠—١٧٠م. وتُعتبر هاتان الوثيقتان من أقدم المصادر للتقليد الكنسي الغربي وللكنيسة الرومانية، وقد جاء في الأولى أنه:

[بحسب شروحات الكتب الخمسة التي ألّفها پاپياس التلميذ المحبوب ليوحنا (الرسول) أن إنجيل (يوحنا) كان قد أُكمل تأليفه وأُرسل لكنائس آسيا بواسطة يوحنا نفسه أثناء حياته.](١١)

---

8 Ibid., III, 23, 6.

9 Ibid., VI, 14, 7.

10 Ibid., III, 23,1.

(*) وثيقة الموراتوري منسوبة لمكتشفها المدعو: L.A. Muratori

11 Cited by: New Testament Intr. by Alfred Wikenhauser, p. 284.

علماً بأن پاپياس عاش في حقبة زمنية معاصرة جداً للقديس يوحنا الرسول (٦٠–١٣٠م.) وكان أسقفاً على هيراپوليس في آسيا الصغرى ووصلتنا أجزاء من كتبه الخمسة على يدي القديس إيرينيئوس والمؤرخ يوسابيوس. ومن تسجيلات پاپياس يبدو بوضوح أن إنجيل يوحنا كان منسوباً للقديس يوحنا الرسول منذ سنة ١٣٥م. ومن هذا يتضح أن قبل حلول منتصف القرن الثاني كان قد رسخ في الكنيسة في كل أنحاء العالم أن إنجيل يوحنا هو للقديس يوحنا الرسول.

كما أن التسجيلات التي وصلت إلينا من مؤلفات اللاهوتيين والكنسيين والمدافعين إيرينيئوس واكليمندس الإسكندري وترتليانوس، والتي بها نصوص من الدفاع عن الإيمان المسيحي تحوي شواهد من إنجيل القديس يوحنا لا حصر لها، ففي دفاع القديس إيرينيئوس في رده على هرطقة ڤالنتينوس توجد استشهادات من الأناجيل الثلاثة، ومن الإنجيل الرابع وحده أي إنجيل يوحنا أكثر من ١٠٠ شهادة. كذلك اكليمندس الذي كان معلماً لأوريجانس، وهيپوليتس يحتفظ لنا التاريخ في دفاعه على أكثر من ٥٠٠ استشهاد من الأناجيل الأربعة وأكثرها من إنجيل يوحنا.

ي — وأما وثيقة الموراتوري فتقول:

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ. إذ عندما توسَّل إليه زملاؤه (التلاميذ) والأساقفة في ذلك قال: صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعضنا بكل ما يوحي الله به إلينا. في هذه الليلة عينها أُعلن لأندراوس أحد الرسل أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدِّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علِّمت بها الأناجيل الأخرى وكلُّها استُعلنت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد (ميلاد الرب) وآلامه وقيامته وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول ومجيئه الثاني، الأول بإتضاع وتواضع وقد أكمله والثاني بالمجد والقوة الملكية الذي سيأتي؛ فأيُّ عجب إذن، أنَّ يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بآذاننا ولمسناه بأيدينا... هذه الأمور نكتبها إليكم Scripsimus» (١يو١: ١و٤)، لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وبسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.][12]

وعلى الباحث أن يلاحظ أن كُلاًّ من القديس إيرينيئوس وكاتب وثيقة الموراتوري Muratori يؤكد أن القديس يوحنا إنما كتب إنجيله بإلحاح وتوسُّل من أحبائه وزملائه الأساقفة. وهذا الإتفاق في التسجيل له وزنه التاريخي؛ وإن كانت هذه الوثيقة تخطىء في وضع اسم

---

12 Cited by: Barrett, Acc. to St. John, pp. 96, 97.

أندراوس الرسول ضمن سرد ملابسات كتابة إنجيل يوحنا لأنه لم يكن أحدٌ من الرسل على قيد الحياة وقت كتابة إنجيل يوحنا.

ك — كذلك يجيئنا من كتابات القديس پوليكارپوس الشهيد اقتباسات أصيلة من إنجيل يوحنا وباسمه واضحة غاية الوضوح علماً بأن القديس پوليكارپوس وبحسب أدق البحوث العلمية قد ثبت أنه استشهد سنة ١٥٥م. وكان له من العمر ٨٦ سنة. وهذا معناه أنه أمضى مع القديس يوحنا معظم حياته. بل ومن المعروف أنه عاشر غيره من الرسل إذ أنه [تعيَّن أسقفاً على كنيسة سميرنا من الرسل أنفسهم الذين كانوا معاينين وخُدَّاماً للرب.](١٣)، كما سجل ذلك أيضاً القديس إيرينيئوس في كتابه ضد الهرطقات (٣: ٣و٤). وفي إحدى رسائله يتكلم عن القديس پوليكارپوس بخصوص ذلك:

[... كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب...]

عن رسالة القديس إيرينيئوس إلى فلورينوس(١٤)

لهذا فإن القديس پوليكارپوس يُعتبر بحسب التاريخ الكنسي مصدراً في غاية الأهمية، لأنه الشخصية التي تُعتبر العلاقة الحية للوحدة الإيمانية بين القرن الأول والقرن الثاني، وشهادته تُعتبر أحد البراهين الرسولية لإنجيل يوحنا الرسول. هذا ما كان يعتقده ويتمسك به جداً القديس إيرينيئوس الذي كان يمسك بحبل التقليد الرسولي بكل قواه، والكنيسة تفتخر به على أنه أبو التقليد الكنسي.

ل — وأيضاً العلاَّمة ترتليانُس (١٦٠—٢٢٠م.) وهو أب كنائس شمال أفريقيا، مواطن قرطاجنة. عاد من الوثنية كمحامٍ إلى المسيحية كمدافع سنة ١٩٥م. وصار موعوظاً ثم كاهناً — بحسب القديس چيروم — وقد دافع عن المسيحية بعد ذلك كل أيام حياته. وقد استشهد في دفاعه ضد هرطقة «مركيون» ذاكراً اسم إنجيل يوحنا مع الأناجيل الأخرى في دفاعه. ويقول العلماء أن النسخة من إنجيل يوحنا التي كانت في حوزة ترتليانُس كانت تُعتبر أقدم وثيقة لإنجيل يوحنا في ذلك الوقت إذ كانت في حيازته قبل قيام هرطقة مركيون (١٣٩—١٤٢م.). ومن محاجاة مركيون الهرطوقي مع ترتليان يتضح بسهولة أن مركيون نفسه كان حائزاً على نسخة من إنجيل يوحنا.

وعلى سبيل الملاحظة للمعرفة فإن ترتليانُس هو أول كاتب لاتيني علَّم بكلمة «**الثالوث**»

13 Euseb., Hist. Eccl. IV, 14,3.

14 Ibid., V, 20,6.

بـاللاتينية Trinitas (١٥) تعبيراً عن الآب والإبن والروح القدس. وهو أول لاهوتي مسيحي يكتب بـالـلاتـينية فاطبة، بل ويُعتبر أول مَنْ نَحَت العبارات اللاهوتية باللغة اللاتينية للغرب كله. ولكن لـلأسف فقد فَقَد كل عظمته الكنسية بسبب انحيازه للمونتانية (هرطقة العصر آنذاك). ولولا ذلك، لـكـان مُـضـارعاً لـلقديس أغسطينوس في رصانته وقوة محاجاته ودفاعه عن لاهوت الثالوث الأقدس وباقي التعاليم الأرثوذكسية(١٦).

م — كما يـوجـد لـديـنـا شهادة لإنجيل يوحنا ساطعة من قبل عام ١٥٠م. وهي للقديس الشهيد يـوسـتين(١٧) الـذي كـان لـديـه كـل كتب الرسل وكان يسميها مذكرات Memoires الرسل. وقد اسـتـشـهـد في كـتاباته بآيات من إنجيل يوحنا واستخدم اصطلاح «الكلمة» λόγος (الذي ورد في مطلع إنجيل يوحنا).

وفي حـواره مـع تـريـفو اليهودي الذي تم سنة ١٣٦م(١٨) الذي استشهد فيه بموضوع الألف سنة الذي جاء في سفر الرؤيا، قال فيه:

[إن إنـسـانـاً بـيـنـنـا اسـمـه يوحنا، **وهو واحد من رسل المسيح**، الذي تنبأ في رؤيا أُخذ فيها...]

وفي دفـاعـه بـعد هذا التاريخ بعدة سنوات أظهر أنه على دراية بتعاليم إنجيل يوحنا وسردها ناسباً إياها إلى مسئولية القديس يوحنا.

ن — كـذلـك تـوجـد شـهـادة من هرماس صاحب كتاب «الراعي» (١٤٢—١٧٤م.) الذي كان أسقفاً في هذه السنين على هيراكليس. ويشير في كتاباته إلى آيات من إنجيل يوحنا.

س — **الـقـول الفصل**: وأخيراً ظهرت شهادة قاطعة مانعة من تحت رمال مصر من نجع حمادي مـن صـعـيد مصر ظهر فيها جزء من إنجيل يوحنا، عبارة عن ورقة مخطوطة وعلى إحدى صفحاتها نص مـن إنجـيـل يـوحـنـا الأصحاح ١٨ الأعداد من ٣١—٣٤. وعلى الوجه الآخر الأعداد من ٣٧—٣٨ لـنـفـس الأصـحـاح. وهـي الآن معروفة باسم بردية «رايلاند» ومحفوظة في مانشستر تحت رقم ٥٢.

---

15 Cross, Oxford Dict. of the Christ. Church., p. 1334.

16 Ibid. وأما باللغة اليونانية فقد سبقه في استعمال هذه الكلمة τριάς ثاوفيلس الأنطاكي حوالي سنة ١٨٠م.

17 Westcott, Acc. to St. John, p. XXXI, XXXII.

18 Ibid., p. 12, Justin, Dial. 81.

وبحسب بحوث العلماء تأكد أن يكون تاريخها ليس بعد عام ١٣٠م. وهذا هو البرهان النهائي أن الإنجيل الرابع خرج خارج آسيا الصغرى في تاريخ لا يمكن أن يتعدى الجيل السابق على بداية القرن الثاني. وبهذا يكون زمن كتابة إنجيل يوحنا ليس بعد سنة ١٠٠م. وذلك بحسب كل علماء الكتاب المقدس بلا استثناء أي في الزمن الرسولي بكل تأكيد! بل إن كثيراً من العلماء يقول إنها النسخة الأولى الأصلية.

* * *

وفي ختام بحثنا عن أصالة نسبة إنجيل يوحنا للقديس الرسول ابن زبدي، ننبه ذهن القارىء إلى حتمية تفرض نفسها بشأن الإنجيل، فليس كاتب الإنجيل فقط هو الذي يضفي على الإنجيل صدقه وأصالته وقانونيته، وإن كان هذا لازماً أيضاً. ولكن صحة التقليد الرسولي الذي يقوم عليه الإنجيل وأصالة تعليمه والنور الإلهي الذي يشعُّ منه هو الذي يعطي للإنجيل أصالته بل ويعطي لكاتبه أيضاً صفته الرسولية بالضرورة. كذلك فإن شهادة الكنيسة الحية من فم لفم وأخيراً الممارسة الروحية، وهذا هو التاريخ العريض الطويل الممتد للأسافقة المدافعين عن الإيمان والقديسين والعُبَّاد والنُسَّاك واختباراتهم الفاخرة على مدى ألفي سنة، تنطقان بالقيمة الروحية واللاهوتية العظمى لإنجيل يوحنا وبالفضل لكاتبه. فلقد نجح إنجيل يوحنا في حمل وتوصيل الروح الرسولية والتقليد الرسولي الإيماني من جيل إلى جيل عَبْر عشرين قرناً من الزمان. وهوذا نحن نشهد مع القديس يوحنا القرن الأول ومع الرسل والكنيسة عَبْر الزمان كما شهدوا «ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو١: ١٤)

٢ ـــ الأسباب الملحَّة التي حتَّمت بكتابة إنجيل يوحنا:

حسب التقليد المبكر جداً المسلَّم للكنيسة فإن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله تحت إلحاح شديد ومتواصل من رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون ويعملون معه والذين سمعوا منه كل ما كان يعظ ويعلِّم به بما كان ينقله عن فم الرب، راغبين أن يكون تحت أيديهم وثيقة من فم يوحنا تلميذ الرب تشهد لصحة ما يعلِّمون به هم أيضاً وتهديهم الطريق. وبهذا يقول التقليد إنهم اضطروا يوحنا لكتابة إنجيله بعد أن تعهدوا بالصوم والصلاة.

وتوجد وثيقة من زمن مبكر تُدعى «تعاليم في سفر الرؤيا» لمؤلفها «فيكتورينوس» Victorinus الذي من مدينة بيتّاو Pettau ، والذي توفي سنة ٣٠٤م. تقول:

[إن يوحنا الرسول كتب إنجيله بعد كتابة سفر الرؤيا وذلك بعد أن أذاع كلٌّ من الهراطقة ڤالنتينوس Valentinus وكيرنثوس Cerinthus وإيبون Ebion وآخرون من مدرسة

الشيطان تعليمهم وذاع في كافة أركان الدنيا مما اضطر الأسافقة الذين على كل البلاد المجاورة أن يجتمعوا إلى القديس يوحنا واضطروه أن يكتب إنجيل شهادته.](١٩)

ويقرر القديس إبيفانيوس نفس هذه الحقائق مؤكداً أن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله في نهاية العصر الرسولي ردًّا على هرطقات القرن الأول بناءً على رجاء الكنائس(٢٠).

إذن، فسرُّ الإلحاح على القديس يوحنا لكتابة إنجيله واضح لأن بلبلة الأفكار بسبب مهاجمة الهراطقة للإيمان المسيحي وتركيزهم على المسيح بالذات وإنكار لاهوته وقوة الخلاص والفداء الذي أكمله، مع عدم كفاية المكتوب والمتناقَل عن التقليد الرسولي، هذا هو الذي أقنع القديس يوحنا للرضوخ لإلحاح الأساقفة والشعب. ولماذا ألحُّوا عليه إلاَّ لكونهم قد سمعوا منه ما يصلح أن يكون إنجيلاً بالحق؟ ولماذا وثقوا فيه. إلاَّ لكونه تلميذاً ورسولاً؟

وفي هذا المعنى يقول العالِم هوسكنز(*) أسقف دورهام بإنجلترا في شرحه لإنجيل يوحنا:
[إن تقديم حياة المسيح على هيئة أخبار متقطعة (كما جاء في الأناجيل الثلاثة) لا بد وأن يكون قد أنشأ خطورة عظيمة في نهاية القرن الأول. لأن الجماعات المسيحية المتفرقة لم تكن قد استكملت بعد قانوناً للإيمان يمكن أن يحفظ هذه الأخبار في قالب لاهوتي. كما لم تكن هناك بعد عبادة أيًّا كان شكلها قائمة على قراءات رسمية ذات سلطان تهدف إلى غاية محددة مثل التي نقرأها مثلاً في مقدمة إنجيل يوحنا (وهذا أدى إلى مجرد معرفة تاريخية بالمسيح). لذلك فبسبب خطورة احتمال سوء فهم المسيح وعدم الدراية بالتقليد الصحيح الشفاهي والمكتوب آنئذ عن المسيح، صُمِّم إنجيل يوحنا لتثبيت المؤمنين.](٢١)

وقد أجمع الباحثون العلماء في الكتاب المقدس أن مادة إنجيل يوحنا تأتي من حيث الصياغة الزمنية متأخرة عن ما جاء في الأناجيل الثلاثة وتحمل مضمون شكل الحياة المسيحية في وضعها اللاحق على صيغة الحياة في زمان الأناجيل الأخرى وتنطق بما أصاب أورشليم من الخراب بعد حرب عام ٧٠م. وتبدُّد الشعب اليهودي.

---

19 PG V, 333, cited by: Westcott, op. cit., p. XXXVI.

20 Epiphan., Adv. Haer. XLI,12.

21 Hoskyns, According to St. John, p. 83; Schnackenburg, The Gospel according to St. John, New York 1982, p. 43.

(*) اقرأ فكرة عنه في الفصل الثاني من الباب السادس.

فبشيء من التعمق في الملاحظة بين ما أورده القديس يوحنا خصيصاً وبين الوضع السائد في آسيا الصغرى عموماً نجد الردود واضحة. فهو يعتني أن يورد كل ما جاء على لسان المسيح مما يصلح أن يكون ردًّا على المساءلات التي كانت تُطرح عليه كأسقف عاش مع المسيح، وحلاً للمشاكل اللاهوتية والروحية والفلسفية التي كانت تعترض الكنيسة في مواجهتها للأجواء الجديدة معتمداً على وعد الرب أن الروح القدس يعرِّفكم بكل الحق ويخبركم بأمور آتية وأنه سيتكلم في فكم، بينما تردُّ الثلاثة الأناجيل على مقاومة اليهود للمسيح ورفضهم للإيمان بالتحذيرات المرعبة وبالكارثة المحتَّمة التي ستحل بالأمة اليهودية والقضاء المزمع أن يأخذ مجراه وشيكاً، كما ورد في إنجيل متى الأصحاح ٢٤ وفي إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ وفي إنجيل لوقا الأصحاح ٢١.

— «لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب. وويل للحبالى والمرضِعات في تلك الأيام. لأنه يكون ضيقٌ عظيم على الأرض المقدسة وسُخْط على هذا الشعب. ويقعون بفم السيف ويُسْبَوْنَ إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمَّل أزمنة الأمم.» (لو٢١: ٢٢—٢٤)

كل هذا كتبه القديس لوقا وأورشليم لم تكن قد سقطت بعد ولا حدث أي شيء من هذا الوعيد. أما في إنجيل يوحنا فالأمر جدّ مختلف، لأن كل شيء من هذه الأمور المرعبة كان قد حدث بالفعل. فإنجيل يوحنا كُتب سنة ١٠٠م. وخراب أورشليم تم سنة ٧٠م. لذلك لا نسمع في إنجيل يوحنا لا نبوة عن خراب أورشليم ولا ذكراً لهذه الويلات والحروب وما لابسها من ضيق عظيم سيلقى اليهود. إذن، فالقديس يوحنا يكتب موضِّحاً العاقبة، تصديقاً لما وعد به الرب فقد تم كله وأصبح على القديس يوحنا أن يوضح في كل مناسبة السرَّ وراء هذا السخط الذي تم عليهم. فكان يمعن في كشف كذبهم وريائهم وعنادهم في مصادمة الحق ورفضهم للنور والحياة والبركة كشعب بكر مختار؛ تماماً كما رفض عيسو البركة والبكورية رمز الإختيار!

وبهذا كشف إنجيل يوحنا السبب وراء رفضهم للمسيح ورفض المسيح لهم، لأن الداء كان متأصِّلاً ومتجذِّراً في أخلاقهم وسلوكهم ولذلك كان الجزاء محتَّماً: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم.» (يو١٠: ٢٦)

ثم يسجِّل القديس يوحنا كيف وعلى طول المدى أخفقت الأمة اليهودية في الإختيار ورفضت المخلِّص الموعود والفادي الذي انتظرته الأجيال «إلى خاصَّته جاء وخاصَّتُه لم تقبله» (يو١: ١١). وهو بذلك يشير إلى سبب خراب أورشليم بصورة مخفية وبالتالي إلى سبب وجوده هو في أفسس بدل أورشليم واختياره للعمل بين الأمم. ولكنه أيضاً وفي شعور بالإخفاق والمرارة يعود ويصف رفض كثيرين للنور بين الأمم أيضاً: «إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن

أعمالهم كانت شريرة» (يو٣: ١٩). وهكذا يتساوى معاً كل الرافضين للنور في الدينونة بلا تمييز «اليهودي أولاً ثم اليوناني» كما يقول القديس بولس الرسول (رو٢: ٩). ثم يضع القديس يوحنا القانون الذي سيسري على الجميع: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٨و١٩)

ثم يواجه القديس يوحنا الإلحاح العام الذي كان يختلج في قلوب كل المؤمنين بعد رفض الله للشعب اليهودي رفضاً دعت الضرورة القصوى إليه وبعد خراب أورشليم وانقطاع العبادة بكل مراسيمها اليهودية وفقدان كل الميراث الأول بكل غناه وكل عمقه مرة واحدة. ما هو، إذن، إطار العبادة المسيحية؟ وماذا سيكون أساس العلاقة التي لله بشعبه الجديد؟ وكيف سيحقق الشعب المسيحي وعد الله في أن يقيم خيمة داود الساقطة (عا٩: ١١، أع١٥: ١٦)؟ وما هي الوصايا الجديدة المفروضة على الكنيسة لتحل بصورة إلهية وبجيدة محل العبادة المؤقتة والشكلية المعبَّر عنها بـ «شبه السماويات وظلها» (عب٨: ٥) التي كانت لإسرائيل؟

علماً بأنه عندما بدأ القديس يوحنا يكتب إنجيله، كانت الجماعات المسيحية — كما هو واضح من رسائل القديس بولس الرسول — في أوج نضوجها وانتظامها. ولكن السؤال الكبير الذي كان يواجهه الأساقفة مع الشعب في كل مكان هو كيف تُحكَمُ وتُدبَّرُ هذه الكنائس لتحقق نموذج ملكوت الله الذي نادى به المسيح؟ كان على القديس يوحنا أن يستلهم من كل حياة الرب وأقواله وتعاليمه بكل دقة وكل عمق وبكل وعي روحي تنبُّؤي ما يلزم تقديمه ليصلح أن يكون هو الأساس الإلهي الذي يُبنى عليه لاهوت المسيح بكل معنى الكلمة، وليكون هو أساس بنيان الكنيسة الخالدة على مدى كل العصور والأجيال، وليكون هو قوام بنيان النفس البشرية لتحيا وتلتصق وتتمجَّد بالرب.

فها هو من قصة السامرية يستوحي القانون الشامل الكامل لكل جوهر العبادة التي أعطاها الرب للكنيسة: «... آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أنَّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. قال لها (للمرأة السامرية) يسوع: يا امرأة (وكأنها الكنيسة وكل الأمم) صدِّقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب هؤلاء الساجدين له، الله روحٌ والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو٤: ٢٠—٢٤)

وهكذا يضع القديس يوحنا، من فم المسيح، الحدَّ الفاصل بين العبادة بالشكل والحرف التي

نُقِضَت يوم نُقِضَ الهيكل وتوقفت يوم صلبوا رب المجد، لتقوم العبادة بالروح والحق والتي أُعطيت لتكون جوهراً لدستور العبادة لكنيسة المسيح في كل أنحاء العالم وإلى الأبد.

ثم عاد القديس يوحنا في قصة نيقوديموس ومن خلال الحوار الساخن مع القديم الذي عَتَق وشاخ ليشرح كيف وضع المسيح القانون الجديد لدخول الحياة الأبدية لكل إنسان مهما كان وكيف يؤهَّل لقبول الروح لميلاد جديد ليأخذ عضويته السامية والجليلة في الهيكل الجديد أي جسد المسيح الذي كان يسمَّى أيام القديس يوحنا بقانون الإنضمام!! ليصير واحداً في شعب الله الجديد «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣: ٥)

ويعود إنجيل القديس يوحنا وبصفة فريدة ليوضح سلطان الخدمة والإرسالية الذي لا يعتمد على مدرسة للربيين ولا شهادة من السنهدريم بل على الروح القدس القوة الإلهية الناطقة في أفواههم والمنيرة لعقولهم وأفهامهم والموضِّحة والشارحة للحق كل الحق: «كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس مَن غفرتم خطاياه تُغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢١—٢٣)

وهكذا أرسى إنجيل يوحنا الأساس لقانون متكامل للعبادة والخدمة على أنقاض الناموس الذي توقف لإنتهاء مدة صلاحيته بقيام الكنيسة وبدوام مسيرتها الجديدة في كل أنحاء العالم بقيادة الروح القدس وسلطانه.

وبدراسة إنجيل يوحنا نكتشف أنه كما اهتم ليعالج مشاكلَ وتساؤلات نشأت كحتمية فرضها توقُّف العبادة بعد خراب أورشليم والهيكل؛ كذلك من جهة أخرى نجده وقد انشغل إلى أقصى حدٍّ لتقنين المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة كرازة القديس بولس الرسول في هذه المناطق. وهذه المفاهيم تتركز في معنى «حرية البنين» و «بطلان الإتكال على أعمال الناموس» و «الأهمية القصوى للإيمان الشخصي في الفرد» و «استعلان لاهوت المسيح» و «عمومية الإنجيل للأمم». فإنجيل يوحنا يوضح أن كل هذه الإتجاهات الجديدة التي انبثقت من كرازة الروح القدس على يدَيْ القديس بولس لم يغفلها المسيح في تعاليمه، فقد كان لكل واحدة منها موقف وتعليم.

وهكذا بدأ الروح القدس يعمل بصورة نشطة في ذهن القديس يوحنا ليرفع الغموض عن مواقف وتعاليم المسيح التي لم تكن مفهومة عندئذ يوم أن قيلت للرسل وهي على بُعْدٍ من زمانها، كقول المسيح للقديس بطرس (عند تمنُّعه من غسل المسيح لقدميه): «أجاب يسوع وقال: لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو١٣: ٧)؛ «... أما هو فكان يقول عن هيكل

جسده، فلما قام من الأموات تذكَّر تلاميذه أنه قال هذا. فآمنوا بالكتاب و بالكلام الذي قاله يسوع.» (يو٢: ٢١و٢٢)

وحينما كشف القديس يوحنا المواقف والكلمات والتعاليم التي تركتها الأناجيل الأخرى ولم تأتِ على ذكرها، ظهرت شخصية المسيح بوضوح بالنسبة للعالم وكل المسيحيين. فالمسيح في إنجيل يوحنا أعظم من صانع معجزات، وأكثر من الملك الآتي، وليس هو المسيا موضوع انتظار اليهود لتخليص إسرائيل من عبودية الرومان كما خلَّصهم موسى من مصر؛ بل هو «مخلِّص العالم» كله كما ورد على لسان أهل السامرة. وهو ابن الإنسان بمعنًى يَجُبُّ البشرية كلها، وهو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب. وهنا يرفع إنجيل يوحنا الغطاء عن مفهوم ميلاد المسيح في بيت لحم ليكون على مستوى «التجسد». «فالكلمة صار جسداً» هو السر الأساسي وراء حياة المسيح وأقواله جميعاً وهو الآية من وراء المعجزات العظمى التي عملها لكي تشير كلها إلى مصدرها أنها هي هي أعمال الله المكمِّلة والمجدِّدة للخِلْقَة التي اضطلع بها سابقاً المسيح نفسه قبل تجسده. وهكذا لم يتم في أذهاننا وضع اللمسات الأخيرة على قصة الميلاد في المغارة وسر فرح جند السماء مع الناس على الأرض إلاَّ بعد أن استوعبنا إعلان إنجيل يوحنا أن «**الكلمة** صار جسداً وحلَّ بيننا» (يو١: ١٤). و بإعلان المسيح عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة»؛ «والذي رآني فقد رأى الآب»؛ و «أنا والآب واحد.» (يو١١: ٢٥؛ ١٤: ٩؛ ١٠: ٣٠)

كذلك فإن إنجيل يوحنا وضع على نفسه أن يضع الخلفية التاريخية مشروحة بفم المسيح ومقنَّنة روحياً كإنجيل الله لكل تعاليم القديس بولس الرسول التي أذاعها بين الأمم وغرسها غرساً جيداً في قلوب وأذهان كنائس آسيا الصغرى السبع، وواجهها القديس يوحنا كتلميذ مسئول عن تحقيقها وانطباقها على تعاليم الرب نفسه. وهكذا وَجَد الإيمان المسيحي — مطبَّقاً على إنجيل المسيح بيد القديس يوحنا — طريقه إلى كل مسيحي أُممي. فصراخ فيلبُّس الرسول المتعطش لرؤية ومعرفة الآب باعتبار ذلك منتهى أمله في الإيمان بالمسيح والله كتلميذ، هو في الحقيقة تصوير عملي لكل صراخ الأمم وصراخ المستقبل المسيحي كله في كل العالم فيما بعد. هذا صوَّره القديس يوحنا في إنجيله تصويراً مُبدعاً وأعطاه الرد كاملاً ومختصراً ملأ كتب اللاهوتيين شرحاً وتأملاً: «الذي رآني فقد رأى الآب». فهو — أي الكلمة المتجسد — الصورة المنظورة لجوهر الله بالقول والعمل!! «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي. لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. قال له فيلبُّس: يا سيد أرِنَا الآب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبُّس؟ الذي رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت: أرِنَا الآب؟ ألستَ تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ٦—١٠)

من أجل هذا كتب القديس يوحنا إنجيله ليصير الله لدى كل العالم في متناول الرؤيا القلبية بالتقوى والإيمان في نور أقوال المسيح وأعماله وإعلانه الصريح والواضح عن نفسه. فالمسيح في إنجيل يوحنا هو الإستعلان الكامل لله.

أنظر كيف يتتبَّع القديس يوحنا تعاليم القديس بولس الرسول، فيستخرج أصولها الإلهية من فم المسيح:

تعاليم القديس بولس الرسول في رسائله	**تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا**
«كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم.» (أف ١: ٤)	«أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. **كانوا لك**(٢٢)، **وأعطيتهم لي.**» (يو١٧: ٦) «لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتني **لأنهم لك**» (يو١٧: ٩) «والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك **بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم.**» (يو١٧: ٥) «لأنك أحببتني **قبل إنشاء العالم.**» (يو١٧: ٢٤)
«سبق فعيَّننا **للتبني** بيسوع المسيح **لنفسه.**» (أف ١: ٥)	«أما كل الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا **أولاد الله** أي المؤمنون باسمه الذين **وُلدوا** ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل **من الله.**» (يو١: ١٢و١٣) «الحق الحق أقول لك إن كان أحد **لا يولد من فوق لا يقدر** أن يرى ملكوت الله.» (يو٣: ٣)

(٢٢) «كانوا لك وأعطيتهم لي» تعني أنهم كانوا يؤمنون بالله (الآب) حسب توراة العهد القديم، وفتح الله بصيرتهم واجتذبهم إلى المسيح لينالوا بواسطته التبنّي والخلاص من العبودية والدينونة. هكذا أعطاهم الآب للمسيح ليردَّهم المسيح إليه كأبناء: وهذه الآية تُفهم جيداً في ضوء كلمات المسيح: «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي.» (يو١٤: ١)

«المولود من الجسد جسدٌ هو **والمولود من الروح هو روح.**» (يو٣:٦)

«الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً، **معيَّنين سابقاً** حسب قصد الذي يعمل كل شيء **حسب رأي مشيئته.**» (أف١: ١١)

«ليس أنتم اخترتموني بل **أنا اخترتُكم** وأقتكم.» (يو١٥:١٦)
«**كل ما يعطيني الآب** فإليَّ يُقبل. ومَنْ يُقْبِلْ إليَّ لا أُخرجه خارجاً.» (يو٦:٣٧)
«لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إنْ لم **يجتذبه الآب** الذي أرسلني...» (يو٦:٤٤)
«لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم **يُعْطَ من أبي.**» (يو٦:٦٥)

«إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح.» (أف٣:٦)

«ولي **خراف** أُخَر ليست من هذه الحظيرة. ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون **رعية واحدة وراعٍ واحد.**» (يو١٠:١٦)

«ألستم تعلمون أن **أجسادكم هي أعضاء المسيح.**» (١كو٦:١٥)
«أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (١كو١٢:٢٧)
«لأننا أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.» (أف٥:٣٠)
«ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة.» (أف٤: ١٥و١٦)

«أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام. كلُّ غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه. وكلُّ ما يأتي بثمر يُنقّيه ليأتي بثمر أكثر... **أنا الكرمة وأنتم الأغصان.** الذي **يثبت** فيَّ **وأنا فيه** هذا يأتي بثمر كثير.» (يو١٥: ١و٢و٥)

«أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله.» (١كو٦:١٩)

«أما هو فكان يقول عن **هيكل جسده.**» (يو٢: ٢١)
«أنتم فيَّ وأنا فيكم.» (يو١٤:٢٠)
«أنا فيهم وأنت فيَّ.» (يو١٧:٢٣)

وكان أخطر ما يواجه القديس يوحنا الرسول هو من جهة جوهر الإيمان المسيحي وتقنينه لدى الشعوب الداخلة في الإيمان في جيل ابتعد عن اليهودية تماماً. وقد وضع القديس بولس الرسول أصوله الأولى على أساس عدم توسُّط الفرائض التي تؤدِّى جسدياً، والتي شجبها في كل رسائله جاعلاً الإيمان المسيحي قوة تغيير إلهية بالروح القدس تغيِّر طبيعة الإنسان من مستوى السلوك بحسب الجسد إلى مستوى السلوك بحسب الروح ليكون إنساناً جديداً خليقةً ثانية روحيةً؛ وإن هذه القوة تعتمد كـليًّا على اسم المسيح: «الذي به **لأجل اسمه** قَبِلْنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم.» (رو١: ٥)

وهكذا جاء القديس يوحنا ليقنّن هذا الإيمان عينه إنجيلياً وعلى مستوى نُطْق المسيح وبصورة واضحة معتمداً اعتماداً كلياً على «اسم المسيح» القوة المحيية والمغيِّرة والوالدة للإنسان الروحي:

«وأما كل الذين قَبِلُوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي **المؤمنون باسمه**» (يو١: ١٢)

«وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم **حياة باسمه**.» (يو٢٠: ٣١)

«ومهما سألتم **باسمي** فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالإبن.» (يو١٤: ١٣)

وفي رسالته الأولى يعبِّر القديس يوحنا باختصار شديد عن علاقة جوهر الإيمان باسم المسيح هكذا: «كتبتُ هذا إليكم أنتم المؤمنين **باسم ابن الله** لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا **باسم ابن الله**.» (١يو٥: ١٣)

ومرة أخرى يقف القديس يوحنا — وهو في ختام القرن الأول — موقفاً حاسماً ودقيقاً في مواجهة النشاط الفكري الضخم الذي كانت تمارسه الأوساط المحيطة في أفسس وغيرها من الفلاسفة والمعلِّمين والأدباء والشعراء الذين كانوا قد ألْهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة. حتى المسيحيون أيضاً انغمسوا في مثل هذه المعارف. وقد ألقى القديس بولس الرسول بكل ثقله لاستقطاب هذا النشاط وقيَّمَهُ وسما فوقه معطياً في المقابل المدلولات الروحية الحقَّة في المسيح. فماذا سيعطيهم القديس يوحنا من أقوال الرب لتكون الدستور الدائم للمعرفة المستمدة من ينابيعها بل من ينبوعها الإلهي الأصيل والوحيد للحق، ومعناه وقيمته وفعله وأثره المحرِّر والمحيي؟ ثم ما هو التقييم العملي لعلاقة المنظور بغير المنظور (وبلغة الفلاسفة بما وراء الطبيعة)؟

هنا يُبرز إنجيل يوحنا مفهوم «الحق» كجوهر إلهي مُحيي وليس مجرد معرفة مجرَّدة موضوعية دون ذات تُحييها وتحققها — فينادي إنجيل يوحنا بفم المسيح: «تعرفون الحق، والحق يحرركم»، «أنا هو الحق»!! (يو٨: ٣٢؛ ١٤: ٦) والتحرر الحقيقي أو الحرية الحقيقية هو التحرر من رباط الخطية

وسلطانها الإستعبادي للنفس البشرية والذات ككل!! «كل مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو٨: ٣٤). أما كيف نتحرر من الخطية فبواسطة ابن الله الذي يعتقنا من عبودية الخطية والموت وسلطان الجسد وشهواته وطغيان الشيطان بأوهامه، لأن ابن الله هو الوحيد الذي له سلطان على الخطية والموت، وهو القيامة والحياة: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٦)

هذا الحوار يقدمه إنجيل يوحنا بلا ملل وفي مواضع كثيرة، لأن القديس يوحنا يعلم أنه يواجه جيل الفلاسفة وعُشَّاق المعرفة وعمالقة الفكر الباحثين عن الحق! لقد حطَّم إنجيل يوحنا أسمى ما بلغ إليه الفلاسفة من الإرتفاع بالمعرفة نحو تجريدها الكلِّي لتكون عقلية خالصة تحلِّق في سماء الفكر وحده دون الواقع حينما قال وفي بدء إنجيله: «والكلمة (اللوغُس) صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده» !! (يو١: ١٤). وبهذا استعلن **«الحقيقة الأبدية»** أو **«الحق المطلق»** ورفع عنها نقاب العقل الخالص واستحضرها متجسدة في إنسان، في ملء التاريخ، عاش وتألم وصُلب ومات ثم قام أيضاً ليَهَبَ الإنسان خبرة الحياة والقيامة والنصرة على الموت والخطية لكل مَنْ يؤمن!

وهو في ذلك لم يكن يقصُّ قصة أو يعطي علماً بل كان يقدِّم شخص الحياة الأبدية شخص الحق وملء النور يسوع المسيح الذي عاش معه ورأته عيناه ولمسته يداه، هو هو كلمة الحياة والحق والحياة الأبدية التي كانت عند الآب.

وهكذا يقدم القديس يوحنا للعالِم الباحث وراء الحق والحياة الكاملة والأبدية شخص الحياة نفسها والحق نفسه لينال به كلُّ مَنْ آمن هذا الحق عينه وهذه الحياة الأبدية عينها: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣)، «الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

وعندما أعطى القديس يوحنا في مستهل إنجيله بشارته الحاسمة: «والكلمة صار جسداً»، كانت هذه هي البشارة الأولى من نوعها في عالم الفلاسفة والباحثين وراء فواصل اللامحدود بالمحدود والأبدي اللازمني بالزمني والنور بالظلمة: «والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يو١: ٥). وهكذا صالح إنجيل يوحنا، في المسيح، الفكر المنطلق وراء اللامحدود بالواقع الحي المنظور والملموس، ورؤيا الرائين لما فوق الطبيعة بالتجربة الإختبارية الحية والمحيية.

وفي هذه كلها نرى أن مادة إنجيل يوحنا هي شاهدة بحد ذاتها لزمان ومكان كتابة هذا الإنجيل العجيب بل وللظروف التي حتَّمت بكتابته تحتيماً.

٣ ــ الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا
كما يراه القديس يوحنا نفسه:

إن القديس يوحنا يوضِّح بجلاء وباختصار في نهاية الأصحاح العشرين الغرض الأساسي الذي من أجله كتب إنجيله هذا: «وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابْنُ الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣٠و٣١). أي إن غرض الإنجيل هو:

أولاً: أن **يؤمن** القارىء أو السامع،

وثانياً: أن يحصل على **الحياة الأبدية** بهذا الإيمان.

والإيمان، عند إنجيل يوحنا، يتجه إلى حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: الإيمان بأن يسوع الإنسان الذي دُعي بهذا الإسم هو المسيح أي «مَسِيًّا اليهود» الذي عليه يتعلق كل رجاء إسرائيل، وهو محور كافة النبوات وغاية ونهاية وشرح كل أسفار العهد القديم.

الحقيقة الثانية: أن يسوع المسيح هذا هو هو ابن الله الحامل لجوهر الله مع الآب، وبسبب كونه قد صار إنساناً فهو بسبب جوهره الإلهي وبشريته معاً فهو قريب غاية القرب من كل بني الإنسان وهو يدعوهم بصفته الإلهية والبشرية أن يصيروا أبناء الله كامتياز يمنحه من واقع موته عن البشرية وقيامته.

وهكذا يعتمد شرح كل ما جاء في إنجيل يوحنا على هاتين الحقيقتين. ولقد تبرهنت، بالفعل والإختبار اليومي كما عاشته الكنيسة الأولى التي آمنت بهذا الإيمان، قوة هذا الإيمان **عندما انبثقت بالفعل الحياة الأبدية بكل برهان الروح ومواهبه في جماعة المؤمنين البسطاء** الذين اعتمدوا باسم المسيح مؤمنين بهاتين الحقيقتين: أن يسوع هو المسيح «المسيا»؛ وأنه هو ابن الله الآتي إلى العالم لفدائه.

أ ــ فكان إيمانهم **بالحقيقة الأولى** أن يسوع هو المسيح شهادة على صدق كل ما جاء في أسفار العهد القديم حيث كان يشهد المعتمد على أنه يؤمن بجميع أسفار العهد القديم.

ب ــ وكان إيمانهم **بالحقيقة الثانية** أن يسوع هو ابن الله شهادة على غنى ميراث المسيح في الله الموهوب لكل البشرية وعلى قدرة المسيح على إعطاء القيامة والتبنِّي والحياة الأبدية لكل مَنْ يؤمن به.

ونلاحظ أنه بالصفة الأولى، أي بأن يسوع هو المسيح، تلتحم المسيحية باليهودية فترث منها كل ميراث عطف الله ورحمته على كل الآباء والأنبياء القديسين القدامى.

أما بالصفة الثانية، أي بأن يسوع المسيح هو ابن الله نكون قد تحررنا كمسيحيين من كل حدود اليهودية الضيقة غاية الضيق.

٤ – تفنيد بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا:

أ – يشترك بعض الآباء القدامى في الرأي القائل أن القصد من كتابة إنجيل يوحنا كان هو الدفاع عن المسيحية ضد الهرطقات التي كانت منتشرة في آسيا الصغرى واليونان في ذلك العصر. وهذه هي نظرية القديس إيرينيئوس[23] وكذلك العلاّمة إيرونيموس (چيروم)[24]. **ولكن الفكر الأرثوذكسي يستبعد تماماً أن يكون ذلك هو الأساس** أو كان الهدف الأساسي لكتابة الإنجيل. صحيح أن بعض الآيات تدحض تماماً هرطقة الإبيونيين وبدعة الدوسيتيين وادعاءات بعض تلاميذ يوحنا المعمدان الذين كانوا يقولون أن المعمدان هو صاحب الرسالة وليس المسيح، حيث جاء الرد في المواضع التالية: يو٣:٢٨؛ يو٥:٣٣–٣٦؛ يو١:٨و٩.

ولكن الحقيقة أن استعلان الإنجيل للحقائق الإلهية يأتي بصورة كاملة ومطلقة، فهي ليست بحد ذاتها دحضاً لرأي معين بل هي دحض لكل رأي، في كل مكان وزمان، يأتي مخالفاً للحقيقة الإلهية. فالحق المطلق هو أساس وهدف الإنجيل.

ونظرة واحدة على رسائل القديس يوحنا تجعلنا ندرك ما هو أسلوب الرد على الهرطقات الصريح الواضح والمباشر الذي يتبعه القديس يوحنا ضد هؤلاء المبتدعين أنفسهم، وذلك حينما يكون حُرًّا في الهجوم المباشر الذي يكتبه تحت مسئوليته وبلغته وفكره وإيمانه هو. في الرسالة الأولى يشير بأصبعه بكل جراءة ومواجهة ضد الإبيونيين (ومعنى اسمهم: الفقراء من اليهود، وهم شيعة تحط من قدر المسيح ومنهم «كيرنثوس» عدوّ القديس يوحنا) فيقول: «مَنْ هو الكذاب إلاَّ الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والإبن» (١يو٢:٢٢)؛ «...قد صار الآن أضدادٌ للمسيح كثيرون» (١يو٢:١٨). أما ضد الدوسيتيين (أي الشبهيين وهم شيعة تقول إن المسيح لم يتجسد تجسداً حقيقياً بل كان شَبَهاً أو خيالاً وأن يهوذا الإسخريوطي صُلب بدل المسيح[25]) فيقول: «...لأن أنبياءَ كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كلُّ روح يعترف

[23] Iren., Adv. Haer. III, 11,1.

[24] Hieron., Comm. on Matt., prolog.

[25] Oxford Dict. of the Christ. Church, p. 409.

بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم» (١يو٤: ١—٣).

ب — كذلك ينتحي بعض الآباء مثل يوسابيوس(٢٦) وإيرونيموس(٢٧) (چيروم) ناحية «نظرية التكميل»، أي أن إنجيل يوحنا جاء ليكمل ما في الثلاثة الأناجيل الأخرى. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا يختص بالكشف عن الأغوار اللاهوتية المتروكة في روايات الأناجيل الثلاثة وخاصة تلك الروايات التي سردت الأحاديث والتعاليم والحوار الذي كان يدور بين المسيح والتلاميذ وبين المسيح والمتعلمين من الكتبة والفريسيين أو مع الذين كانوا يناصبونه العداء ليمسكوه بكلمة، الذين ما برحوا يحاورونه في أدقّ وأخطر الأمور ليوقعوه في مخالفة قضاياهم. هذه التشكيلة المعقّدة من النزّعات والثقافات والنيات استغلها القديس يوحنا في إبراز أقوال وتعاليم المسيح لأنه كان يعلم بالروح أنها نفس التشكيلة لكل عصر قادم، لذلك دقّق القديس يوحنا جداً في الكشف عن خلفيات النيات المختفية وراء هذه المصادمات والتي قدم عليها المسيح أقوى الردود، وهي الردود التي أصبحت كما هي في إنجيل القديس يوحنا أعظم مادة يمكن أن تواجه بها الكنيسة كل فلسفات وثقافات العالم المنحرفة في كل عصر.

فإن بدا لبعض علماء الكتاب المقدس وشُرّاحه أن التعاليم التي قدّمها القديس يوحنا في إنجيله إنما تكمل ما جاء في الأناجيل الثلاثة، فذلك مرجعه إلى **أنها تعاليم كاملة بحد ذاتها صالحة أن تكمّل كل معرفة حقيقية عن المسيح**، لأن الإلهام الروحي واضح غاية الوضوح والذي يُقال بالروح يكمل كل معرفة روحية. ولكن لم يكن قصد القديس يوحنا أبداً أن يكمل ما جاء في الأناجيل الأخرى، لأن العلماء يقررون بكل ثقة أن القديس يوحنا لم يكن لديه نسخ من الأناجيل الثلاثة.

ج — كذلك يتجه بعض المفسرين القدامى أمثال اكليمندس الإسكندري(٢٨) إلى فكرة أن إنجيل يوحنا كُتب من أجل التعليم بمعنى أنه جاء شرحاً للأناجيل الأخرى وليس سرداً تاريخياً كباقي الأناجيل. ولكن للأسف، لأنه حتى وإن كان بالفعل يشرح ما جاء في الأناجيل الأخرى إلا أن العامل الأساسي فيه هو صياغة الحقائق كما هي لغاية واحدة محدودة وهي هكذا: «**وأما**

[26] Euseb., Hist. Eccl. III, 24.
[27] Hieron., op. cit., prolog.
[28] Euseb., op. cit., VI, 14,7.

هذه (الآيات) فقد كُتبت ... لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣١). إذن، فهو يهدف إلى غاية عملية وليس نظرية تعليمية.

د — كما يقطع بعض الشُرَّاح بأن قصد إنجيل يوحنا كان هو التوفيق بين الأمور التي كان متنازعاً عليها لاهوتياً أو تاريخياً. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا قدّم مادة إلهية حية من أقوال المسيح وتعاليمه تصلح بحد ذاتها أن ترد وتوفِّق وتصالح بين كل المتناقضات، وهذا شأن الروح. فإنجيل يوحنا بأقوال المسيح التي فيه لا يمكن وضعه في موازنة أمام أية مشكلة مهما كانت، فهو وإن كان يردُّ عليها حتماً — لأنه الحق ذاته — إلا أنه في عظمة ورزانة يتفوق فوق كل المشاكل ويظل كذلك أبداً! فبهذا الشموخ واجه إنجيل يوحنا كل الفلسفات، ومنها فلسفة الغنوسيين(٢٩) أعتى شيعة للمتعلمين في العالم، وقد كانت أخطر الفلسفات طرًّا، ولكنه باستعلان الحق الذي في المسيح حكم عليها، وبقي الإنجيل وانمحت الغنوسية.

(٢٩) هم جماعة «المعرفة» يخلطون المسيحية بالسحر والخرافات. وأهم قادتهم ڤالنتينوس وفاسيليدس وماركيون. وإذا أراد القارىء معرفة شيء عن هذه الهرطقات كلها فليرجع إلى كتاب «التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي»، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص ١٠٥—١١٥.

الفصل الثالث

طابع إنجيل يوحنا

بسيط، إعجازيٌّ في بساطته، صافٍ ليس فيه ما يعكِّر الفكر وإن كان فيه ما يحيِّر أعظم العقول، هادىء كهدوء الأبدية! كلماته حية محمولة على الروح، عميقة لا يمكن الوقوف لها على قرار، ترتفع بمَنْ يقرأها كأجنحة سرِّية في سرعة وسهولة حتى تضعه أمام الله، وكأن كلامه رؤيا تسلب قارئها وَعْيَه فترة، ثم تتركه وحده ليحكم على نفسه.

ولم يكن جزافاً أن يصف القديس يوحنا القميص الذي كان يلبسه المسيح وقت أن صُلب: «وكان القميص بغير خياطة منسوجاً كله من فوق. فقال بعضهم لبعض لا نشقُّه بل نقترع عليه» (يو١٩: ٢٣و٢٤). نعم كان منسوجاً كله من فوق لم تضمّ أطرافه يدٌ، وحدة واحدة، كاملاً ومنسجماً. هكذا كان إنجيله! ولا يزالون يقترعون عليه لمَن يكون في حوزة إيمانه ولم يستطع أحد أن يشقه إلى الآن!

مَن يقرأ إنجيل يوحنا يمكن أن يبتدىء فيه، ولكن أن ينتهي منه فهذا أمر يفوق الزمن، فإنجيل يوحنا ليست له نهاية لأنه يسلِّمك إلى ما وراء الكتابة وما بعد الزمن. وبحسب تعبير القديس يوحنا نفسه فهو يفوق طاقة العالم سعة وعلماً وإدراكاً: «وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يَسَع الكتب المكتوبة. آمين» (يو٢١: ٢٥). وكأن قول المزمور قائم في ذهنه: «لكل كمال رأيت حدًّا؛ أما وصاياك فواسعة جداً.» (مز١١٩: ٩٦)

إنجيل يوحنا صورة حية للمسيحية التي تحمل طابع الرسولية في أوج نورها واستنارتها، كنيسة العصور الأولى، كنيسة الأغابي (ولائم المحبة) والأسرار والبتولية!!

الكنيسة القبطية لا تزال تحمل طابع إنجيل يوحنا. والذين يعيشون بروحها في إيمان وإخلاص وتقوى التزاماً بتراثها وتقليدها المسلَّم مرة للقديسين هم جميعاً كثيرو الشَّبَه بالقديس يوحنا. لذلك،

فإنجيل يوحنا هو السِّفْر الروحي الذي أُعطِي أن يفكَّ ختومه لكل مَن تأجَّج حب المسيح والآب في قلبه وكان أميناً على ماضي التراث وحاضره.

فكر الإنجيل بحسب الشارحين له عموماً هو لاهوتي، أي منشغل بالله إلى أقصى حد، وهدفه أن يُشْغِل القارىء بالله ويُشعِل في قلبه جذوة الإيمان الحي الذي يورِّثه الحياة الأبدية. ولكنه لا يقدم لنا الله بدون مدخل حي تاريخي فهو حلقات من الإستعلانات عاشها وآمن بها أشد الإيمان ونادى وعلَّم بها وصلَّى بها ما يقرب من ثمانين سنة، إن قلنا أنه أتى إلى المسيح وهو ابن العشرين عاماً وأنهى حياته على الأرض وهو ابن المائة.

والقارىء إذا انتبه يكتشف أن إنجيل يوحنا، من المقدمة حتى النهاية، هو قصة واحدة لاهوتية منسجمة ومتحدة، أو هو استعلان إلهي مرتَّب وموقَّع تاريخياً، وهو كله واقعٌ تحت مبدأ عقائدي واحد يضم جميع أطرافه. وليلاحظ القارىء الدارس الواعي أن هذه الوحدة اللاهوتية المنسجمة لا تأتي جزافاً أو من مهارة بشر مهما أُوتي من مواهب، ولكنها صَنْعة حائك سماوي مُطرَّز بالنعمة. وإذا دقَّقنا نجد أن هذه الوحدة قائمة على عاملين: **الأول،** رؤية لاهوتية فائقة موحَّدة للتقليد الرسولي ككلٍّ الذي تقوم عليه كل الأناجيل، يراها الكاتب بالروح موقَّعة على كل أجزائه فتبدو الأُجزاء مترابطة منسجمة وليست مجرد متفرقات من كلمات وعظات ومعجزات عملها المسيح في المكان والزمان، وبذلك يبرز إنجيل يوحنا شخص المسيح متألِّقاً بكامل صفاته منجمعة **في كل زواياه،** كما جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. أما العامل **الثاني** فهو الغرض والهدف الواحد الذي يجمع أطرافه وهو الإيمان بالمسيح ابناً لله، الأمر الذي كان في زمان كتابته عزيزاً وضرورياً أقصى ما تكون الضرورة في وسط فوضى الهراطقة المحاربين للإيمان الصحيح.

وإنجيل يوحنا، إذا عَبَّرنا عنه ببساطة، نجده شهادة وليس كرازة، فكاتبه يقف شاهداً لكل كلمة شاهدها وكتبها. وعلى عمق الحق الذي فيه، لا يمكن للقارىء أن يفلت من أن يقع هو الآخر تحت هذه الشهادة. وهذا هو غرض الإنجيل أو غرض الوحي الإلهي الذي أملاه. اسمعه وهو يشهد: «... وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١يو١: ٢و٣)

ويلزم جداً أن يعرف القارىء أن الكنيسة التي كُتب فيها هذا الإنجيل كانت واقعة أثناء الكتابة تحت اضطهاد بليغ مع مقاومات من جماعات منشقة ذات أصول كثيرة تحيِّر العقول، منها ما هو يهودي ومنها اليوناني ومنها جماعات مسيحية كانت أعضاءً في الكنيسة الأولى(١) وجرفتها تيارات

---

(١) يتضح ذلك من هذه الآية: «أُكتُبْ إلى ملاك كنيسة أفسس. هذا يقوله ... أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار، وقد جرَّبتَ القائلين أنهم رُسُلٌ وليسوا رُسُلاً فوجدتهم كاذبين.» (رؤ٢: ١و٢)

بعضها فلسفي وبعضها تصوُّفي وبعضها سرائري سحري. ومن هذه الجماعات مَنْ جاء من اليهودية قبل وبعد خراب أورشليم ومن روما والإسكندرية، ومنهم من كان مستوطناً تلك البلاد منذ مئات السنين بعد سبي ما بين النهرين لليهود. وهؤلاء هم جماعة اليهود الأصوليين الذين كانوا متمركزين في أفسس، وقد كان لهم كيان ومجمع وسنهدريم نَشِط. وقد ذكرهم القديس يوحنا في سفر الرؤيا(٢)، لذلك نسمع في إنجيل يوحنا — الذي تأثر من اضطهادهم جداً — ذكراً كثيراً لأعمال اليهود المقاومين للمسيح والإيمان.

إنجيل يوحنا له طابع كنسي سرائري يبدأ فيه تصوير الكنيسة بالإثني عشر في حياتهم السرّية حيث كان المسيح فيهم رأساً مدبّراً وليس رئيساً يحكم، فكان معهم وليس فوقهم «الله معنا» = «عمانوئيل»، «أنا **معكم** زماناً هذه مدته» (يو١٤: ٩)، ونسمع المسيح يخاطب الإثني عشر كأحباء بل كأولاد «لا أعود أُسميكم عبيداً... بل **أحباء**» (يو١٥: ١٥)، «**يا أولادي** أنا **معكم** زماناً قليلاً بعد» (يو١٣: ٣٣)، «**يا غلمان** ألعل عندكم إداماً؟» (يو٢١: ٥)

والقديس يوحنا لم يشرح لنا اللاهوت على مستوى المنطق والعقل، أو على مستوى التأمل في ما وراء الطبيعة، وهو لم يعرّفنا حقيقة الله عن طريق الإستبطان أو الخبرة الصوفية أو عن طريق تداريب النسك والتطهيرات اللازمة؛ ولكنه قدَّم لنا الله والحق والحياة الأبدية في شخص «رأيناه»: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (١يو١: ١و٢). إذ قدَّم شخص ابن الله الوحيد متجسداً متأنّساً ليكلمنا بنفسه عن نفسه وعن أبيه الذي لم يره أحد قط إلاَّ هو، الذي عرّفنا بسرِّ الحياة الأبدية التي فيه والتي غلبت الموت وبها وفيها قام ونفخها في تلاميذه مقدّماً البرهان على ما يقول بما يعمل حتى «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال.» (يو١٠: ٣٨)

والقديس يوحنا نفسه يقف شاهداً لصدق لاهوت المسيح وتجسده إذ يقدّم نفسه بلا مواربة كشاهد عيان لما رآه وسمعه ولمسه، وكشريك أخذ بالفعل من ملئه الإلهي: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٦)، أي بفيض متصل. ثم هو في إنجيله يدعونا لمثل هذا الإيمان والأخذ ليكون لنا حياة باسمه.

والقديس يوحنا في إنجيله يقدّم لنا في عروض القصة أو الحادثة أو المعجزة المنظورة سرَّ حضور

---

(٢) «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك مع أنك غنيٌّ، وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ٢: ٩)

الله غير المنظور كاشفاً عن الفعل الإلهي المنسوجة منه القصة أو المعجزة، فيحس القارىء بالجانب الروحي المخفي، ويجد نفسه في مواجهة السرّ الإلهي فيكتشف في المسيح بهاء مجد الله، ويرى فيه صورة جوهره: «لعازر هلمَّ خارجاً.» (يو١١: ٤٣)

وهكذا وعلى مدى صفحات الإنجيل يتجلى في المسيح احتضان الأبدية للزمان باتفاق ومودة وجبروت المصالحة والمُصالح، كما يرى في المسيح ظهور غير المنظور في المنظور دون خداع أو خيال بل عن طريق اللمس والمشاهدة والواقع الحي، كما يرى في المسيح استعلان الحق «**بالكلمة**» أو بالآية سيّان، وفي النهاية يتحقق أن الله صار مدرَكاً في شخص المسيح يسوع وأن الحياة الأبدية قد انفتحت كل صنابيرها الغامرة بمفاعيلها السرية لتملأ النفس والعقل والقلب والروح، حيث يتقابل في شخص المسيح الإبن المحبوب قلب الله مع قلب الإنسان المهجور: «... الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). وهكذا يتم الإستعلان عن طريق الحب، استعلان ذات المسيح وذات الله بالتالي. وغياب الحب هو غياب الله. «والذي يبغضني يبغض أبي أيضاً» (يو١٥: ٢٣). من أجل ذلك لقَّبوا إنجيل يوحنا بالإنجيل الروحي وكاتبه بيوحنا اللاهوتي ويوحنا الحبيب، وذلك من واقع الأثر الفعلي الذي خطَّه إنجيل يوحنا في الكنيسة الأولى وما حققته الكنيسة بالفعل من آياته.

ولاهوت إنجيل يوحنا غير جدلي، فهو يقدم الحقائق اللاهوتية كما هي، كما سمعها وكما رآها ووعاها وكما استلهمها بروحه فيما بعد بسِرِّ الروح القدس الذي قاده بالوحي من أول كلمة إلى آخر كلمة. فهو لا يستدرج القارىء إلى النقاش أو الجدل ولكنه يعلن عن الحق باقتضاب شديد ولكن بسلطان. فالقديس يوحنا لم يكن بطبيعته رجل منطق، ولا الروح الذي فيه كان كذلك، بل كان نبيّ ورائي العهد الجديد. لم يحاول قط أن يبرهن على حقيقة واحدة ذكرها في الإنجيل، بل ترك الحقيقة تعلن عن نفسها بالسرِّ الكائن فيها والروح الكائن في قارئها!

والقديس يوحنا يقرر الحقائق العميقة جداً بكلمات بسيطة جداً: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» (يو١: ١٤). (ووحيد الآب ترجمة للكلمة اليونانية monogenes = μονογενής. والقديس يوحنا هو وحده الذي استخدم هذا التعبير دون باقي كاتبي الأناجيل. والتعبير يفيد «وحدة الجنس» فهو (المسيح) ابن وحيد ليس له مثيل، لأنه يمثل بنوَّة فريدة لأنها في ذات الله. ويلاحَظ هنا أن القديس يوحنا يسمِّي المسيح بـ«**الوحيد**» فقط دون ألقاب أو أوصاف أخرى).

والحقائق التي يقررها الإنجيل بالرغم من أنها ضوابط إيمانية عقائدية غاية في الدقة والعمق والشمول، فإنه يسردها دون أن ينبه الذهن إليها أو يشير إلى أهميتها «المولود من الجسد جسد هو،

والمولود من الروح هو روح» (يو٣:٦). ويتحدث عن القاعدة ويطلقها كقانون إلهي ويترك الإستثناء فيقول: «ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم» (يو٩:٥). ولكن المعروف قطعاً أنه نور ليس لكل الذين في العالم بل كثيرون عثروا فيه وفضَّلوا الظلمة عليه. هذا لم يشغل إنجيل يوحنا حتى لا ينحرف عقل القارىء وقلبه وراء السلبيات بل لكي ينطبع بالإيجابية الحرة وحسب. هو ينصح فقط: «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢:٣٥). فإذا دققنا نجد أن القديس يوحنا ينظر إلى الغاية التي يحددها الإلهام في قلبه ويصوِّب كلماته نحوها دون أن يعرِّج هنا أو هناك لأنه يعلم أن مهمته تنصبُّ كلها في قيادة النفس الإنسانية إلى موطنها السماوي؛ إنما تخرج الكلمات بروح رئاسي وبسلطان، مشيرة إلى الفم الذي كان قد نطقها! أليس هو الإنجيل تذكرة السَّفَر المختومة؟

إنجيل يوحنا يفترض في القارىء الإستعداد للسماع والفهم بل ويفترض فيه أيضاً الإيمان. فلو دقق القارىء في أسلوب إنجيل يوحنا فإنه يكتشف خلوَّه تماماً من طابع الشخصية للكاتب، فالحقائق مقدَّمة بسلطان الله يحس القارىء حينما يقرأها لأول وهلة أنها بعيدة المنال، بعيدة عن مستوى المعقولات التي نتصورها جميعاً: «...ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣:٧). قالها المسيح فلما تعثَّر فيها نيقوديموس أنكر عليه المسيح تعثُّره: «أنت معلِّم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» لأنه مفروض أن نيقوديموس يملك مفاتيح ملكوت السموات. لأن الحق الإلهي لا يُناقَش بالعقل بل يُستلهَم بالروح، فيجده الإنسان أسهل من كل علوم الدنيا. والقديس يوحنا لا يحاول تقريبه للقارىء لتفادي عثرة نيقوديموس على الأقل، ولكنه لا يتدخل قط من عنده لتبسيطها أو شرحها بل يتركك في موقف نيقوديموس تماماً. لقد توارى القديس يوحنا نهائياً عن المشاهد جميعها، وأخيراً وأخيراً جداً وفي نهاية إنجيله يقول كلمته ويبوح بالسر: «... هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حقٌّ» (يو٢١:٢٤). فالقديس يوحنا اكتفى في إنجيله أن يقدم نفسه لا كشارح ولا كمُدافع ولا كمُحاجج ولكن كان مثلاً صادقاً لمَن شهد وآمن. وهو يدعوك إلى هذا عينه.

لذلك يحس القارىء أن دعوة الإيمان في إنجيل يوحنا شيء أعلى بكثير عن رغبة الكاتب، بل هي ضرورة ملحَّة تمليها على الكاتب سلطة إلهية تفوق معرفته وتفوق مقدرته بل وتفوق غيرته أيضاً!! فنحن مهما دققنا في الأحاديث الساخنة ومحاجاة المسيح مع اليهود التي سجَّلها القديس يوحنا لا نقف على أي أثر لشخصية القديس يوحنا، ولا على أية ملامح لانفعالا ته ككاتب أو راوٍ أو شاهد، وهذا ليس من نوع التواضع ولا من قبيل عدم الاحساس بالذات كما يقول بعض المفسرين، ولكن هذا كان وضع كاتب الإنجيل أمام الصوت الإلهي الذي يرنُّ في أعماقه فكان يسجِّله كما هو.

لذلك حينما أراد القديس يوحنا في ختام إنجيله أن يعلن صوته بالشهادة لحق الإنجيل الذي كتب، لم يستطع أن يقول «أنا» بل «نحن»: «ونحن نعلم أن شهادته حقٌّ». هنا يتذكر القديس يوحنا بقية التلاميذ وكل الذين رأوا وسمعوا الرب وآمنوا به وكأنه معهم. ومع الرب بالروح كان هو يكتب وكان يشهد. فالقديس يوحنا تحصَّن في كلمة «نشهد» في صيغة الجمع، أي «نحن»، ويستمد منها سلطان الإنجيل كله!!!

ثم مَنْ هو الذي يستطيع أن يعلم في ذلك الوقت (سنة ١٠٠م.) أن شهادة إنجيل يوحنا حقٌّ؟؟ وكل الرسل ماتوا. ثم مَنْ ذا الذي له الحق أن يختم فوق شهادة رسول مثل يوحنا؟ علماً بأن منطق إنجيل يوحنا أساساً أنه يرتفع فوق مستوى شهادة الناس: «أنا لا أقبل شهادة من إنسان...» (يو٥: ٣٤). لذلك فشهادة القديس يوحنا الرسول المدموغة بكلمة «نحن» إنما هي أعمق تعبير عن حالة الشركة السرية التي ربطته شخصياً بالرب وبالروح وبكافة الرسل الذين عاينوا كل حقائق الإنجيل معه واشتركوا في حوادثه. فكلمة «نحن» هي في الواقع صوت الكنيسة الأولى كلها وعبر الدهور. وبذلك يكون القارىء مدعوًّا أيضاً ليكون واحداً من «نحن» كشاهد لحق المسيح الذي أتى ويأتي أيضاً، وذلك كمَنْ يرى ويسمع بعيني يوحنا وقلبه: «آمين. تعالَ أيُّها الرب يسوع.» (رؤ٢٢: ٢٠)

الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا بالعهد القديم

هي علاقة ممتدة تضرب جذورها في كل محيط العهد القديم. فإنجيل يوحنا بحد ذاته وحدة تجميع عظمى لكل الميراث والتراث: آباء وأنبياء وتوراة وناموس ومدارس ربيين والمفاتيح القديمة لملكوت السموات مع المسيا رجاء إسرائيل. سندرسها مع القارىء واحدة فواحدة لعله يكون من الوارثين. وسنجمعها في المواضيع الآتية:

١ — الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا.

٢ — التوراة والناموس في إنجيل يوحنا.

٣ — المسيا في العهد القديم وفي إنجيل يوحنا.

٤ — «إلى خاصته (اليهود) جاء». تفرُّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصَّته لم تقبله».

٥ — النقاط الرئيسية التي ركز عليها إنجيل يوحنا كاشفاً عن درايته الفذة للإمتيازات التي مُنحت لليهود، والمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية، وتطبيق النبوات على أعمال المسيح.

* * *

الفصل الأول

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

لقد اتضح للعلماء أن إنجيل يوحنا له خلفية عبرية يهودية ذات أبعاد عميقة في ذهنية القديس يوحنا الرسول وفي كتابته. وهذا تأكّد لهم بعد أن أرجع بعض العلماء كثيراً منها إلى أصولها الأرامية والعبرانية، وأشهرهم العالم بورني(١) الذي حلّل تركيب الجمل، وأدوات الوصل، والضمائر، والأفعال، وأدوات النفي، وأثبت أن وراء اللغة اليونانية التي كتب بها القديس يوحنا إنجيله، توجد اللغة الأم للكاتب واضحة. وقد ترجم هذا العالم بعض الجمل إلى الأرامية لكي يثبت أصل التركيب بصورة رائعة حقاً، وسنقدّم بعض الأمثلة لذلك.

ثم جاء بعد بورني العالم توري C.C. Torrey ليثبت صدق ما وصل إليه بورني بل و يتراءى له أن الأناجيل الأربعة مكتوبة أصلاً باللغة الأرامية ومترجمة إلى اليونانية(٢). وهذا يؤيد ما وصل إليه قديماً (نهاية القرن التاسع عشر ١٨٩٣م) العالم والأسقف لايتفوت، الذي قرر أن إنجيل يوحنا ربما يكون أكثر كتب العهد الجديد عبرانية(٣).

ولكن آخر ما وصلت إليه أبحاث هؤلاء العلماء هو أن القديس يوحنا كان صاحب لغتين: اللغة الأم الأرامية التي عاصر بها السيد المسيح وتكلّم بها، واللغة المكتسبة اليونانية التي كتب بها إنجيله.

والقديس يوحنا يدرك أنه يكتب لغير اليهود لذلك اهتم بأن يترجم كل الإصطلاحات أو الكلمات الأرامية أو العبرية إلى معناها باليونانية، وعلى سبيل المثال كتب هكذا:

«كيفا وترجمتها الصفا أي الصخرة» (يو١: ٤٢)،

---

[1] Borney, Aramaic Origin of the fourth Gospel (1922).

[2] Hunter, According to John, p. 19.

[3] Ibid., p. 18.

«**مسيا** أي المسيح» (يو١: ٤١)،
«سلوام وتفسيره مُرْسَل» (يو٩: ٧)،
«توما أي التوأم» (يو١١: ١٦)،
«جَبَّاثَا أي البلاط» (يو١٩: ١٣)،
«جُلْجُثَة أي الجمجمة» (يو١٩: ١٧)،
«رَبُّوني أي معلم» (يو٢٠: ١٦).

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا باستخدام واو العطف للربط بين الجمل أو شبه الجمل بدل التركيب للوصل الصحيح في اليونانية، مما يكشف عن تغلُّب اللغة الأم في لغة الكاتب، مثل: «وتَفَل...، وصَنَع...، وطلى...، وقال...» (يو٩: ٦و٧)، وهذا غير مألوف في اللغة اليونانية. وهكذا يكشف الأسلوب عن الأرامية المختفية وراء اليونانية.

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا بالإستغناء عمَّا نسميه أسماء الوصل، مثل «**الذي**» وحروف العلة «**لأن**» و«**لذلك**» و«**لكن**»، للربط بين الكلام حسب الأصول اليونانية المدرسية، بل إنه يسرد الكلام متتابعاً بدون تعقيد على سجيَّته الأرامية كجمل متراصة تعطي المعنى تماماً ولكنها تتجاوز أصول التراكيب اللغوية. وذلك واضح في أصحاح ١٥، إذ نجد الآيات متوالية ومتتالية وليست متصلة، لا يوصلها ببعض أي حرف أو كلمة: [«أنا الكرمة...، كل غصن...، وكل ما يأتي...، أنتم الآن أنقياء...، اثبتوا فيَّ...، كما أن الغصن...، أنا الكرمة...، الذي يثبت...، لأنكم بدوني...، إن كان أحد...، إن ثبتُّم...، بهذا يتمجَّد أبي...، كما أحبني الآب... إلخ»]. هذا أسلوب أرامي صرف يستخدمه القديس يوحنا خاصة عندما يسرد أقوال المسيح وكأنه يترجم ترجمة فورية.

كذلك لاحَظ علماء اللغة أن القديس يوحنا في أكثر من عشر آيات استخدم الضمائر بحشو زائد كما هو سائد تماماً في الأرامية. وهذا لا يستقيم إطلاقاً مع اللغة اليونانية (ولا حتى العربية):
«الذي **أنا** لست له مستحقاً أن أحلَّ سيور حذائه.» (يو١: ٢٧)
«أنك **أنت** أرسلتني.» (يو١٧: ٨و٢٥)

كذلك فرط في استخدام الضمائر في بدء الجمل:
«**وكل الذين** قبلوه إليهم **هو** أعطى...» (يو١: ١٢)
وهذا تركيب أرامي أكيد.

كذلك لاحَظ العلماء استخدام الإنجيل لحرف العلة «لكي» ἵνα ١٢٩ مرة أي أكثر من ضعف

إلى ثلاثة أضعاف استخدامه في الثلاثة الأناجيل الأخرى. وهو يكشف عن اللهجة الأرامية المتغلبة على نطق الكاتب، ولا يمكن أن تستقيم مع اليونانية الأصيلة.

وقد لاحَظ العالِم بورني أن القديس يوحنا يستخدم حرف العلة «لكي» في غير موضعه اللغوي، إذ يستخدمه عوض اسم الوصل «الذي»؛ كما في الآية:

«هذا هو الخبز النازل من السماء **لكي** (الأصح لغويًّا «الذي») يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو٦: ٥٠)

«بل تأتي ساعة **لكي** (في اليونانية) يظن فيها كل مَن يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو١٦: ٢)

كما اكتشف العالِم بورني، وذلك سنة ١٩٢٥م، أن بترجمة كلام المسيح كما جاء في إنجيل القديس يوحنا ظهر أن الكلام جاء أصلاً إما سَجْعاً بالنثر وإما مُقَفّىً بالشعر، شأنه شأن الأسفار الموحى بها في المزامير والأمثال وغيرها، مما يشير إلى أنها إما من أصل أرامي محفوظ وإما أنها منقولة من أصل واحد مكتوب.

ولكن في سنة ١٩٤٦م جاء العالم متى بلاك(٤) الذي تقدم خطوة أكثر في أبحاث العالم بورني من جهة أصالة اللغة الأرامية التي وراء الإنجيل، فوجد ترادفاً بديعاً بين ألفاظ المسيح، وأعطى في ذلك المثل الذي جاء في الآية: «كل مَنْ يعمل الخطية فهو عبد للخطية» (يو٨: ٣٤)؛ حيث كلمة «يعمل» بالأرامية هي «**أبد**»، وكلمة «عبد» تنطق أيضاً «**أبد**».

كذلك في كلام المعمدان في قوله عن «**العريس** وسماع **صوت** العريس وأنه ينبغي أن **ينقص** والمسيح **يزداد** أي يصير الكل». ففي الأرامية كلمة «العريس» تنطق (**كال ليثا**) والصوت (**قالا**)، وينقص (**قيلال**) ويزيد أي يصير الكل (**كلال**). وهكذا فليتصور القارىء جمع هذه المترادفات ذات الصوت والرَّنم الواحد معاً كيف تكون الآية إبداعاً في الرتابة النغمية الموسيقية.

وأخيراً جاء العالم دوود Dodd وقرر أن الأرامية تقف وراء إنجيل يوحنا لتبيِّن أن شخصية كاتبه يهودي بكل تأكيد، بالرغم من الوسط الذي كان يعيش فيه واللغة اليونانية التي يتكلمها ويكتب بها.

كذلك يأتي علماء جدد أكثر اقتناعاً بأرامية وعبرية إنجيل يوحنا ويقررون بعد بحوث مضنية أن هناك تقليداً (منقولات محددة متوارثة بالتزام ودقة) سواء شفاهية محفوظة أو كتابةً، وراء كل أقوال

---

4 Matthew Black: An Aramaic Approach to the Gospels & Acts, 3rd Ed. 1967, pp. 171,147.

المسيح المدوّنة في إنجيل يوحنا، وليس من المستبعد بل هو من **العدل** أن نقول أن القديس يوحنا كان يحتفظ بها خاصة لديه(٥)، وهؤلاء العلماء هم:

Driver, Bultmann, T.W. Manson, Matthew Black.

ولكن كان قد سبقهم منذ مائة عام تماماً العالم التقي لايتفوت وقرر ذلك على عهدته.

وواضح من أسلوب القديس يوحنا أنه يستخدم التبادل المعنوي بين النفي والإيجاب كما هو في أشعار المزامير تماماً. وذلك في اللغة العبرية يُقصد به من حيث الوحي زيادة التأكيد على السامع، وذلك كله صار من صميم التقليد العبري.

وهذا نجده واضحاً هكذا:

«كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان.» (١: ٣)

«فاعترف، ولم ينكر.» (١: ٢٠)

«لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه، لأنه كان يعرف... ما كان في الإنسان.» (٢: ٢٤و٢٥)

«كل مَن يؤمن به لا يهلك، بل تكون له الحياة الأبدية.» (٣: ١٦)

«وأما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه.» (١٠: ٥)

«أنا كلمت العالم علانية، ... وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.» (١٨: ٢٠)

كما يلاحِظ القارىء أن هذا نفسه هو أسلوبه في رسائله:

«الله نور، وليس فيه ظلمة البتة.» (١يو١: ٥)

«فهو كاذب، وليس الحق فيه.» (١يو٢: ٤)

«نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.» (١يو١: ٨)

«نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا.» (١يو١: ١٠)

«وهي حق، وليست كذباً.» (١يو٢: ٢٧)

«يكون لنا ثقة، ولا نخجل منه.» (١يو٢: ٢٨)

كذلك يستخدم إنجيل يوحنا نفس أسلوب الوحي الذي جاء في سفر المزامير وهو تكرار الكلمات ذات الثقل العالي لتنبيه روح الإنسان لشدة أهميتها بصورة تأكيدية، كما جاء في مزمور ١١٩ من جهة: «ناموسك»، «وصاياك»، «أقوالك»، «شريعتك»، «أحكامك»، حيث تكرارها ملفت للنظر جداً. هكذا جاء في إنجيل يوحنا مثل مطلع الإنجيل من جهة «الكلمة»:

5 Bultmann, cited by: Hunter, op. cit., pp. 17,22.

«الكلمة، والكلمة...، وكان الكلمة...» (١: ١)

كذلك «الشهادة» يكررها:
— «جاء للشهادة ليشهد...، بل ليشهد...» (١: ٧و٨) وذلك في آية واحدة.
— «إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي...، الذي يشهد لي...، ... أن شهادته التي يشهدها...، ... فشهد للحق...، وأنا لا أقبل شهادة...، وأما أنا فلي شهادة أعظم...، ... هي تشهد لي...، والآب نفسه... يشهد لي، وهي التي تشهد لي...» وهذه كلها جاءت متوالية وراء بعضها في الآيات (٥: ٣١—٣٩)

كذلك كلمة «السجود» تتكرر عشر مرات في خمس آيات متتالية:
«آباؤنا سجدوا...، ... يُسجد فيه...، تسجدون...، أنتم تسجدون...، أما نحن فنسجد...، ... حين الساجدون...، يسجدون...، ... مثل هؤلاء الساجدين له، ... والذين يسجدون...، ينبغي أن يسجدوا.» (٤: ٢٠—٢٤)

كذلك كلمة «الخبز» أي الجسد، تتكرر ١٦ مرة متتالية في أصحاح واحد (يو٦: ٢٧—٥٨). ولا يجهل القارىء قيمة «الجسد» في المسيح.

كذلك كلمة «الحياة» ومشتقاتها (الحي، يحيا... إلخ...) تتكرر ١٩ مرة متتالية في نفس هذا الأصحاح السادس.

كذلك كلمة «الثبات» ومشتقاتها (يثبت، اثبتوا... إلخ...) تتكرر ١٠ مرات في فقرة قصيرة (يو١٥: ١—١٠).

كذلك يهتم إنجيل يوحنا أن يكرر أيضاً الجمل وأشباه الجمل التي تحمل حقائق هامة عن المسيح للتركيز والترسيخ وزيادة الإستعلان:
«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه...، أما أنا فإني الراعي الصالح...» (يو١٠: ١١—١٤)

وواضح أمام القارىء أن كل المكررات في إنجيل يوحنا تحمل بحد ذاتها ثقلاً عالياً في الحياة الروحية وفي الفكر اللاهوتي الخلاصي، وإنجيل يوحنا في هذا يلتزم بالروح العبرية وبالدرجة الأولى.

ويلاحظ العالم وستكوت(٦) أن إنجيل يوحنا يخالف الثلاثة الأناجيل الأخرى في إيراد ما جاء

6 Westcott, The Gospel of St. John, LI.

على لسان المسيح: «فأجاب قائلاً» وهو التعبير الصحيح بحسب اللغة اليونانية. فإنجيل يوحنا يقول هكذا: «فأجاب وقال» (يو١:٤٨و٥٠؛ ٢:١٩؛ ٣:٣و١٠؛ ٤:١٣... إلخ...) وهو أسلوب أرامي صرف.

ثم جاء العالم الألماني أدولف سلاتر Adolf Slatter سنة ١٩٣٠م، واكتشف في إنجيل يوحنا آثاراً عبرية يهودية أكثر من الأرامية(٧)، وقدّم أمثلة غنية من التعبيرات الخاصة بالربيين وطريقتهم في التعبير. كما اكتشف أن كاتب الإنجيل يتقن طرق البحث والكتابة عند مدارس الربيين.

كذلك أمدّنا بعض العباقرة المتخصصين في اللغة العبرية بدراسات فتحت مجالات جديدة هامة في البحث وتأويل الإصطلاحات وردّها إلى معناها الأصلي العبري، أمثال: C.F. Moore سنة ١٩٢٧م، وأبحاثه تنحصر في الديانة اليهودية في فجر المسيحية، والعالم Israel Abraham سنة ١٩٣٧م، وأبحاثه في الفريسية والأناجيل، والعالم Starck Biller Beck's سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٨م، وأبحاثه في شرح العهد الجديد بالنسبة للتلمود والمدراش.

وبهذه التحقيقات المتقدمة التي بلغها علماء اللغات السامية في دراسة إنجيل يوحنا، يكون قد أُدخل أخيراً هذا الإنجيل بمنتهى الهدوء والثقة في جو الفكر اليهودي عائداً إلى تراث العهد القديم بأصوله وفروعه، تربته الأولى التي زُرع فيها.

* * *

(٧) على القارىء أن يعرف أن اللغة العبرانية هي اللغة المقدسة للتوراة والطقوس والصلوات. أما اللغة الأرامية فهي اللغة الدارجة للحديث والكتابة.

الفصل الثاني

التوراة والناموس في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «التوراة» = «توراح» تُعتبَر المفتاح لكل الأبحاث والمفهومات والتعاليم اليهودية وكانت تعني عدة معاني. ولكن المعنى الأصلي القديم يفيد التوجيهات والتعليمات والتعاليم التي استلمها الملهَمون من فم الله.

وكان هذا المعنى يغطي:

أولاً: الوصايا، الشريعة كقوانين ونظم، **الأحكام** التي تسلمها مشرعو وقضاة وملوك إسرائيل من الله، وكانت تُجمَع تحت كلمة **الناموس.**

ثانياً: كل ما كان من الوحي الذي نطق به الكهنة سواء عموميين أو محليين.

ثالثاً: تعاليم أُعطيت بفم الأنبياء تخص طبيعة الله وأوصافه ومعاملاته عبر التاريخ ومقاصده من جهة شعبه ومطالبه من الناس.

والخمسة الأسفار الأولى تسمى بالتوراة بنوع خصوصي. ولكن المعنى امتد ليشمل تعاليم الأسفار الأخرى وخاصة تعاليم الأنبياء.

كل هذا اعتُبِر أنه استعلانات إلهية تحويها التوراة في المفهوم التقليدي.

أ — التوراة والترجمة السبعينية

عند بدء ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية (الترجمة السبعينية) اختاروا كلمة **«الناموس»** = Law ليعبِّروا بها عن التوراة، ولكن أضافوا على ما كانت تحويه التوراة من أصول ثوابت ملحقات

أخرى.

ولكن كان الناموس لا يعبّر في الفكر اليهودي التقليدي عن التوراة، بل كان يعطي فقط المفهوم الأول المذكور أعلاه أي كل **الوصايا** من **قوانين ونظم وشريعة وأحكام**. فهذه وحدها التي كانت تسمى بالناموس في التقليد اليهودي القديم.

ولكن الترجمة السبعينية شملت بكلمة الناموس أموراً غريبة عن مفهوم التوراة في القديم مثل: **العوائد، والقواعد الوضعية، والمبادىء المعترف بها**، وهذه الإضافات هي من صنع الربيين التي قال عنها المسيح: «وصايا هي تعاليم الناس» أي ليست إلهية. وهي كلها إضافات يهودية مستحدثة بواسطة الربيين تحمل أخطاء شنيعة في التعليم كان من شأنها أن تطمس الحق في كلام الله، لذلك سماهم المسيح: **«أتركوهم، هم عميان قادة عميان، وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة» (مت١٥: ١٤) (أي في فخ الشيطان).**

ب — مفهوم الناموس في العهد الجديد

— في حين أننا نجد مفهوم الناموس في الأناجيل الثلاثة وفي سفر الأعمال يقتصر على مضمون الخمسة الأسفار فقط بما تشملهم من قوانين كهنوتية وعلمانية؛

— وفي رسالة القديس يعقوب ابتدأ الناموس يأخذ مفهومه السائد آنئذ عند الرواقيين عن الحرية: «ولكن من اطّلع على الناموس الكامل ناموس الحرية...» (يع ١: ٢٥)؛

— أما عند القديس بولس فكلمة الناموس تمتد لتشمل المعنى المتسع لتغطي كل العهد القديم باعتباره إعلانات عن الله، مع ميل واضح نحو الفكر اليوناني (الرواقي).

— نجد في إنجيل يوحنا، أو بمعنى أصح في فكر المسيح، أن حدود الناموس هي إلتزام كامل بمفهوم الناموس اليهودي كما حددته الترجمة السبعينية في حدود التوراة ولكن بمعناها المتسع والملتزم بحدود التوراة الأصيلة، أو بمعنى أوضح أنه لم يخرج عن التقليد اليهودي بحدوده المرسومة ولم ينحرف قط ناحية الأصول اليونانية.

هذا الإتجاه الإلتزامي في إنجيل يوحنا من جهة التوراة اليهودية، التي هي القاعدة الأساسية للفكر اليهودي، هو في غاية الأهمية كبرهان ضمني أصيل لتأصُّل إنجيل يوحنا والتزامه باليهودية. وهذه الدقة غير المعتادة بل والفائقة للتصور من نحو عدم الإنحراف ناحية الفكر اليوناني في ذلك الوقت وذلك المكان، وكون القديس يوحنا يكتب باليونانية لأهل العالم اليوناني آنئذ، لأمرٌ يذهل العقل.

فهو دليل بليغ لإرتباط كاتبه ارتباطاً عنيداً بنقل صورة صادقة أمينة حية لما قاله المسيح تماماً وبكل تحفُّظ.

ج — الناموس في إنجيل القديس يوحنا

١ — يو ٧ : ٥٠و٥١ «فقال لهم نيقوديموس — الذي جاء إليه ليلاً — وهو واحد منهم (من الفريسيين)، ألعلّ ناموسّنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل.»

حيث نص الناموس(١) هكذا: [أيُّ لحم ودم إذا سمع الكلمة من إنسان (مخالف) يُحكم عليه، فإذا لم يسمع منه أولاً فلا يقوم عليه الحكم.]

٢ — يو ٨ : ١٧و١٨ «وإن كنتُ أنا أدين فدينونتي حقٌ لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني. وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق. أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني». والمقابل في التوراة: أنظر عدد ٣٥: ٣٠، تث١٧: ٦، تث١٩: ١٥.

٣ — يو٧: ٢٣ وهنا يمعن الإنجيل في الكشف عن عمق وأصالة الدراية التي للقائل والكاتب بالناموس كما يفهمه الربيون حرفياً، حيث نجد التوراة منسوبة لموسى هكذا: «فإن كان الإنسان يقبل الختان في السبت لئلا يُنقض ناموس موسى أفتسخطون عليَّ لأني شفيت إنساناً كله في السبت».

هنا تظهر معرفة المسيح الدقيقة في إنجيل يوحنا بالإستثناءات التي وضعها الربيون حيث يقول التلمود: [الختان يرد (ينقض) وصية السبت.](٢)

٤ — يو ٩ : تفتيح عيني المولود أعمى يوم السبت.

حيث أُقيمت محكمة جزئية (ليست على مستوى السنهدريم) وتتكون من عدد من الفريسيين تختص بطرد الأعضاء الذين يكسرون الناموس من المجمع أو ربما رجمهم.

وقد أقاموا القضية على أساس أن الأعمى الذي صار بصيراً يعترف بإنسان على أنه نبي مع أنه لا يحفظ السبت، فهو يستحق الرجم، على أن لا يُحسب هذا أنه نبي بل خاطىء.

أ — في البداية انقسم الفريسيون على بعضهم، فالفريق الأول تمسك بتعليم أحد الربيين

---

[1] Exod. R. 21.2. Cited by: Shlatta & Dodd. op. cit., p. 78.

[2] Ibid.

العظام وهو هالليل الكبير(٣) صاحب المدرسة التي تتمسك بالحقائق الواقعة وفحصها على الواقع دون التأويل، فقالوا إن المسيح بما أنه أكمل معجزة لذلك لا يُحسب خاطئاً.

ب — المدرسة الأخرى لربي آخر اسمه شماي (٤)، وهي تأخذ بالنطق وبالمبدأ العام الذي يفوق الواقع، فقالوا هذا الشخص ليس من الله ولا يحسب نبياً صادقاً لأنه كسر الناموس.

وعلى أساس هذا الخلاف لجأوا إلى الولد نفسه بعد أن سألوا والديه وتحققوا من إتمام المعجزة وعرفوا أنه كامل السن يتحمل كل المسئوليات. وكانت النية مبيَّتة أن يجعلوا الأعمى الذي انفتحت عيناه يشهد أن يسوع ليس نبيًّا، لأنه يمكن الطعن في نبوته على أساس أنه رجل خاطىء لأنه يكسر الناموس، وحينئذ يَصْدُق حكم مدرسة شمّاي على المسيح نفسه. فإذا لم يشهد أنه نبي حينئذ يشككوه في صحة عملية الشفاء كآخِر وسيلة لإخراجه هو من العقاب، وهذا يظهر من السلوك الآتي:

استدعوا الولد لثاني مرة وبادروه بأمر رسمي خطير (بحسب الناموس مبيِّتين على غرض سيىء): «قالوا له: أعطِ مجداً لله Δός δόξαν τῷ θεῷ ». وهذه الجملة خطيرة للغاية — وكثير من الشرّاح لم يفطنوا إلى ما وراءها إذ حسبوها تمجيداً لله وحسب — ولكن هي جملة التمهيد القانوني لرجم الأعمى الذي تمت فيه المعجزة أو توقيع عقاب شديد عليه، وذلك بحسب شرح الميشْنا(٥)، إذ يتحتم قبل رجم المحكوم عليه أن يعترف، إذ تقول الميشْنا: [إنه وهم رافعون الحجر وهم على بعد عشرة أذرع (الذراع = ١٨—٢١ بوصة) يأمروه أن يعترف، وذلك بقولهم: «**أعطِ مجداً لله**»، وذلك بقصد أنه إذا مات يكون قد اعترف وأعطى المجد لله فيكون له نصيب في الدهر الآتي]. وهذا ما تم بالفعل في محاكمة عخان بن كرمي ورجمه: «فقال يشوع لعخان يا ابني أعطِ الآن مجداً للرب إله إسرائيل **واعترف له**، وأخبرني الآن ماذا عملت» (يش٧: ١٩). وبعد ذلك حكم برجمه هو وأسرته وحرق ممتلكاته.

فلما أعطى الولد المجد لله أصر على صحة المعجزة ورفض رفضاً باتاً الإنصياع وراءهم أن يسوع رجل خاطىء، بل ورفض أن يكرر لهم طريقة شفائه ولم يعبأ بنينهم وتهديدهم له بالموت. فلما أيقنوا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل شتموه [هذا خطأ قانوني]، وهددوه ملوِّحين بنوع العقوبة التي تناسب اتهاماً آخراً: «أنت تلميذ ذاك» مما يفيد بأنهم صمموا على تطبيق القرار الذي وضعه السنهدريم «أنَّ كل من يعترف بيسوع يُطرد من المجمع». ودافع الولد عن يسوع المسيح دفاعاً أظهر

---

³ Ibid.

⁴ Ibid., p. 18.

⁵ Cf. Mishnah san. 6,2. Ibid.

فيه أنه لم يُعطَ عينين فقط بل بصيرة وقلباً شجاعاً لا يهاب الموت في سبيل الشهادة للحق!!

وكان ردهم عليه: «أنت وُلدت في الخطايا بجملتك وأنت تعلمنا». لاحظ هنا سوء فهمهم لفقد العينين عند الأعمى أنه بسبب خطاياه وخطايا والديه (وُلدت في الخطية بجملتك). «أما نحن فإننا تلاميذ موسى» ومعروف أن هذا هو أرفع لقب فخري للفريسيين في التلمود(٦)... هنيئاً لهم!

وهكذا نجد في هذا الفصل أنه قد ورد على لسان يوحنا الرسول كل التعبيرات القضائية وأصول المحاكمات التي يتقنها الربيون، بكل دقة وأصالة مما يفيد قدرته الفذّة وتضلعه بأساليب الربيين وقوانين التوراة.

وأخيراً، فمن جهة الناموس لا ننسى أن القديس يوحنا منذ أن آمن بالمسيح وهو يترفع على ناموس موسى بجملته: «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١:١٧)، حيث «النعمة والحق» كان اليهود الربيون يقولون أنها تأتي كثمرة لدراسة التلمود. فهنا يكون القديس يوحنا قد نفى عن التلمود هذه الموهبة ورفعها عنه بعد ظهورها واستعلانها علنياً في شخص يسوع المسيح، وهذا يفيد ضمناً دراية القديس يوحنا السابقة بقيمة التوراة عند الفريسيين.

د — الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

وذلك فيما يخص نوال الحياة الأبدية وهي تأتي بلسان المسيح:

«الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم **كلمته** ثابتة فيكم، لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به. فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن **لكم فيها حياةً أبدية**. وهي التي تشهد لي. ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة.» (يو٥: ٣٧—٤٠)

هذا الحديث يكشف عن دراية عميقة بمبادىء الربيين المتوارثة. فكلمة «**فتّشوا**» كلمة مدرسية ترد على لسان الربيين، وتعني الدراسة المركّزة بشدة للتوراة أي «المِدْراش». فهذه الدراسة حسب تعليم الربيين الخاصة تؤدي إلى الحياة الأبدية: [التوراة بهذه الطريقة تعطي الذين يمارسونها حياة في هذا الدهر والدهر الآتي.](٧)

والإنجيل هنا يعارض هذا «الظن» بجملته وبكل ما يتبعه من جهد لسبب واحد وهو أن

6 Ibid., p. 81.

7 Pirqe Aboth vii.6. Cited by: C.H. Dodd, p. 82.

«كلمة الله اللوغس» أي استعلان الله الحقيقي غير موجود في قلوبهم «لأن كلمته ليست ثابتة فيكم». إذن، ليست كلمات التوراة بعد هي التي تعطي الحياة، ولكن كلمة الله المسيح الذي هو طريق الحياة وبابها الوحيد: «الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

هـ — ماء الحياة بين التوراة والمسيح

في قصة عرس قانا الجليل نجد ستة أجران ماء مُعدّة للتطهير حسب الناموس، لكلّ يوم جُرْن واليوم السابع استراحة ليس له تطهير. هذه حوّلها المسيح إلى خمر لتطهير آخر في سر الخمر المتحول إلى دم، فإن ذلك كان تطهيراً حسب الجسد وهذا تطهير وتقديس للروح بإهراق دم المسيح وانسكاب الحياة الأبدية منه.

وماء بئر يعقوب ذخر الأجيال وميراث أبناء يعقوب المحبوبين كبركة للحياة، هذا صار مُعْطِشاً بجلوس المسيح عليه. هذا حوّله المسيح إلى ماءٍ حيٍّ ينبع إلى الأبد بالإيمان بالمسيح إسرائيل الجديد، عِوَض يعقوب إسرائيل القديم.

وإذا كان في التلمود تتركز الإشارات كلها وفي مواضيع عديدة وخاصة في المدراش (أي كتاب دراسة التوراة) أن التوراة هي ماء الحياة [كما أن الماء هو الحياة بالنسبة للعالم، هكذا كلمات التوراة هي حياة العالم.] شرح على سفر التثنية ١١: ٢٢—٢٨؛ فقد جاء إنجيل يوحنا ليركّز على أن الإيمان بالمسيح وكلامه هو ينبوع ماء الحياة الأبدية.

و — خبز الحياة بين التوراة والمسيح

التوراة كانت تشير في تعليم الربيين أن كلامها هو خبز الحياة للسامعين، وأن عطية هذا الخبز من السماء صارت على يدي موسى: [إذا جاع عدوك فأطْعِمْه بكلام التوراة وإذا عطش فارْوِه بكلام التوراة][8]. جاء هذا على لسان رابي براخيا (بزيكتا ٨٠—ب).

وفي شروحات الربيين خلطوا بين خبز التوراة ومَنِّ موسى النازل من السماء، فيقولون أنه عندما ارتوى الشعب من ماء التوراة أرسل إليهم الماء من الصخرة، وعندما تغذى الشعب على كلام التوراة

[8] Ibid., p. 83.

نزل عليهم المنُّ من السماء. لذلك ظنوا أنه عند مجيء المسيا سينزل المن من السماء كعلامة لمجيئه.

وعلى هذا يردُّ إنجيل يوحنا: «آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم **ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي** (وهو) **يعطيكم الخبز الحقيقي** من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب **حياة للعالم**. فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليَّ **فلا يجوع** ومن يؤمن بي **فلا يعطش أبداً**.» (يو٦: ٣١—٣٥)

وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد أنهى على رجاء الربيين في التوراة وفي المنِّ المنتظر بإعلانه عن نفسه أنه هو خبز الحياة الذي نزل فعلاً من السماء ليكون حياة للعالم كله سواء بكلمته كينبوع روح الحياة أو جسده كمأكلٍ للحق وللحياة الأبدية.

ز — الخمر بين التوراة والمسيح

لقد جعل الربِّيون الخمر رمزاً للتوراة أي أنها تُطيِّب القلب وتُبْهج الفكر وذلك في شرحهم لكلام الحكمة الذي جاء في سفر الأمثال: «هلموا كُلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتُها» (أم٩: ٥). فشرحها الربيون هكذا: [الله تكلم: ما السبب في جَعْلكم تأكلون المن وتشربون من البئر (الصخرة)؟ هذا بسبب أنكم قبلتم الأوامر والوصايا وهكذا باستحقاق خبز (التوراة أي كلامه) أكلتم المنَّ، واستحقاق الخمر التي مزجتُها لكم (أي كلام التوراة المشروح) شربتم من ماء البئر (الصخرة).](٩)

وبهذا يكون الربيون قد جعلوا الخمر رمز التوراة.

وعلى هذا كانت أول معجزة قام بها المسيح في إنجيل يوحنا هي إعطاءهم خمراً جيداً بتحويل الماء الذي للتطهير (رمز التوراة). وجاء على فم رئيس المتكأ تلميح أن الخمر الأول الذي كان يُعطى هو الدون أي ردیئاً، وأن الجيد جاء بعد الرديء. وهكذا يمعن إنجيل يوحنا في إعطاء المقارنة بين خمر الربيين وخمر المسيح أي بين «شِبْه السموات وظِلِّها» (عب٨: ٥) وبين الحق الإلهي (الأليثيا) الذي استُعلِن بالمسيح.

---

9 Ibid., p. 84.

ح — النور بين التوراة والمسيح

في شرح الربيين لسفر العدد (٦:٥٢) فصل ٤١ على بركة الكهنوت: [يضيء الرب بوجهه عليك أي بنور التوراة.]

وأيضاً في شرح (بابا باثرا ٤ أ) وشرح (بابا ابن بطا) موجهين كلامهم إلى هيرودس الكبير بعد أن قتل الربيين: [أنت قد أطفأت نور العالم]. وهذا كان شائعاً أيام المسيح، فكان رد المسيح عليهم هكذا: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢). وهذا أثار الفريسيين فقالوا له: «أنت تشهد لنفسك! شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيتُ وإلى أين أذهب» (يو٨: ١٣و١٤). وطبعاً يشير المسيح هنا إلى المقارنة بين مجيء التوراة على فم موسى — بيد ملائكة — وبين مجيئه هو من الآب وأنه هو مصدر النور في التوراة. وللأسف جاء النور الحقيقي إلى خاصَّته أما خاصَّته فلم تقبله — لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

وقد أشارت الأناجيل الثلاثة إلى حادثة التجلي: «وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه» (مت١٧: ٢و٣). وكانت هذه إشارة واضحة أن المسيح هو التوراة الجديدة كلمة الله المنيرة التي لما قبل موسى قديماً شِبْهها وظِلَّها فقط لمع وجهه. وها هنا موسى نفسه جاء ليشهد له.

ولم يكن جزافاً أيضاً أن يظهر المسيح لشاول في وسط النهار في السماء بوجه أكثر لمعاناً من الشمس لكي يدرك شاول أنه صار خادم الأقداس العليا وليس عبداً بعد ليُرقِّع ناموس موسى.

وفي إنجيل يوحنا لم تُذكر حادثة التجلي باعتبار أن المسيح كان متجلياً بطول إقامته: «ونحن رأينا مجده»، وهذه بحدّ ذاتها إشارة أيضاً إلى التوراة الجديدة لإستعلان مجد الله بالإنجيل في وجه يسوع المسيح.

وهكذا تتضافر كافة الأسفار وخاصة إنجيل يوحنا في دحض دعوى الربيين والحكماء اليهود فيما يخص التعليم الصحيح عن الله وكلمته.

الفصل الثالث

المسيَّا في إنجيل القديس يوحنا (١)

ماشيَّحْ (عبري) *māšîaḥ*

ماشيحا (أرامي) *mᵉšîḥā'*   (يوناني) Μεσσίας

(يو١: ٤١ و٤: ٢٥)

أ ــ لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

إنجيل يوحنا يُعتبَر الوحيد بين جميع أسفار العهد الجديد الذي استخدم كلمة «مسيَّا» (وهي الترجمة اليونانية للكلمة العبرانية كما جاءت في كتب اليهود). وذلك في إنجيل يوحنا ١: ٤١: «هذا وَجَد أولاً أخاه سمعان فقال له قد وجدنا «مسيَّا» الذي تفسيره المسيح». وظل إنجيل يوحنا يستخدم بعد ذلك لقب المسيح بدل مسيَّا إلا في أصحاح ٤ عدد ٢٥: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيَّا (الذي يُقال له المسيح) يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء».

ولكن حَرَصَ إنجيل يوحنا أن يستخدم اللفظين «مسيَّا» و«المسيح» ليس بالمفهوم الذي كان متداولاً بين الشعب بحسب النبوات التي كانوا يترقبون تتميمها، لأن شخصية «مسيا» كانت مرتبطة في النبوات بالملك الذي سيأتي من بيت داود يملك على إسرائيل مُلكاً فُهم في التقليد فَهماً سياسياً، الأمر الذي تحاشاه إنجيل يوحنا بكل حرص في كل ما كان يرتبط بشخص الرب، حتى لا يظهر المسيح على الأساس السياسي الذي كان يتلهفه الشعب ويخشاه الفريسيون والربِّيون ويعملون له ألف حساب.

---

(١) «مسيَّا» بالعبري تعني «الممسوح»، لذلك ترجمتها السبعينية بـ«المسيح» أي الممسوح χριστός من أصل الكلمة χρίω أي «يمسح»، بمعنى «المدهون» بقرن الدهن مَلِكاً على إسرائيل. والوعد بالمسيح أو المسيَّا جاء على فم ناثان النبي لداود الملك بأن من نسله من يأتي ليملك على كرسيه لإسرائيل إلى الأبد (٢صم٧: ١٢—١٧).

علماً بأن كافة النبوات التي جاءت عن شخص المسيا أو الشخص المنقذ لإسرائيل كملك على بيت داود خلطت بين أوصاف الملك السياسي والملك الروحي، أي بين الشخصية الملكية التي تبدو دنيوية والشخصية الإلهية التي للمسيح. كذلك فالأناجيل الثلاثة لم تفرّق بوضوح في بادىء الأمر – خاصة إنجيل لوقا – بين هذه الصفات بل وأمعنت في التأكيد بأنه «المسيح الملك.» (لو٢٣: ٢)

ولكن إنجيل يوحنا حينما ذكر الملوكية للمسيح، أعلنها على أنها «ملك إسرائيل» (١: ٤٩)، وذلك على لسان نثنائيل. هذا صحيح لأن هذا هو لقب يهوه نفسه كما جاء في سفر إشعياء (٤٤: ٦).

غير أن هذا اللقب، أي «ملك إسرائيل»، اختاره أيضاً الكهنة والفريسيون حينما كانوا يخاطبون المسيح وهو على الصليب للتحقير (مت٢٧: ٤٢ ومر١٥: ٣٢).

أما إنجيل يوحنا فقد اختار هذين اللقبين معاً «مسيا» و«ملك إسرائيل» اللذين يخصّان ابن الله فعلاً. فـ«مسيّا» هو حسب آمال اليهود وتحقيق نبوات الأنبياء، و«ملك إسرائيل» (الجديد) هو على المستوى الروحي وليس السياسي، لأن السياسي ينحصر في لقب **«ملك اليهود»**، وقد ورد دون اختيار إنجيل يوحنا على لسان بيلاطس البنطي في يو١٨: ٣٣ حيث هذا اللقب مكروه غاية الكره عند اليهود: «فقال (بيلاطس) لليهود هوذا ملككم... أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلاّ قيصر. فحينئذ أسْلَمه إليهم ليُصْلَب... وكتب بيلاطس عنواناً ووضعه على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري **ملك اليهود**... فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس لا تكتب ملك اليهود.» (يو١٩: ١٤–٢١)

ولكن حينما سأله بيلاطس: «هل أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع أَمِنْ ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟» (يو١٨: ٣٣و٣٤). وقصد المسيح بذلك أن يوجه سؤالاً خطيراً لبيلاطس بمعنى هل أجاوِبُ على سؤالك على أنك وأنت روماني تعني هذا فعلاً؟ آخذاً كلمة «ملك» على أساس سياسي؟ فلما أجاب بيلاطس أنه إنما يكرر الإتهام الذي وضعه اليهود عليه وهم المسئولون عن ذلك الإتهام، حينئذ أجاب يسوع ليوضح له أنه فعلاً ملك ولكن ليس بالمفهوم السياسي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». فانتهز بيلاطس هذه الفرصة ليأخذ عليه أنه قال أنه ملك قائلاً: «أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع أنت (الذي) تقول أني ملك. أنا أتيت إلى العالم لأشهد للحق لهذا وُلدتُ أنا» (الترجمة الدقيقة) (يو١٨: ٣٦و٣٧).

وواضح أن الإنجيل يقصد من اصطلاح «ملك» في مضمون كلمة «مملكتي» لقب المسيّا الخاص اليهودي كصاحب سلطان على المستوى الروحي ولكن «ملك» فقط لمن يعرف الحق وأنه جاء ليُسلّم هذا الحق للعالم.

ولقد كان المسيح حريصاً أن لا يُشاعَ عنه أنه «المسيّا» مسيح الرب: «وأنتم من تقولون أني أنا؟ فأجاب بطرس وقال **مسيح الله**. فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد» (لو٩: ٢٠و٢١) وذلك تحاشياً لخطأ إثارة مشكلة الملك السياسي.

ب ــ المسيَّا، لا يعرف أحد من أين يأتي:

«ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (يو٧: ٢٧). هذا كان شائعاً في المصادر اليهودية عموماً أن المسيَّا قد أتى إلى العالم ولكنه مُخْفَى بالعناية الإلهية، وأنه سيظهر فجأة ولا يعرف أحد من أين يأتي، ويكون إنساناً كاملاً مهيَّأً للعمل الذي سيضطلع به وأهمه حكم إسرائيل، لذلك فمنذ ميلاده وحتى ظهوره سيكون أمراً مخفياً. وقد اجتهد بعض الربيين في التخمين أنه ربما يكون في روما أو في الشمال والبعض قال أنه اختفى في الفردوس لبعض الوقت. وفي مؤلَّف يهودي معاصر لإنجيل يوحنا وهو سفر عزرا الرابع ١٣: ٥٢ يُرمَز إليه بأنه سيظهر من البحر (على القارىء أن يربط ذلك مع سَيْر المسيح على المياه وظهوره فجأة في كفر ناحوم ــ يو٦: ٢٤و٢٥). على هذا الأساس بدأ اليهود يحاورون يسوع أنه لا يمكن أن يكون هو المسيَّا لأنه معروف أنه من الجليل، ولكن بتهكُّم ظاهر يرد عليهم المسيح أنه لا من روما ولا من الشمال ولا من الفردوس بل من الله نفسه: «فنادى يسوع وهو يعلِّم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا. ومن نفسي لم آتِ بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني.» (يو٧: ٢٨و٢٩)

ج ــ المسيَّا لا يموت:

«فأجابه الجمع نحن سمعنا من الناموس (التوراة) أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان.» (يو١٢: ٣٤)

هذا لأن الشعب كان قد تسلم من الربيين تعاليم عن التوراة مأخوذة بالفكر الجسدي (إش٩: ٧) أن الملك الآتي (أي المسيا) سيحكم إلى الأبد، فأخذها الربِّيون أنه حكم زمني على الأرض.

ويدحض الإنجيل هذه الحجة ويرد عليها من واقع نصها الأصلي من الأنبياء. ويرد عليها بأن

الموت الذي سيباشره المسيح إنما بقصد أن يقوم ويبقى إلى الأبد، ليكون سلطانه على السماء والأرض، وليس ذلك فقط بل لكي يعطي كل من يؤمن به أن يبقى هو أيضاً حيًّا إلى الأبد.

الفصل الرابع

«جاء إلى خاصَّته وخاصَّته لم تقبله»

تفرُّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصَّته لم تقبله»

التخصص الأول والأساسي لإنجيل يوحنا هو استعلان طبيعة المسيح — كابن الله — وبالتالي استعلان اسم الآب وتمجيده كنتيجة حتمية لإستعلان وظهور الإبن. ولكن وإن كان هذا الإستعلان يخص بالدرجة الأولى خاصَّته أي شعب إسرائيل، إلا أنه جاء وفي تصميمه أن يجمع خرافاً من حظائر أخر (١٠:١٦) غير شعب إسرائيل، ويجمع «أبناء الله المتفرقين» (١١:٥٢) في جميع أنحاء العالم الذين اختصَّهم الروح منذ البدء ببصيرة نيِّرة للسعي وراء الحق الذي كانوا يترقبونه «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم» (٣:١٧)، «وأما من يفعل الحق فيُقْبِل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (٣:٢١). «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيْتُ إلى العالم لأشهد للحق. كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي.» (١٨:٣٧)

ولكن بالرغم من هذه الدائرة الهائلة المتسعة لعمل المسيح في العالم ومن أجل العالم، إلا أنه اختصَّ إسرائيل باستعلان ذاته أولاً ليتمجد إسرائيل، كوعد الآباء والأنبياء «نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل.» (لو٢:٣٢)

هذا وبالرغم من ذلك أيضاً نجد أن إنجيل يوحنا يقوم — أكثر من جميع أسفار العهد الجديد — بمهمة فَضْح عيوب هذه الأمة المختارة شعباً ورؤساء وكهنة وناموسيين وفريسيين وكشف المدى المؤسف الذي انتهت إليه العبادة المقدسة إلى تجارة!! «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو٢:١٦)؛ وكيف انتهى الناموس وانتهت الوصايا إلى تخريج فتاوي وتزييف حقائق حتى صارت «تعاليم هي وصايا الناس» (مت١٥:٩، مر٧:٧)، وانحرف شرحها عن الحق وأبعدها عن مصدرها الذي هو

النور والحق والحياة، حتى وقع المعلم والتلميذ في ظلمات الجهالة والفساد، والأعمى قاد الأعمى إلى الحفرة. «أتركوهم هم عميان قادة عميان» (مت١٥: ١٤). «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي — مفرد λόγος (الحق) — أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٤٣و٤٤)

ولكن رسالته كانت تحتم أن يبدأ بإسرائيل، خاصّته. فكلمته الأولى لا بد أن تُزْرَعَ في تربتها الأصلية لأن قلوباً كثيرة كانت تنتظرها بفارغ الصبر وهي معها على ميعاد. أليس هو القائل أن «الخلاص من اليهود» (يو٤: ٢٢)؟

لقد جهلوا الإستعلان وقت ظهوره لأن كلمة الله العظمى والمخوفة التي سُلِّمت إليهم بيد ملائكة بددوها وطمروها في طين أطماعهم وشهواتهم «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته λόγος ثابتة فيكم.» (يو٥: ٣٧و٣٨)

وطبيعة الله الذي كانوا يعبدونه بالجهد نهاراً وليلاً بأوفر غيرة وتوقير وحماس لم يعرفوها إذ لم يكن لها وجودٌ في قلوبهم ولا أدركوا ماذا يعبدون ومَنْ يعبدون: «وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو١٦: ٣)، «فقالوا له أين هو أبوك. أجاب يسوع لستم تعرفوني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو٨: ١٩)، «أبي هو الذي يمجّدني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه.» (يو٨: ٥٤و٥٥)

والمسيح يعنِّفهم بشدة على كبريائهم الكاذب وثقتهم في الله التي ليس لها أساس في قلوبهم وسلوكهم. فحقائق إيمانهم المسلَّم إليهم وتاريخ عناية الله بهم وإعزازه لهم على أساس أمانتهم ذهبت أدراج الريح، وعاشوا وباتوا بلا تاريخ صادق وبلا ميراث لأن الله سحب كلمته من قلوبهم واستردَّ مفاتيح ملكوت السموات التي أغلقوها في وجه الداخلين، فلا دخلوا هم ولا جعلوا الداخلين يدخلون. فانغلقت عيونهم وقلوبهم عن أن ترى أو تسمع لأنهم أساءوا إلى إلههم واستهانوا بمخلِّصهم.

الله تراءى لآبائهم، أما هم فعميت أبصارهم. فأين هم من ميراث يعقوب «فدعا يعقوب اسم المكان فَنِيئِيل. قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونُجِّيَتْ نفسي» (تك٣٢: ٣٠). ثم أين هم من مخافة آبائهم ورِعْدتهم عند سماع صوت الله من بعيد؟ «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخِّن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت.» (خر٢٠: ١٨و١٩)

أين الأمانة والودّ وعبادة الحب التي أحب الله فيها إسرائيل كعروس فعاشت أيامها الحلوة في كَنَفِ عريسها الذي تراءى لهم فيها بشبه مجده، ومن فرحهم واطمئنانهم ودالتهم جلسوا أمامه وأكلوا

وشربوا في حضرته كإفخارستيا عظمى سابقة لأوانها: «ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شِبْه صَنْعَةٍ من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا.» (خر٢٤: ١٠و١١)

ثم أيُّ شعبٍ من شعوب الأرض طُرًّا تعاهد الله معه بصوته وسط النار ولقَّنه كلام شريعته مسموعة ومكتوبة؟ عشر كلمات خرجت من فم الله كميثاق وعهد خانها إسرائيل وأفسدها وأعطى لصاحبها القفا دون الوجه، نقضوها وادَّعى رؤساؤهم ومعلموهم كذباً ورياءً أنهم لها حافظون: «فكلَّمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم ترَوا صورة بل صوتاً وأخبركم بعهده الذي أمركم أن تعملوا به (أي) الكلماتِ العَشْرِ وكتبه على لَوحَيْ حجر» (تث٤: ١٢و١٣). «من السماء أسْمَعَك صوته لينذرك. وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار. ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم...» (تث٤: ٣٦و٣٧)؛ «وجهاً لوجه تكلَّم الرب معنا في الجبل من وسط النار أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب. لأنكم خفتم من أجل النار.» (تث٥: ٤و٥)

جاء المسيح في إنجيل يوحنا وكأنه يحاسبهم على كل هذه المراحم والعهود والوعود الطيبة مع كل التدليلات التي دلل الله بها شعبه الذي لم يَرْعَ عهداً ولا وعداً. بدأ المسيح يحاسب الرؤساء على الوكالة، كان يتكلم كمن هو نادم على المراحم العظمى التي أسبغها عليهم مجاناً فعبثوا بها وأهانوا مُعطيها: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم... الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو٨: ٣٩و٤٧). «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي؟» (يو٥: ٤٦و٤٧)

الفصل الخامس

دراية إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم

(١) درايته للإمتيازات الفائقة التي منحت لليهود.
(٢) درايته المدروسة للمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهوديه.
(٣) استخدامه للنبوات وخاصة ما كان يتنبر فيها للمسيا.

(١) وفي مطلع الإنجيل، وكأنها عريضة الإتهام التي تسبق المناقشة والحكم إزاء الإمتياز الصارخ الذي خانوه بإصرار راسخ: «إلى خاصَّته جاء (النور) وخاصَّته لم تقبله» (يو١ : ١١): ذلك لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور؛ يضع الإنجيل موضوع اليهود كإفتتاحية عامة لرسالة المسيح وكأنه الموضوع الشاغل للمسيح منذ البداية. وبهذا المعنى بدا المسيح وكأنه يطالب بمكانته المفروضة والمهمَلة بين المراكز الدينية!

أما كون المسيح يمتُّ لإسرائيل كما كان الله في العهد القديم، فهذا واقع ملموس. اسمعه وهو يستقبل تلميذاً يهودياً صادق الروح والعبادة، ولأول مرة، إنه نثنائيل: «هوذا **إسرائيلي حقاً** لا غش فيه» (يو١ : ٤٧). اسمعه يخاطب السامرية مفتخراً بإسرائيل صَنْعة يديه: «إن الخلاص هو من اليهود» (يو٤ : ٢٢). ومفتخراً بعبادة إسرائيل الذي وضع أساسها المتين: «**أما نحن فنسجد لِمَا نعلم!!**» (يو٤ : ٢٢). ثم انظر أين يضع المسيح نفسه في الهيكل: «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة.» (يو٢ : ١٦)

وعلى هذه الركائز الهامة يبدأ إنجيل يوحنا في المقابل يبني أساس العهد الجديد: فهو مع **إسرائيل الحق** الذي لا غشَّ فيه، أي مع الشعب **الجديد** من كل أنحاء العالم، على أساس **الخلاص** الذي يشمل كل العالم كلَّ من يُقْبِل إليه، وأساس **العبادة بالروح والحق**، والصلاة للآب بروح البنوة. وقد كان كل هذا الإمتياز الجديد من نصيب إسرائيل اليهود لو تعقَّلوا و«فتشوا الكتب» (يو٥ : ٣٩)، وهي الأمانة التي وُكِّلوا عليها، ولكنهم رفضوا نصيبهم وداسوا على وعد الله بلا أي تمييز

فهلكوا وهلك امتيازهم وهلك كل من انحاز إليهم: «فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون» (مت٢٣: ١٣). اختاروا الأرض وباعوا المسيح لئلا «يأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا.» (يو١١: ٤٨)

(٢) أما دراية إنجيل يوحنا بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية والتي تشير بلا ملل إلى مجيء المسيح وعهد الخلاص، فهي كالآتي:

+ **ففي إبراهيم**، أوضح كيف بدأ العهد مرتكزاً على إيمان إبراهيم النادر المثال. ولكن كان إبراهيم يتطلع إلى من يأتي ليحقق الوعد، إلى مَنْ كان قبله وسيأتي بعده: «أبوكم إبراهيم تهلَّل بأن يرى يومي فرأى وفرح» و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨: ٥٦و٥٨)

وإن كان في إبراهيم قد صار الوعد بالحرية للنسل «إننا ذرية إبراهيم ولم نُستَعْبَد لأحد قط»، ففي المسيح حرية بالحق من الخطية أصل كل عبودية: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٣و٣٦)

+ **وفي يعقوب** إسرائيل أوضح كيف رأى الآتي في حلم ليصل الأرض بالسماء: «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١: ٥١). فالذي رآه يعقوب إسرائيل في حلم كوعد، مارسه المسيح كعمل أمام عيونهم «كل حين في المجمع وفي الهيكل.» (يو١٨: ٢٠)

وإن كان يعقوب حفر بئراً ليشرب منه النسل الشريد، فهوذا ينبوع ماء الحياة مجاناً الذي ينبع إلى الأبد والذي كلُّ «من يشرب من (هذا) الماء لن يعطش إلى الأبد... بل يصير فيه ينبوع ماء (ينبع) إلى حياة أبدية».

+ **وفي موسى:**

الذي أعطاهم الناموس ولكن عسر عليهم حمله فألقوه عنهم كما يشهد بذلك بطرس الرسول أمام مجمع الرسل: «قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون... فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ (وصايا الختان وغيره) **لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله**» (أع١٥: ٧—١٠). هذا الذي لم يستطع الآباء حمله جاء المسيح ليكمله كاملاً عنهم: «ما جئتُ لأنقُضَ (الناموس) بل لأُكمِّل (الناموس)» (مت٥: ١٧)، لا كغريب عن الناموس ولا عن واضع الناموس بل «مشهوداً له من الناموس والأنبياء» (رو٣: ٢١)، «لأنكم لو كنتم تصدِّقون موسى لكنتم تصدقونني.» (يو٥: ٤٦)

+ السبت اليهودي:

ومرتين وهو يكسر سبت الناموس أمامهم في إنجيل يوحنا[1] حتى ينقل عقولهم من سبت الراحة الجسدية إلى سبت الراحة العليا الأبدي وإلى واضع السبت ورب السبت أيضاً. ولما قاوموه مدّعين لأنفسهم الحفاظ على الناموس، قدم لهم الرد القانوني إذ استحضر شاهدين على صحة كسره للوصية: الله الآب، بالإضافة إلى نفسه باعتباره الإبن المرسل. وأضاف: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥:١٧)، مؤكداً صلاحية الشاهدين بالأعمال التي يعملها باسم الآب وعلى أساس أن لا الله الآب ولا هو توقّفا عن العمل في السبت ولا بعد السبت.

+ الفصح اليهودي:

أما ذبيحة الناموس العظمى «الفصح» التي كانت محور الصلاة والطقوس التي تشير إلى مركز الخلاص السرّي أي «خروف الفصح»، جعلها إنجيل يوحنا رسم افتتاح لعهد النعمة في إنجيله، وذلك حينما أشار المعمدان إلى المسيح قبل أن يبدأ عمله: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩). ويعود إنجيل يوحنا ليجعله هو نفسه رسم الختام لإنجيله، مشيراً إلى المسيح الحمل المذبوح على الصليب: «وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات... لأن هذا كان ليتم الكتاب (الناموس والأنبياء) القائل عَظْمٌ لا يُكْسَرُ منه.» (يو١٩: ٣٣و٣٦)

وهكذا كان فصح العهد القديم ينتظر استعلان سرّه في المسيح.

+ الحية النحاسية:

وبسبب تمردهم أطلق الله عليهم الحيات المحرقة في البرية، ولما أدركوا خطيتهم رفع موسى الحية النحاسية على عصاته لكي كل من يرفع نظره إليها يُشفى ولا يموت. كانت الحية رمز الخطية، ولما لم يكن في مقدور موسى أن يرفع عنهم الخطية، مثّل الخطية بالحية النحاسية والحية هي أصل الخطية وداؤها وكأنها ماتت. وهكذا تنبأ موسى بصورة عملية عن المسيح الذي سيقتل الخطية مع الحية بالجسد عندما يُرفع على الصليب ويفوز بالشيطان تحت رجليه ليسحق قوة رأسه المدبِّرة للخطية: «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين، أشْهَرَهُم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب)» (كو٢: ١٥). ولم يدفع ثمن ذلك سوى سحق عَقِبِه، أي الجسد الذي أقامه من الموت حتى كلٌّ من نظر بالإيمان إلى المسيح مصلوباً نال الشفاء والخلاص والقيامة من الخطية والموت.

وهكذا حلَّ إنجيل يوحنا سِرَّ لغز الحية النحاسية التي كلٌّ من نظر إليها يُشفى ولا يموت. وما لم

---

(١) في شفاء مريض بيت حسدا (يو٥:٩)، وفي شفاء المولود أعمى (يو٩:١٤).

يستطِعْه موسى أكمله المسيح. «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٤و١٥)

+ المن السماوي:

ثم يسلِّط إنجيل يوحنا نور الإستعلان ليكشف سر المن السماوي النازل من السماء، الذي أعال إسرائيل وأمَدَّهم بالحياة في قفر التيه أربعين سنة، فكان في ظاهره رعاية من السماء بإعجاز بالغ لشعب أعزَّه الله وأكرمه بأن يطعمه هكذا خبز السماء، وإذا بالإنجيل يستعلن فيه سر التجسد الإلهي للإبن الذي نزل من السماء ليعطي جسده على الأرض خبزاً للحياة كلُّ من يأكل منه لا يموت بل تكون له الحياة الأبدية: «آباؤنا أكلوا المنَّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. ... أنا هو خبز الحياة. من يُقْبِل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣١—٣٥)

وهكذا بمنتهى الإختصار يكشف الإنجيل كيف أن اليهود أَحَطُّوا من قيمة المن وجعلوه مجرد خبز سقط عليهم — بنوع ممتاز — من السماء بدعاء موسى، وكيف أن المسيح يميط اللثام عن عظمة هذا المن وسرِّه الإلهي الغالي الخطير: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي...» (يو٦: ٣٢). فالمن كان عطية الآب السماوي حاملاً فيه سِرَّ بذل الإبن في جسد يغتذي عليه الإنسان في العالم كله لينال به وفيه الحياة الأبدية.

وهكذا يلاحظ القارىء أن كل ما كان امتيازاً محدوداً بالجسد لشعب إسرائيل، صار امتيازاً عاماً مطلقاً لكل الإنسان، وبالروح للحياة الأفضل أي الروحية الأبدية.

وعلى القارىء أن يلاحظ في هذه المقارنات كلها بين الناموس وموسى من جهة وبين المسيح من جهة أخرى، أن وظيفة إنجيل يوحنا كانت دائماً دائماً متركزة في استعلان طبيعة المسيح الإلهية الفائقة كأساس، وفي تكميله لكل خصائص الناموس وكل رجاء الآباء والأنبياء، وبالأكثر جداً في استعلان محبة الله الشديدة لإسرائيل وكيف توقفت لتمتد فتشمل العالم كله في شخص المسيح.

(٣) درايته بالنبوات وخاصة ما كان منها يشير إلى المسيح:

استخدم إنجيل يوحنا التعاليم المتأخرة للأنبياء الذين انشغلوا أو شَغَلهم الروح بوصف الملكوت والملك القادم، غير أن الإنجيل لم يدخل في التفاصيل ليشرح أعماق النبوة بل ترك ذلك للقارىء أو السامع بسبب الوضوح والضوء الساطع الذي ألقاه المسيح على كافة النبوات حتى أعماقها!

– من جهة الهيكل باعتباره قاعدة المُلك وعرشه وكيف بدأ المَلِكُ بتطهير كرسي مملكته؛ ومن جهة «المعرفة» التي تغطي الأرض كما تغطي المياه البحر؛ ثم محاولة قلب العرش كما حاول أخيتوفل قلب كرسي داود؛ ثم وضع نبوة إشعياء النبي عن ختام أعمال المسيا موضع التطبيق الحرفي في نهاية حياة المسيح بصورة مبدعة.

+ فمن جهة الهيكل:

قدَّم إنجيل يوحنا جسد المسيح باعتباره الهيكل الجديد الذي يجمع كافة المؤمنين به: «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه... وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢: ١٩و٢١) الذي صار يملأ السماء والأرض.

ولكن نَقْضَه للهيكل القديم سبقته محاولة تطهير حتى يركب الجديد على صورة صحيحة من أنقاض القديم: «فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل. الغنم والبقر وكَبَّ دراهم الصيارف وقلَّب موائدهم. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة. فتذكر تلاميذه أنه مكتوب **, غَيرةُ بيتك أكلتني،.**» (يو٢: ١٥–١٧)

+ ومن جهة المَلِك القادم:

– «فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون أوصنا مبارك الآتي باسم الرب **ملك إسرائيل.** ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب. لا تخافي يا ابنة صهيون. هوذا مَلِكُكِ يأتي جالساً على جحش أتان. وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً. ولكن لما تمجد يسوع حينئذ **تذكَّروا أن هذه كانت مكتوبة عنه وأنهم صنعوا هذه له.**» (يو١٢: ١٣–١٦)

سمة زمان الملك الآتي:

+ ستفيض المعرفة كمياه البحر:

«لأن الأرض تمتلىء من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر.» (حب٢: ١٤)

«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتُهم بيدهم لأُخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي، فرفضتهم – يقول الرب – بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلِّمون بعد كلُّ واحدٍ صاحبه وكلُّ واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم – يقول الرب – لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد.» (إر٣١: ٣١–٣٤)

وهذه هي الآية التي يقدمها إنجيل يوحنا ليعلن بها أن الأيام جاءت وصاحب العهد أتى، ووُضع العهد، وسكب الروح القدس روح المعرفة هكذا، حيث يقول المسيح عن نفسه: «لا يقدر أحد أن يُقْبِلَ إليَّ إن لم يجتذبْه الآب الذي أرسلني وأنا أُقيمه في اليوم الأخير. **إنه مكتوب في الأنبياء (إرميا): ويكون الجميع متعلّمين من الله.** فكل من سمع من الآب وتعلّم يُقْبِل اليَّ.» (يو٦: ٤٤و٤٥)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا هذا الوعد التاريخي المهيب بالإله الآتي، كما ورد في سفر إرميا النبي، بتحقيقه في عمق الزمن في المسيح ومن فمه.

أما من جهة تحقيق فيض المعرفة كالمياه التي تغطي البحر فيقول: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب (حبقّوق) **تجري من بطنه أنهار ماء حيٍّ. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه**... فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي، آخرون قالوا هذا هو المسيح.» (يو٧: ٣٧—٤١)

محاولة قلب العرش على طريقة أخيتوفل:

كان إعلاناً فَطِناً وجميلاً للغاية أن يكشف إنجيل يوحنا عن العلاقة النبوية المبدعة بين دور الإنقلاب الخائن الفاشل الذي حاول أخيتوفل أحد حكماء داود النبي القيام به ضد داود الملك والدور الأكثر خيانة والفاشل الذي قام به يهوذا أحد التلاميذ ضد مسيح الرب الملك الآتي على كرسي داود حسب النبوة. فيقول المسيح: «لست أقول عن جميعكم. أنا أعلم الذين اخترتهم. **لكن ليتم الكتاب** (المزامير): **الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عَقِبَه**» (يو١٣: ١٨). لم يذكر أخيتوفل بالإسم، كما لم يذكر يهوذا بالإسم، لأن إنجيل يوحنا يتوسم في القارىء الدراية بالكتب والذكاء أيضاً. ولكن داود النبي قالها بوضوح سابقاً بنفس الكلمات: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع عليَّ عقبه.» (مز٤١: ٩)

+ تقرير ختامي بفم إشعياء النبي عن أعمال المسيا:

كان منظراً حزيناً أسيفاً غاية الحزن أسيفاً غاية الأسف حينما تطلع التلاميذ الأمناء جداً لمعلمهم وتأكدوا كيف انتهت إليه خدمته من الفشل والصدود والعقوق، ولم يُخرجهم من هذا الحزن والأسى والأسف إلا عودة إلى النبوات يقرأون كيف حَكت النبوة قديماً وسابقاً عما هو حاصل أمام أعينهم فارتدّت إليهم روحهم: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به. ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله يا رب مَنْ صدَّق خبرنا ولمن استُعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدروا أن

يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم.» (يو١٢: ٣٧—٤٠)

ومما اخترناه للقارىء أعلاه — سواء ما جاء بفم المسيح أو ما جاء تعليقاً عليه — يتضح للقارىء قدرة إنجيل يوحنا الفذَّة في اختراق كل موقف من المواقف التي وقفها المسيح وردِّها إلى أصولها وجذورها الأولى في النبوات والتوراة عموماً، باستعلان عميق ودراية فائقة، وذلك في حَبْكٍ ليس له نظير وبروح العهد القديم، ثم الإمتداد بها لإعلان تكميلها بالروح في ملء الزمن «جئت لأُكمِّل»، كل ذلك في جمل قصيرة وكلمات بسيطة بلغت قمة الإعجاز الروحي حتى ينتهي القارىء حتماً إلى حقيقة هذا الإنجيل أنه كلمة الله بالحق.

الباب الثالث

المعايير الروحية التي يقوم عليها إنجيل القديس يوحنا

المعيار في الماديات هو الكيل الذي نكيل به الشيء لنعرف مقداره وقيمته؛ وفي الروحيات هو محاولة لقياس الأبعاد الروحية التي تحيط بالمسيح بقدر ما أعلنها هوعن نفسه وعن الآب وعن كيفية التعامل معه. وإنجيل يوحنا يهتم بهذه المعايير لأنها تعطي أولاً القيمة الروحية الأساسية لمعرفة المسيح ثم تؤسس عليها مقدار ما يتوجب علينا عمله بالنسبة للمسيح على أساس هذا المعيار.

فالمسيح «**حقٌّ**» هو؛ هذا معيار يقرر قيمة المسيح الروحية أو بالأصح الإلهية. وعلى أساس أن المسيح هو الحق، يقدم لنا الإنجيل ما يتوجب علينا عمله تجاه المسيح باعتباره أنه هو الحق، مثل أن نؤمن به إيماناً باتًّا وكلياً. لأنه إذا كان المسيح هو جوهر «**الحق**» أصبح الإيمان به هو الإيمان بالحق.

وكما أن الذي يتعامل بالمعايير المادية إذا هو غشّ فيها يحاكمُ بالقانون؛ كذلك في المعايير الروحية فإن كل من يخالف أصولها يُدان بحسب ما نطق به المسيح: «الكلام الذي تكلمت به هو يدينه.» (يو١٢: ٤٨)

بهذا نجد أن إنجيل يوحنا يقدم لنا في الحقيقة ناموساً كاملاً: **أولاً** استعلان معايير إلهية؛ **ثانياً** المعايير الإلهية أنشأت إلتزامات بشرية، **ثالثاً** والإلتزامات تخرجت منها قوانين وأحكام.

فحقيقة «الله نور» هي **أولاً** معيار، و«ليس فيه ظلمة البتة»، فهي معيار مطلق أي إلهيٌّ كامل.

وظهور هذا النور في المسيح أنشأ **ثانياً** إلتزاماً بالسير فيه كوصية أو أمر «سيروا ما دام لكم النور.» (يو١٢: ٣٥)

والوصية كالتزام تخرَّج منها **ثالثاً** قانون: كل من لا يسير في النور يدركه الظلام، وكل من يعيش في الظلام يُدان: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

وعلى القارىء أن يمعن التفكير في هذا الأمر لأن إنجيل يوحنا هو في الحقيقة إنجيل تشريعي

قانوني بالدرجة الأولى، أنظر كيف انتهى بمحاكمة عُقدت أمام محكمة عليا لم يشهد التاريخ لها نظير، إذ انضمت السلطتان العُظْميان: سلطة رئاسة الكهنوت اليهودي على سلطة الإمبراطورية الرومانية. فقراءة الإنجيل تحتاج إلى وعي قضائي، حتى إذا برز المعيار الروحي للإنسان؛ فعلى الضمير — حينئذٍ — أن يتيقظ للقانون الذي يتبعه حتماً ثم الدينونة.

وعلى القارىء أن يقيس نفسه ويحكم عليها بحسب الحكم الذي يتبع كسر الوصية، وإلا فلن يستفيد القارىء من استعلان المعايير الإلهية المتتابعة مثل: **النور، الحق، الحياة، الحب، الشهادة، المجد... إلخ.**

ويلاحظ القارىء أن الإنجيل لم يبوِّب هذه المعايير والأحكام ولم يعمل عمل المشرِّع المتخصص، فلم يبرز القوانين والأحكام لتأخذ رنينها القضائي كموسى النبي؛ ولكنه يعمل عمل الشاهد فهو يقدم النواميس والأحكام كمن سمع ورأى والآن يشهد على صدق ما يقول، ويترك للقارىء أن يشهد أيضاً لنفسه أو عليها، وللكنيسة أن تضع المنهج.

والمعايير في إنجيل يوحنا إما تأتي كمتقابلات مثل:

الحق والشهادة، النور والمجد، الحياة والدينونة، الإيمان والمعرفة.

أو تأتي فرادى مثل «المحبة»، «**الشركة** = الوحدة أو الإتحاد».

الفصل الأول
الحق والشهادة

أ ــ الحق

«الحق» الكلمة المفضلة التي كانت على لسان المسيح، ولِمَ لا، وهي كانت لهج الأنبياء ومحور الترديد في سفر المزامير، اقرأ مزمور ١١٩ وأنت تعرف ماذا كان «الحق» يعني عند داود النبي: «ليت طرقي تثبت في حفظ حقوقك...، يا رب علمني حقوقك...، أما عبدك فكان يهتم بحقوقك...، أنت اخترت لي طريق الحق...، ضَعْ لي يا رب ناموساً في طريق حقوقك...، لا تنزع من فمي قول الحق...؛ حقوقك كانت لي مزامير...، هذا صار لي لأني طلبت حقوقك...، فبصلاحك علمني حقوقك...، خير لي أنك أذللتني حتى أتعلم حقوقك...، حقوقك لم أنسَ...، كل وصاياك هي حق...، بعيد هو الخلاص من الخطاة الذين لم يطلبوا حقوقك...، بدء كلامك حق...، تفيض شفتاي بالتسبيح إذا علمتني حقوقك...»، كل هذا في مزمور واحد.

لقد ورث إنجيل يوحنا «الحق» كتعبير استعلاني يحمله المسيح للتعبير عن طبيعة الله أكثر من باقي أسفار العهد الجديد.

ويلاحظ أن كلمة «الحق» في اللغة العبرية ĕ'meth ذات مفهوم يختلف قليلاً عن مفهوم «الحق» في اللغة اليونانية. أما «الحق» الذي جاء على لسان المسيح فهو ينتهي في معظم المواضع إلى المعنى العبري القديم كما جاء في العهد القديم وخاصة المزامير وهي تعني: **الأمانة** Faithfulness ، **والصدق** Truthworthness ، وتفيد الديمومة Permanence وذلك من جهة الأخلاق واستقامتها، كما تفيد الثقة المؤكدة Sureness .

أما في اليونانية فتأتي بمعنى فلسفي وهو «الحقيقة» ἡ ἀλήθεια في المقابل لها وهو شبه الحقيقة أو ضدها وهو الغش والخداع Falsehood ، أو تأتي بمعنى Reality وهي الحقيقة الثابتة في مقابل المظهر Appearance .

والفرق بين المعنيين هو حاصل بين روح الشرق وروح الغرب، أو روح الأدب وروح العلم، أو روح الإنسان وروح الطبيعة، أو روح الضمير وروح العقل. وليس من العسير الوفاق بينهما، فالروحانية الحديثة التي تغلغلت القيم الجوهرية العليا المختفية في صميم المادة ألغت كثيراً من الفواصل والحواجز والأوهام التي كانت تمليها الفروق القاطعة في الذهنية القديمة بين المادة والروح أو بين المنظور وغير المنظور، فبعد تفجير الذرة والإنتهاء بها إلى مجرد طاقة تنتهي في غير المنظور بدون شكل ولا لون ولا كيان، تكون المادة قد كشفت عن صورة مطلقة عجيبة في جوهرها تمتُّ إلى الله مباشرة.

والمسيح كخالق للعالم المادي، أي هذه الطاقة الهائلة التي أبرزها إلى الوجود المادي المتعدد الأشكال والألوان، ليس من الصعب أن يجمع في نفسه بين «الحق» العبري الروحي القديم ĕ'meth و«الحق» أليثيا ἡ ἀλήθεια الفلسفي اليوناني الفكري المطلق الذي ينشغل بجوهر الوجود المادي. فهو جوهر الحياة وليس شبهها ولا مظهرها، وهو الأصل «بكر كل خليقة» (كو١: ١٥) وليس الصورة المخلوقة، وهو الروح بكل أعماقها وعلوها وكل مفاخرها ومجدها غير المنظور ولا المحدود، غير المدرَك، غير المفهوم وغير المعقول.

ولكن هو نفسه صاحب الجسد الملموس والمنظور والمدرَكُ المفهوم والمعقول جداً والمحبوب أيضاً. فقد جسَّد المسيح «أليثيا» اليونان وصالحها مع « ĕ'meth » العبرانيين، فهو الذي صالح الشعب مع الشعوب، والذي صالح السمائيين مع الأرضيين، والنفس مع الجسد! وهو كما هو بحسب الحق اليهودي الصادق الأمين والكائن الذي كان والذي أتى ويأتي أيضاً، الذي أُعطي كل سلطان مما في السموات وعلى الأرض معاً!!!

وكلمة «الحق» جاءت في إنجيل يوحنا للتعبير عن المسيحية عموماً كمعرفة شاملة تجمع في مسيحها كمال الأصول: «الله ... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله **وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين** الذي. وهو بهاء مجده ورسم جوهره **وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...**» (عب١: ١–٣)، فالمسيح لأنه كلمة الله صار استعلاناً كاملاً للألوهة؛ لأنه إن كان عمل الكلمة في الإنسان العادي هو الإعلان عما في عقل الإنسان أو الكشف عن ماهية الإنسان نفسه، فكلمة الله هو استعلان **كامل** لذات الله ولطبيعته التي لم تكن مُعْلَنة قبلاً (يو١: ١٨).

وكذلك هو استعلان **كامل للحياة الأبدية** لأنه قام من الموت غالباً سلطانه إلى الأبد (يو١١: ٢٥).

وهو أيضاً **استعلان كامل للمحبة**، لأنه بذل نفسه للموت عن الإنسان (يو٣: ١٦)، **واستعلان كامل للحق** لأنه لم يكن فيه غشّ (يو١٤: ٦)، **واستعلان كامل للقداسة** لأنه لم يعمل خطية واحدة!! (يو٨: ٤٦).

وحينما قال المسيح «أنا الحق» كان هذا أكمل استعلان لله في ذاته كإبن له، وذلك ليس بالفكر بل على مستوى الحياة والعمل. فلم يكن في المسيح قط ما يخلُّ ما بين المعرفة المطلقة والعمل الكامل، أو بين الحياة الأبدية والمثل كمن مات وقام بإرادته، وهكذا صار «**الحق**» الذي حمله المسيح إلينا هبةً عظمى للإنسان الذي كان قد أعوزه وحدة المعرفة والعمل عوض ما كان يصرخ به القديس بولس الرسول: «لأني لست **أعرف** ما أنا **أفعله** إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل.» (رو٧: ١٥)

وكان التجسد في المسيح الذي حمله، وأعطانا به أعظم وأصدق تعبير عن «**وحدة المعرفة والعمل**» في «**جوهر الحق** الواحد».

وكانت القدرة الفائقة للمسيح التي جازها في ذاته في كيفية إعطاء ذاته للإنسان، هكذا بالموت عنا والقيامة لنا وبنا، هي التي منحتنا هذه الموهبة الإلهية أي وحدة «المعرفة والعمل» في جوهر الحق المسلّم إلينا كعطية قائمة بذاتها بواسطة الروح القدس «**روح الحق، الذي يرشدكم إلى جميع الحق.**» (يو١٦: ١٣)

ولم يَعُدْ «**الحق**» في جوهره الإلهي شيئاً بعيد المنال، بعد أن تجسد المسيح، بمعنى حضوره الإلهي المبارك الذي تنازل به الله بين الناس «الله ظهر في الجسد» (١تى٣: ١٦) في شخص المسيح المبارك «وحلّ بيننا ورأينا مجده... مملوءاً نعمة **وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة**... أما النعمة **والحق** فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٤—١٧)

وقد صار وتم لنا بالفعل والعمل بحسب لاهوت القديس يوحنا أن من يثبت في الحق يثبت في الله، وأن من تنفتح بصيرته ويعرف الحق يعرف الله في طبيعته المستعلنة في الآب والإبن:
«ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا **بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه** يسوع المسيح. **هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.**» (١يو٥: ٢٠)

وقد صار «الحق» هو العامل المهيمن على حياة الإنسان الجديد ومحور عمله أخذاً وعطاءً. والحق جوهر فعّال إذا تملّك الإنسان حرَّره من كل قيد خاطىء: حرره من العالم وأهوائه، حرره من الجسد وإلحاحاته، حرره من الذات ورغباتها، حرره من الخطية وعبوديتها وشلَّ حركة جذورها الضاربة في الطبيعة البشرية القديمة، حرَّره من قصور العقل وخداع إدراكاته. لأن الحق يعطي رؤية صحيحة وأصيلة تخترق مظاهر الوجود جميعاً لتستقر في جوهرها صافية سالمة من كل غش وخداع المظاهر والأقنعة الخادعة التي للمادة. فالحق روح صافٍ «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١يوه ٦:٥). وهو يحكم الأكوان بقانون لا تخرج المادة عن حتميته.

والرب يسوع المسيح ابن الله روح خالص في جسد منظور: «الله روح» (يو٤: ٢٤)، ولكن لا يخرج جسده عن كمال معطيات الروح فيه، فالإتحاد كامل ومطلق بين الروح الإلهية والجسد البشري. لذلك فإنجيل يوحنا يعطي ابن الله المتجسد طابع الروح والحق بلا اهتزاز.

ومن روائع التعبيرات عن «الحق» الإلهي قول المسيح عن جسده ودمه: «جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ» (يو٦: ٥٥). هذه من التعبيرات النادرة التي تسخر من الإدراك الفلسفي للحق كونه عند الفلاسفة فكرياً مطلقاً ومجرداً. ولكن المسيح جاء ليعطي الإنسان أن يأكل الحق ويشربه بمعنى قبول روح الله ليستقر في أعماق هيكل الجسد.

هكذا دخل الله التاريخ البشري وفتحه عليه أي على الله، وعلى مصراعيه..

وهكذا اقتحم «الحق» الزمان الإنساني الذي تعفن بالجهالة ليعطيه تجديداً وامتداداً في نور الله وفي الحياة الأبدية.

وهكذا حاز الإنسان بالنهاية بصيرة روحية نيّرة يعرف بها الله معرفة الحب بل العشق الإلهي، فاستنار العقل البشري وأنار عتمة ليله الطويل وسطع نور الله في وجه يسوع المسيح من جديد على قلب الإنسان وروحه.

وكما أعطي الإنسان أن يأخذ الحق ويأكله أكلاً ويتمثله في جسده تمثيلاً فيقدسه وفي عقله فينيره، هكذا تحتم أن يُخرج الإنسان الحق من بطنه كأنهار ماء حي لأن هذا هو قانون الزرع والثمر، أو كما يقولون، حساب البيدر، فيقول الرب: «فليضىء نوركم هكذا قدام الناس» (مت٥: ١٦)، تماماً كما أعطي لكم أن «سيروا (في النور) ما دام لكم النور.» (يو١٢: ٣٥)

والحق في إنجيل يوحنا يقدس الإنسان «بالكلمة»: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي

كلمتكم به» (يو١٥: ٣)، كذلك يقول طالباً من الآب: «قدّسهم في حقك، كلامك هو حق» (يو١٧: ١٧)!!

وليس بالكلمة فقط نتقدس بل بدعاء اسم المسيح وحضوره نتقدس: «الذي صار لنا حكمة من الله و برًّا وقداسة وفداء.» (١كو١: ٣٠)

فدخول المسيح إلى العالم مصالحة، وحضوره تقديس، وأن نلمسه نصير ملوكاً وكهنةً. أما حضور المسيح فينا فهو بصورة سرّية وسرائرية دائمة لا تنقطع طالما لنا هذه المشيئة: «فبهذه المشيئة نحن **مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة**» (عب١٠: ١٠)؛ «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق (الله)، كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس — **وكأنه لا يرى يسوع** —: ما هو الحق؟» (يو١٨: ٣٧و٣٨)

والمسيح لم يجيء ليقيم حدود الحق بين الناس (لو١٢: ١٣)، ولكن ليعلن كمال الحق وملئه πλήρης، واستعلنه لتلاميذه كشهود للعالم كله: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب **مملوءاً** نعمة **وحقاً**» (يو١: ١٤)، «ومن **ملئه** نحن جميعاً أخذنا» (يو١: ١٦)، «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة **والحق** فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٧)

وحينما قال: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو١٤: ٦) فقد كان ذلك قمة الإستعلان الذاتي. ثم يعود و يقرر أن الحق يحرر والإبن يحرر: «تعرفون **الحق** والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، «فإن حرّركم **الإبن** فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦)، على أساس أن العبودية مصدرها الخطية، والخطية يبددها الحق كما أدانها المسيح بالجسد. لذلك أرسل المسيح روح الحق ليكمل عمل المسيح على الصليب لإعطاء الحرية لمن استعبدتهم الخطية.

والروح القدس يضطلع بإعلان الحق وإعلان المسيح معاً:
«ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق (قليلاً قليلاً)» (يو١٦: ١٣)، «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم...» (يو١٦: ١٤). هنا سر الملء أو الإمتلاء من الحق والمسيح. «والروح هو الذي يشهد (للمسيح فينا) لأن الروح هو الحق.» (١يو٥: ٦)

وهكذا يعطي إنجيل يوحنا تقييماً متوازياً ومتداخلاً بين الحق والمسيح موضحاً أن الإمتلاء من معرفة المسيح هو امتلاء من الروح القدس، وهو هو امتلاء أو ملء «الحق» أو ملء الحرية أو ملء التبني. «أما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء (تعرفون كل المعرفة — حسب النص اليوناني) لم أكتب إليكم لأنكم لستم **تعلمون الحق** بل لأنكم تعلمونه...» (١يو٢: ٢٠و٢١)

ويعود إنجيل يوحنا ويؤكد أن معرفة الحق ليست بالفكر، ونواله ليس كباقي المعارف، بل إن طريقه هو الخشوع والتقوى ومخافة الله والإحساس بالتوبة الصادقة، لأن طالب الحق هو طالب وجه الله. وهذا يتضح من هذا الحوار المحزن بين المسيح واليهود: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا... وأما أنا فلأني **أقول الحق** لستم تؤمنون بي. من منكم يبكّتني على خطية؟ فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله.» (يو٨: ٤٤—٤٨)

ثم يأخذ القديس يوحنا هذه المعادلة ويصيغها بكلمات من عنده في رسالته هكذا: «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١يو٤: ٦)

وبذلك يكشف القديس يوحنا على ضوء كلام الرب أن الروح القدس يزكّي الحق في قلوبنا لنسمع للحق أكثر فأكثر حتى يثبت فينا الحق ونتغير ونشهد له. وبالعكس فإن روح الشيطان أي روح الضلال يقاوم الحق (كما قاوم اليهود المسيح) ويرفضه ولا يعطي للإنسان فرصة أن يسمع له فينكره. أما علامة عمل الروح القدس أي روح الحق فينا فتكون دائماً بالإعتراف بالخطية والإستعداد للتوبة. أما إنكار ذلك فيكون دليلاً على **خلوّ القلب من الحق** الكاشف للنيّات والضمائر ووجود روح الضلال بدلاً عنه: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية **نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.**» (١يو١: ٨)

ثم يوضح القديس يوحنا في مواضع كثيرة أن الحق ليس مجرد معرفة فكرية لكنه قوة وفعل محرِّك. ويركز ذلك في تصوير قدرة الحق — إذا سكن الضمير — على معونة الإنسان على تكميل الوصايا: «بهذا نعرف أننا قد **عرفناه إن حفظنا وصاياه.** من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، **وليس الحق فيه**» (١يو٢: ٣و٤). كذلك: «وأما من **يفعل الحق** (الوصية) فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها **بالله معمولة.**» (يو٣: ٢١)

كذلك: «إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا **نعمل الحق**» (١يو١: ٦). فالحق فعل وعمل!!

هنا يلزم أن ننبه أن «الحق» في ختام العصر الرسولي كان معياراً عملياً يتغلغل كل المضمون المسيحي والحياة والسلوك. وأن الرباط بين الإيمان والحق لا ينفصم وقانونه هو: «**أن يسوع هو المسيح ابن الله الذي جاء في الجسد**».

وكان هو المعيار الذي تقاس عليه حياة الكنيسة برمتها كأساس لكل قوانين الإيمان: «نعلم أننا نحن من الله... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١يو٥: ١٩و٢٠)

لذلك ـــ والأمر كذلك ـــ يتحتم أن يكون المعيار الأول الذي يعيشه إنجيل يوحنا ويقدمه للعالم هو «الحق»، وكان على الإنجيل بعد ذلك أن يقدم ويزكي «**الشهادة**» لهذا الحق بكل وسيلة ممكنة. وهنا يأتي دور الشهادة في إنجيل يوحنا.

ب ـــ الشهادة ἡ μαρτυρία

جاءت الشهادة في إنجيل يوحنا متعددة المراحل والدرجات وبحسب ترتيبها تكون كالآتي:

شهادة الآب، شهادة الإبن (المسيح نفسه)، شهادة الأعمال، شهادة الأسفار، شهادة المعمدان، شهادة التلاميذ، شهادة الروح القدس الناطق والمضيء في القلوب.

١ ـــ شهادة الآب:

هذا ما يعلنه المسيح بفمه ويسجله عنه القديس يوحنا. وهذه الشهادة تُعتبر خاصة جداً وسرِّية للغاية كشفها المسيح ليعلن عن علاقته الصميمة أي الجوهرية بالآب.

«أنا لا أقبل شهادة من إنسان...، الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي μεμαρτύρηκε.» (يو٥: ٣٤و٣٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي و يشهد لي μαρτύρεῖ الآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٨)

يلاحظ هنا أن كلمة «يشهد» بالنسبة للآب تأتي في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل في الصيغة الدائمة المستمرة والمستقرة، أي أنها قائمة دائمة حتى اليوم وإلى الأبد

μεμαρτύρηκε, μαρτύρεῖ

ويلاحظ أن المسيح يتكلم عن شهادة الآب ولا يقول شهادة «أبي»، لأن القصد الأساسي من شهادة الآب أن يتقبل الناس الإبن والآب معاً، لذلك فالشهادة وإن كانت تخص المسيح ولكنها مُستعلَنة للناس ليكون الله بالنهاية أباً للجميع (الآب) من خلاله.

وإذا بلغ الإنسان إلى الشعور الصادق والحقيقي بأبوّة الله فإنه يدرك السر الإلهي الأعظم(١) القائم في طبيعة الله بين الآب والإبن الوحيد. لأن مفاعيل السر القائم بين الأبوّة والبُنوَّة في ذات الله تمتد لتشمل كياننا، فنحس بالتبني لله في المسيح كأعظم هبة نالها الإنسان من لدن الله بعد العبودية التي عاش فيها تحت سلطان الخطية والشيطان. هذا ندركه بسهولة من حوار المسيح مع اليهود الرافضين المرفوضين: «فقالوا له إننا لم نولد من زنى، لنا أب واحد وهو الله (بالوراثة المغشوشة)، فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قِبَل الله وأتيت. لأني لم آتِ من نفسي بل ذاك أرسلني... أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٤١–٤٤)

ويأخذ القديس يوحنا كلام المسيح هذا ويطبقه بصورة إيجابية غاية في العمق وذلك في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، من يؤمن بإبن الله فعنده الشهادة في نفسه» (١يو٥: ٩و١٠). أي أن شهادة الله للمسيح تحل في قلوبنا بالسر الإلهي ونحس بها، وذلك إذا آمنَّا بأبوة الله للمسيح أي، كما يقول القديس يوحنا، إذا صدقنا الله فيما قاله عن بنوَّة المسيح له: «من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١يو٥: ١٠)

ويعود القديس يوحنا ليوضح كيف وبأيّ معنى يكون حصولنا على فعل شهادة الله في أنفسنا عن ابنه وذلك عندما تبدأ تسري الحياة الأبدية في كياننا الروحي: «وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة الأبدية هي في ابنه. من له الإبن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (١يو٥: ١١و١٢)

٢ – شهادة المسيح لنفسه:

«إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... أنتم حسب الجسد تدينون.» (يو٨: ١٤و١٥)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٨)

وهنا تتطابق الشهادتان، التي من الآب له والتي من نفسه لنفسه، فهما من مصدر واحد ذات إرادة ومشيئة واحدة لكليهما. فشهادة المسيح لنفسه هي في الحقيقة شهادة الآب له لأنه أوضح أن

(١) لا شك أن العلاقة الكائنة بين الآب والإبن في الله هي «السر الإلهي الأعظم» المذخر لنا في كل صفحات إنجيل يوحنا، وإن معرفتنا لهذا السر تنشيء فينا حتماً الحياة الأبدية (يو١٧: ٣)، بل ودخولاً في مجال هذه العلاقة أي في نعمة التبني لله التي هي أعظم نعمة أعطيت لبني البشر. وسنعود إلى شرح هذه الفكرة الأساسية في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة من هذا المدخل.

كل أعماله وأقواله التي يعمل والتي يقول تنبع دائماً من الآب الذي أرسله:

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

لذلك نجد في شهادة المسيح لنفسه وثوقاً وتأكيداً وشموخاً يفوق أي قامة بشرية أو ملائكية: «الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا، إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات، وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١١—١٣)

والمعمدان كرر هذه الحقيقة بقوة وصلابة: «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، **وما رآه وسمعه به يشهد** وشهادته ليس أحد يقبلها. ومَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو٣: ٣١—٣٣)

وينوِّه المسيح دائماً أنه يشهد لنفسه لأن في شهادته لنفسه شهادة للحق، لأنه هو «الحق»: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو١٤: ٦)، وبسبب قوة وعلوّ الحق الذي فيه كان لا بد أن يشهد للعالم كله معتمداً على أن كل من يسمع للحق سيسمعُ له حتماً ويؤمن به وبالتالي يؤمن بالذي أرسله فتكون له الحياة الأبدية: «**قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق**، كل من هو من الحق يسمع صوتي.» (يو١٨: ٣٧)

٣ — أعمال المسيح تشهد له:

المسيح يقدم أعماله كشهادة فائقة للحق والألوهة التي فيه أعظم من كل شهادة يمكن أن يقدمها إنسان أو نبي أو حتى ملاك: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني، والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.» (يو٥: ٣٦و٣٧)

والأعمال التي يقدمها المسيح لتشهد له هي نفس أعمال الآب، فهي أعمال الله بلا نزاع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، الأمر الذي لم يطقْ سماعه اليهود وأرادوا أن يرجموه لأنه عادَلَ نفسه بالله. والأمر الذي هيَّج اليهود من هذه الشهادة لأعماله أنها بالفعل كانت تنطق بالحق الذي فيه وبالطبيعة الإلهية التي تعطيه هذه القوة وهذا السلطان المهيب: «إن كنت أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً!!، أجابهم يسوع إني قلت لكم ولستم تؤمنون. **الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي**، ... أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٤و٢٥و٣٠)

ولكـي يجعل المسيح أعماله التي تشهد له تظل تشهد له إلى الأبد استودع تلاميذه والأتقياء من بعدهم في كل جيل أن يعملوا نفس هذه الأعمال: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنـا أعـملـهـا يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن.» (يو١٤: ١٢و١٣)

ويـوضـح المسيح بكـل تـأكيد وبتكرار دائم أن أعماله تشهد له لأنها أعمال الله ولا يمكن أن يعمـلـها أحد إلا الله: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فـقـد رأوا وأبغضـوني أنـا وأبي» (يو١٥: ٢٤)؛ «...مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الإبـن كـذلـك. لأن الآب يحب الإبـن ويريه جميع ما هو يعمله... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيـي كـذلـك الإبـن أيضـاً يُحيي من يشاء» (يو٥: ١٩ــ٢١)؛ «الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال، صدقوني أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ١٠و١١)

٤ ــ شهادة الأسفار المقدسة:

كـانـت هـذه أحـد المـصـادر التي طـالب المسيح أن يرجع اليهود المعاندون إليها، «فتشوا الكتب لأنـكـم تـظـنـون أن لـكـم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة» (يو٥: ٣٩و٤٠). «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى (أي الأسفار الخمسة) الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي.» (يو٥: ٤٥ــ٤٧)

فـإذا عـلمنا أن المسيح حدد دوره بالنسبة للعهد القديم هكذا: «ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مـت٥: ١٧)، كما يـقـدم الـقـديس يوحنا العهد الجديد بيسوع المسيح كما تتركب النعمة ويتركب الحـق على الأسـفـار القديمة لتضيئها وتشرحها هكذا: «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٧)

وهـكـذا يتضح من منهج إنجيل يوحنا بالنسبة لشهادة أسفار العهد القديم أنها كتبت لتبقى خالدة ولـكـن دورهـا الأول قد انتهى وهو دور التأديب كما يقول القديس بولس الرسول: «لكن قبلما جاء الإيمـان كـنـا محروسين تحت الناموس مُغْلَقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعلن. إذاً قد كان **الناموس مـؤدِّبـنـا إلى المـسـيح** لكي نتبرر بالإيمان. ولكن **بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدِّب**» (غل٣: ٢٣ــ٢٥)؛ «وأمـا الآن فـقـد ظـهـر برُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح.» (رو٣: ٢١و٢٢)

أي أن ليس بظهور المسيح يكون قد بطل العهد القديم بأسفاره، ولكن الحقيقة العظمى هي أنه بعد أن أكمل العهد القديم دوره كمؤدِّب بدأ دوره كشاهد للمسيح، وبذلك ازداد كرامة وتقديراً، بقدر ما زاد هو المسيح كرامة وتقديراً بشهادته عنه.

٥ ــ شهادة يوحنا المعمدان:

لقد كان يوحنا المعمدان آخر نبي (بل وأعظم من نبي لأنه رأى العريس) يمثل العهد القديم. وكانت عليه مسئولية محددة سبق وأن تنبأ بها إشعياء النبي وأدركها المعمدان بروحه عالماً أنه هو المقصود لتمهيد الطريق أمام المسيا: «ماذا تقول عن نفسك؟ قال أنا صوتُ صارخ في البرية قوّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي.» (يو١: ٢٢و٢٣)

ويلاحظ أن المعمدان كان ابن كاهن لذلك أرسل اليهود من أورشليم إليه بعثة لتقصّي الحقائق، أرسلوها من «كهنة ولاويين»، لأن الأمر كان جدّ خطير ويتعلق بالنظام الكهنوتي كله ومستقبل إسرائيل، وهذه أول مرة يُذكر في الأناجيل عمل محدود للاويين في رسالة المسيح.

ورسالة المعمدان كنبي كانت محصورة بحسب إنجيل يوحنا في الشهادة والشهادة فقط لإعلان شخصية المسيح الموجود في وسطهم: «كان إنسان مرسل من الله آسمه يوحنا، هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته.» (يو١: ٦و٧)

كان يوحنا مثل شعاع من نور يسلطه الله في وسط ظلمات العهد القديم كله لينير لمصدر النور: «لم يكن هو **النور** بل ليشهد للنور... الحقيقي.» (يو١: ٨و٩)

كان نوره صناعياً مؤقتاً وليس حقيقياً أو جوهرياً: «كان هو **السراج الموقد** (بيد آخر)، المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره **ساعة**» (يو٥: ٣٥). كان المعمدان يسير ناظراً إلى خلفه باحثاً أمامه عن آخر سيأتي بعده ولكنه كان قبله وذلك ليشهد له و يسلّمه كل مسيرة التاريخ والأنبياء و يرقد. «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي... الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه... وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... وأنا قد **رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله**.» (يو٥: ٣٠و٢٧و٣١و٣٤)

ولكن المسيح نفسه لم يكن ينتظر أو يترجى شهادة يوحنا له، لأن المسيح عنده الشهادة لنفسه كاملة ولا حاجة له لشهادة آخر من الناس، وإنما كانت شهادة يوحنا بتدبير خاص من الله لخلاص الشعب الجالس في الظلمة الذين كانوا في حاجة إلى هذه الشهادة حتى لا يخطئوا النور ولكنهم أخطأوه: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ولكني أقول هذا

لتخلصوا أنتم.» (يو٥: ٣٣و٣٤)

ويوحنا المعمدان كان يعرف بالروح حدود رسالته ونهايتها، وعبَّر عن ذلك بكل أمانة: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح بل أني مرسل أمامه. من له العروس فهو العريس وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه يفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يو٣: ٢٨—٣٠)

٦ — شهادة التلاميذ:

حالة واحدة فقط طلب فيها المسيح من تلاميذه والناس أن يشهدوا، وهي بعد أن يرتفع وليس أثناء وجوده في الخدمة على الأرض: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

وقد أكمل القديس يوحنا بنفسه مع التلاميذ هذه الوصية بكل أمانة: «والذي عاين شهد وشهادته حقٌ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (يو١٩: ٣٥)؛ «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق.» (يو٢١: ٢٤)

٧ — شهادة الروح القدس:

كانت كل شهادة تمت للمسيح في جميع الشهادات السابقة تعتمد على مَن يوصِّلها لآذان الناس المفتوحة ولعيونهم وقلوبهم المعدَّة لإستقبال النور ولمَن يفسِّرها لهم ويؤكِّدها لهم، وإلاَّ ما كان يمكن أن يدركوا المقصود منها، لأنها شهادة «للحق» ولكن في مظهر ضعف في أفواه أناس بينما جوهر الحق المطلوب الشهادة له هو هو الله، لذلك تحتم أن يكون الروح القدس هو الذي يضطلع بهذه المهمة لأنه «روح الحق» (يو١٥: ٢٦) الذي «يرشد إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣) ويكون حاضراً في كل شهادة مشيراً ومرشداً ومفسِّراً ومقنعاً. لهذا كان أول استعلان للمسيح على يد يوحنا المعمدان قائماً على حضور وإعلان الروح القدس: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظْهَرَ لإسرائيل لذلك جئت أُعمِّد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأُعمِّد بالماء ذاك قال لي **الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو** الذي يعمِّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣١و٣٣و٣٤)

وهكذا فتح الروح القدس باب الشهادة العلنية للمسيح بصفته «الحق» المتجسد الآتي إلى العالم. هذه الحقيقة رسخت رسوخاً في قلب القديس يوحنا لذلك نجده يحددها مرة أخرى في رسالته

بقوله: «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق.» (١يو٥: ٦)

ومنذ هذه المعمودية المباركة – التي استُعلن فيها المسيح بظهور وحلول الروح القدس – وحتى الآن والروح القدس يضطلع بمهمته العظمى وهي الشهادة لحق المسيح – باعتباره هو نفسه روح الحق – متكلِّماً وناطقاً في قلوب المؤمنين و بأفواههم، وعاملاً في الفكر والقلب والروح في كل الكنيسة بالأسرار «ومتى جاء المعزِّي الذي سأُرسله أنا إليكم... فهو يشهد لي.» (يو١٥: ٢٦)

وهكذا تظهر الشهادة في إنجيل يوحنا كنسيج حيٍّ يملأ الإنجيل خيوطه في سبعة مستويات تبتدىء من الآب نفسه لتنتهي بالتلاميذ مدعَّمة بالروح القدس طولاً وعرضاً؛ ثم تظل هذه الشهادة بكل مستوياتها مستمرة بكل قوتها ودعمها داخل الكنيسة وفي كل العالم حتى اليوم كما كانت أيام المسيح تتلاقى مرة مع الإيمان المذعن للحق فتنشىء نوراً واستنارة وخلاصاً وفرحاً لا يُنطَقُ به ومجيد؛ وتتلاقى مرات ومرات مع الجحود والإنكار فتنشىء دينونة العار والإزدراء عاراً أبدياً يظل لاصقاً بالإنسان حتى وإلى ما بعد مماته!!!

الفصل الثاني

النـور والمجـد

هـذا هـو المعيـار الـثـاني في التدرج المنهجي لإنجيل يوحنا بعد الحق والشهادة. وهذان المعياران يقومان على التوازي والإتصال لأن الشهادة لا تكون إلاّ بعد استنارة؛ والحق يُسْتَعلَن في المجد.

أ ــ النـور

إنجيل يوحنـا ينـتقل بسهولة بين النور الطبيعي والنور الحقيقي ليعطي للقارىء فرصة للتطبيق والموازنة: «قال لهم يسوع ,,**النور**،، (الحقيقي) معكم زماناً قليلاً بعد فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب.» (يو١٢: ٣٥)

هنـا ينتقل الإنجيل من إنسان يسير في الظلام ولا يعرف إلى أين يذهب، إلى إنسان يسير بعيداً عن المسيح (النور) فتداهمه الخطية ويستولي عليه الشيطان ويسقط في فخاخه. فهنا يكشف الإنجيل وظيفة النور الحقيقي **وهي كيف يفضح الخطية ويبددها.**

وخطـوة إيجابيـة أكثر حينما يقارن بين نور النهار الساطع ونور الحق الكاشف، حيث يتضح أن النور الحقيقي وظيفته هي أيضاً **الإستعلان وكشف الأسرار** العليا المخفية: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم.» (يو٩: ٤و٥)

وهنـا يوضح الإنجيل أن النور الحقيقي (بالرغم من أنه لانهائي وغير محدود)، فهو يُعطى كفرصة محدودة جداً زمنيًّا: «النور معكم زماناً قليلاً بعد» (يو١٢: ٣٥)، بل ويُعْطى كفرصة قد لا تتكرر «ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو١٢: ٣٦) مع مشابهة نور النهار بالمسيح نور

العالم من حيث الوظيفة.

وكثير من الناس يشتاق أن يعرف كيف يرى أو يؤمن **بالمسيح كنور**. والحقيقة أن الإيمان بالنور هو إدراك روحي صافٍ بوجود المسيح، وذلك بالوعي المسيحي الذي نلناه بالإيمان وبالروح القدس، لا على هيئة أو شكل محدود ولكن ككيان يحل في القلب فيملأه فرحاً ونعيماً وسروراً، وعلامته تكون استعلانات لخفايا أقوال المسيح ووصاياه وفهمها فهماً روحياً عميقاً ومؤثراً ومجدداً. وهذه الإستعلانات هي بحد ذاتها تكوِّن فعل النور في القلب.

وحينما يقول الإنجيل أن المسيح هو «النور الحقيقي» (يو١: ٩) حيث يجيء **النور** بأل التعريف τὸ Φῶς τὸ ἀληθινόν ، فإن هذا يعني أنه هو الوحيد الذي يستعلن الحقائق الإلهية: «الله لم يَرَهُ أحد قط، الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨)؛ فعمل المسيح الأساسي هو إلقاء نور الإستعلان في قلب الإنسان المؤمن لكي يدرك الحق كل الحق «أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو١٢: ٤٦)، حيث الظلمة هي جهالة الخطية وعمى الروح، والنور هو استعلان معرفة الله للقداسة، وحيث النور هو الذي يكشف الظلمة وأعمالها فيبددها «يضيء في الظلمة.» (يو١: ٥)

لذلك فظهور النور هو حكم قضاء ضد الظلمة، ووضع الحد الفاصل بين الإنحياز للنور أو الإنحياز للظلمة، أي الإختيار الإجباري بين الإيمان ورفض الإيمان. واختيار الظلمة سببه حتماً الأعمال الشريرة: «**أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة**» (يو٣: ١٩). وهنا يطغى الشر فيدفع عامليه أيضاً إلى بغضة النور «كل مَنْ يعمل السيآت **يبغض النور**» (يو٣: ٢٠). ولكن بغضة النور هنا لا تأتي كعامل إجباري ولكن بحسب خبث النفس التي لا تريد أن تفتضح: «ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله.» (يو٣: ٢٠)

حينما يوصف الله بالنور، فلا يظن أحد أنه نور مرئي بالنظر أو الفكر، بل هو طبيعة الله غير المدرَكة بالعقل ولكنه مدرَك بالروح وهو كلِّي الإدراك في ذاته. فالله مُدرِك كامل يُدرَكُ ولكن لا يُدْرَكُ كماله. والمسيح بصفته شعاعَ أو بهاءَ مجدِ الله فهو النور الذي جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله غير المدرَكة.

ولكن حينما قال القديس يوحنا في مقدمة إنجيله أن «النور الحقيقي» (يو١: ٩) كان آتياً إلى العالم، فهنا لا يقصد نور المعرفة أو الإدراك أو البصيرة الكاشفة — أو النور الباطني — ولكن نور الخليقة الجديدة نور الحياة الأبدية، النور المرسل من طبيعة الله لكشف طبيعة الله. وهذا النور غير

«النور» في قول الإنجيل «فيه كانت الحياة والحياة كانت ,,نور الناس،،» (يو١: ٤)، هنا النور هو نور العقل والفهم والمعرفة التي مُنحت للخليقة العاقلة التي تقبّلها الإنسان، بحسب شرح القديس كيرلس الكبير: [كما أن الكلمة هو الحياة في كل المخلوقات التي خُلقت إذ تقبّلت الحياة منه، فهو أيضاً النور بالنسبة لحياة الإنسان الذي تقبّل منه المعرفة والفهم](١). [أما الظلمة فهي الطبيعة التي يعوزها الإستنارة.](٢)

فمجيء «الكلمة» إلى العالم في إنجيل يوحنا هو بداية عصر النور الجديد الذي يمكن أن يُدعى وحده نوراً حقاً. فهو «**النور الحقيقي**» (يو١: ٩) أي النور الجوهري حيث استعلنت طبيعة الله وتقبّلها الإنسان الجديد بالروح ليؤهّل لشركة النور بالإستعلان هنا بكشف الإيمان بالروح، وبالواقع هناك، في المجد.

ونور الإستعلان هو أرفع وأعلى من نور الإدراك والبصيرة أو الإستنارة، لأن نور الإستعلان يختص بالأخرويات أي بطبيعة الله، أي بالأمور الآتية غير المدركة بالعقل، التي نعيشها الآن كما في مرآة كما يقول القديس بولس الرسول (٢كو٣: ١٨) كسبق تذوُّق للمجد القادم.

وحينما يقول المسيح «أنا نور العالم» (يو٩: ٥) فالمعنى واضح للغاية إذ يعني أنه جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله — كآب وابن، والتجسد والخلاص لجميع الأمم — وذلك **للناس الذين في العالم** الذين يؤمنون به. وطبيعة الله كانت سرًّا مختوماً لم يُعرَّف به أحد قط سابقاً كقول القديس بولس الرسول: «أنه بإعلان عرفني بالسر... **بسرِّ المسيح** الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد **أُعلن** الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد (الناس الذين في العالم)» (أف٣: ٣–٦). هنا الإعلان هو الكشف بالروح القدس.

فالمسيح هو بالحقيقة «نور» العالم لأنه سلّم للعالم **سرَّ استعلان** بنوّته لله وسر حب الله الآب للعالم، هذا الحب الذي كلّفه ذبح ابنه على الصليب، كذلك سلّم العالم **سر الأُبوّة والبُنوّة في الله** وهو السر الذي انتهى بالإنسان إلى قبول الحياة الأبدية وإلى التبني أي الدخول في بنوة الله مع المسيح.

وهكذا بنور الإستعلان ليس فقط عرّفنا المسيح بطبيعة الله وحسب بل إنه بنور الإستعلان نلنا

[1] St. Cyril the Great, Comm. on the Gospel of St. John, Book 1, Ch. 5, p. 68,86,87.

[2] Ibid.

أيضاً نصيباً في ذات سر أبوة الله إذ صرنا له بنين وصار هو لنا أباً. فالنور الحقيقي أحدث في الإنسان استعلاناً أدى إلى تبني وميراث سماوي. فنور المسيح هو نور استعلان الأخرويات التي صارت من نصيبنا منذ الآن. أي أن عمل النور لم يقف إلى حد المعرفة لله «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦: ٩) فقط، بل جعلنا أيضاً شركاء في ذات النور، إذ صرنا بنور هذا الإستعلان أبناءً: «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو١٢: ٣٦)

والمسيح لما قال «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢: ٣٥) يقصد أن نسير باجتهاد في جِدّة الحياة أو الحياة الجديدة في المسيح، أي القيامة، أي الخليقة الأخرى التي من فوق، لئلا يدركنا الظلام أي لئلا يطغى علينا مرة أخرى ظلام الإنسان العتيق والحياة القديمة المستعبَدة لظلام الخطية وسلطان الظلمة!

لذلك فكما أن الحياة تنبعث من النور كذلك الموت يتبع الظلمة. لذلك يقول القديس يوحنا في رسالته «أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١: ٥)، فهو الحياة المطلقة والقداسة المطلقة. وعلى هذا القياس يكون تلميح المسيح على نفسه أنه هو الحياة، أي ليس فيه ظلمة البتة بل هو نور كلي بقوله: «مَن منكم يُبكّتني على خطية.» (يو٨: ٤٦)

والقديس يوحنا يستخرج لنا من هذا منهجاً عملياً كعلاقة حتمية مع النور: «إن قلنا أن لنا شركة معه (أي النور) وسلكنا في الظلمة (أي الخطية) نكذب ولسنا نعمل الحق.» (١يو١: ٦)

كذلك يربط القديس يوحنا بين **النور والحب** فهما طبيعة واحدة في الجوهر الإلهي: «الله نور» (١يو١: ٥)، «الله محبة» (١يو٤: ١٦)؛ وكذلك بين **الظلمة والبغضة** القاتلة وهاتان هما الصفتان اللتان اكتسبهما الشيطان بعصيان الله: «أيضاً وصية جديدة أكتب إليكم ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت (هزيمة الشيطان) والنور الحقيقي الآن يضيء (معرفة المسيح بالإستعلان)، مَن قال أنه في النور وهو يبغض أخاه (مَن يبغض أخاه فهو قاتل نفس — والشيطان كان قتّالاً للناس منذ البدء) فهو إلى الآن في الظلمة (في حضن الشيطان)، مَن يحب أخاه فهو يثبت في النور وليس فيه عثرة. وأما مَن يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم إلى أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه.» (١يو٢: ٨—١١)

وهكذا يعلن إنجيل يوحنا عن المعيار الدقيق والخطير «للنور».

ب — المجـد δόξα

لقد استخدم إنجيل يوحنا كلمة «المجد» ومشتقاتها على الأساس العبري بحسب الترجمة السبعينية. و«المجد» في المفهوم اللاهوتي بحسب تعبير الإنجيل عامة يشمل المعاني الآتية: **«العظمة الإلهية»، «القوة والقدرة الإلهية»، «بهاء الإشعاع اللاهوتي المدرَك أو المنظور بالعقل»**. وهذه هي عموماً الحالة التي يتراءى فيها الوجود الإلهي سواء في العهد القديم أو الجديد في المسيح.

وحوادث **المجد المنظورة** المسجلة في الكتاب المقدس في العهد الجديد تكاد تكون في الحقيقة منظورة أيضاً بالعقل السامي أو الذهن الروحي وليس بالعين المجردة. فالمنظر الواحد يراه إنسان ولا يراه إنسان آخر معه كما في ظهور المسيح في السماء لبولس الرسول: «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً» (أع٩:٧). أو قول إنجيل يوحنا عند آية تحويل الماء خمراً: «هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل **وأَظْهَرَ مجده** فآمن به تلاميذه» (يو٢:١١)، هنا «أَظْهَرَ مجده» لا تفيد رؤية عينية أو منظراً يملأه النور والبهاء بل هو منظر معقول **أَظْهَرَ** فيه المسيح نفسه أي استعلن كيانه الإلهي غير المنظور، إنما التقطه التلاميذ بالرؤيا العقلية السامية، وهي التي لها تأثير مباشر على الفكر والقلب للإيمان المباشر.

هذه الرؤيا العقلية واضحة جداً في تعرُّف نثنائيل على مجد المسيح: «ورأى يسوع نثنائيل مُقْبلاً إليه فقال عنه: هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل **من أين تعرفني؟** أجاب يسوع وقال له **قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك.** أجاب نثنائيل وقال له **يا معلِّم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.**» (يو١: ٤٧—٤٩)

إذن كيف آمن نثنائيل هكذا بهذه القوة والتلقائية السريعة؟ حينما **أظهر المسيح نفسه** لنثنائيل بالروح أنه يعرف أموره الخاصة الداخلية، انكشف في الحال عن فكره وروحه بآنٍ واحد حقيقة المسيح دون أي تعليم أو رؤية عينية فآمن وشهد لمجد المسيح مستعلناً طبيعته الإلهية التي بهرت روحه.

وليس فقط لنثنائيل الإسرائيلي حقاً الذي لا غش فيه أظهر المسيح مجده بل وأيضاً للسامرية الأُمية الخاطئة المنبوذة! «يا سيد **أرى أنك نبي!**» (يو٤: ١٩)، «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت، أَلَعَلَّ **هذا هو المسيح**» (يو٤: ٢٩). وليس لمجرد أن المسيح قال لها كل ما فَعَلَتْ آمنت، ولكن لأن المسيح أَظْهَرَ نفسه لها كنور حقيقي كشف أعماق ظلمات كيانها فهزَّها هزًّا عنيفاً أطاح

بكل خزيها وماضيها فرأت فيه المخلِّص والفادي «**لكل العالم**».

وفي كل حالات الإيمان التي خضعت لحقيقة استعلان المسيح لذاته، كان المسيح يُستعلن فيها كنور حقيقي يزيح ظلمات الجهل والشك والحزن والألم والمرض بل والموت عن الإنسان، فيحضره أمامه وأمام الآب مطهَّراً بل ومقدَّساً وبلا لوم، فتكون استجابة الإيمان لفعل النور مذعنةً وتلقائية وبشهادة. لهذا لا يخشى المسيح أن يقول في صلاته للآب: «**وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني**» (يو١٧: ٢٢)، لأن النور الإلهي الذي يضفيه المسيح على قلب الخاطىء وفكره وكل كيانه يُلْبِسه ويتغلغل كيانه فيصبح وكأنه حاملٌ النور وشريك فيه: «**آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.**» (يو١٢: ٣٦)

وأن نؤاخي النور ونسير فيه أو نسير معه، فلا بد وأن يُشعل القلب بالحرارة الفائقة ويملأ كيان الإنسان بهجة حتى ولو لم يدري: «وفيما هما يتكلمان ويتحاوران **اقترب إليهما يسوع** نفسه وكان **يمشي معهما** ولكن أُمسكت أعينهما عن معرفته... فألزماه قائلَيْن امكث **معنا** لأنه نحو المساء وقد مال النهار. فدخل ليمكث **معهما**. فلما اتكأ **معهما** أخذ خبزاً وبارك وكسَّر وناولهما. **فانفتحت أعينهما وعرفاه** ثم اختفى عنهما. فقال بعضهما لبعض **ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق...**» (لو٢٤: ١٥–٣٢). يلاحظ القارىء هنا أنه أخفى نفسه عنهما فلم يعرفاه، ولكن قلبهما كان ملتهباً فيهما؛ لأن النور إن أُمسك عن أن يفتح العين لترى ما لا يُرى فلا بد أن يحرق القلب؛ لأن النور فعَّال في كل مجال لأنه مجد المسيح! ؛ فإذا لم تَرَه العين الفائقة فلا بد أن يهتز له القلب اهتزازاً، لأنه كيف يغشانا مجد المسيح – بتفضُّل منه – ونبقى نحن كما نحن؟

وبالمقارنة مع الثلاثة الأناجيل والأسفار الأخرى في العهد الجديد نجد أن إنجيل يوحنا يمعن في إعلان مجد المسيح في حياته على الأرض بكثرة وفي مواقف عديدة، في حين أن الثلاثة الأناجيل وبقية الأسفار اقتصرت على الإعلان عن مجده بعد القيامة.

ففي سفر الأعمال يُقدِّم المسيح مُمَجَّداً في القيامة: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفَّعه الله بيمينه رئيساً ومخلِّصاً...» (أع٥: ٣٠و٣١).

والقديس بولس الرسول يقدم المسيح ممجَّداً في القيامة: «أُقيم... بمجد الآب.» (رو٦: ٤)

ثم يقدمه ممجَّداً في صعوده: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد تبرَّر في الروح تراءى لملائكة كُرز به بين الأمم أُومِنَ به في العالم رُفِعَ في المجد.» (١تي٣: ١٦)

والقديس الشهيد إستفانوس يقدمه لنا ممجداً عن يمين الآب في السماء: «وأما هو فشخص إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله.» (أع٧: ٥٥)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح ممجَّداً بعد اجتيازه الآلام أي بعد قيامته: «باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها.» (١بط١: ١١)

كما يقدمه القديس بطرس الرسول حائزاً على مجد الآب بعد قيامته من الأموات: «أنتم الذين به تؤمنون بالله الذي أقامه من الأموات وأعطاه مجداً حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما في الله.» (١بط١: ٢١)

وسفر الرؤيا يقدم المجد للمسيح من فم الأربعة والعشرين قسيساً والمسيح جالس على عرشه: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلِقَتْ.» (رؤ٤: ١١)

ويقدمه سفر العبرانيين كممجَّد إلى الأبد بنفس الخاتمة التي تُقدَّم إلى الله: «ليكمِّلكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه بيسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الآبدين آمين.» (عب١٣: ٢١)

والقديس بطرس الرسول يقدم هذه الخاتمة للتمجيد عينها: «إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله لكي يتمجد الله في كل شيء بيسوع المسيح الذي له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (١بط٤: ١١)

كما يستخدم سفر الرؤيا خاتمة التمجيد نفسها: «قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض (الأموات) وما على البحر. كلُّ ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين.» (رؤ٥: ١٢و١٣)

والقديس بولس الرسول يقدم المجد للمسيح كصفة دائمة أو كإسم تعظيم: «لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد.» (١كو٢: ٨)

والقديس يعقوب الرسول يعطيه نفس اللقب التمجيدي: «يا إخوتي لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة.» (يع٢: ١)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح في استعلان مجده الآتي كمصدر فرح: «بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين» (١بط ٤: ١٣)؛ «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يُعلن...» (١بط ٥: ١)

والقديس مرقس الرسول يقدم المسيح متكلماً عن نفسه في استعلان مجده العتيد هكذا: «وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد.» (مر١٣: ٢٦)

كل هذه الشواهد توضح أن جميع هذه الأسفار اقتصرت على إعلان مجد المسيح بعد القيامة. أما ذكر مجد المسيح قبل القيامة في بقية الأناجيل فهي محدودة للغاية، وتتعلق بقصة ميلاده وتجليه، أو ذكر مجيئه الثاني الذي يُحسَب أنه متعلق بالدهر الآتي أيضاً.

أما إنجيل يوحنا فينفرد دون جميع الأناجيل والأسفار في ذكر المسيح ممجداً في حياته على الأرض قبل الصليب وعليه! وهكذا يتبين للقارىء أن إنجيل يوحنا قد أصر على استعلان مجد المسيح معتبراً أن حياته على الأرض كانت كلها نوعاً من التجلي والرفعة: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١٣)

هذا هو المجد الذي رآه إشعياء بعين النبوة: «رأيت السيد جالساً على عرشٍ عالٍ ومرتفع ومجده τῆς δόξης αὐτοῦ يملأ كل البيت» (إش٦: ١ — النسخة السبعينية). والقديس يوحنا يكشف سِرَّ ما رآه إشعياء من عرش مرتفع ومجد مالىء أنه هو هو المسيح المرتفع على صليبه الذي ملأ لا البيت فقط بل الأرض كلها والسماء: «قال هذا إشعياء حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو١٢: ٤١)

وكان أول استعلان لمجده في عرس قانا الجليل: «**وأظهر مجده** فآمن به تلاميذه» (يو٢: ١١). هذا في عرس قانا الجليل، مما جعل الكنيسة تعتبر **سر الزواج** على أعلى مستوى من التجلي **فهو سر المسيح والكنيسة**، كما يقرر ذلك القديس بولس الرسول. «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته و يكون الإثنان جسداً واحداً. هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف٥: ٣١و٣٢)

ولكن ليس للتلاميذ فقط أعلن المسيح مجده أو هو مستعد أن يُعلن مجده بل وأيضاً لكل من يؤمن به، كان من كان. فهو يقول لمرثا: «**ألم أقل لكِ إن آمنتِ ترين مجد الله**» (يو١١: ٤٠)، معتبراً أن بعض التجارب والضيقات تكون لمجد الله والمسيح بالرغم من ظاهرها البشع على مستوى شركة

الصليب، «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل **لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله** به.» (يو١١: ٤)

أما للأخصاء فإن استعلان مجده يصاحبه عطية: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٤و١٦). هنا الرؤية تحتاج إلى إيمان واستعلان لحقيقة شخص المسيح.

وإنجيل يوحنا يعتبر أن أول ظهور علني لمجد المسيح على **مستوى العالم** هو الصليب: «لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو٧: ٣٩). وهذا تؤكده الآيات:

— «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه...» (يو١٢: ١٦)

— «فلما خرج (يهوذا) قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه.» (يو١٣: ٣١)

— «وإن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده **في ذاته** ويمجده سريعاً.» (يو١٣: ٣٢)

وبهذا يعلن إنجيل يوحنا وبفم المسيح أن الصليب كان باب المجد: «أما كان ينبغي أن يتألم المسيح بهذا **ويدخل** إلى مجده.» (لو٢٤: ٢٦)

هذا هو المدخل الذي دخل منه المسيح مكتسباً هذا المجد لحسابنا بعرق جبينه وبدمه الذي سُفك على الأرض، ذلك فوق مجده المذّخر له عند الآب **في ذاته**. لذلك حقٌ له أن يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

لقد وقعت حبة الحنطة وماتت، لذلك تحتم أن تعطي حياتها ومجدها لكثيرين: «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.» (يو١٢: ٢٣و٢٤)

هكذا ربط إنجيل يوحنا بين الموت والقيامة وبين الآلام والمجد. فقد انتزع من الموت قيامة ومجداً له وللإنسان عامة!

ثم ألا ترى يا صديقي القارىء كيف أن آلامنا وضيقاتنا واختناقنا حتى الموت هي موقّعة على مجد الله والمسيح ومنطبقة على الصليب وما بعده تمام الإنطباق؟ إنه لأمر مذهل أن يكون الصليب والألم والموت **مجداً** لحساب الإنسان المظلوم المهان. وكأن إنجيل يوحنا يسلمنا سِرَّ رؤية مجد المسيح في نور حبه الإلهي ومن خلال منظار الآلام والضيقات والدموع، وأي مجد؟ مجد الله!!!

ولهذا انفرد هذا الإنجيل العجيب في التأكيد على استعلان مجد المسيح خلال كل حياته على الأرض لأنها كلها كانت آلاماً ومقاومة ومصادرة وخيانة، وليس في ذلك عجباً فإن كان الله قد تنازل ولبس جسداً فلا عجب أن يفوح المجد منه كلما تألم أو توجّع؛ ثم أليست هذه هي رائحة المسيح الذكية لله للذين يخلصون؟

الفصل الثالث

الحياة والدينونة

إن معياري «النور» و«المجد» اللذين هما النتيجة المباشرة لإستعلان الحق والشهادة، يؤديان بدورهما إلى معيارين آخرين هما: إمّا الحياة الأبدية أو الدينونة. وبمعنى أبسط. فإن الذي يؤمن بالحق، يشهد له بالضرورة؛ والذي يؤمن ويشهد، ينفتح أمامه استعلان النور والمجد، فينال الحياة الأبدية. أما الذي لا يؤمن بالحق فهو لا يشهد له ولا يستطيع ولا يؤهَّل لإستعلان النور ولا لرؤيا المجد، وبالتالي لا ينال الحياة الأبدية بل يخضع للدينونة، لأنه يستحسن الظلام ولا يستحسن أن يبقي الله في معرفته. «**الذي يؤمن به (بالحق والنور) لا يُدانُ**، والذي **لا يؤمن قد دِينَ** لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٨و١٩)

وهذا معناه في إنجيل يوحنا أن الإيمان باسم ابن الله يعتق من الدينونة المباشرة، أما الإنعتاق من الدينونة فمعناه الفعلي هو الدخول في الحياة الأبدية. وهذا يوضحه الإنجيل هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنَّ مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤). وهذا المعيار الذي وضعه المسيح في إنجيل يوحنا **يسري في هذا الزمان وفي القيامة والدهر الآتي**، وهذا أيضاً يوضحه الإنجيل هكذا: «...**تأتي ساعة** فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة **الحياة**، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (يو٥: ٢٨و٢٩)

هذا في اليوم الأخير، أما في الحاضر الزمني، فيقول أيضاً الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إنه **تأتي ساعة وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥). وهذا تم بالحرف الواحد في إقامة لعازر.

أ ـــ الحياة في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «الحياة» في الإنجيل عامة وفي العهد الجديد خاصة هي الحياة غير القابلة للموت. فالموت في المسيحية عموماً ليس ظاهرة طبيعية قائمة بذاتها أو هي حالة ضرورية. فالموت هو عقوبة الخطية.

و«**الحياة**» تختص بالله. فإسم الله هو «**الله الحي**» وهو الذي وحده له عدم الموت «الذي وحده له **عدم الموت** ساكناً في نور لا يُدْنَى منه، الذي لم يَرَهُ أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تى٦: ١٦)، وهو وحده الذي **يُحيي ويُميت** «...أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو٤: ١٧)

والحياة في الله والتي يعطيها الله بروحه هي وحدها التي تسمى حياة. ولكي نفرقها عن الحياة الجسدية التي مآلها للموت، فهي تسمى «**الحياة الحقيقية**» أو «الحياة الأبدية». وعلى هذا القياس يمكن أن تسمى الحياة التي يحياها الناس بالجسد أنها حياة الموت أو حتى «الموت» بالرغم من مظاهر القوة والحركة الطبيعية.

ولهذا فإن «**الحياة الحقيقية**» هي الحياة التي نكتسبها الآن لحساب ما بعد الموت، وهي التي يتحتم أن نحسب لها ألف حساب «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها **موعد الحياة الحاضرة والعتيدة**» (١تى٤: ٨). ويلاحظ هنا في هذه الآية وفي بكور بحثنا أن القديس بولس الرسول يقرن الحياة الأبدية بالحاضر والمستقبل. لهذا «فالحياة» في الكتاب المقدس تعني الحياة الأبدية، ولا يلزم أن يضاف إليها أي تعريف آخر. «وإن أعثرتك يدك فاقطعها خير لك أن **تدخل الحياة أَقْطَعَ** من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم.» (مر٩: ٤٣)

و«الحياة» أو الحياة الأبدية لأنها تخلصت نهائياً من الموت، فهي بالنسبة للإنسان تعني «**الخلاص**».

والحياة الأبدية «**تُورَّث**»: «ماذا أعمل **لأرث** الحياة الأبدية» (مر١٠: ١٧)، و«**تُؤخَذ**»: «**ويأخذ** مائة ضعف الآن في هذا الزمان... مع اضطهادات **وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية**» (مر١٠: ٣٠)، و«**يُدخل إليها**.» (مر٩: ٤٣)

«الحياة» في الحاضر:

١ ـــ كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة:

إن كل الأسفار في العهد الجديد تتحدث عن «**الحياة**» في المستقبل. ولكن السؤال الملحّ: وما

هو نصيب الحاضر من هذه الحياة الأبدية؟

والحقيقة أن الحياة الأبدية حادثة في الحاضر بكل تأكيد على أساس «**الرجاء الحي**» الذي نعيشه بالإيمان، حيث الرجاء يختص بالمستقبل، ولكن يُعاش ويمارس الآن في صميم الحاضر الزمني على أساس وعد الله الثابت: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة **ولدنا ثانية، لرجاء حي، بقيامة يسوع المسيح** من الأموات. لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل **محفوظ**، في السموات لأجلكم.» (١بط١: ٣و٤)

هذا **الميلاد الثاني** هو بعينه «**الحياة الأبدية**» مُعاشة بالإنسان الجديد، وذلك برجاء حي نمارسه بقوة قيامة المسيح، وعلى أساس ميراث «**محفوظ**» لنا في السموات. إذن فحاضرنا الروحي مُعَانٌ ومقوًى ومسنود بمستقبل حياة أبدية كُتبت وتسجلت وحُفِظَت لنا في السموات بصورة أكيدة. «فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسويَّة مؤمنين بالرب يسوع المسيح فمَن أنا. أقادرٌ أن أمنع الله؟ فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين إذاً **أعطى اللهُ الأممَ أيضاً التوبة للحياة.**» (أع١١: ١٧و١٨)

ولكن الواقع والحقيقة هو أن الحياة الأبدية لا تظهر واضحة بصفاتها وإمكانياتها وقدراتها الهائلة في الحاضر، ولكن تبدو وكأنها عطية وهبة، في الخفاء تُعاش وتمارَس «**اهتموا بما فوق** لا بما على الأرض لأنكم قد **مُتُّم وحياتكم، مستترة، مع المسيح في الله**، متى أُظهر، **المسيحُ حياتُنا**، فحينئذٍ تُظهَرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣: ٢—٤). وهذا يعني تماماً أننا نمارس الحياة الأبدية الآن في الخفاء بدون مظهر ولا مجد بانتظار الإستعلان الكامل. والدليل القوي على اعتبار أن الحياة الأبدية يبدأ عملها وفعلها من الآن، قول بولس الرسول لتيموثاوس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن **وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيتَ...**» (١تى٦: ١٢). شيء وحيد يميز ممارستنا للحياة الأبدية الآن عنها في الحياة الأخرى في المستقبل كون الأخيرة ليس فيها كآبة ولا حزن ولا تنهد بل فرح كامل دائم. أما في الحاضر فتكتنفها الضيقات والآلام.

٢ — «الحياة» عند القديس بولس الرسول:

كان القديس بولس الرسول أول مَن اعتبر «**الحياة الأبدية**» كحاضر نعيشه ونمارسه ونفرح فيه، إذ اعتبر أن المسيح بقيامته من الموت صار آدم الثاني الذي به ومنه خرجت البشرية الجديدة، حيث المؤمنون به ينتسبون. «ولكن الآن قد قام المسيح وصار باكورة الراقدين... ولكن كل واحد في رتبته المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه» (١كو١٥: ٢٠و٢٣). «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوةٍ كثيرين» (رو٨: ٢٩). «وهو

رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداءة بكرٌ من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء.» (كو١: ١٨)

ولكن القديس بولس الرسول يرى أن الحياة الأبدية هي في المستقبل تكميل لِمَا ابتدأ الآن «وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي» (١كو١٥: ٤٩)، حيث يُحسم التجديد الحادث الآن في سِرٍّ، بتجديد مستعلَنٍ منظور. «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيراً **الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح**» (رو٥: ١٧)، معتبراً أن الروح القدس الذي نأخذه في المعمودية هو عربون لما سيُكمَّل في المستقبل «نحن الذين لنا باكورة (عربون) الروح نحن أنفسنا أيضاً نئنُّ في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو٨: ٢٣)، «لأننا بالرجاء خَلَصنا، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو٨: ٢٤و٢٥)، «الذي ختمنا أيضاً وأعطى **عربون الروح في قلوبنا.**» (٢كو١: ٢٢)

والروح القدس عند القديس بولس هو الذي يضطلع الآن بإعطاء «الحياة» في الله: «الذي جعلنا كُفاةً لأن نكون خُدَّام عهد جديد لا الحرف بل الروح. لأن الحرف (الناموس) يقتل ولكن الروح يُحيي» (٢كو٣: ٦)، «لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام.» (رو٨: ٦)

+ **وبالكلمة** التي يكرز بها القديس بولس، تهب رياح النعمة التي سماها رائحة المسيح التي في الكلمة، لتُحْيي مَن يسمعها ويؤمن بها «**لأننا رائحة المسيح الذكيةِ لله... رائحة حياةٍ لحياة**» (٢كو٢: ١٥و١٦)، بل «والكلمة» الفعَّالة في المسيح سمَّاها القديس بولس كلمة الحياة «متمسِّكين بكلمة الحياة» (في٢: ١٦)، وأيضاً سفر الأعمال يعطي — على لسان الملاك — لكلام المسيح صفة الحياة المحيية «اذهبوا قفوا وكلِّموا الشعب في الهيكل **بجميع كلام هذه الحياة**» (أع٥: ٢٠). وهذا ما تمسك به القديس يوحنا الرسول من فم المسيح نفسه: «الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. **الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة.**» (يو٦: ٦٣)

لذلك **فالإنجيل** في عرف القديس بولس الرسول، هو الذي حطم الموت وأنار الحياة والخلود أمام وعي الإنسان وروحه «الذي خلَّصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية. وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح **الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.**» (٢تي١: ٩و١٠)

+ كذلك فإن القديس بولس يؤمن ويمارس الحياة الأبدية في الحاضر بإحساس يقيني أن المسيح نفسه هو الذي يعطي هذه الحياة فيه التي يحياها «لأني مُتُّ بالناموس للناموس لأحيا لله. مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ١٩و٢٠)، «**فإن كان المسيح فيكم** فالجسد ميت بسبب الخطية **وأما الروح فحياة** بسبب البر.» (رو٨: ١٠)

+ والحياة الأبدية هي **المقابل الإيجابي لغفران الخطية** لأن المقابل للخطية هو الموت. «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ٢)

+ والحياة الأبدية تفعل وتزدهر في الإنسان، بقدر ما يموت الإنسان بالجسد عن الخطية كل يوم. «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.» (٢كو٤: ١٠).

+ كذلك فالحياة الأبدية تنمو وتزدهر فينا، بقدر ما يقع علينا من ضيق واضطهاد واختناق حتى الموت «لأننا نحن الأحياء (خليقة جديدة) **نُسلَّم دائماً للموت** من أجل يسوع **لكي تُظهَر** حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢كو٤: ١١). وبالنهاية نظهر كمائتين بل ونكون كذلك بحسب الجسد وفي أعماق شعورنا وبالرغم من ذلك نحيا وتعمل فينا الحياة الأبدية بلا هوادة «كمائتين وها نحن نحيا» (٢كو٦: ٩)، وذلك بعد أن عدَّد القديس بولس الرسول أنواع الآلام والضيقات والضربات والشدائد والضرورات والسجون والإضطرابات والأتعاب والأسهار والأصوام، بصيت رديء وهوان، كمضلِّين، كمؤدَّبين، إنما في طهارة وصبر وعلم وأناة ولطف ومحبة بلا رياء في الروح القدس. إنه منهج متكامل يصحح ذاته ويوازن ذاته، والكفة الراجحة فيها المسيح دائماً ومعه وفيه الحياة الأبدية، وكأنما المسيح بحلوله في القلب يبتلع في جسده كل ما صادفنا ويصادفنا من جنون هذا العالم: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.» (في١: ٢١)

+ ويبقى شرط **ديمومة الحياة** بروح المسيح التي تثمر فينا للخلاص هو أن ندوم في سلوك حسب ما يطلبه الروح ويوعز به إلينا: «**إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح**» (غل٥: ٢٥). «ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٣و١٤). على أن مهما كانت آلام الزمان الحاضر فهي لا تُقاس بأمجاد الحياة الأبدية التي ستُشْتعلَن فينا: «فإني أحسِبُ أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا.» (رو٨: ١٨)

+ على أن أول أثمار الروح الكثيرة هي المحبة كعلامة صدق السلوك بالروح. «وأما ثمر الروح فهو محبة...» (غل ٥: ٢٢)

كذلك فالحياة الأبدية عند القديس بولس تشمل معاً «**المستقبل والحاضر**»، وهو لم يحاول أن يصالح أو يوفّق بين الإثنين:

أ — **في المستقبل يؤكد:** «الذي سيجازي كلَّ واحدٍ حسب أعماله، أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء **فبالحياة الأبدية**» (رو٢: ٦و٧)، «فبالأَوْلى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر (الآن) سيملكون (في المستقبل) في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو٥: ١٧)، «حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو٥: ٢١)

والذي يميِّز الحياة الأبدية في المستقبل عن الحاضر الزمني عند القديس بولس هو حصولها في «**مجد**».

ب — **وفي الحاضر يؤكد:** «فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيمَ المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا **نسلك نحن أيضاً في جِدَّة الحياة**» (رو٦: ٤)، «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن **أحياء** لله بيسوع المسيح ربنا» (رو٦: ١١)، «ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله» (رو٦: ١٣)، «لأن ناموس **روح الحياة** في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ٢)

ج — وأحيانا يجمع القديس بولس «**الحاضر والمستقبل معاً**» تحت قوة روح الحياة وعمله «لأننا نعلم أنه إن نُقِضَ بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناءٌ من الله، بيت غيرُ مصنوع بيدٍ أبديٌّ... فإننا نحن الذين في الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة، ولكن الذي صنعنا لهذا عينه **هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح**... فنثق ونُسَرُّ بالأَوْلى أن نتغرَّب عن الجسد ونستوطن عند الرب. لذلك نحترس أيضاً، **مستوطنين كنا أو متغرِّبين**، (الذي يستوطن الجسد — أي في الحياة الجسدية — هو نفسه متغرِّب عن السماء ولكن يحيا بالروح) أن نكون مرضيين عنده، لأنه لا بد أننا جميعاً نُظْهَر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شرًّا.» (٢كو٥: ١—١٠)

ولكن القديس بولس يؤمن أن الذي يعيش بروح الله، يتقدم وينمو في استعلان الحياة الأبدية

ومعرفة ربنا يسوع المسيح، ليتغير من صورة إلى صورة أفضل، ومن مجد إلى مجد أوفر «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢كو٣:١٨)، «لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً.» (٢كو٤:١٦)

٣ ـ الحياة في إنجيل القديس يوحنا:

إن كان القديس بولس اقتفى أثر الحياة الأبدية في المسيح فوجدها في القيامة من الأموات، فإن القديس يوحنا يقتفي أثر الحياة الأبدية في المسيح قبل التجسد وفي التجسد بل وفي الموت ذاته. فالمسيح بصفته كلمة الله λόγος، والإبن الأزلي لله، فهو «**الحياة**» وله **الحياة في ذاته**:

ـ «فيه كانت الحياة...» (يو١:٤)

ـ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته.» (يو٥:٢٦)

ـ «كما أرسلني **الآب الحي**، وأنا حيٌّ بالآب فمَن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦:٥٧)

كذلك في رسائله نرى هذه الحقيقة التي يتشبث بها القديس يوحنا: أن الحياة الأبدية أُظهرت بتجسد الكلمة:

ـ «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة **كلمة الحياة فإن الحياة أُظهرت** وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.**» (١يو١: ١و٢)

ـ «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه، **ومَن له الإبن فله الحياة، ومَن ليس له ابن الله فليست له الحياة.**» (١يو٥: ١١و١٢)

ـ «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، **هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.**» (١يو٥:٢٠)

لأن ابن الله لما تجسد وصارت له نفس بشرية أسلمها للموت كفدية عن البشرية «أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح **يبذل نفسه عن الخراف**» (يو١٠:١١). ولكن بقيت حياته لم تنقطع ولم تتعطل بل ولم تتأثر بالموت!! «بعد قليل لا يراني العالم (بالموت) أيضاً (ثانياً) وأما أنتم فترونني **إني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون.**» (يو١٤:١٩). التأكيد هنا على «**إني أنا حيٌّ**» في الوقت الذي لا يراني العالم فيه بحدوث الموت. وليس **حيٌّ** فقط بل **ومُحيي** بكامل قوته في الإحياء.

وإذا كان إنجيل يوحنا يدعو المسيح «الحياة» فذلك لكونه يستعلن حياة الله في ذاته كآب كونه ابناً له! مكمّلاً مشورة الآب ورسالته ومعطياً وصايا الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية «وأنا أعلم أن **وصيته هي حياة أبدية**» (يو١٢: ٥٠). بهذا يعطي المسيح عناصر الإيمان الحقيقي، لذلك يدعو نفسه علّناً وبوضوح **أنه هو الحياة**: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، «**أنا هو القيامة والحياة** مَن آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١١: ٢٥). كما يدعو نفسه «**خبز الحياة**» (يو٦: ٥١) كونه يقيم أوَد الروح ويشبعها، كما ويعطي **ماء الحياة** (يو٧: ٣٨) لأنه يهب الروح القدس الذي يروي العطاش إلى البر، **ونور الحياة** (يو١: ٤) لأنه يقودنا في طريق الحياة الأبدية، ويجعلنا كمَن يبصر ويشاهد بالإستعلان حقيقة الحياة الأبدية غير المنظورة ولا المُشاهَدة. و«**كلامه روح وحياة**» (يو٦: ٦٣) لأن الكلمة التي تخرج من فمه تحيي المائتين بالخطية وعلى مستوى القبر.

الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا:

لأن الحياة الأبدية أُظهرت واستُعلنَتْ بالمسيح وحده، لذلك فالإيمان به يمنح هذه الحياة: «لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٥)؛ «الحق الحق أقول لكم مَن **يؤمن** بي فله **حياة أبدية**» (يو٦: ٤٧). بل إن إنجيل يوحنا كله مكتوب لغاية واحدة هي:
— «**لتؤمنوا** أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم **حياة** باسمه.» (يو٢١: ٣١)

ويرفع القديس يوحنا المضادة الإيمانية للحصول على الحياة الأبدية في الحاضر والمستقبل إلى أعلى درجة حينما يقول: «الحق الحق أقول لكم إن مَن يسمع كلامي **,ويؤمن**، بالذي أرسلني **فله حياة أبدية** ولا يأتي إلى دينونة بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤). هنا الحاضر والمستقبل بالنسبة للحياة ملتحمان معاً وبآن واحد!

بل ويقتحم القديس يوحنا المستقبل ويستحضر منه **الساعة الأخيرة** ويجعلها ساعة اليوم الحاضر، بصورة سرية لا تخلو من عمق روحي هائل، باعتبار أن الكرازة بكلمة المسيح تحمل الحاضر والمستقبل بآن واحد. «**تأتي ساعة، وهي الآن**، حين **يسمع الأموات** صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥)، هذا يجري «**الآن**» في الحاضر على الخطاة فيتوبون ويقبلون الحياة الأبدية، ويجري في المستقبل على الأموات الذي في القبور حين يسمعون صوت ابن الله للقيامة والحياة الأبدية.

والسبب الفعّال في هذه المضادة أن المسيح هو القيامة حتى وقبل أن يموت كما قال لمرثا: «أنا

هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، أي أن المسيح يحمل روح القيامة والحياة في ذاته وهي التي غلب بها الموت. لذلك، فالذي يؤمن به يحيا حتى ولو مات لأنه سيحصل على روح القيامة التي يغلب بها الموت، أو بالحري وعلى الوجه الأصح، إنه لن يموت، طالما روح القيامة فيه، فهو سيجوز الموت حيًّا إن جاز هذا التعبير: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا. وكلُّ مَنْ كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» (يو١١: ٢٥و٢٦)

ولكي يؤكد المسيح سلطانه على إعطاء الحياة الأبدية الآن وكأنها الساعة الأخيرة قال وهو يصلي إلى الآب: «وأنا قد **أعطيتهم المجد** الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). هنا ولو أن المعنى منصبٌّ على مجد الدهر الآتي الذي هو من صميم عطايا المستقبل، إلا أنه يمنحه الآن بل وقد منحه! وهذا المجد الذي له والذي أعطاه لأخصَّائه في هذا الدهر، ممتدٌّ ليكمل في الدهر الآتي: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٤). لقد أخضع المسيح المستقبل للحاضر بسلطان عطيته للحياة الأبدية التي هي فوق الزمان، وجعل الإتصال بين الحاضر والمستقبل وكأنه طريق واحد دائم ومتصل لا ينقطع: «ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا (الآن) فلن يعطش إلى الأبد (كل المستقبل)، بل الماء الذي أعطيه (الآن) **يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.**» (يو٤: ١٤)

فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا تمسك بالزمن وتمتد به إلى الأبدية كونها لا حدود زمانية لها، فالحياة هنا هي هي حياة الله التي بلا حدود ولا قياس: «اعملوا لا للطعام البائد بل **للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان (الآن)** لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (يو٦: ٢٧)

ويخطىء مَن يقول إن إنجيل يوحنا أغفل انتظار الدهر الآتي أي الأخرويات = الإسخاتولوجي eschatology حينما جعل الحاضر يحمل قوة وبركات الدهر الآتي بالإيمان. ولكنها هي نظرة متعمقة في طبيعة المسيح «كحياة أبدية»، التي لا يمكن أن يحدَّها الزمان أو يحجز قوتها وفعلها عن الذين قبلوا المسيح واتحدوا به وعاشوه.

كما وأن فعالية طبيعة المسيح كحياة أبدية جعلها تسري في الزمان كما تسري في الأبدية — كما أوردها في قصة لعازر كمثل مصغَّر — ولا يفرق بينهما إلا أنه في الزمان تسري جزئياً أو في سِرٍّ، وفي الأبدية في علانية وفي الملء.

أما قانون الأخرويات من جهة الأعمال فأبقاه الإنجيل كتقليد الرسل والكنيسة كما هو «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا

الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٨و٢٩)؛ كذلك «كلُّ مَن يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية **وأنا أقيمه في اليوم الأخير**» (يو٦: ٤٠). فأما كيف تصالح هذا الفكر مع القول الذي يقوله الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إن مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤)، أي يكون قد تخطّى الدينونة، فالإجابة نأخذها من القديس بولس الذي جمع الفكرين معاً في آية واحدة: «**إذاً لا شيء من الدينونة الآن** على الذين هم في المسيح يسوع **السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح** لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو٨: ١و٢). إذن، روح الحياة أي الروح القدس في المسيح إذ يعتق من الخطية فإنه يَعتق من الدينونة أيضاً. فالقديس يوحنا والقديس بولس اتفقا أن «**لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع**». معنى ذلك لدى كلٍّ منهما أن الذين هم في المسيح يسوع نالوا الحياة الأبدية منذ الآن، وقد جازوا الدينونة فعلاً الآن بلا حساب أو عقاب. أما السبب فقد أوضحه القديس بولس: «لأن ناموس **روح الحياة** في المسيح يسوع قد **أعتقني من ناموس الخطية والموت**» الذي شرحه إنجيل يوحنا أن **الذي نال الحياة الأبدية معناه أنه انتقل من الموت إلى الحياة**. فالقديس بولس سلّط قوة الحياة الأبدية على الخطية، والقديس يوحنا سلّط الحياة الأبدية على الموت ذاته. أما الذي أضافه القديس بولس الرسول كون ذلك ينطبق على «**السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح**»، فهذا ما شرحه القديس يوحنا: أن ذلك ينطبق على الذين «**فعلوا الصالحات**».

من ذلك يتبين أن **رفع الدينونة الآن** عن الذين آمنوا بالمسيح ونالوا روح الحياة سواء عند القديس بولس أو القديس يوحنا هو سَبْقُ استعلان الإسخاتولوچيا أي أمور الآخرة وليس إلغاءً لها، فالكل سيقف أمام كرسي المسيح وأعمالهم تتبعهم.

العلاقة بين «الإيمان والمعجزات» في إنجيل يوحنا:

من الأشياء الملاحَظة جداً في إنجيل يوحنا، أن كلمة «**الإيمان**» لم تَرِدْ فيه ولا مرة واحدة، وعوضاً عنها يأتي الفعل «يؤمن» ما يقرب من مائة مرة، مما يفيد أن إنجيل يوحنا لا يرى الإيمان إلا فاعلاً أي في حالة نشاط واجتهاد كقوة ذات عمل. المسيح عبَّر عن ذلك حينما سأل مُقْعَد بيت حسدا: «**أتريد** أن تبرأ» (يو٥: ٦) التي هي موضع «هل **تؤمن**»، بمعنى أن الإيمان هو إرادة ذات إصرار.

لذلك، في إنجيل يوحنا نشعر أن **الإيمان بالمسيح** هو **أكثر من تصديق** أن المسيح صانع

معجزات. وأن يؤمَن بالمسيح يعني أن يُدرَك — سواء من المعجزة أو من القول — أن المسيح هو المخلِّص ابن الله القادر على الإحياء من الموت. وإضافة على ذلك تسليم النفس له تسليماً كليًّا: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠)؛ لأن المعجزة أو العمل في إنجيل يوحنا هو بحد ذاته عمل خلاصي أو مشيرٌ إلى الخلاص. فالإيمان به هو بمثابة الدخول فيه أو قبوله كفعل حياة أو كفاعل محيي «أتؤمن بابن الله؟... مَنْ هو يا سيد؟،... الذي يتكلم معك هو هو... أؤمن يا سيد وسجد له.» (يو٩: ٣٦—٣٨)

وبينما المعجزة أو العجيبة هي في الثلاثة الأناجيل «**عملٌ تعليميٌّ**»، نجدها في إنجيل يوحنا «**عمل لاهوتي**» مؤثِّر. لذلك فالمسيح لا يستسيغ إيمان الآيات والمعجزات: «ألا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو٤: ٤٨)، ولكنه يطالب بإيمان الأعمال «إن لم تؤمنوا بي (بحسب التعليم) فآمنوا بالأعمال.» (يو١٠: ٣٨)

المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا ورسائله:

في إنجيل يوحنا يلزمنا أن ندرك الوضع الذي حتَّم باستعلان الحياة الأبدية في الحاضر. فدخول المسيح إلى العالم أنشأ بحد ذاته أزمة إيمان خطيرة واجهها الإنسان ولا يزال: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو٣: ١٨). لماذا؟ لأن الله ظهر في الجسد وصار واقعاً تاريخياً وبشرياً ملموساً. هي فرصة الإنسان العظمى والأخيرة، فأي عذر لمَن لا يؤمن؟ خاصةً وأن المسيح علَّم بالكلمة، وكشف أسرار الله، وسلَّط تعاليمه على اللحظة التي يعيشها الإنسان، حُرَّة تماماً عن الماضي بناموسه الثقيل، ومفتوحة بلا مانع على المستقبل الأبدي. فصارت كلمة المسيح هدفاً وطريقاً معاً وبآن واحد. أما الوصية التي أُخضع الإنسان تحتها فهي المحبة بالدرجة الأولى، أجمل وصية. فالذي يثبت في المسيح يثبت في المحبة تلقائياً وبسرور: «**اثبتوا فيَّ** وأنا فيكم.» (يو١٥: ٤)

«كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. **اثبتوا في محبتي**»؛ «إن حفظتم وصاياي، **تثبتون في محبتي** كما أني أنا قد **حفظت وصايا أبي** وأثبت في محبته. كلمتكم بهذا لكي **يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم**.» (يو١٥: ٩—١١)

«**هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً** كما أحببتكم.» (يو١٥: ١٢)

وليكن واضحاً أمام القارىء أن الثبوت في المحبة ينشىء فرحاً مزدوجاً: فرح المسيح، وفرحنا.

معنى هذا أن الحياة الأبدية تأسست في ناموس الله والمسيح على المحبة:

«أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، وكل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله، ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.
بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به.
في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا.
أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً...
إن أحب بعضُنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكملت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه...
ونحن قد عرفنا وصدَّقنا المحبة التي لله فينا.
الله محبة. ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه،
بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين...
نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً... مَنْ يحب الله يحب أخاه أيضاً.» (١يو٤: ٧–٢١)

هل محبة الله أولاً أم محبة الناس «بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه.» (١يو٥: ٢)

في هذه الآيات يتدرج القديس يوحنا في رسالته وبلغته وتحت وحي الروح القدس مسجلاً ناموس المسيح في العهد الجديد الذي ينبع من حقيقتين:
أولاً: أن «**الله محبة**». هذه هي طبيعة الله العاملة في الخليقة كلها، وفي الإنسان خاصة. لأن المحبة هي التي أرسلت الإبن ليكفِّر عن خطايانا بموته، ويعطي الحياة الأبدية التي فيه: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له **الحياة الأبدية**» (يو٣: ١٦). هنا واضح أن الحياة الأبدية قائمة على المحبة. والمسيح ابن الله يشهد على ذلك ويوافق على ذبيحة نفسه بدافع المحبة لإعطاء هذه الحياة «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائي...» (يو١٥: ١٣و١٤)

ثانياً: الحقيقة الثانية: إننا «نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩). من هنا تنبع كل الوصايا وتنبع **الطاعة** كالتزام لكل الوصايا، وتنبع **الحياة الأبدية**. فالمحبة أعطت وصيتها، ومَنْ ذا الذي يرفض الطاعة للمحبة؟

فالطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشىء التلمذة للمسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي (تلاميذ المحبة) إن كان لكم حب بعضاً لبعض.» (يو١٣: ٣٥)

بل والطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشيء حالة بُنوَّة لله ومعرفة لطبيعته (المحبة)، أي تلدنا من الله (من المحبة): «لأن المحبة هي من الله وكل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.» (١يو٤: ٧)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية المسيح تفجر طاقات الحياة الأبدية «نحن نعلم أننا قد **انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة** مَنْ لا يحب أخاه يبقى في الموت. كلُّ مَنْ يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه.» (١يو٣: ١٤و١٥)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية تنشيء فينا ثقة ورجاء يوم الدين، أي في الآخرة بسبب الثبوت في المسيح والحياة الأبدية: «بهذا تكمَّلت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين.» (١يو٤: ١٧)

كذلك يوضح القديس يوحنا أنه إن كانت **«الحياة الأبدية» تعلن عن ذاتها علناً وجهاراً بالمحبة وكل أعمالها؛** فهي أيضاً تعلن عن ذاتها داخلياً في الضمير والقلب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق... إن لامَتْنا قلوبنا (بسبب تقصير المحبة) فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء... (لذلك) إن لم تلُمنا قلوبنا (يكون) فلنا ثقة من نحو الله.» (١يو٣: ١٨و٢٠و٢١)

الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله وتوصل المعرفة بأعماقه:

ربما يكون هذا آخر ما بلغه إنجيل يوحنا من أسرار الحياة الأبدية التي انسكبت في قلوبنا بالإيمان بالمسيح ابن الله: «هذه هي الحياة الأبدية، أن **يعرفوك أنت** الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣). والمعنى المقصود واضح أن الحياة الأبدية هي بحد ذاتها معرفة الآب والإبن، أي نابعة من كشف واستعلان الصلة السرية بين الآب والإبن! فهي معيار لاهوتي — أي أن الحياة الأبدية هي استعلان طبيعة الله وحقيقته فيما يختص بعمله نحونا (الآب أرسل الإبن) الذي انتهى بالفعل إلى انسكاب الحياة الأبدية في حياتنا وكياننا. وهذه **«المعرفة»** سبق أن سجلها القديس يوحنا في قوله في المقدمة «فيه كانت الحياة **والحياة كانت نور الناس،**» (يو١: ٤)، كذلك قوله «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم.» (يو١: ٩). وأن «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له **نور الحياة**» (يو٨: ١٢) أي النور المحيي. هذا هو **نور المعرفة اللاهوتية لإستعلان الله في طبيعته** كآب وابن؛ والمنتهي بالفعل إلى بذل الإبن، وتكميل الفداء، ونوال الخلاص، وقبول الحياة الأبدية. ولا يزال «النور الحقيقي» الذي يعرِّفنا بالآب والإبن يبدِّد ظلمات العالم، ويستعلن طبيعة الله المُحبة والفادية لمحبي الله، والمؤهَّلين للخلاص حتى لمساكين الأرض «والمساكين يُبشَّرون» (مت١١: ٥، لو٧: ٢٢) لقبول الأبدية.

ب — الدينــونة

κρῖμα

في إنجيل يوحنـا

الـديـنـونـة كـمـعـيـار تـوزن به الأفكار والأقوال والأعمال في إنجيل يوحنا تقف في مقابل الحياة الأبـديـة التي يـفـوز بهـا المؤمـنـون بابن الله، الآن في سر، وإلى الأبد في القيامة الأخيرة، وهي أيضاً المقابل المضاد للخلاص في بقية الأناجيل والرسائل.

والدينونة هنا وضعناها في التقابل مع الحياة.

ولـكـن لا يـفوتنا أن الدينونة تقف في إنجيل يوحنا كخلفية متجذرة في كل أصحاحاته، بل وفي الإنجيل نفسه ككل. فإنجيل يوحنا هو على ضوء كلمة الدينونة يُعتبر «قضية» يقف فيها المسيح ضد العالم، ورئيس هذا العالم، وأبناء هذا العالم. وما من آية يعملها المسيح إلا وترفع على العالم القضية، لـنـسـمـع مـن خـلالهـا كـل الألفاظ القانونية التي يمكن أن تدور في أي محكمة بين المحامي والقاضي والشهود. فكلمة «الحق»، و«الظلم»، و«الدينونة»، و«يحكم بحسب الظاهر»، و«يحكم حكماً عـادلاً»، و«يـشكوهم إلى موسى»، و«يشكوهم إلى الآب»، وهو «صادق» و«ليس فيه ظلم»، و«لماذا تـطـلـبـون أن تـقـتلوني»، و«أشهد لنفسي»، و«شهادتي حق»، و«على شاهدين أو ثلاثة يكون الحكم»، و«أنا لا أطلب شهادة»، و«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً»، و«هو كـامـل الـسـن اسألوه فهو يتكلم عن نفسه»، و«ماذا تقول عن نفسك»، و«شهد ولم ينكر». هذا عـدا حديث المحاكمة، وهو ختام قضية إنجيل يوحنا أو قضية المسيح التي حُكم فيها عليه، فأخذ نص الحكم وطبّقه على الحاكم والحكام والشهود والعالم ورئيسه.

ويـلاحـظ كـيـف يـطـبـق المـسيح باستمرار ضدهم الأحكام التي يحكمون بها أو يحتكمون إليها، والـشـهـود الـذيـن يـتـخذونهم عوناً لهم يصيِّرهم المسيح قضاة يحكمون عليهم. إذ لما احتكموا لموسى إلى جانبهم في كسر السبت، صيَّر المسيح موسى قاضياً عليهم، ولما التجأوا إلى إبراهيم ليحتموا به، صيَّره المسيـح شـاهـداً له ضدهم. وهكذا، وبينما يقف المسيح في كل إنجيل يوحنا متهماً يدافع عن نفسه فهو، في الحقيقة وعين الأمر، بدفاعه وشهادته عن نفسه يكون قد بلور القضية ضد سامعيه.

لهـذا يـنـبـغي على القارىء أن ينتبه في قراءة إنجيل يوحنا فهو «محكمة» و«قضاء» و«قضية». والـقـارىء لا يقف فيه متفرجاً فهو واقع تحت الشهادة الإلزامية، فإما يشهد للحق والنور والحياة فلا

يُدان، وإما يهرب من الشهادة أو ينكر فيقف منعزلاً عن الحق والنور والحياة، وهذه هي الدينونة!!

كان في أيام المسيح أن الذين يشتكون هم اليهود والمشكو في حقه هو المسيح، أما اليوم فالمشتكي هو العالم والمشكو في حقه هي المسيحية الحقة التي لا يطيق العالم طرقها، والشاهد الوحيد هو الروح القدس الذي يشهد ضد العالم ويدينه. وعليك أن تسأل نفسك لتعرف الحكم: المسيح أم العالم؟

أما ماهية الدينونة؟ فهي بحد ذاتها الإعلان النهائي لحالة الإنسان بالنسبة لله، عندما يقف منفصلاً عن الله وحيداً نتيجة رفضه للإيمان بابن الله. وذلك في مقابل الإنسان الذي آمن بابن الله، وصار في سلام مع الله في ابنه يسوع المسيح، أي أنه لم يعد وحده ولا بعيداً عن الله ولا منفصلاً عنه: «**أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الإثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة**» (أف٢: ١٣-١٥). «أنتم فيَّ وأنا فيكم»، «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد»، «لا أعود أُسميكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحباء - لأني أعْلَمْتكم (معرفة الآب) بكل ما سمعته من أبي»، «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٣؛ ١٥: ١٥؛ ١٥: ٤)، وفي هذه الحالة تستحيل الدينونة «مَنْ سيشتكي على مختاري الله. الله هو الذي يبرِّر. **مَنْ هو الذي يدين. المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا؟**» (رو٨: ٣٣و٣٤)

أما كيف ومتى تأتي الدينونة، فذلك عندما يرفض الإنسان هذه الدعوة التي يدعو المسيح إليها بإلحاح: «**تعالوا إليَّ**» (مت١١: ٢٨)، لكي ينال الإنسان المتعب والثقيل الأحمال، ليس الراحة فقط بل والحياة الأبدية **ولا يأتي إلى دينونة**. فإذا رفض الإنسان الإلتصاق بالله «ليصير معه روحاً واحداً» (١كو٦: ١٧) في المسيح يسوع فهو يبقى بلا مخلِّص ولا شفيع بلغة القديس بولس الرسول: «كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إلهٍ في العالم» (أف٢: ١٢)، أو بلغة إنجيل يوحنا فهو يبقى بلا حياة أبدية، أي يبقى في الموت أو الظلمة، أي في الخطية وعبوديتها وأبوتها: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٤)

وفي هذه الحالة عندما يظهر المسيح، سواء الآن بالكلمة، أو في الآخرة جهاراً في مجده ومجد أبيه - حينئذ وفي ملء نور المسيح سوف ينكشف وضع الإنسان الرافض محكوماً عليه من نفسه.

والدينونة يحسُّها الإنسان الرافض في ضميره منذ الآن بإحساس الخوف، ولكن في الآخرة وعند

استعلان المسيح تكون الندامة مريعة واليأس قائماً دائماً. فالذي يبدأه الإنسان هنا يكمّله هناك. وشهادة الضمير هذه يقررها القديس يوحنا هكذا: «بهذا نعرف أننا من الحق ونُسكِّن قلوبنا قدامه. لأنه إن لامَتْنا قلوبنا فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء!!... (ولكن) إن لم تَلُمْنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله.» (١يو٣: ١٩ — ٢١)

ثم على أي أساس سيدين المسيح العالم وهو نفسه يقول: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم؟» (يو٣: ١٧)

هنا يكشف الإنجيل عن أن الدينونة تتم على أساس سابق لاختيار الإنسان، وليس مجرد منطوق حكم يقع عليه. «**هذه هي الدينونة:** إن النور قد جاء إلى العالم **وأحب الناس الظلمة، أكثر من النور** لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن **كل مَنْ يعمل السيئات يبغض النور** ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله. وأما مَنْ يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يو٣: ١٩ — ٢١)

بهذا يتبين أن الدينونة هي عملية اختيار من جهة الإنسان بمحض إرادته وتصميمه. والذي يشكل الحكم ويحدده هو كلام المسيح المقول والمُسجَّل «الكلام الذي تكلمت به هو يدينه» (يو١٢: ٤٨). والمسيح كونه «نور العالم» (يو٩: ٥) فهذا النور الفائق الفاحص والكاشف أستار القلوب والضمائر يفضح الأفكار والأقوال والأعمال وحتى النيات الخفيَّة، على أن النور يبقى بلا ملامة. لأنه كما أن النور يزكي أعمال أبناء النور فهو في نفس الوقت يوبِّخ أعمال الظلمة.

أي أن المسيح هو بآن واحد يبرر ويدين. فالكلمة التي قالها هي بحد ذاتها حكم عادل، مَنْ يقبلها يحيا بها ومَنْ يرفضها يُدان بها، وتبقى الكلمة إيجابية بكل معنى، صالحة إلى أقصى حدود الصلاح.

وهذه المضادة الإيجابية تظهر بوضوح في آية تفتيح عيني المولود أعمى. فالأعمى تقبَّل الكلمة وآمن بها وبصاحبها فاكتسب بصراً وغَنِمَ الحياة الأبدية، والفريسيون رفضوا الآية بجملتها واحتقروا الكلمة وقائلها، فعميت قلوبهم وعثروا في النور «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذي لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون» (يو٩: ٣٩). من هذا المثل يتضح كيف سيدين المسيح العالم. فالأعمى آمن به فأبصر فخلُص، والمبصرون رفضوا فعميُوا وأُدينوا! والمسيح واقف بين الإثنين يعاملهما معاً بقول واحد وإعلان واحد: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو، تموتون في خطاياكم» (يو٨: ٢٤). هذه هي الدينونة!! فالمسيح أكمل رسالته وأخذت

الكلمة مجراها وتسجَّلت على كل نفس وعلى كل العالم! وفيها يكمن القبول والرفض، الحياة والموت، الخلاص والدينونة بآن واحد! «مَنْ رذلني ولم يقبل كلامي فله مَنْ يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو١٢: ٤٨)

وإنجيل يوحنا يضع القيامة بشقيها على مستوى واحد: «**قيامة الحياة**» في مقابل «**قيامة الدينونة.**» (يو٥: ٢٩)

وهكذا يقف معيار الدينونة وحكمها باستعداد لالتقاط مَنْ يخسر الحياة الأبدية. فالصوت الواحد المبارك يسمعه هذا فيقوم ويتبرر ويحيا إلى الأبد، ويسمعه ذاك فيقوم للدينونة والعار والحكم الأبدي. «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة» (يو٥: ٢٨–٣٠). والصوت هو هو لا يتغير.

وهكذا تظل الدينونة في إنجيل يوحنا معياراً خطراً مربوطاً ربطاً محكماً مع غاية الإنجيل كله، وهو الإيمان أن يسوع المسيح هو ابن الله الحي.

الفصل الرابع

الإيمان والمعرفة

أ ــ الإيمـــان في إنجيل القديس يوحنا

ليس من بين جميع ما وهب الله للإنسان ما يضاهي هبة الإيمان.

كما أنه لا يوجد في العالم قوة معاندة أو شريرة أو أي خسارة تستطيع أن تقف أمام قوة الإيمان المُعان بالصلاة. والمعروف بالتجربة أن الإيمان الثابت مع الصلاة ينقل الجبال. لذلك كان المسيح يتطلع دائماً إلى أي قدر من الإيمان في الإنسان حتى يستطيع أن يتمّ فيه معجزته. فإذا انعدم الإيمان توقفت المعجزة: «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت١٣: ٥٨). وكان يسأل الذي يريد أن يشفى «أتؤمن؟»

ومن الصعب أن ندخل في تعريف ما هو الإيمان في إنجيل يوحنا، فنحن بصدد إيمان يكشف حتى أعماق الله ويورِّث الحياة الأبدية وشركة مع الآب والإبن. ويكفي أن الإيمان في إنجيل يوحنا يبلغ إلى رؤية الله في طبيعته «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). إذن فهو إيمان يتعلق بخصائص طبيعة الله وذاته!!

والإيمان في إنجيل يوحنا يتعلق بالمسيح أي يتوقف على مقدار استعلان المسيح لنفسه واستعلانه للآب واستعلان العلاقة الذاتية بين الآب والإبن. وهذا يتحتم أن يستقبله وعي روحي عالٍ من طرف الإنسان. فهو استعلان لغير المنظور ليصير حقيقةً مُعاشة: «ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٤و١٦). لذلك فالإيمان في إنجيل يوحنا يرتفع فوق مخصصات العقل البشري وقياساته الزمنية المحدودة، فهو من مخصصات الوعي الروحي: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو٤: ٢٤). وما السجود إلا عبادة، وما العبادة إلا

إيمان وتعلُّق شخصي!! هذا لا يتم إلا إذا أخذت الروح سيادة كاملة على الجسد: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦)، و«الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.» (١كو٢: ١٠)

وقوة الإيمان الفعَّال ترتكز على ركيزتين: **الأولى:** حرية الفكر والضمير من أي تأثير أو خوف أو استعباد؛ **والثانية:** اليقظة الروحية تجاه خداع الذات التي تتدخل لمصلحتها فتفسد الإنحياز للحق.

وكلمة «الإيمان» في أصلها العبري *he'emin* تعني **الثقة والرجاء** معاً، وهما الصفتان اللتان أخذ بهما القديس بولس الرسول: «الإيمان هو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى.» (عب١١: ١)

وفي العهد الجديد تأخذ كلمة «الإيمان» معنى **التصديق والإعتقاد والثقة.**

وفي كتابات القديس يوحنا خارج سفر الرؤيا لا تأتي كلمة **«الإيمان»** كإسم إلا مرة واحدة (١يو٥: ٤)، وبعد ذلك تأتي في صيغة **الفعل** بكثرة تفوق كل ما جاء في جميع أسفار العهد الجديد. فقد وردت ٩٨ مرة في إنجيل القديس يوحنا في مقابل ١١ مرة في إنجيل القديس متى و١٤ مرة في إنجيل القديس مرقس، و٩ مرات في إنجيل القديس لوقا. وفي كتابات القديس بولس تأتي بصيغة الفعل ٥٤ مرة. وتفيد قبول الكلام وتصديقه قلبياً أي بالوعي الروحي وذلك بتصديق سلطان المسيح الناطق بالكلمة، أو في المواقف الأعلى بسبب وضوح الرؤية والبصيرة الداخلية في تمييز الأصالة الذاتية للمسيح كصاحب رسالة واستعلان من فوق كما يقول القديس يوحنا: ونحن «رأينا مجده» (يو١: ١٤) وذلك بانفتاح الوعي، كذلك شهادة أهل السامرة: «إننا لسنا بعد بسبب كلامِكِ نؤمن لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم» (يو٤: ٤٢)، وأيضاً شهادة نثنائيل: «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل» (يو١: ٤٩)؛ وشهادة مرثا: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو١١: ٢٦و٢٧)

والإيمان وضعه المسيح كشرط أساسي لنوال الحياة الأبدية: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يو٥: ٢٤). «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية.» (يو٦: ٤٧)

والإيمان يحتاج حتماً إلى بصيرة داخلية أسماها المسيح في مواضع أخرى: «من له أذنان للسمع فليسمع» (مت١٣: ٩و٤٣). هنا السماع سماع قلبي يفتح مغاليق الروح نحو خالقها: «...فآمنوا

بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع» (يو٢: ٢١). هذا إيمان تصديق وخضوع لسلطان الكلمة الخارجة من فم المسيح لتخترق أعماق الوعي الروحي مباشرة. هنا العقل الجسدي يخضع لكلمة الله بدون مناقشة فيستوي العقل الروحي على عرش القلب.

والملاحظ أن الإيمان يرتبط بنوع البشارة، فنجد في الثلاثة الأناجيل الأولى أن كلمة «الإيمان» على فم المسيح تقع في اتجاه واحد هو **الثقة الكاملة بالله**.

أما في إنجيل يوحنا فيبدأ المسيح يسلِّط رسالته لقبول الإيمان به: «أنتم تؤمنون بالله **فآمنوا بي**» (يو١٤: ١)، والجزء الأول أي استخدام **الإيمان بالله** ليكون كخبرة أولى في التصديق اختبرها الإنسان وعاشها (الثلاثة الأناجيل) والجزء الثاني: «**فآمنوا بي**» المطلوب فيه قبول هبة وعطية المسيح بنفس التصديق للخلاص والسلام الداخلي المؤسَّسَيْن على الراحة والتسليم لله نفسه وهو الجزء التكميلي للإيمان الذي جاء المسيح ليكمله: «سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو١٤: ٢٧)

ويتفق كلٌّ من القديس بولس الرسول والقديس يوحنا في تركيز الإيمان على المسيح. ولكن في إنجيل يوحنا يأخذ الإيمان بالمسيح أهميته القصوى بعناصره الأساسية:

١ — لأن المسيح استعلن للعالم بصفته «الكلمة الذاتي» كلمة الله بمعنى أنه هو الناطق الوحيد بسر الله الآب كاشفاً عن طبيعته: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨). لذلك أصبح الإيمان بالمسيح كإبن، هو الطريق الوحيد لمعرفة **سِرِّ الله كآب** ونوال عطاياه في المسيح.

٢ — لذلك كانت رسالة المسيح الأساسية في إنجيل يوحنا هي الإعلان عن أبوّة الله بصفته الشخصية كإبن وحيد، وذلك بالقول والعمل والآية، مقدِّماً الآب السماوي من عمق كيانه البنوي.

٣ — وكانت غاية المسيح أن يقدم للإنسان عامة كل مخصصاته البنوية لدى الآب ليُدخل البشرية إلى أقدس وأسمى مجالات الآب وهي «محبته» لترتقي الخليقة المفدية إلى درجتها الأعلى التي على رجائها عاش الإنسان ويعيش وهي درجة البنوية لله — أي التبني — بعد العبودية للخطية والشيطان.

٤ — يترتب على درجة التبني سقوط كل الأحكام والعقوبات المنصوص عنها في شرائع عهد العبودية السالف أي الإنعتاق من الدينونة لتحل بدلاً عنها مخصصات البنين وميراثهم السمائي

والحصول على برِّ الله المجاني بالمسيح يسوع، على أساس موت المسيح على الصليب كذبيحة، تلك التي قبلها الآب عن الخطاة، ثم قبول عطية الحياة الأبدية بقيامته من الأموات.

هذه هي عناصر الإيمان بالمسيح التي تُدخلنا في العهد الجديد مع الله، والتي على أساسها يقدم لنا المسيح ذاته لنؤمن به.

والإيمان المطلوب إزاء رسالة المسيح واستعلانه لطبيعة الله يتوقف على مدى انفتاح النفس البشرية في الداخل لقبول هذا الإستعلان الإلهي، وما يحتوي عليه من تجديد أو ميلاد بل خلقة جديدة. وقد سُئل المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله»، أجابهم المسيح في الحال: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.» (يو٦: ٢٨و٢٩)

هنا الإيمان هو بمثابة قبول عمل الله وهذا يتطلب وعياً أخلاقياً يتناسب مع أهداف الإيمان السامية، كما يتطلب أن لا يعوِّق الإيمان خداعٌ نفسي للشك أو الهروب أو التأجيل أو وضع عراقيل وهمية.

وينبغي أن يفهم القارىء أن الإيمان عند القديس يوحنا محدد وقاطع «كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً.» (١يو٢: ٢٣)

وهذا ما يؤكده المسيح نفسه في إنجيل يوحنا: «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو٣: ٣٦). وليس هذا تعسُّفاً أو جزافاً، لأن بالمسيح مغفرة الخطايا وبدونه لا غفرانَ قط، والذي تحت عبودية الخطية هو واقع بإرادته تحت غضب الله، والذي يرفض الإبن يرفض ميراث البنين وبالتالي ليس له نصيب في الحياة الأبدية مع الله.

وأداة الإيمان المسيحي هي الوعي الروحي للنفس التي تسعى وتشغف بمستقبلها الأبدي، حيث يومض المسيح في أعماقها ومضات خاطفة كاشفة للحق الإلهي فتفهمه وتقبله وتشتعل بحبه اشتعالاً. وبمجرد أن تستقر النفس على الإيمان بالمسيح وتشغف به، يزداد عمل النور الإلهي فيها فتنمو في إدراك حقائق المسيح وتُستأمن على استعلانات الإنجيل وتتحكم بحكمة الروح القدس: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣)، وتزداد المعارف الروحية بدون معلم حيث تنمو حاسة الفطنة «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه (عطية الروح القدس) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلِّمكم أحد. بل كما تُعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق...» (١يو٢: ٢٧). والمسحة هي تقديس الروح القدس للنفس، حيث الروح هو معلم

الكنيسة.

ولكن لينتبه القارىء إلى موقع المعرفة من الإيمان لأن التقليد الروحي للكنيسة يضع الإيمان سبباً للمعرفة وليس العكس كما يظن الكثيرون، وهذا نستشفه من قول القديس بطرس الرسول في الإنجيل: «نحن قد **آمنا وعرفنا** أنك أنت المسيح ابن الله الحي.» (يو٦: ٦٩)

فالإيمان أولاً ثم المعرفة. فالإلهام يأتي أولاً ثم التفسير والشرح، الحق الإلهي يشرق أولاً في النفس كالبرق الخاطف يتبعه الفهم والإدراك والتوضيح. ثقة الإيمان تضع الأساس وعليه تُبنى المعرفة بأمان. ولكن تعود المعرفة لتزيد الإيمان وضوحاً وترسخه ترسيخاً فيصير ميراثاً أبدياً للإنسان.

على أن المعرفة إذا كانت بالروح فهي أعلى وزناً من الإيمان لأنه من المقطوع به أن المسيح يعرف الآب، ولا دخل للإيمان في هذا. فالإيمان لا يدخل في المعرفة المتبادلة بين الإبن والآب. أما الإيمان فيبقى في رتبة البشر، وأما المعرفة فترتفع حتى إلى قمة مجد اللاهوت!

لذلك في الأبدية يتخلف الإيمان وتبقى المعرفة، لتزداد جداً وينكشف أمامها الحق في مجد يترقى من مجد إلى مجد: «**لأننا نعلم بعض** العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل **حينئذٍ يبطل ما هو بعض... الآن أعرف بعض المعرفة** لكن حينئذٍ سأعرف كما عُرفت. **أما الآن فيثبت الإيمان** والرجاء والمحبة...» (١كو١٣: ٩و١٢و١٣)

ومعروف أن وظيفة الروحيين في الأبدية هي المعرفة لأن **المعرفة عمل الروحيين الأعظم**. ونستشف هذا من قول المسيح عن نفسه: «الذي أرسلني هو **حقٌّ** الذي **أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه** لأني منه وهو أرسلني» (يو٧: ٢٨و٢٩)؛ «أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم أنه **إلهكم ولستم تعرفونه**، وأما **أنا فأعرفه** وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً **لكني أعرفه** وأحفظ قوله» (يو٨: ٥٤و٥٥)؛ «أما أنا فإني الراعي الصالح **وأعرف خاصَّتي، وخاصَّتي تعرفني**، كما أن **الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب**» (يو١٠: ١٤و١٥)؛ «أيها الآب البار إن **العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتُك...**» (يو١٧: ٢٥)

هنا معرفة المسيح للآب ومعرفة الآب للمسيح هي معرفة خصائص اللاهوت الفائقة التي سنشترك فيها حتماً في الحياة الأبدية: «وعرَّفتُهم اسمك **وسأعرِّفهم** ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦). ولكن العجيب جداً هو قول الرب أن معرفة المسيح لخاصَّته ومعرفة خاصَّته له تكون مثل معرفة الآب للمسيح ومعرفة المسيح للآب. هذا عمق يفوق إدراكنا بل يفوق حتى تصورنا الآن!! وهذا الأمر يلمح عليه القديس يوحنا في رسالته: «أيها الأحباء الآن نحن

أولاد الله ولم يُظْهَر بعد ماذا سنكون ولكن **نعلم** أنه إذا أُظهِر (المسيح) **نكون مثله**، لأننا سنراه (معرفة الرؤيا) كما هو (في كيانه الإلهي).» (١يو٣: ٢)

ولكن واضح أن هذه المعرفة الفائقة هناك تقف وحدها بدون **الإيمان!!** لأن الإيمان له عمل الحاضر أما في الأبدية فنحصد ثماره، والمعرفة هي ثمرة الإيمان الفاخرة. وبالتدقيق في مقابل استخدام إنجيل يوحنا للإيمان ومفاعيله الكثيرة نلاحظ أنه لم يَرِدْ فيه قط شيء عن **«التوبة»** μετάνοια، وهذا بسبب الإتجاه اللاهوتي لقوة الإيمان التي ابتلعت التوبة. ومن جهة أخرى نجد أن **«مفاعيل الإيمان»** أنتجت في إنجيل يوحنا ثمرة حتمية وهي **«المحبة»**، **كوجود «حي» فعَّال للإيمان** في الممارسة المسيحية لا بد منه، حتى إن فعل الإيمان وفعل المحبة يكونان هما القوة المتحركة في علاقة الإنسان المسيحي بالرب التي ترفعه إلى الحياة الأبدية المُعاشة.

والقارىء المدقق لإنجيل يوحنا يصطدم بشكوى مكتومة وحزينة بل ومؤلمة من طرف القديس يوحنا بسبب **«عدم الإيمان»** من قِبَلِ اليهود التي كانت تواجه كل عمل وكل قول للمسيح على مدى خدمته كلها. مما جعل الإيمان في المقابل يرتفع في إنجيل يوحنا إلى حالة **«نعمة»** تكون ممنوحة من الله رأساً! فالذين قبلوا المسيح وآمنوا به وتتلمذوا له هم أصلاً مدعوون من الآب بسَبْق ِتعيينٍ أو سَبْق ِاختيار: «لا يقدر أحد أن يُقبلَ إليَّ إنْ لم **يجتذبْه الآب** الذي أرسلني وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٤٤)؛ «**كل ما يعطيني الآب فإليَّ يُقْبِل ومن يُقْبِل إليَّ لا** أُخْرِجهُ خارجاً» (يو٦: ٣٧)؛ «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين **أعطيتني** من العالم **كانوا لك، وأعطيتهم لي**» (يو١٧: ٦)؛ «لستُ أسأل من أجل العالم بل من أجل **الذين أعطيتني لأنهم لك**» (يو١٧: ٩)؛ «الذين **أعطيتني** حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك» (يو١٧: ١٢)؛ «أيها الآب أُريد أن هؤلاء الذين **أعطيتني** يكونون معي...» (يو١٧: ٢٤)

ولكن في مقابل هذا الإختيار المُسْبَق أو سبق التعيين من قِبَل الله الآب للمختارين وجذبهم إلى المسيح لينالوا بالإيمان به الخلاصَ المعدَّ لهم من قبل إنشاء العالم، فإن إنجيل يوحنا يقطع بأن قبولهم للمسيح وإيمانهم به يظل هو عمل اختيارهم الحر وبإرادة حرة لا إلزامَ ولا ضغط فيه!! مما يضع على الذين يرفضون الإيمان مسئولية خطيرة تبلغ حدَّ الخطيئة العظمى! «ولكن **منكم قومٌ لا يؤمنون لأن يسوع من البدء علم مَنْ هم الذين لا يؤمنون** ومَنْ هو الذي يُسلِّمه» (يو٦: ٦٤)؛ «ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكِّت العالم على ,**خطيئة**،... أما على ,**خطيئة**، فلأنهم لا يؤمنون بي...» (يو١٦: ٨و٩)

ويلاحَظ ُفي قول الإنجيل: «كلُّ ,**ما يعطيني**، الآب فإليَّ ,**يُقْبِل**،» (يو٦: ٣٧)، وكذلك

«إنْ لم يجتـذبْه الآب...» (يو٦: ٤٤). إنه يشير إلى أن **قوة الإنجذاب نحو المسيح والإستماع إليه وقـوة الإيمـان بالمسيح التي تنتهي بالإتحاد به هي قوة موهوبة من الله الآب تُطلَبُ بإلحاح**. وهذا يـوضحـه الإنجيـل في قـول المسيح: «فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ **الذي من الله** يـسمـع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون **لأنكم لستم من الله**» (يو٨: ٤٦و٤٧). ولكن لم يحاول القـديس يوحنا أن يصالح بين سبق الإختيار من قِبَلِ الله للذين يؤمنون بالمسيح بل واجتذابهم أيضاً إلى الإيمـان وبين حـريـة اختـيـار الذين يُقْبِلُون إلى المسيح ويؤمنون به بمحض إرادتهم. هذه المضادة حيَّرت المفسرين والشارحين للإنجيل على مدى كل العصور.

والـواقـع أن **سبق الإختيار يتوقف على علم الله المُسْبَق بإرادة الإنسان** الصالحة والتالفة إن كـان سيؤمن أو لا يؤمن. أما الذي سيؤمن فمُدَّخرٌ له لدى الله نعمة الإنفتاح على المسيح وقوة الإيمان مـكـافـأة حـرة لإرادتـه الحـسنـة. وأما الذي لن يؤمن فقد خسر الإثنين النعمة والإيمان بإرادته الحرة أيضاً.

وهنا يسأل القارىء هل الإنسان مخيَّر أو مسيَّر؟، الرد هو أن الإنسان مخيَّر أن يختار الله أو العالم وبـعـد ذلك إن سار في الخير فالنعمة تقوده وتدبره وتمده بقوة إرادة أقوى لفعل الصلاح، أما إن سار في طريق العالم واتبع أهواء الجسد والشهوات فإنه يُساق بقوى الشر التي تدفعه دفعاً في طريق الباطل والضلال. فالإنسان يظل مسئولاً عن اختياره.

وعلى هـذا أيـضـاً يؤكد إنجيل يوحنا أن هناك مسئولية خطيرة مُلقاة علينا لنؤسس منذ الآن إيماناً نـشيطاً بالمعرفة التي لا تكتفي أبداً بل تطلب كل يوم المزيد لأن هذه الحياة هي التي ستكون موضوع مـسـتـقبلنا فوق. ويقيناً أن مسرَّة معرفة المسيح والآب التي نعيشها الآن بالإيمان هي أثمن وأجمل ما يمكن أن نعمله ونقتنيه ليس لمستقبلنا فحسب بل ولحاضرنا.

وقد ألمح إنجيل يوحنا إلى بعض الأسباب التي تقف وراء عدم الإيمان وهي في معظمها أخلاقية: «أحـب الـنـاس الـظلمة أكثر من النور لأن **أعمالهم كانت شريرة**» (يو٣: ١٩)؛ «كلُّ **من يعمل السيِّآت يُبْغض النور**» (يو٣: ٢٠)؛ «**كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض** والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو٥: ٤٤)؛ «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني... لماذا لا تـفـهـمون كلامي؟ لأنكم **لا تقدرون أن** تسمعوا (تطيعوا) قولي. **أنتم من أبٍ هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.**» (يو٨: ٤٢و٤٣و٤٤)

ب — معرفة الله في إنجيل يوحنا[1]

«هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧ : ٣). في إنجيل يوحنا لا يمكن الفصل بين الحياة الأبدية بمفهومها الناضج وبين المعرفة الإلهية في إدراكها الواقعي العملي. فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا هي الحياة مع الله، حياة لا علاقة لها بالزمن خالية من الموت وكل أسبابه ونتائجه، وهي حياة نابعة من طبيعة الله «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥ : ٢٦). فالحياة مع الله هي حياة مع الآب والإبن وبالتالي تَعرُّفٌ كاملٌ وممتدٌّ في العلاقة بين الآب والإبن.

لذلك فانفتاح الوعي الروحي للإنسان لتقبُّل انسكاب قوة الحياة الأبدية «بالميلاد الثاني» أو «بالخليقة الجديدة» أو «بالميلاد من فوق» أو «بحلول الروح القدس» يُدخله في معرفة الله الذاتية أي معرفة الآب والإبن. أي أن معرفة الله بحسب الآية أعلاه: «أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»، هي في الحقيقة ليست معرفة من معارف الإنسان الطبيعية، بل معرفة استعلانية، أي فيها ينكشف للروح أمور مخفية ليست من اختصاص الحياة الأرضية.

ولكي ندرك المعنى العميق لهذه المعرفة الروحية الخاصة بالله في إنجيل يوحنا يلزمنا في البداية التفريق بين المعرفة في الفلسفة اليونانية والمعرفة في التوراة أي عند العبرانيين.

١ — معرفة الله في الفلسفة اليونانية:

وتختص بالتأمل في الحقيقة النهائية في جوهرها غير المتغير. وواضح أن هذه الحقيقة ثابتة Static ومطلقة أي مجردة وبلا حدود. وفيها يجاهد الفكر البشري في الإنطلاق نحو هذا الجوهر الثابت. فالفكر المحدود يتحرك ولكن الله مطلق ثابت، يتحرك إليه الإنسان إما بعقله بالتمرينات الفكرية وإما بجسده بالتمرينات الجسدية، أو بكليهما.

٢ — معرفة الله عند العبرانيين:

وهي الإعتراف بالله من جهة أعماله التي يعملها عامة وخاصة للشعب الذي أحبه ثم الخضوع لمطالبه. وهنا تكون معرفة الله هي تعامل مع الله بالممارسة الشخصية والجماعية وذلك في صميم الزمان. حيث الله يأتي ويفتقد الإنسان ويقرِّبه إليه.

وبالرغم من وضوح الفرق بين المعنى اليوناني والمعنى العبري في معرفة الله إلا أنه بمرور الزمن

---

[1] C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 151.

اختلط المعنيان وذلك بسبب ترجمة الأسفار العبرية للكتاب المقدس إلى اليونانية في النسخة السبعينية. لأن المترجم استخدم في ترجمة الكلمات العبرية ذات المعنى العبري الخاص كلمات يونانية لها معناها اليوناني الخاص جداً!! بحيث يستحيل على القارىء اليوناني للأسفار العبرية المترجمة أن يفهم المعنى العبري النقي وحده إذ حصل تزاوج بين المعاني. هذا بجوار عدم دراية المترجم اليهودي (الإثنان والسبعون شيخاً) بأصول الكلام العبري نفسه لطول المسافة الزمنية السحيقة بين زمن وضع هذه الأسفار وزمن ترجمتها، مما قد يورط المترجم في ترجمة منحرفة وإليك هذا المثل:

الأصل العبري الصحيح: هوشع ١٠: ١٢ «إزرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح احرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي **ويعلمكم البر**». لاحظ كلمة «يعلمكم البر» التي بمعنى تعليم عمل الصلاح.

الترجمة السبعينية: هوشع ١٠: ١٢ «ازرعوا لأنفسكم بالبر واحصدوا بحسب ثمر الحياة وأنيروا لأنفسكم نور المعرفة واطلبوا الرب حتى يأتيكم ثمر البر».

هنا في الترجمة السبعينية ضاعت من المترجم معرفة أصل الكلمة «يحرث» لأنها قريبة جداً من كلمة «مصباح»— فاستبدل كلمة «يحرث» بحسب تداعي المعنى من الكلمة التي بعدها (يعلّم البر) فبدل «**احرثوا لأنفسكم حرثاً**» قال: «**أنيروا نوراً**» وهكذا دخل في صميم التوراة اصطلاح جديد وخطير للغاية لم يكن له وجود أصلاً في العبرية وهو «نور المعرفة» φῶς γνώσεως

ولكي يتأكد القارىء من الإلتباس الذي وقع فيه هذا المترجم، نعود لكلمة «حرث حرثاً» لسفر آخر هو سفر إرميا حيث وردت فيه بحسب الترجمة السبعينية ولكن بمترجم آخر أكثر علماً ودراية بالأصول العبريّة للكلمات، فنجدها في الترجمة اليونانية طبق الأصل في المعنى مثل الأصل العبري تماماً:

الأصل العبري: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً، ولا تزرعوا في الأشواك».

الترجمة السبعينية: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا وسكان أورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً جديداً، ولا تزرعوا في الأشواك».

والذي حدث هو أن انتشار الترجمة اليونانية (النسخة السبعينية) لأسفار العهد القديم بين اليهود من أصل يوناني الذين كانوا يعيشون في وسط الجماعات الغنوسية (العارفين بالله على هرطقات متعددة) قد استخدموا هذه الإصطلاحات الدخيلة في آدابهم الدينية وهكذا تقاربت المعارف والمعاني بين اليهود التقليديين (الأرثوذكس) الدارسين على النسخة السبعينية وبين هرطقات الغنوسية

أي جماعات العارفين بالله.

وهكذا بالتالي ورثت المسيحية عن اليهودية التقليدية أي عن أرثوذكس اليهود الذين تنصروا هذه المعارف والإصطلاحات التي هي أصلاً موجودة في الأدب اليوناني الصرف!

والذي يهمنا هنا هو اصطلاح «**معرفة الله**»، حيث صار هذا الإصطلاح متقارباً جداً في مفهومه بين العهد القديم (الترجمة السبعينية) وبين هرطقة الغنوسية. وهذا هو سر بلبلة العلماء الناقدين في تعثُّرهم من جهة المنابع التي استقى منها القديس يوحنا إنجيله معتقدين أنه أخذ عن الغنوسية وهذا غير صحيح بصورة قاطعة أثبتها العلماء اللاهوتيون المدققون.

٣ ــ معرفة الله عند القديس يوحنا:

والقديس يوحنا يهودي إسرائيلي لم يدرس على السبعينية ولكنه كان على دراية واسعة وعميقة بتعاليم الربيين سواء على النسخة العبرية أو على النسخة السبعينية. ولأنه عاش وكتب ليهود الشتات في آسيا الصغرى وللأمم على السواء، فكان يعرف أنه يكتب لمواطني الثقافة اليونانية. ولذلك اضطر أن يستخدم هذا التعبير: «**والعالم لم يعرفه**» (يو١: ١٠)، عندما قال عن «الكلمة» أنه كان في العالم. فالقديس يوحنا يقصد بعدم معرفة العالم للكلمة هنا معرفة اليونان المعرفة العقلية وليس المعرفة بالمعنى العبري أي على أساس التعامل والخضوع والطاعة كإله قريب.

وهذا الموقف وقفه أيضاً القديس بولس ولكنه طعَّمه بالمفهوم العبري فجاء على المستويين اليوناني الفكري والعبري العملي معاً حينما قال: «وكما لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله **في معرفتهم** أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض **ليفعلوا** ما لا يليق» (رو١: ٢٨). فهنا يقرر القديس بولس الرسول (في رو١) أن هؤلاء الناس الفُجَّار الذين يحجزون الحق بالإثم عمداً، والذين بالرغم من أن معرفة الله ظاهرة فيهم وأن الله أظهرها لهم إلا أنهم **لما عرفوا الله لم يمجِّدوه** أو يشكروه كإله، وبذلك استحسنوا لأنفسهم أن لا يُبقوا الله في معرفتهم، لذلك **أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليعملوا ما لا يليق**. هنا واضح أنهم **أدركوا معرفة الله** بعقولهم **بالمعرفة اليونانية الفلسفية وأنكروه بأعمالهم** بحسب المفهوم العبري، لذلك حجز الله عنهم حتى الذهن المستنير أو البصيرة النيِّرة ليتمادوا في الباطل الذي انحازوا إليه.

هكذا أدخل القديس بولس الرسول المعرفة اليونانية في الإطار الأخلاقي ففضحها وفضح قصورها وعجزها. وأما من حيث «**معرفة الله**» وعلاقتها بالحياة الأبدية كما جاءت في الأصحاح السابع عشر عدد ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن **يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي

أرسلته»، نجد أن المضمون العبري لمعرفة الله واضح وقائم وهو مطابق نصاً وحرفاً لما جاء في التوراة الموضحة على النسخة السبعينية هكذا:

النسخة العبرية القديمة: (هوشع ٦: ١-٣): «هو افترس فيشفينا ضرب فيجبرنا يحيينا بعد يومين وفي اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه. **فلنتبع الرب**».

النسخة السبعينية: (هوشع ٦: ٢و٣): «سيضرب ويجبرنا، بعد يومين يشفينا وفي اليوم الثالث سنقوم ونحيا أمامه وسنعرفه، **فلنتبع الرب لنعرف الرب**».

والمعنى واضح أننا سنقوم من الأموات ونحيا في حضوره ويكون لنا معرفة به وسنتقدم في معرفة الرب. وهذا يعني ما يلي: أنْ نعرف الرب هو هو أن نحيا أمامه أي يكون لنا حياة أبدية معه. ونلاحظ أن الآية الواردة في نبوة هوشع هي معرفة وحياة المستقبل، ولكن في إنجيل يوحنا تأتي في الحاضر الدائم وهذا هو لاهوت إنجيل يوحنا الذي يعيش بالإستعلان واقع كل الأخرويات في شخص المسيح ابن الله الكائن والذي كان والذي يأتي أيضاً.

من هذا نرى أن اللغة اليونانية حتمت بدخول معانٍ إضافية نراها واضحة في مقابل المعاني العبرية الصحيحة: «أيها الآب البار إن **العالم لم يعرفْك**، أما **أنا فعرفتُك** وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢٥). هنا واضح أن المعرفة الأولى لا يقصد بها إلا مجرد التعرُّف والإدراك العقلي حسب مستوى العالم، والتي مصيرها الإخفاق حتماً. أما المعرفة الثانية فهي تحمل أضخم احتواء لمعاني المعرفة العبرية، لأن المسيح «الكلمة» و«الإبن» هو المتكلم شارحاً معرفته للآب! وهكذا تقع اللغة اليونانية في عيب صارخ حينما استخدمت نفس الكلمة «يعرف» عند العالم وعند ابن الله على السواء بمستوى واحد!! هذا يفضح قصور اللغة اليونانية في ترجمة واستيعاب المعاني الأصيلة والعميقة المتوارثة من العهد القديم وهي معاني لاهوتية، أي على مستوى إلهي، منطوقة بروح الله على فم الأنبياء وقائمة على أساس معاشرة الله لشعبه في الضيق والسعة وفي الرضا والغضب، الأمر الذي لم تره ولم تسمع به أمة أو لغة ما على الأرض كلها.

وبذلك أصبح تحديد معنى معرفة الله يتوقف بالدرجة الأولى على موقعها من الحديث وعلى مستوى الشخص أو الشعب الذي يباشرها.

فحينما يتهم المسيح اليهود بعدم معرفتهم لله فهو يضع على رؤوسهم وِزْرَ كل معاملاتهم السيئة لله وعصيانهم وتمرُّدهم: «أجاب يسوع إن كنتُ أمجِّد نفسي فليس مجدي شيئاً أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه. **وأما أنا فأعرفه** وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم

كاذباً، لكني **أعرفه وأحفظ قوله.**» (يو٨: ٥٤و٥٥)

هنا يختبىء خلف الكلام معنى عميق، لأن شعب إسرائيل معروف أن الله تبنّاه، وأن الله جعل نفسه أباً لهم، ولكنهم لما رفضوه بأعمالهم وابتعدوا عن الحق والرحمة والعدل، رفضهم الله وأصبحوا ليسوا أولاداً بعد، وبذلك **لا يمكن أن يدَّعُوا معرفته** مهما كانت غيرتهم ومهما كان علمهم وحفظهم لدقائق الناموس وللوصايا بالحرف والنقطة ومهما كانت درايتهم بكل أوصاف الله ومطالبه، لأنهم في حكم المسيح قد أصبحوا «من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٤)

وأما المسيح فيعلن عن حق أنه ابن الله فهو **يعرفه** حتماً وبحسب أصول الكلمة العبرية التي تقوم على الصلة الفعلية بين الآب والإبن، أي صلة الإتحاد المطلق.

فإذا بلغت معرفة الإنسان لله المستوى العبري هذا بلغ **الإتحاد** بالنسبة للإنسان مفهومه اللاهوتي إنما على مستوى الإمتياز وليس مستوى الطبيعة، حيث يرتقي الإتحاد إلى الخبرة التصوفية اليونانية المنشأ، والخبرة النسكية العبرية الأصل، كما فهمها القديس بطرس الرسول: «قدّموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة... لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١: ٥و٤)، وكما فهمها القديس بولس الرسول أيضاً: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو٨: ١٦و١٧). ووراثة الله مع المسيح هي أعظم تعبير عملي عن الإتحاد أو حياة الشركة مع الله. أو بحسب القديس يوحنا: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد.» (يو١٧: ٢٣)

٤ ــ تعرفون أني أنا هو ἐγώ εἰμι :

«قال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ **تفهمون أني أنا هو**» (يو٨: ٢٨) (وبحسب الأصل اليوناني «تعرفون» γνώσεσθε). هذه الآية عن معرفة الله ذات وزن عالٍ جداً، ندركه إذا عدنا للتقليد القديم بحسب إشعياء النبي «أنتم شهودي (يوجه كلامه إلى الأنبياء وبني الإنسان) يقول الرب وعبدي الذي اخترته (المسيح) **لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا ,أني أنا هو**. قبلي لم يُصوَّر إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مخلّص» (إش٤٣: ١٠و١١). لاحظ أن تعبير «أنا هو = باليونانية ἐγώ εἰμι » هو «**التعريف بذات الله**» وهو اصطلاح موقوف على الذات الإلهية(٢).

---

(٢) أهم المواضع التي جاءت فيها عبارة ἐγώ εἰμι :

ــ في الترجمة السبعينية لأسفار موسى الخمسة مثل: خر٣: ١٤، لا١١: ٤٤و٤٥؛ لا١٩ إلى ٢٦ (٢٠ مرة)، تث٣٢: ٣٩.

ــ ولسفر إشعياء مثل: إش٤١: ٤و١٠؛ ٤٣: ١٠؛ ٤٥: ٨و١٨و١٩؛ ٤٦: ٤و٩؛ ٤٧: ٨و١٠؛ ٤٨: ١٢و١٧؛ ٥١: ١٢. =

إذا طبّقنا آية إشعياء النبي على ما جاء في إنجيل القديس يوحنا يتضح الآتي:

– **بالنسبة لشهادة الأخصَّاء:** «**وتشهدون** أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٧)

– **بالنسبة لشهادة المسيح:** «الحق الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم **ونشهد بما رأينا.**» (يو٣: ١١)

– **بالنسبة للإصطلاح «أنا هو»:** نجد التطابق مع آية إشعياء حيث تأتي الكلمة الفريدة «تفهمون» لتجعل التطابق محكماً، إذ تجيء في السِفْرين: «تفهمون إني أنا هو» كما هي بالحرف الواحد.

فالنطق الإلهي الذي جاء في إشعياء النبي يفيد المعرفة الأكيدة لله المدعَّمة بالفهم، أن الله هو هو صاحب المجد الفريد والمخلِّص لشعبه؛ كما تجيء بنفس المعنى تماماً في إنجيل يوحنا أنه متى رُفِعَ المسيح بالقيامة والصعود تعيَّن أنه ابن الله وأنه صاحب **المجد** الفريد **والمخلِّص** وليس غيره.

٥ – الفرق بين معرفة «التألُّه» ومعرفة «الإتحاد»:

يهمنا أن نوضح هنا أن المعرفة اليونانية الفلسفية التي تُمارَس بالتأمل في الحياة التصوفية إنما تقوم على التمرين العقلي والنفسي للإرتقاء فيما وراء الطبيعة، وهي ضمن ميراث التقليد الآبائي الكبادوكي والبيزنطي، وهي ترتقي بدرجات ملموسة بالإنسان حتى يبلغ بها إلى ما يسمى بالتألُّه Θέωσις Deification

أما المعرفة بحسب الخبرة العبرية التي انتقلت إلى المسيحية، فصارت «**المعرفة**» تقوم بالمعنى المسيحي على الإيمان العامل بالمحبة وبممارسة الفضيلة والتعفُّف التي يسميها القديس بولس الرسول «السلوك بالروح»، فهي قادرة أن تبلغ بالنعمة إلى «الإتحاد بالمسيح» التي يضع لها إنجيل يوحنا شرطين: «**المحبة**» و«**حفظ الوصية**»، حيث يثبت الإنسان في المسيح «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤) على مستوى الكرمة والأغصان. هذا الإتحاد بالمسيح وبالتالي بالله يدعمه سر الأكل والشرب من الجسد والدم فيصبح الإتحاد وكأنه موثَّق ومختوم بالروح والدم: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، «...الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو٦: ٢٧). هنا مفهوم الوحدة أو الإتحاد بالله بلغ أعلى مستواه بتوسط المسيح على مستوى المعرفة والأكل السري!!

= – وأما في إنجيل يوحنا فقد وردت على فم المسيح ٢٤ مرة:
٤: ٢٦؛ ٦: ٢٠و٣٥و٤١و٤٨و٥١؛ ٨: ١٢و١٨و٢٣و٢٤و٢٨و٥٨؛ ١٠: ٧و٩و١١و١٤؛ ١١: ٢٥؛ ١٣: ١٩؛ ١٤: ٦؛ ١٥: ١و٥؛ ١٨: ٥و٦و٨.

٦ — معرفة «الحق»:

أصل مفهوم معرفة الحق (الأليثيا) هو الإدراك العقلي الميتافيزيقي أي ما وراء الطبيعة. باعتبار أن «الحق» هو الوجه الحقيقي في الموضوع Reality وهذا ميراث يوناني فلسفي صرف.

ولكن حينما استخدمه المسيح في إنجيل يوحنا، نرى أن شيئاً عجيباً قد دخل في مفهوم الإصطلاح اليوناني هذا، وجذبه ليتوافق مع الميراث العبري الأصيل لمعرفة «الله» الذي هو «الحق». فحينما يقول المسيح لليهود: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، فهذا إصطلاح هلليني (يوناني فلسفي)، ومعناه أن التحرر أو الحرية يتوقف على إدراك الوجه الحقيقي Reality للموضوع، وهذا — بحد ذاته — كفيل بأن يحرر العقل من التزييف أي شبه الحق المخادعPseùdoreality. ولكن هذا ما لا يقصده المسيح، بل هو يقصد المعرفة القائمة على الأعمال والسلوك بالخضوع والطاعة لوصايا الله، أي على الأساس العبري القويم. وهذا كشفه المسيح بوضوح عندما عاد ليطبق الحق على نفسه قائلاً: «إن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦)؛ وهكذا جعل معرفة الحق موازية ومنطبقة على معرفة الخلاص من الخطية «مَنْ يعمل الخطية فهو عبد للخطية والعبد لا يبقى في البيت (بيت الحق أي الله) إلى الأبد، أما الإبن فيبقى إلى الأبد (أي يرث الحق)» (يو٨: ٣٤و٣٥). ثم يعود ويكشف حالة اليهود الذين صاروا عبيد خطية وتبنَّاهم إبليس. وذلك ليس عن عدم إدراك الحق بالعقل لأنهم يدركون الحق فعلاً وعقلاً وباقتدار، ولكنهم ضلوا عن معرفة «الحق» بأعمالهم وسلوكهم الشائن «أنتم تعملون أعمال أبيكم... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتَّالاً للناس منذ البدء، وهو لم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق (الأليثيا) متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب (أي أن كلَّ مَنْ يكذب يصبح ابنه بالتبعية).» (يو٨: ٤١—٤٤)

وهنا واضح أن إنجيل يوحنا استخدم «معرفة الحق» ليس بالمعنى الهلليني الفلسفي فقط، وإنما مزجه بالمعنى والمضمون المسيحي الدقيق وحسب التقليد العبري.

٧ — معرفة الله للإنسان:

لو رجعنا إلى التراث العبري القديم نقرأ: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» (عاموس ٣: ٢)؛ كذلك: «أنا أعرف أفرايم وإسرائيل ليس مخفياً عني» (هو٥: ٣)؛ وفي مثل آخر تبلغ معرفة الله للإنسان إلى أقصى حدود الود والمحبة: «ولم يقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه» (تث٣٤: ١٠)؛ كذلك وفي مثل آخر تبلغ حدود معرفة الله للإنسان إلى درجة الإختيار المُسْبَق والمبادرة للتقديس من طرف واحد،

أي من طرف الله دون أي إستحقاق عملي ظاهر من جهة الإنسان: «وأنت يا رب **عرفتني رأيتني واختبرتَ قلبي من جهتك**» (إرميا ١٢: ٣)؛ «فكانت كلمة الرب إليَّ قائلاً **قبلما صوَّرتُك في البطن عرفتُك**، وقبلما خرجت من الرحم قدَّستُك، جعلتُك نبيًّا للشعوب.» (إرميا ١: ٥)

وسَبْقُ معرفة الله للإنسان لا يتدخل في الإرادة الحرة التي تختار ما بين الخير والشر، بمعنى أنه سَبْقُ معرفة أعمال وسلوك ونيات وإرادة. لأن ليس عند الله زمن ما يحجب العمل فلا يُرى إلا بعد حدوثه، بل الرب يرى الأعمال وكأنها معمولة قبل أن تُعمل «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو٤: ١٧)!! لهذا يسبق أيضاً ويقدسها في ذخيرة محبته التي صوَّرت الكون قبل أن يتصور، والتي كتبت أسماءنا في كتاب الحياة الأبدية ليس قبل أن نولد فحسب، بل وقبل إنشاء العالم «اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين و بلا لوم قدامه — في المحبة —» (أفسس ١: ٤)، أو بحسب تعبير إنجيل يوحنا: «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، **كانوا لك** وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك» (يو١٧: ٦). هنا **«معرفة الله للناس»** على أصول عبرية صافية جداً، وإن كان مظهرها قد يميل إلى المفهوم الهلليني العقلي، لهذا يمكن أن نقول إن الإنجيل جمع بين المعنيين بلا أي خلل في القصد المبارك.

ولكي ندرك عمق التراث العبري المستخدم في إنجيل يوحنا ودقته وطريقة تطعيمه بالفكر الهلليني، نأخذ هذا المثل وهو آية واحدة من سفر العدد نقرأها على النسخة العبرية القديمة، ثم نقرأها على النسخة السبعينية المترجمة إلى اليونانية، ومنها ندرك مقدار التحول الذي تم على أيدي المترجمين الربيين اليهود الإثنين والسبعين وقدرتهم على فهم التراث العبري وتقريبه إلى ذهن القارىء اليهودي اليوناني.

القراءة العبرية على التوراة: سفر العدد ١٦: ٤و٥ «فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غداً **يعلن الرب مَنْ هو له**، ومَنْ المقدَّس حتى يُقرِّبه إليه. فالذي يختاره يقرِّبه إليه.»

القراءة على النسخة السبعينية: «ولما سمع موسى هذا سقط على وجهه وكلم قورح وكل جماعته قائلاً: **إن الله قد افتقد (زار) وعرف الذين له**، ومَنْ هو المقدَّس وقد قرَّبهم إلى نفسه، **والذين اختارهم لنفسه قد قرَّبهم إلى نفسه.**»

يلاحظ القارىء أن التغيير حدث بنوع من شرح للموقف المبهم الذي يحكي كيف سيختار الله مَنْ هم له.

وعلى القراءة السابقة وضع الربيون التعليم الدقيق بمقتضى صميم قراءة الترجمة اليونانية وذلك بوضع المبادىء التي تقنن **كيفية معرفة الله لشعبه:**

المبدأ الأول: الله يعرف الذين له،

المبدأ الثاني: الله قد اختارهم،

المبدأ الثالث: الله يقودهم (يقرِّبهم) إلى نفسه.

هذه المبادىء الثلاثة المسجلة عند الربيين، تكشف لنا عن مفهوم التراث العبري في موضوع **معرفة الله للناس،** التي كان يستحيل على اليهودي اليوناني أن يفهم شيئاً من الآية الغامضة المختصرة التي جاءت في التوراة العبرية هكذا: «غداً يعلن الله الذين له».

فإذا عدنا إلى إنجيل يوحنا — بخصوص معرفة الله للناس — نجد هذه الثلاثة المبادىء مرعية بمنتهى الدقة:

المبدأ الأول: «أما أنا فإني الراعي الصالح **وأعرف خاصَّتي** وخاصَّتي تعرفني» (يو١٠: ١٤)؛ «لأن يسوع **من البدء علم** مَنْ هم الذين لا يؤمنون ومَنْ هو الذي يسلمه» (يو٦: ٦٤)؛ «لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان **يعرف الجميع.**» (يو٢: ٢٤)

المبدأ الثاني: «لست أقول عن جميعكم **أنا أعلم الذين اخترتهم**» (يو١٣: ١٨)؛ «أليس أني **أنا اخترتكم** الإثني عشر وواحد منكم شيطان.» (يو٦: ٧٠)

المبدأ الثالث: «**لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه (يُقرِّبه) الآب**» (يو٦: ٤٤)؛ «وأنا إن ارتفعت عن الأرض **أجذب إليَّ** الجميع.» (يو١٢: ٣٢)

بهذا يتضح لنا المبدأ الذي يسير عليه إنجيل يوحنا من جهة **معرفة الله للناس،** وهي نفس الأصول والمبادىء الثلاثة التي قامت عليها تعاليم التوراة المبنية على أساس نعمة الله الكاشفة أستار القلوب، والإختيار المُسْبَق، والتقريب إلى الله، التي هي كلها من صميم خبرة الأنبياء العملية. وفي إنجيل يوحنا نجد أن الفاعل في هذه الثلاثة المبادىء: المعرفة، والإختيار، والتقريب، هو المسيح.

٨ — رؤية الله:

و«المعرفة» في مفهومها الإلهي الجديد في العهد الجديد تنحصر في شخص المسيح أساساً وتفرُّعاً. **فالمسيح هو الوحيد الذي يعرف الله والآب:** «الله لم يَرَهُ أحد قط، **الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر**» (يو١: ١٨)؛ «**أنا أعرفه** لأني منه وهو أرسلني» (يو٧:

٢٩)؛ «**الآب يعرفني وأنا أعرف الآب.**» (يو١٠: ١٥)

ونحن لا يمكن أن نعرف الله الآب إلا بواسطة المسيح، لأنه بدون الإبن لا يمكن أن يُستعلن الآب: «**لا أحد يعرف الآب إلا الإبن ومن أراد الإبن أن يُعلن له.**» (متى ١١: ٢٧)

فالمسيح، وخاصة في إنجيل يوحنا، هو المصدر الأساسي لمعرفة الله في ذاته، ولكن بالمسيح يسوع وفي المسيح يسوع، وإلاَّ استحال التعرُّف على الله: «هذه هي الحياة الأبدية **أن يعرفوك أنت** الإله الحقيقي وحدك **ويسوع المسيح الذي أرسلته.**» (يو١٧: ٣). هنا إضافة «يسوع المسيح الذي أرسلته» التي يعتبرها كثير من الشرّاح النقديين أنها زائدة ومضافة، هي في الحقيقة قلب الآية النابض ومفتاح سرها الوحيد. فإنه بالرب يسوع المسيح استُعلن الله الآب، الأمر الذي كان مخفياً مدى الدهور كلها وعلى جميع الآباء والأنبياء والقديسين في العهد القديم. فهو وحده الوسيط لمعرفة الآب: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو١٤: ٧). بل ويفتح المسيح المجال للإنسان — ولأول مرة في تاريخ الإنسان — ليرى الله بواسطة يسوع المسيح: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

هنا اقترنت «**معرفة الله**» بـ«**رؤية الله**»، هذا اصطلاح هلليني تصوُّفي، أي يوناني صرف. فالرؤيا **θεωρία** ليس لها مكان في التقوى اليهودية، والعهد القديم لم يذكرها إلا في حيز ضيق جداً وليس كخبرة عامة مفتوحة للإنسان، فرؤية الله ليست اختباراً روحياً أو دينياً. فاليهودية الأرثوذكسية التقليدية تقرر أن رؤية الله مستحيلة على الإنسان في هذه الحياة: «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر٣٣: ٢٠). إنما هي من الموهوبات والبركات المحفوظة للإنسان في الدهر الآتي.

فمن أين أتى بها إنجيل يوحنا وعلى أي أساس؟

إنجيل يوحنا يعيش الدهر الآتي من بادىء بدئه حتى نهايته! لما قالت مرثا للمسيح أنها تؤمن أن أخوها لعازر سيقوم في اليوم الأخير استنكر عليها المسيح ذلك، وهو واقف أمامها، قائلاً: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)!

فالدهر الآتي استُعلن في المسيح بصفته أنه هو هو الحياة الأبدية، فالحياة الأبدية ذاتها أُظهرت في المسيح، بحسب القديس يوحنا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١: ٢). على أن المعيار التقليدي للعهد القديم وهو «أن الله لا يراه الإنسان ويعيش» محفوظ: «**الله لم يَرَهُ أحدٌ قط** (ولكن) الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو

خبَّر» (يو١: ١٨). إذن، لواحد فقط قد صارت وتمت رؤية الله: «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله هذا قد رأى الآب.» (يو٦: ٤٦)

إذن، فالمسيح والمسيح وحده هو الذي أُعطيت له معرفة الآب ورؤيته رؤية الذات للذات، والمثيل للمثيل!!! وهذه المعرفة التي هي بعينها رؤية الله قد وهبها لنا المسيح في ذاته «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). هذا هو جوهر الإيمان المسيحي: «فنادى يسوع وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٤و٤٥). وهذا يقرره القديس يوحنا منذ بدء إنجيله: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب.» (يو١: ١٤)

الفصل الخامس

الخطية والخلاص

أ — الخطية

«الخطية» عند القديس بولس الرسول:

لقد انتهى القديس بولس الرسول إلى هذا القرار اللاهوتي: «لأنه بأعمال الناموس، كلُّ ذي جسد لا يتبرَّر أمامه. لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣: ٢٠)؛ مضافاً إليه: «فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقُلْ الناموس لا تَشْتَهِ» (رو٧: ٧). **لذلك فالخطية هي التعدي.**

فالناموس عرَّفنا بـ«الخطية»، بل أوْجَدَها في الذهن والضمير وحددها وضخَّمها لتبدو خاطئة جداً، ثم أوْجَدَ لها العقوبات والموت. وفرض الناموس ذاته على الإنسان، وبذلك صار العالم كله سواء الذي هو في الناموس أو الذي بلا ناموس تحت قصاص من الله: «ونحن نعلم أن كل ما يقول الناموس فهو يكلم به الذين في الناموس، لكي يستدَّ كل فم و(بالتالي) يصير العالم كله تحت قصاص من الله.» (رو٣: ١٩)

«الخلاص» عند القديس بولس الرسول:

«**وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس** مشهوداً له من **الناموس** (موسى في التجلي والتوراة) **والأنبياء** (إيليا في التجلي، وبصفته أقوى الأنبياء، وبصفته الحاضر بروحه في يوحنا المعمدان)؛ برُّ الله **بالإيمان بيسوع المسيح** إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق (بين يهودي وأممي) إذ الجميع أخطأوا وأعْوَزَهم مجد الله. **متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح** الذي قدمه الله **كفَّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله.**» (رو٣: ٢١—٢٥)

«الخطية» في إنجيل القديس يوحنا:

إنجيل يوحنا يقسِّم الناس إلى:

— **روحيون** مولودون «من فوق»، «من الله»، يستمدون حياتهم وأفعالهم من الروح من فوق أي من الله:

ἐκ τοῦ Θεοῦ (يو٨:٤٧) = ἐκ τῶν ἄνω (يو٨:٢٣)

— **أرضيون** «من الأرض» يستمدون حياتهم وشهواتهم من العالم أي «من أسفل»:

ἐκ τοῦ κόσμου (يو١٥:١٩؛ ٨:٢٣) = ἐκ τῶν κάτω (يو٨:٢٣)

«فقال لهم **أنتم من أسفل** أما **أنا فمن فوق**، أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم. **فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم.**» (يو٨: ٢٣و٢٤)

ثم عاد الإنجيل يوضح هذا المبدأ أكثر «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو٣: ٣١)

وهكذا فالمسيح يحاصر **الخطية** ليس في ذاتها ولكن في الإنتماء إلى مصدرها، جاعلاً إرادة الإنتماء هي التي تحصر **الخاطىء** وتصبغه بالخطية.

والإنتماء بالنسبة للإنسان يكون إما إلى **فوق** إلى **السماء**، إلى **الروح**، إلى **الله**؛ أو إلى **أسفل**، إلى **الأرض**، إلى **الجسد**، إلى **الشيطان**.

وهذا التقسيم يوضحه الإنجيل أنه ينطبق أيضاً على التلاميذ «أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم، **لأنهم ليسوا من العالم** كما أني أنا لست من العالم.» (يو١٧: ١٤)

وهكذا فإرادة الإنسان في نوع الإنتماء هي التي تفتح للخطية لتدخل أو تغلق في وجهها الباب.

وهذا الإنتماء عينه هو الذي يقرر ويحدد نوع التعامل مع الله، وبالتالي نوع السلطان المعطى من الله للرسل ثم للكنيسة، من جهة التعامل مع الخطية. فإذا أظهر الخاطىء انتماءه بالإعتراف وشهادة الضمير وبالفعل أنه أبغض الخطية ولم يَعُدْ ينتمي إلى مصادرها، فإنه ينال الحِلّ منها أو الفِكَاك عنها أو المغفرة لها (والمغفرة كلمة عبرانية الأصل تفيد معنى التغطية أو النسيان)، وإلا فإنها تُربط ويُقفل عليها وتُمسك:

إنجيل القديس يوحنا: «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، مَنْ **غفرتم** خطاياه **تُغْفَر** له ومَنْ **أمسكتم** خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢٢و٢٣)

إنجيل القديس متى: «وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات **فكلُّ ما تربطه** على الأرض يكون **مربوطاً في السموات وكل ما تحلُّه** على الأرض يكون **محلولاً في السموات.**» (مت١٦: ١٩)

ومعروف أن هذا السلطان هو أصلاً سلطان المسيح نفسه الذي تنبأ عنه إشعياء النبي:
— «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه **فيفتح** وليس مَنْ يغلق، **ويُغلق** وليس من يفتح.» (إش٢٢: ٢٢)

هذا السلطان أعطاه المسيح للكنيسة، وما بيت داود إلا الملكوت عينه.

والفتح والغلق أوضحه المسيح أنه بخصوص حق الدخول إلى الحظيرة، أي الكنيسة، أي الملكوت:
— «الحق الحق أقول لكم: إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف لهذا يفتح البواب... أنا هو الباب...» (يو١٠: ١-٣ و٩)

لذلك يعود القديس يوحنا في رسالته ويجعل الإنتماء أشد انحصاراً وأقوى وضوحاً: «أيها الأولاد لا يضلُّكم أحد، **مَنْ يفعل البر** فهو بارٌّ كما أن ذاك بارٌّ. **مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس** لأن إبليس **من البدء يخطىء.** لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس. كلُّ مَنْ **هو مولود من الله لا يفعل الخطية** لأن زَرْعَه (بذرة الحياة الجديدة) يثبت فيه ولا يستطيع أن **يخطىء لأنه مولود من الله.**» (١يو٣: ٧-٩)

أولاً يُلاحَظ أن كلمة «مولود من الله» تفيد في النص اليوناني حالة الديمومة والإستمرار، فهو وُلد (بالمعمودية وبالروح) ولا يزال قائماً في حالة الولادة من الله كإبن بالتبني بالنعمة. وهنا إشارة إلى الإنتماء الكلي والدائم إلى فوق والسماء والروح والله. أي لا يزال يتبع قيادة الروح وتأثيره. ويعلق العلاَّمة أثيناغوراس(١) على هذه الديمومة قائلاً: [هم المسيحيون الذين صار عندهم الإحساس بالله أنه هو المثل والمستوى الأعلى للحياة].

أما المعنى أن «**المولود من الله لا يستطيع أن يخطىء**»، فهو يعود مباشرة إلى المعيار اللاهوتي لإنجيل يوحنا في أن **ابن الله والشيطان** نقيضان يستحيل بأي صورة أن يتفقا أو يتقابلا، وبالتالي أبناء الله المولودون من الله في المسيح وبالروح القدس يستحيل أن يتفقا أو يتقابلا مع الخطية التي

[1] Leg. pro. Christ c. 31, cited by Westcott: The Epistle of St. John, p. 107.

هي عمل الشيطان، طالما أن ولادتهم من الله حية وعاملة ومتصلة. حيث يستحيل عليهم عمل الخطية بصورة طبيعية نابعة من كيانهم الروحي، ولكن تأتي بصورة عارضة غريبة مدسوسة. حيث لا تمس الخطية كيان الإنسان الجديد أو جوهره الروحي. «نعلم أن كل مَنْ وُلِدَ من الله لا يخطىء، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسُّه.» (١يو٥: ١٨)

هنا تأتي مواجهة المسيح لليهود باعتبارهم منتمين للشيطان لأنهم أضمروا قتل المسيح بإصرار وبشهوة شيطانية: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتَّالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب.» (يو٨: ٤٤)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا بين الخطية والشيطان مصدرها الأول، حيث يرى في عمل الخطية ليس انتماءً فقط للشيطان بل خضوعاً له، حيث يفقد الإنسان حرية الإختيار فيصير عبداً للخطية مُساقاً بالقوة الشريرة: «الحق الحق أقول لكم: إن كلَّ مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية.» (يو٨: ٣٤)

لذلك حرص الإنجيل أن يوضح أن المسيح في هذا المجال عينه لم يعمل خطية واحدة!! «مَنْ منكم يبكِّتني على خطية؟» (يو٨: ٤٦) هذا هو مستوى المسيح القدوس ابن الله؛ إذن فهو حرٌّ من الخطية لذلك فهو قادر أن يبرِّر ويحرر من الخطية: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٦)

والمسيح لا يتعامل مع الخطية وحدها بل ومع مصدرها. فالمسيح أساساً ليس مديناً للشيطان بشيء قط: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠)؛ لذلك استطاع أن يدحره ويدينه: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

ب — الخلاص

الخلاص في إنجيل يوحنا:

واضح أن الأساس المبني عليه إنجيل يوحنا هو **«مجيء ابن الله»** من **«فوق»** من عند الآب حاملاً رسالة الخلاص العظمى التي أعدَّها الله لخلاص العالم، وفي الحال ومنذ بدء الإنجيل أعلن عن هذه الرسالة التي حملها الإبن الوحيد: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٦)

وكان أول تعليم عن الخلاص قدّمه المسيح هو الكشف عن أن خلاص الإنسان سيكون من نفس الباب والطريق الذي جاء منه المخلّص، مخاطباً به الناموس ممثَّلاً في معلمه نيقوديموس: «إن كان أحد **لا يولد من فوق** لا يقدر أن يرى ملكوت الله... المولود من الروح هو روح. لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تُولدوا من فوق.» (يو٣: ٣—٧)

وهكذا فتح المسيح الباب للخاطىء **لينتمي إلى فوق**، وأعد له الطريق بالفداء بالجسد على الصليب ثم القيامة ثم الصعود **لينتقل انتماء الإنسان نهائياً من أسفل إلى فوق**، من الأرض إلى السماء ليصير مع المسيح كالمسيح: «(هؤلاء) ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم... بل (أسأل أن) تحفظهم من الشرير» (يو١٧: ١٤و١٥)، أما بعد العالم: «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو١٧: ٢٤)

لقد أحكم المسيح طريقة الخلاص ووثّقها بالروح القدس وختمها بختم الآب، عندما وهب الذين يؤمنون به أن **يصيروا أولاد الله** ليكونوا **في حمى القدير إلى الأبد**: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي **المؤمنون باسمه**» (يو١: ١٢)، «خرافي... لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي.» (يو١٠: ٢٧—٢٩)

وهكذا نقل الله الإنسان هذه النقلة الخلاصية العظمى، بدم ابنه، من عبودية العالم والخطية والشيطان إلى أولاده الأخصاء المحبوبين. وهكذا نقلهم من اللعنة الأولى إلى برِّ الله الأبدي.

+ فبالميلاد من الماء والروح في إنجيل يوحنا تم للإنسان خلقة روحية جديدة، بها **حصل الإنسان على شهادة ميلاد سماوي موثَّقة بالروح القدس ومختومة بختم الآب وعليها صورة الإبن.**

+ وبالإفخارستيا — في إنجيل يوحنا — عضَّد المسيح الإنسان المولود من فوق — بخبز وخمر — **طعام السماء خبز الحياة، قوام الطبيعة الجديدة للإنسان الجديد. وهو في نفس الوقت (ترياق عدم الموت) عند الآباء** antidote **أي دواء عدم الموت.** «هذا هو الخبز النازل من السماء **لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت**» (يو٦: ٥٠). [يُعطَى لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لمَنْ يتناول منه — القداس].

+ وتقنين العبادة في إنجيل يوحنا «بالروح والحق»: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو٤: ٢٤). **هذا بمثابة سلاح المؤمن للخلاص للمحاربة ضد**

الخطية باليمين واليسار.

+ والغلبة عند القديس يوحنا ضد العالم هي في سِرِّ الإيمان بالله: «لأن كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا، **من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.**» (١يو٥: ٤و٥)

فالإيمان بابن الله **هو تذكرة سفر مختومة عليها الختم الملكي نخرج بها من العالم غير مديونين له بشيء**: «الذي يؤمن به لا يُدان.» (يو٣: ١٨)

+ في إنجيل يوحنا يقدم لنا المسيح نفسه **نوراً للطريق كقوة داخلية بالكلمة الحية التي هي زاد الطريق، طريق الخلود المنير المؤدي إلى الحياة الأبدية.**

+ وعند القديس يوحنا، كلُّنا خطاة تحت الإعتراف: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو١: ٨و٩)؛ «إن قلنا أننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا» (١يو١: ١٠)؛ «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١يو١: ٧)

فالإعتراف بالخطية عند القديس يوحنا هو التطهير الدائم.

+ وأخيراً يمنح إنجيل يوحنا الذين يعترفون باسم المسيح متقبِّلين الإضطهاد والألم والموت، **وسام الزمالة في آلام الصليب ومعه فيزا للإقامة الدائمة مع الرب وكرتاً أخضراً للمواطنة السماوية الدائمة:**

ــ «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي...» (يو١٥: ١٨و٢٠و٢١)

ــ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني **يكونون معي حيث أكون أنا.**» (يو١٧: ٢٤)

الفصل السادس

المحبة والإتحاد بالآب والإبن

أ ــ المحبة في إنجيل يوحنا

المحبة ἡ ἀγάπη

فعل المحبة ἀγαπῶ, τὸ ἀγαπᾶν

فعل المحبة أو الصداقة φιλῶ, τὸ φιλεῖν

المحبة، المحبوب، الحبيب:

هناك فرق بين «الأغابي» ἡ ἀγάπη و«الفيلين» τὸ φιλεῖν في اليونانية. فالمحبة «**أغابي**» هي محبة قوية، وفيها إحساس بالوقار والتعقل. و«**الفيلين**» هي محبة أقوى وأكثر تقرُّباً.

وقد وردت هاتان اللفظتان للمحبة في نهاية إنجيل يوحنا (٢١: ١٥و١٧) حينما بادر المسيح بسؤال بطرس مرتين: «يا سمعان بن يونا أتحبني ἀγαπᾶν أكثر من هؤلاء؟»، ولكن بطرس يصمم في ردّه أنه يحبه حبًّا أقوى وأكثر (من هؤلاء) (φιλεῖν).

وعاد المسيح لثالث مرة يسأله، ولكن باستخدام فعل المحبة الذي استخدمه بطرس نفسه φιλεῖν وكأنه يراجعه على التمادي في التعبير عن حبه! وحينئذ حزن بطرس لأنه سأله ثلاث مرات وكأنه يُذكِّره بالإنكار ثلاث مرات يوم المحاكمة!

ولكن يقول بعض الشرَّاح أن العكس هو الصحيح حيث «الأغابي» أعلى قدراً في التعبير عن الفيلين. وأن ردَّ القديس بطرس كان في اتضاع إذ احتشم أن يستخدم الأغابي لعلوّها عن قدره بالنسبة للمسيح. وهذا هو الأصح في نظر معظم علماء اللغة خصوصاً وأن إنجيل يوحنا قد أعلن أن «الله محبة» ἀγάπη (١يو٤: ٨)؛ وأن الله أحب (ἠγάπησεν من فعل: ἀγαπᾶν) العالم هكذا

(يو٣: ١٦) أي بهذا المقدار العالي جداً؛ وأن يوحنا نفسه هو التلميذ الذي كان يحبه (ἀγάπα) يسوع (يو١٣: ٢٣).

والمحبة (الأغابي) في لاهوت إنجيل يوحنا هي محبة تلقائية غير واجبة أو ملزمة، أي موهوبة دائماً؛ وهي فريدة وهي خالقة أو خلاَّقة، بمعنى أنها تخلق محبة أيضاً. وهي أصلاً تفيض من الله لأنها من طبيعته ثم لا تعود إليه فارغة، بل تعبِّد طريقاً لحاملها للوصول إلى الله للإلتصاق به ونوال المزيد منه لمحبة الآخرين بسخاء يفوق طبيعة البشر، والتي بدورها تؤثر في أقسى القلوب. وهي إذا سكنت القلب أنشأت فيه الحيرة والقلق إلى أن تنجح في التعبير عن نفسها بالعمل. وهذه الطبيعة للمحبة مأخوذة عن الله نفسه، فمحبة الله لم تستطع أن تنغلق على نفسها فيه فانطلقت في ميعادها المحتم لتعبِّر عن ذاتها في الله «**هكذا** أحب الله العالم حتى بذل...» (يو٣: ١٦)

كذلك هي التي في المسيح قد ساقته بقوتها التي لا تهدأ ولا تكفّ حتى أوصلته إلى الصليب لتكميل الفِدْية؛ بل هي التي أقامته من الموت إلى الحياة لأنها لا تعيش في الموت؛ بل هي ذاتها الحياة وجوهرها، والتي انطلقت من قيامته لتفيض قوة قيامة لكل مَنْ احتواها وملكها: «نحن نعلم أننا قد **انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة**» (١يو٣: ١٤). وهكذا فهي التي توصِّل إلى الموت: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥: ١٣)، وهي نفسها التي تقيم من الموت إلى الحياة!!

ولكن ينبغي أن نحترس أثناء التفريق بين «الأغابي» و«الفيلين» لأن كلاً منهما يتبادل المواقع محل الآخر في إنجيل يوحنا: فالآب يحب الإبن (ἀγαπᾶν) (يو٣: ٣٥)؛ وأيضاً الآب يحب الإبن (φιλεῖν) (يو٥: ٢٠)، مع الملاحظة أن الأغابي والفيلين هما الإثنان من أصل واحد عبري «أحب» « *ʼāhabh* »، وكلاهما يُستخدم في الحالات الصالحة وفي الحالات الرديئة المنحطة ولا حكم لأدب اللغة فيها. فإنسان يحب الله (ἀγαπᾶν) (١يو٤: ٢١)، وإنسان آخر يحب الظلمة (ἀγαπᾶν) (يو٣: ١٩).

وإنجيل يوحنا بجملته يُطْلَق عليه إنجيل المحبة، وكاتبه هو التلميذ الذي يحبه يسوع أو يوحنا الحبيب حسب التقليد الكنسي الموروث، وآخر وصية قدمها القديس يوحنا لشعبه في كنيسة أفسس: «أيها الأولاد أحبوا بعضكم بعضاً»، وأعمق آية كتبها القديس يوحنا في حياته هي «الله محبة».

القديس بولس الرسول يقدم المحبة على **الإيمان** في الوزن الروحي، ويقول إنه لو كان له إيمان

ينقل الجبال وليس له محبة فهو عديم النفع؛ وأنه لو كانت له **معرفة** كل الأسرار وكل علم ولكن بدون محبة فهو كلا شيء، ثم يعود القديس بولس الرسول ويصالح الإيمان بالمحبة ليجعل منهما ناموس المسيح الجديد ليحل محل ناموس العمل بحسب ناموس موسى. «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل **الإيمان العامل بالمحبة**» (غل٥: ٦). وهكذا يؤمّن القديس بولس الرسول إنجيل المسيح من الإنحراف، فلا العمل وحده ولا الإيمان وحده ولا المحبة وحدها بل: «**الإيمان العامل بالمحبة**» !!! كثالوث متحد يجمع كل وصايا الإنجيل.

أما القديس يوحنا فعنده أن غياب المحبة يعني غياب الله لأن الله محبة. وأخطر ما يهدد المعرفة أو العلم هو فقدان عنصر **المحبة الباذلة**: «كل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (١يو٤: ٧و٨). فأساس معرفة الله عند القديس يوحنا هو انفتاح القلب بوعي روحي لتقبُّل محبة الله والرد عليها، على شكل تكليف بأعمال وإنجازات: «يا سمعان بن يونا أتحبني... ارْعَ غنمي.» (يو٢١: ١٦)

فالمحبة في الفكر الإلهي هي «**فعل بذل**». «**هكذا أحب الله العالم حتى بذل** ابنه الوحيد...» (يو٣: ١٦)، «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو١٥: ١٣)

وهذا ترجمه القديس بولس الرسول لنفسه بشعور صادق مؤثر للغاية: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

ويصيغها المسيح في سر الألوهة هكذا: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي...» (يو١٠: ١٧)

والله سبَّاق محبة، صاحب مبادرة في الحب منذ الدهر وليس أحد في الوجود إلاَّ ومَدِينٌ لله بالمحبة: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤: ١٩)

وأكثر ما يأسر قلب الإنسان حينما يتوب ويعي حقيقة عمل الله معه هو إحساسه بالمحبة الإلهية التي اشتراه بها المسيح على الصليب. هذا السر يدركه الخطاة الذين غالوا جداً في خطاياهم وفاجأهم المسيح وهم في الوحل، حينئذ لا يهنأ قلبهم المشتعل والمثقَّل بدين الحب إلا أن يقدِّم المثيل: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١يو٣: ١٦)

والقديس يوحنا، كخبير في الحب الإلهي، يعرف أن الحب هو «**الحق**»= **أليثيا** ἡ ἀλήθεια

في التعامل مع الله. فحب الله ينبغي أن يؤمّن عليه ضد كل غش أو خداع أو كذب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل و, الحق،... ونسكّن قلوبنا قدامه» (١يو٣: ١٨و١٩). وكأن القديس يوحنا يريدنا أن نعتبر الله واقفاً أمامنا يفحص محبتنا على قياس الحق ويُلْزِمَنا أن نقيس محبتنا على محبته!

والمسيح في إنجيل يوحنا يقرر أن دخولنا في **محبة الآب يلغي عبوديتنا**، باعتبار أن المقابل **للعبد** في إنجيل يوحنا ليس **الإبن** فقط بل **والمحبوب!** «لا أعود أسميكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحباءَ لأني أعْلمتكم بكل (الحب) ما سمعته من أبي.» (يو١٥: ١٥)

ب — الإتحاد بالله

أو وحدة الشركة مع الآب والإبن في إنجيل القديس يوحنا

حينما قال المسيح: «**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، كان هذا تعبيراً ضمنياً عن قوة الوحدة الإلهية القائمة في الطبيعة الإلهية والفعّالة في الكون كله، حتى أصبح الكون قائماً على تآلف العناصر وشدة اتحادها، خاصة في مكوّنات ذراتها. هذه الوحدة أو هذا الإتحاد البالغ منتهى القوة والإرتباط هي التي تعطي للعناصر أشكالها وألوانها وللطبيعة صفاتها ومظاهرها — ويكفي أن نعلم أنه حينما نجح الإنسان في فك وتحطيم هذا التآلف وهذه الوحدة الجبارة في «**الذرة**»، أنتج القنبلة الذرية، فإن كانت قوة الفك بهذا المقدار فماذا تكون قوة التجمع؟؟

ثم إن قوة هذه الوحدة القائمة في الذرّة يرتقي مفعولها في الإنسان الطبيعي لتؤآلف بين الإنسان والإنسان، ثم ترتقي لتؤآلف بين الإنسان والله! فإن كان العالم الطبيعي قائماً ومتأسساً على قوة الوحدة أو الإتحاد أو التآلف، فالعالم الإنساني الأكثر ارتقاءً لا يزال أيضاً يقوم ويتأسس على قوة هذه الوحدة التي تؤآلف بين الأفكار والعواطف والعادات والقلوب. كذلك فالعالم الروحي الأكثر ارتقاءً هو يقوم أيضاً ويتأسس على قوة هذه **الوحدة المنبعثة من الله**، وهي لا تزال تعمل في الإنسان حتى يبلغ الإنسان منتهى قصد الله من نحوه أي حينما يدخل الإنسان في شركة الحياة مع الله، حيث يكون الله صاحب المبادرة في هذا الجذب والتهذيب والتقديس لبلوغ هذه الوحدة فيه أو معه، هذه الوحدة التي كانت عند المسيح محور عمله، وأساس إرساليته، ومنتهى رجائه، وصلواته! «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يو١٧: ٢١)

لينتبه القارىء! فليس من فراغ نحن نطلب الإتحاد مع الله أو هو تعالٍ أو طلبٌ ليس من حقنا بل هذا هو عمل الله بالأساس، وهو قد صار من صميم حق الإنسان حينما فداه المسيح وقدَّسه وأهَّله للإتحاد به. فالوحدة، أو الإتحاد مع الله، هي جوهر رسالة المسيح ومحور تعليمه وعلَّة موته ورجاء قيامته ومشغولية شفاعته الآن لدى الآب عن ضعفنا.

اسمع القديس يوحنا كيف يبدأ رسائله بهذا الهدف الواحد والقصد الأساسي وعلَّة شهادته وغاية كرازته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به **لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا** (مع الرسل)، **وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح**. ونكتب إليكم هذا (الخبر السار) لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو١: ٣و٤). وهكذا لن يكمل فرح الإنسان و يدوم له إلاَّ إذا بلغ هذه الشركة التي بلغها الرسل وعاشوها وكرزوا بها! بل هي أيضاً تأمين حفظ الإنسان من جذب العالم الشديد وإغراء الشيطان المحتال. لأن بها يمسك الإنسان بالله، بل ويمسك الله بالإنسان فلا يستطيع أن يخطفه أحد: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية (من حياتي) ولن تهلك إلى الأبد **ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها** هو أعظم من الكل (كل قوة شريرة) **ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي**. أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٧—٣٠)

القديس بولس الرسول يرى أن سِرَّ الإتحاد بينه و بين الآب والإبن هو المستعلن بالحب — حب الله الجاذب — الذي لا تقوى على حلِّ رباطه أية قوة مهما بلغ عتوُّها في السماء والأرض: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرْيٌ أم خطر أم سيف؟... في هذه جميعها **يعظم انتصارنا بالذي أحبنا!** فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى **تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.**» (رو٨: ٣٥—٣٩)

هكذا يوضح القديس بولس الرسول، كما القديس يوحنا الرسول أيضاً، أن سر قوة الإتحاد أو الوحدة مع الله قادم إلينا ومنسكب علينا وفعَّال فينا من قِبَلِ الله نفسه. فالحب هو حب الآب في المسيح نحونا: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به» (يو١٧: ٢٦)، فهو حب غالب وقهَّار.

ثم لكي نثبت للقارىء أن هذه الوحدة التي نبتغيها أي الإتحاد مع الآب والإبن هي عمل المسيح وشغله الشاغل نقدم هذه الآيات المختارة:

— «**كما أحبني الآب كذلك أحببتكم** أنا اثبتوا في محبتي.» (يو١٥: ٩)
— «إن حفظتم وصاياي **تثبتون في محبتي** كما أني أنا حفظت وصايا أبي **وأثبت في محبته.**»

(يو١٥: ١٠)

– «**كل ما للآب هو لي لهذا قلت إنه** (أي إن الروح القدس) **يأخذ مما لي ويخبركم.**» (يو١٦: ١٥)

– «**الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني** وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٧)

– «الكلام الذي أعطيتني، **قد أعطيتهم.**» (يو١٧: ٨)

– «**كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي وأنا ممجد فيهم.**» (يو١٧: ١٠)

– «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني **ليكونوا واحداً كما نحن.**» (يو١٧: ١١)

– «لست أسأل من أجل هؤلاء (التلاميذ) فقط بل من أجل كل الذين يؤمنون بي بكلامهم، **ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.**» (يو١٧: ٢٠و٢١)

– «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني **ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.**» (يو١٧: ٢٢)

– «أنا فيهم وأنت فيَّ **ليكونوا مكمَّلين إلى واحد.**» (يو١٧: ٢٣)

ربما يقتنع القارىء الآن أن الإتحاد بالله أو شركة الوحدة مع الآب والإبن هي محور إنجيل يوحنا وقضية الخلاص والحياة الأبدية التي جاء المسيح ليعلنها باسم الآب. وآخر آية استشهدنا بها «**أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد**» هي خلاصة هذا السر الخطير الذي استعلنه إنجيل يوحنا للعالم، أي أن الجوهر الإلهي الذي يجمع الآب بالإبن في ذات واحدة هو هو القوة التي تجمعنا فيهما بالنعمة. وهو نفسه السر المكتوم منذ الدهور الذي أُعلِنَ لرسله القديسين بالروح حسب قول القديس بولس الرسول: «إنه بإعلان عرَّفني بالسرِّ... الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر كما أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاءَ في الميراث (ميراث المسيح الإبن في الآب) والجسد (جسد المسيح الواحد ونحن أعضاء فيه) ونوال موعده (الحياة الأبدية مع الله) في المسيح بالإنجيل.» (أف٣: ٣–٦)

والإنسان – أنا وأنت وكلُّ مَنْ يؤمن ويحب الرب يسوع المسيح – مدعو في هذا السر المعلَن بالمسيح والقائم في المسيح لحسابنا، لكي يكون شريكاً في مجد المسيح وفي المحبة الإلهية التي هي صفة الوحدة ومجالها الفعال في الآب بالإبن. فجوهر الوحدة الإلهية وقوة الحب الإلهي المذخر في الآب والإبن أصبحت فعَّالة فينا بالمسيح.

اما مجمل صلاة المسيح للآب فيا يختص بهذه الوحدة التي تجمعنا في المسيح والآب فهي كالآتي :

أ ـ أن تنفتح بصيرة الإنسان ليعرف هذا السر القائم بين الآب والإبن، لأنه بهذه المعرفة الإلهية تورَّث الحياة الأبدية التي هي في حقيقتها شركة حياة مع الله.

ب ـ أن تنسكب قوة المحبة التي بين الآب والإبن في قلوب الذين أحبوا المسيح والآب لتستعلن بها أسس الوحدة أو الشركة مع الله.

ج ـ أن يحفظ الآب في اسمه كل الذين يؤمنون بالمسيح. أي يحفظهم من العالم ومن الشرير ويقدسهم في الحق بكلمته ليصيروا من خاصته ويؤهَّلوا للإتحاد به.

د ـ أن تشمل المؤمنين باسم الآب والمسيح وحدة داخلية تربطهم بالآب والإبن، على أساس أن حلول المسيح فيهم يؤهِّلهم للإتحاد بالآب كما أن الآب حالٌّ في المسيح. وبهذا ينتقل الإنسان نقلته العظمى ليعيش مع الله في وحدة غير منفصمة بعد.

على أن لا ننسى أن سر إتحاد الإنسان بالله قائم أساساً على القوة الإلهية التي جعلت «الكلمة صار جسداً». فإتحاد اللاهوت بالناسوت في وحدة غير منفصمة هو هو الذي صار أساس الإتحاد في الإتجاه العكسي، أي إتحاد الإنسان بالله. غير أن الأول إن كان تنازلاً إلهياً لم يفقد فيه الإبن شيئاً من لاهوته، فالثاني إرتقاءٌ بشري يتحتم أن يفقد فيه الإنسان العبد إنسانه العتيق لينال امتياز التبني لله!

الباب الرابع

المفاهيم اللاهوتية الأساسية

في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول

النظرة اللاهوتية إلى المسيح
وعلاقته بالله الآب

ألقاب المسيح كما جاءت في الأصحاح الأول وما بعد ذلك:

إذا تمعنَّا في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا فإننا نندهش من عدد الألقاب التي وضعها القديس يوحنا في هذا الحيِّز الصغير من الإنجيل. ولكن إذا أدخلنا في الإعتبار الإتجاه المسيحي واللاهوتي الذي هو مقصد الإنجيل الأساسي، وفحصناها من جهة ترتيبها وصلتها ببعض وخلفيتها، حينئذ نزداد عجباً من عمق هذا الإنجيل.

وهي كما جاءت وبحسب ترتيبها كالآتي مرقَّمة بالأعداد في الأصحاح الأول:

«الكلمة» في الأعداد ١و١٤.
«إله» في العدد ١.
«الحياة والنور» في الأعداد ٤و٥و٩.
«الوحيد» ὁ μονογενής في الأعداد ١٤و١٨.
«الإبن الوحيد» في العدد ١٨.
«حَمَل الله» في الأعداد ٢٩و٣٦.
«ابن الله» في الأعداد ٣٤و٤٩.
«المسيَّا» في العدد ٤١.
«ملك إسرائيل» في العدد ٤٩.
«ابن الإنسان» في العدد ٥١.

وبالإضافة إلى هذه الألقاب يوجد أوصاف أخرى يمكن إلى حدٍّ ما اعتبارها ألقاباً، وفي نفس

الوقت هي تشير إلى وظيفة من وظائف المسيا الهامة، مثل:

«الذي يأتي بعدي»	في الأعداد ١٥و٢٧و٣٠.
«الذي هو قبل المعمدان»	في الأعداد ١٥و٣٠.
«الذي هو في حضن الآب»	في العدد ١٨.
«الذي يعمّد بالروح القدس»	في العدد ٣٣.

أما بقية الألقاب والصفات التي تقوم بوظيفة لاهوتية أو ليتورچية والتي تُحسب أيضاً كلقب في باقي الإنجيل وقد وردت معانيها في مواضعها في الشرح، فيمكن تلخيصها كالآتي:

«المعلم والسيد»	في يو١٣:١٣	لقب تأكيدي من فم المسيح نفسه.
«ربي وإلهي»	في يو٢٠:٢٨	اعتراف استعلاني بالروح من توما.
«مخلص العالم»	في يو٤:٤٢	اعتراف أهل السامرة وهو اعتراف عام هام.
«المسيح ابن الله الحي»	في يو٦:٦٩	لقب مسيّاني خالٍ من المعنى السياسي أو المادي.
«إني أنا هو ἐγώ εἰμι »	في يو٨:٢٤	ومواضع أخرى كثيرة إشارة إلى لاهوته وبنوته لله.
«الإبن»	في يو٥:١٩	أي أنه الإبن، وأن الله أبوه، وأنه كائن قبل إبراهيم.
«خبز الحياة»	في يو٦:٣٤و٤٨	لقب ليتورچي وروحي.
«الخبز النازل من السماء»	في يو٦:٥١	لقب ليتورچي استعلاني للمنّ في العهد القديم.
«نور العالم»	في يو٨:١٢	لقب استعلاني.
«الراعي الصالح»	في يو١٠:١١و١٤	لقب كنسي.
«الباب»	في يو١٠:٧	لقب لاهوتي خلاصي.
«الطريق»	في يو١٤:٦	لقب لاهوتي خلاصي.
«القيامة والحياة»	في يو١١:٢٥	لقب أخروي «إسكاتولوچي».
«الكرمة الحقيقية»	في يو١٥:١	لقب سرائري يحمل شكل الكنيسة، وواقعها وشعب الله والمسيح.

ولكن بالعودة إلى ألقاب الأصحاح الأول نجد أنه ليس جزافاً اهتم القديس يوحنا أن يكدّس هذه الألقاب في هذه المقدمة لإنجيله، فهي تكشف عن غرض ذي أهمية، ويكاد أن يكون لكل لقب سببٌ في موضعه. ففي آية: «في البدء كان ,,**الكلمة**،،» يفيد موضع لقب «الكلمة» سبق

الوجود والكيان للترفُّع بالمسيح عن مستوى المخلوقات؛ «**والكلمة** كان عند الله» يفيد موضعها نسبة المسيح لله، لأنه إذا لم يكن ينتسب إلى المخلوقات فلمَنْ ينتسب؟ — ثم «وكان **الكلمة الله**» يفيد موضعها طبيعته. فإذا كان الكلمة ينتسب إلى الله فما هي طبيعته؟ لذلك فإن ورود «الكلمة»، كلقب للمسيح في الثلاثة المواضع يفيد التعريف بالمسيح قبل التجسد. ولكن ماذا كان عمله؟ هنا يستعلن الإنجيل علاقة «**الكلمة**» بالخَلْق، حيث يكشف عن جوهر الكلمة الفعَّال في الخليقة «حياة ونور». ثم ينتقل من سبق الوجود إلى الوجود الظاهري: «والكلمة صار جسداً»، فهنا يكتمل استعلان «الكلمة» بالنسبة للإنسان «حَلَّ بيننا».

+ **الوحيد** ὁ μονογενής (١: ١٤):

جاءت هنا للتوضيح بسبب ذكر «**المجد**» الخاص بالمسيح «**الكلمة المتجسد**»، فلأن كل الخلائق السمائية ذات مجد هنا أراد القديس يوحنا أن يخص «**الكلمة المتجسد**» بمجد خاص جداً ومرتفع للغاية فهو مجد «**وحيد من الآب**» حيث تترجم صفة «**وحيد**» في التراث العبري بالإبن أو بالمحبوب ἀγαπητός سواءً بسواء، أو حتى تفيد **الإبن المحبوب**. هكذا وردت في الترجمة السبعينية: «**خُذ ابنك حبيبك** τὸν ἀγαπητόν (مقابل «وحيدك» في الأصل العبري) الذي تحبه» (تك٢٢: ٢). فلقب «الوحيد» جاء هنا في هذا الموضع للتفريق والتمييز بينه وبين كافة الممجدات السماوية: «ورأينا **مجده** مجد ,, **وحيد**،، من الآب»، فهو مجد خاص بالله استُعلن في الكلمة لما تجسد!! حيث حرف «**من**» παρά في «من الآب» يُفضَّل أن يضاف إلى «**المجد**» وليس إلى «الوحيد». أي «وحيد بمجد الآب» أو «وحيد بمجد من الآب»، لأن في هذا الموضع لم يتعرض الإنجيل بعد للعلاقة اللاهوتية بين الآب والإبن. وتؤكِّد ذلك هذه الآية: «أيها الآب أريد أنَّ هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا **لينظروا مجدي، الذي أعطيتني، لأنك أحببتني، قبل إنشاء العالم**» (يو١٧: ٢٤). ويتفق في هذا الشرح القديس كيرلس الكبير وكثير من العلماء المحدثين.

الإبن الوحيد ὁ μονογενὴς υἱός (١: ١٨):

هنا يدخل القديس يوحنا في صميم العلاقة الداخلية في الله، حيث أن الله لم يَرَهُ أحد قط، ولكن هنا يظهر «الكلمة المتجسد» أنه لا يزال يحتفظ بكل مخصصاته في الله قبل التجسد ككلمة الله **فهو الوحيد الذي رأى وخبَّر عن الله في ذاته** «**وما رآه وسمعه، به يشهد**... ومَنْ قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق» (يو٣: ٣٢و٣٣)، حيث هنا في هذا الموضع يكون لقب «الإبن الوحيد» هو بقصد الإعلان عن ملء لاهوت الكلمة المتجسد على الأرض ليبدأ شهادته عن الله وقدرته الفريدة على استعلان حقائق الله. لذلك يُعتبر هذا اللقب بمثابة مِفْصَلٍ يربط المقدمة بجسم الإنجيل

أو يربط الكلمة قبل التجسد بالكلمة بعد التجسد. أما هذا اللقب بصفته العمومية على مستوى الإنجيل كله فهو، بحسب وظيفة إنجيل يوحنا اللاهوتية في تخصصه في استعلان طبيعة الآب السماوي، يركّز في توضيح طبيعة الإبن فيذكره بصفة «الوحيد» «المونوجانيس»، ويخصص لها في الإنجيل أربعة مواضع ومرة أخرى في رسالته (يو١: ١٤و١٨، ٣: ١٦و١٨؛ ١يو٤: ٩).

وهو إن كان قد ذكرها في الأصحاح الأول مرتين، فهذا لكي يوضح مدى الأهمية والتأكيد المزمع به أن يلقي عليه الضوء في الإنجيل.

وتأكيده على صفة «الوحيد» هو لكي يؤمّن مفهومها ضد ما يمكن أن يتطرق إلى لقب الإبن من مفهومات تأملية هللينية أو مجازية فلسفية، فهو يقصد أنه ابن فريد من نوعه أو كما يُترجم «**وحيد الجنس**». فهي بُنُوَّة فريدة من نوعها لا تُقارَن قط بأي مفهوم آخر للبنُوَّة، وهي صفة جاءت بالدرجة الأولى لتخدم استعلان «**الآب**» باحتياط بالغ الحساسية لأنها تخص نفس القضية اللاهوتية التي انشغل بها المسيح جداً لترسيخ مفهوم «**الوحدة مع الآب**» القائمة على جوهر الحب «**الذاتي**» في طبيعة الله: «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)

وقد بلغ التأكيد في وحدة الإبن مع الآب أن قال المسيح لليهود: «**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، وهذا أمر مريع ومرعب بالنسبة لليهود إذ يعبِّر من وجهة نظرهم عن تجديف وتحرُّر من سلطان الله المطلق. وهذا قاله الرب في أمر شفاء المقعد مريض بيت حسدا يوم السبت، إذ كيف يُشفي يوم السبت؟ فلما أرادوا أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت أجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، «معادلاً نفسه بالله» (يو٥: ١٨) حسب قول اليهود: «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الإبن كذلك.» (يو٥: ١٩)
ويعلّق على هذا الحوار أحد مشاهير علماء التلمود وهو الدكتور إزرائيل إبراهامز أن هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا) يحتفظ لنا بحوار أصيل (حسب الأصول التلمودية للربيين) نابع من تقليد أصيل لم يَرِدْ قط في الأناجيل الأخرى في ناحية من تعاليم يسوع[1].

وهكذا يؤكِّد المسيح أنه لم يعادل نفسه بالله بمعنى التحرر من سلطان الله، وهو لا يدَّعي لنفسه سلطاناً منفصلاً عن الله أبيه، بل يؤكِّد أنه يستمد سلطانه من سلطان الله معلناً أنه ليس ثائراً على

---

[1] **Cambridge Bib. Essays p. 181; In Studies in Pharisaism.**

سلطان الله ولا مجدِّفاً، بل هو ابن طائع للآب عن وحدة مشيئةٍ وإرادةٍ وحبٍّ وعملٍ، وكلُّ ما يعمله فهو بإتحاد مطلق مع الآب. فالآب والإبن لا يمثلان وجودين إلهيين منفصلين، بل: «أنا والآب واحد». هذا كله ينطوي تحت اللقب «الوحيد»، فهو ابن وحيد الجنس مع الآب: فكلمة «مونوجانيس» تخص الآب كما تخص الإبن. فقول القديس يوحنا أن «الإبن **الوحيد** الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١ :١٨)، يقصد بها أن هذا المؤهل الفريد والصلة الفريدة التي تربطه بالآب هي التي أعطته الحق، كل الحق، أن يخبِّر عن الله بما رآه وسمعه!!

«**حمل الله** الذي يرفع خطية العالم» (١: ٢٩و٣٦):

لقب أضْفاه يوحنا المعمدان على المسيح، وهو لقب فِصْحي بالدرجة الأولى، ذبائحي وليتورجي. ولكن المشكلة التي واجهت العلماء: كيف بلغ المعمدان إلى هذا التقرير، وما هو تفسيره؟ فنعتقد أنه واضح غاية الوضوح، فالمعمدان وهو يعلِّم أنه يفتتح العهد الجديد وأنه يمثل آخر أنبياء العهد القديم: «ينبغي أن ذلك يزيد (يصير الكل) وأني أنا أنقص» (يو٣: ٣٠)، فهو يقدم المسيح كفصح العهد الجديد لا كحمل يُذبح كل سنة أو كل صباح، ولكنه «**حَمَل الله**» الذي يرفع «**الخطية**» جملة وتفصيلاً. فالمعمدان بقوله هذا يسدل الستار على عهد الذبائح، ويختم على زمان النبوة والأنبياء ويسلِّم الشهادة لصاحبها، ولأن الشمس أشرقت فينبغي أن يُطفَأ المصباح.

ويلاحظ أن المعمدان لا يقول «الحمل» فقط، بل «**حمل الله**»، فالله وجد في المسيح خروفه: «وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي. فقال هأنذا يا ابني. فقال هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم **الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني.**» (تك٢٢: ٧و٨)

فقول المعمدان «هوذا **حمل الله** الذي يرفع خطية العالم» صار هو اللقب الذي افتتح به إنجيل يوحنا رسالة المسيح الخلاصية أو بالحري درب الصليب! والمسيح هنا يظهر بمظهر العبد المتألم الطائع، والخروف المعدُّ للذبيحة من قبل إنشاء العالم معاً!

+ «**ابن الله**» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٣٤و٤٩):

وهو اللقب الثاني الذي أضْفاه المعمدان على المسيح (يو١ :٣٤). والعجيب أن تأتي بعض المخطوطات (قراءة القديس أمبروسيوس) بهذا اللقب كالآتي: «الإبن المختار» أو «مختار الله»[٢]. وهو نص اللقب الوارد عن المسيح بوضوح شديد في المزمور ٨٠: «يا إله الجنود ارجعن اطَّلع من السماء، وانظر وتعهد هذه الكرمة والغرس الذي غَرَسَتْهُ يمينك **والإبن الذي اخترته لنفسك.**» (مز٨٠: ١٤و١٥)

---

[2] Schnackenburg, According to St. John, p. 305.

ونفس اللقب «الإبن المختار» هو الذي ورد أيضاً في نبوة إشعياء النبي (إش٤٢: ١—٤)، كما استشهد بها القديس متى الرسول في إنجيله: «**هوذا فتاي الذي اخترتُه** حبيبي الذي سُرَّت به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق.» (مت١٢: ١٨)

ويلاحظ أن هذا اللقب الذي أعطاه المعمدان للمسيح كما أعطاه أيضاً نثنائيل له، هو إعلان له رنَّة مسيَّانية. فمعروف أن المسيَّا سيأتي كواحد مثل موسى، أي **كإبن من أبناء إسرائيل**، ولكن أمام الواقع الإستعلاني والعين والبصيرة المفتوحتين، رأى المعمدان بالرؤية كما رأى نثنائيل بالإيمان، أن هذا هو المسيا ولكن ليس كإبن إسرائيل بل **«ابن الله»**. فاللقب مُتسحَّب من الفكر المسياني. فهو في فم المعمدان إعلان عن المسيَّا الحقيقي، وفي فم نثنائيل إيمان بالمسيا وشهادة.

+ «**المسيَّا**» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٤١):

اللقب الذي أعطاه أندراوس للمسيح «وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح» (يو١: ٤١)، وهو لقب تحت البحث والفحص والدراسة:

«وجدنا الذي **كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء** يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو١: ٤٥). وطالما بقي هو «**يسوع بن يوسف**» فهو لا يزال «**مسيا**» اليهود الذي يطلبه اليهود ليخلّصهم من الرومان. وهو لا يزال يحتاج أن يرتفع إلى «**يسوع ابن الله**».

+ «**ملك إسرائيل**» (١: ٤٩):

هذا اللقب جاء على شفتي نثنائيل كرد حاسم وسريع للقب الذي منحه المسيح لنثنائيل «هذا **إسرائيلي حقاً** لا غش فيه.» (يو١: ٤٧)

وهنا تحط مجموعة الألقاب السالفة في الأصحاح الأول عند مرحلتها الختامية، حيث اللقب المشتهى في نبوة إشعياء: «هكذا يقول الرب **ملك إسرائيل** وفاديه رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (إش٤٤: ٦). الذي يعود نثنائيل ويستعلن اللقب على مستوى المسيح الواقف أمامه: «أنت ابن الله».

+ «**ابن الإنسان**» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٥١):

أول لقب يعطيه المسيح لنفسه (يو١: ٥١) في إنجيل يوحنا، وفي الأصحاح الأول! ليرفع به الغطاء عن إرساليته ويفتتح به إنجيل أعماله، باعتباره السلم المنصوب بين الأرض والسماء. فإبن الإنسان جاء ليجعل الأرض تتصل بالسماء، ويجعل الإنسان يرى السماء مفتوحة، والملائكة تنزل أولاً حاملة رسالة وبشرى وخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص، بعد أن كانت تطلع أولا في حلم

يعقوب تحمل أخبار أحزان الإنسان (تك٢٨ : ١٢).

واللقب «ابن الإنسان» ، بالنسبة لسلم السماء وحلم يعقوب إسرائيل ، يحمل إشارة صريحة أن المسيح هو «إسرائيل الجديد» ، أي أن لقب ابن الإنسان يحمل في طياته معنى ناس أو شعب الله المفديّ في العهد الجديد. وقد اختاره المسيح بصفة ممتازة لأنه يخلو من الاحساس بالإنتماء إلى أي أمة أو شعب، كما يتناسب مع رسالة حمل «ضَعْفِ» الإنسان وأحزانه ، فحينما يسمع أيُّ إنسان هذا اللقب يشعر بانتماء المسيح إليه ، كما يسمعه المحزون والضعيف الرازح تحت ثقل الضعف البشري فيشعر بانتمائه إلى المسيح ؛ أليس هو ابن الإنسان؟!!

وهذا اللقب جعله إنجيل القديس يوحنا ختام الأصحاح الأول ، وهو أصحاح التعريف بالمسيح على مستوى العالم كله وعلى مستوى الأنشودة!!

المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١ — الكلمة. اللوغُس λόγος
في إنجيل يوحنا

لماذا اللوغُس في إنجيل يوحنا:

لقد اهتم القديس يوحنا أن يذكر علاقة اللوغُس الكلمة بالله في الأزل لندرك أزلية علاقة المسيح بالله.

واعتنى أن يذكر عمل الكلمة في الخلق المادي لكي ندرك أن الخليقة الجديدة الروحية التي أكملها المسيح هي تكميل متناسق مع عمله الأول.

كذلك أيضاً فالقديس يوحنا بدأ إنجيله بتوضيح اللوغُس وعلاقته بالله وصفاته الإلهية قبل التجسد ليكون هو أساس معرفتنا له بعد التجسد بعد أن صار هو يسوع المسيح. فالذي عمله القديس يوحنا هو أنه استعلن سيرة الرب يسوع في السموات عند الله في الأزل حتى لا نتوه في سيرته المتواضعة على الأرض وحتى لا تصبح بشريته المهانة عثرة لإيماننا كما أنذر هو بنفسه: «وطوبى لمَن لا يعثر فيَّ» (مت ١١:٦). لذلك، فنحن حينما نؤمن باللوغُس في وضعه قبل التجسد يكون ذلك في الواقع هو كمال إيماننا الصحيح بالمسيح، لذلك كان اعتناء القديس يوحنا أن يستهل إنجيله بهذه السيرة الإلهية للمسيح قبل التجسد.

اكتشاف اللوغُس في داخل إنجيل يوحنا:

ولكن حينما نركِّز الفكر في سيرة المسيح التي نعيشها معه في إنجيل القديس يوحنا لا ندرك لأول وهلة أنه «كلمة الله»، ولكن الذي ندركه عن إيمان ويقين أنه هو «الله المتكلم». فإذا زحزحنا هذا المنطوق ناحية الفكر المطلق يكون هو «الله الكلمة». فنحن عرفنا من المسيح نفسه أنه قبل إبراهيم كان كائناً، وبالتالي فهو كذلك قبل آدم بل والخليقة كلها، في البدء في الأزل، إذن فهو

الناطق الأزلي!!

لذلك فإذا عكسنا الوضع يكون أننا حينما نؤمن بالمسيح من واقع كينونته الأزلية التي أعلنها صراحة في الإنجيل، فنحن نؤمن باللوغُس الأزلي. لأن اللوغُس عُرف فقط لما تجسد، إذ أن صفات المسيح الإلهية تشير إليه بقوة لا تجارَى! فإذ قد علمنا أن في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، فإننا نعرف في الحال والتو أن اللوغُس قبل التجسد كان هو «ملء اللاهوت» (كو٢: ٩) دون جسد! ولما تجسد رأينا أنه مملوء نعمة وحقاً (يو١: ١٧). ومن هذا نعرف بكل يقين أنه قبل التجسد، أي وهو اللوغُس الأزلي، كان مملوءاً نعمة وحقاً.

ثم إن معاملات المسيح تجاه الإنسان عامة والخاطىء المظلوم خاصة وتجاه العالم بالتالي، تكشف لنا بكل وضوح واستعلان عن علاقة اللوغُس الأساسية تجاه العالم والإنسان وقضية خطية الإنسان وبؤسه وشقائه في الجسد منذ البدء!

لذلك فمن السهل أن نلمح في قصد اللوغُس الأزلي نيّة التجسد وأنه كان بالفعل متجهاً إلى هذه الغاية على مدى كل العصور السالفة كلها، إنما بتدرج بطيء للغاية يفوت على قدرة الإنسان في الملاحظة، فهو تدرُّج استعلاني قدّمه القديس يوحنا باختصار شديد، ولكن غير ملحوظ بسبب كفاءة فكر الإنسان المحدود. ولكن الحقيقة أنه كان متجهاً نحو الإنسان بصفته النور الذي يضيء الظلمة حاملاً في البدء ليس جسد البشرية بل همّها، واضعاً في النيّة والقصد حمل هذا الثقل عينه أخيراً، أي الجسد الإنساني، ليحرره من ظلمة الخطية والشقاء والموت، إلى أن أكمل التجسد وصار «ابن الإنسان» نور العالم!

ونحن لا نتجه إلى شرح لوغُس إنجيل يوحنا مبتدئين باللوغُس الذي في العالم وهو لوغس الفلاسفة يهوداً كانوا أو يونانيين، **ولكن نحن لا نعرف اللوغُس إلا في يسوع المسيح وفي يسوع المسيح نستعلنه.** فلا العالم ولا حتى المصنوعات الباهرة في العالم التي تنطق بلاهوت صانعها توصلنا إلى معرفة الله والحياة الأبدية والخلاص المعدّ للإنسان. ولكن الذي عرفناه بيقين المعرفة هو أن يسوع المسيح وحده هو الذي يعرِّفنا بالله أبيه وبالحياة الأبدية والخلاص. والذي يعرف الله في المسيح يسوع يدرك مَن هو اللوغُس الذي به صنع الله العالمين!

إن سرَّ ملء اللاهوت في المسيح بكل ما يحيطه من مفهوم فيما يخص قيام هذا اللاهوت قياماً ذاتياً وشخصياً في المسيح كأقنوم على مستوى أقنوم الآب ولكن متحداً به، إنما هو حقيقة اللوغُس!!

هذا اللاهوت الذي في المسيح الكامل والمساوي للآب، الكائن في المسيح قبل كون العالم

والذي به خلق العالم والذي كانت فيه الحياة والنور الإلهي اللذين دخلا في تكوين خلقة الإنسان، هذا اللاهوت — لاهوت المسيح — هو اللوغُس الأزلي.

وإن سر ملء اللاهوت في المسيح وحقيقة وجود الكلمة اللوغُس الأزلي تكشفه هذه الآية الواحدة: «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٤). فهي التي ربطت بل استعلنت الوجودين وجود المسيح فيما قبل التجسد في شخص اللوغُس ووجود اللوغُس في الجسد في شخص يسوع المسيح. لذلك كان من الطبيعي بل من الحق أن نعرف اللوغُس في المسيح ومن المسيح، لأنه هو الذي أخبرنا عمّا كان قبل تجسده حينما كان في حضن الآب كإبن وحينما خرج من حضن الآب خالقاً ثم مخلِّصاً لِمَا خلق.

ونستطيع أن نقول بحسب فكر القديس يوحنا إن أعظم آية عملها المسيح في حياته الممتدة في الأزلية هي تجسده، حيث صار اللوغُس الحامل لكل أسرار الله والخليقة وكل فكر الله الأزلي جسداً. لأن بهذه الآية المنظورة استعلن لنا المسيح كل أسرار الله وفكره منذ الأزل من ناحية خلقة العالم وخلاص الإنسان فأخذ العالم معناه الجديد «هكذا أحب الله العالم» (يو٣: ١٦) — وعرف الإنسان مكانه من الله — «أنا فيهم وأنت فيَّ.» (يو١٧: ٢٣)

من أين أتى القديس يوحنا بكلمة «اللوغُس»:

القديس يوحنا قبل أن يكتب عن الكلمة — اللوغُس — في الأزلية كان قد ملأ قلبه وفكره من الرب يسوع فأدرك فيه كل غنى «كلمة الله» وقوتها وكل حكمة الله وفهمه، بل قاس وتحقق من كل وعود الله وتحقيقها. لقد أدرك فيه، ليس اللوغُس — كلمة الله — وحده، بل وعظمة يهوه «أنا هو». وابتهج قلبه كابتهاج قلب العذراء بالله مخلِّصها. لقد استعلن المسيح ذاته ليوحنا عن قرب، فأدرك يوحنا أنه هو الله متجسداً وأدرك سر أقنومه كإبن قائم في حضن الآب. رأى قيامته من خلف صليبه، فأدرك فيه الألف والياء، البداية والنهاية، أدرك فيه اللوغُس في البدء، وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة في السموات. لما يتكلم القديس يوحنا عن اللوغُس فإن نظره لا يغيب عن المسيح ولا لحظة واحدة، ولما كان يصف أعمال المسيح وأقواله كان اللوغُس حاضراً في ذهنه لا يفارقه.

حينما بدأ القديس يوحنا يشخص في اللوغُس الأزلي في البدء، كان نور المسيح الذي يملأ ذهنه والمالىء للعالم حاضراً. ولما رأى الحياة المنيرة للناس في اللوغُس كانت عينه قد امتلأت واستنارت مسبقاً بالحياة الأبدية التي كانت في الآب واستُعلنت في المسيح. وحينما قال عن اللوغُس أن فيه كانت الحياة، كان كلام المسيح يرنُّ في قلبه: «الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، بل وأيضاً كلمات القديس بطرس: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك»

(يو٦: ٦٨). وعندما قال: «**والحياة كانت نور الناس**» (يو١: ٤) كان يشير إلى قول المسيح: «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له **نور الحياة**.» (يو٨: ١٢)

المسيح يعلن أنه هو الكلمة «اللوغُس»:

ولكن وإن لم يذكر إنجيل يوحنا الكلمة — اللوغُس — في غير المقدمة بصريح اللفظ أنه «الكلمة» أو كلمة الله، إلا أننا بالفحص المتأنِّي نستشف من كل حديث للمسيح عن نفسه أنه هو **كلمة الله** بلا أي عناء:

«**أتكلم** بهذا كما **علَّمني أبي**» (يو٨: ٢٨)؛

«أنا **أتكلم بما رأيت عند أبي**» (يو٨: ٣٨)؛

«**لأني لم أتكلم من نفسي** لكن **الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم**» (يو١٢: ٤٩)؛

«فما أتكلم أنا به **فكما قال لي الآب هكذا أتكلم**» (يو١٢: ٥٠)؛

«**الكلام الذي أُكلمكم** به لِست أتكلم به **من نفسي** لكن **الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال**» (يو١٤: ١٠)؛

«**لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم** وهم قَبِلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو١٧: ٨)؛

«أنا قد أعطيتهم **كلامك**.» (يو١٧: ١٤)

وعلى ذلك نطبق ونقول إن المسيح كان ينطق «**بالكلمة**» **اللوغُس** التي أعطاها له الله فأعطاها هو للناس **لتعمل عملها في الخَلْق والتجديد**. ولكن معروف أن المسيح لما كان يتكلم كان يتكلم بالحق، أو **يتكلم الحق** ἀλήθεια لا لأنه تعلم الحق بل لأنه هو **الحق** ذاته ἡ ἀλήθεια : «أنا هو... **الحق**» (يو١٤: ١٦)، تماماً كما نقول أنه كان يعطي الحياة لأنه هو الحياة: «أنا هو... الحياة» (يو١٤: ١٦). **إذن، فكل ما هو «المسيح» هو «كلمته» اللوغُس! «فقال لهم يسوع أنا** من البدء **ما أكلمكم** أيضاً به.» (يو٨: ٢٥)

أي أن المسيح **لما كان يتكلم كان يستعلن ذاته** أنه هو هو ما يتكلم به، لأنه لما كان يتكلم بالحق كان يستعلن الحق في ذاته. «**فالكلمة**» عند المسيح هي «**ذاته**». **فالمسيح هو هو الكلمة — اللوغُس** — الذي خرج من **عند** الآب وأرسله الآب ليعطينا كلام الآب. وأقوى صورة للكلام الذي كان يتكلم به المسيح هو «**الحق**». وقد جعل من هذه الكلمة «**الحق**» المعيار الأعلى الذي يصف به قوله: «الحق الحق أقول لكم...» **فالكلمة عند المسيح هي الحق** ἀλήθεια

والمسيح جاء **خصيصاً ليستعلن الكلمة اللوغُس** باعتبارها كلمة الله الحق المطلق. ويكون بذلك أنه من الخطأ أن نحسب أن كلام المسيح هو مجرد كلام منطوق به بل هو هو الحق ἀλήθεια مُستَعلَن في الكلام ومن الكلام. وهذا الحق ἡ ἀλήθεια الكائن في كلمة المسيح هو في الواقع تعبير حيٌّ عن فكر الله ومقاصده أو تعبير عن الله في ذاته **أو هو اللوغُس.**

هنا تظهر **الضرورة الحتمية لتسمية المسيح بالكلمة، لأننا بالكلمة وحدها أدركنا فكر الله ومقاصده بل أدركنا حقيقة الله.** فالكلمة اللوغُس هو الوسيط الحتمي الذي كان عليه أن يختزل الهوّة بين الله الحق المطلق والإنسان الذي وإن كان غريباً عن الحق ولكنه يحمل صورته ويسعى نحوه.

ومن هنا أيضاً كان يتحتم على اللوغُس الكلمة الأزلي أن يخرج من عند الآب ويتجسد حتى يكلمنا الله مباشرة فيه بكلمة الله الحية الفعالة المحيية لإعادة الخلق روحياً، وذلك أكمله الكلمة المتجسد بإعطاء ذاته للإنسان كمصدر للحق والحياة والنور.

لقد ابتدأ العهد القديم «**بكلمة الله**» التي أرسلها الله لشعب مختار ومدرَّب (إسرائيل) على فم الأنبياء **ليُعرِّفهم الحق.** ولكنهم تعثروا في فهمها وطاعتها فأخطأوا إلى المعرفة وإلى الله. لذلك تحتم أن يعطي الله للإنسان عامة «الكلمة ذاته» الذي هو الحق والحياة جوهرياً لا لكي **يعرِّف الإنسان** الله بل **ليعطيهم** ذاته، أي الله، يعطيهم الحق ἀλήθεια والحياة الأبدية: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

القديس يوحنا يسلمنا سِرَّ معرفته باللوغُس:

مما سبق يتضح أن اللوغُس في إنجيل يوحنا يعسر فهمه إلا بعد أن يكون الإنسان قد استوعب كل كلام المسيح وتتبع أعماله حتى النهاية حتى بعد بلوغه الذكصا العليا عندما عاد الإبن راجعاً إلى الآب واستعاد مجده الأول، بعد أن أكمل رسالة حب الله من نحو العالم. لأن القارىء عندما يكون قد أكمل تَتَبُّعه لمسيرة الإبن على أرض الزمان ودخل معه دائرة الخلود في الأبدية حتى ولو من بعيد، حينئذٍ فقط يستطيع أن يستوعب فكر القديس يوحنا وهو يسرد مسيرة اللوغُس مبتدئاً من الأزلية حتى حطّه لنا على أرض الواقع الزمني.

القديس يوحنا رأى المسيرتين على الأرض وفي السماء ورافقه فيهما، لقد كان التلميذ الذي يحبه يسوع والوحيد الذي رافقه حتى الصليب. ثم هو وحده الذي اختير من بين التلاميذ والإنجيليين الذي

أخذ بالروح وعاين وشاهد ما يجري وراء أرضنا وزماننا؛ هناك في دائرة الخلود في صميم الحياة ومقابل الحضرة الإلهية: «يوحنا الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه... كنت في الروح في يوم الرب وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والياء الأول والآخر...» (رؤ١: ١و٢و١٠و١١)

تقرير القديس يوحنا عن اللوغُس والمسيح هو تقرير مزدوج: شهادة واستعلان، أي سرد **حقائق** نظرها وعاينها ثم **كشف مضمونها** وأسرارها: «ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فَرَسٌ أبيض والجالس عليه يُدعَى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب. وعيناه كلهيب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو. وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى اسمه **كلمة الله** ὁ λόγος τοῦ θεοῦ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه.» (رؤ١٩: ١١—١٤)

والقديس يوحنا إنجيلي بالدرجة الأولى، فكل خبراته — عن كل أسرار المسيح والكلمة — يطرحها أمام الكنيسة لكي تشترك الجماعة فيما حصل عليه. ففي نهاية سرده لآيات المسيح في إنجيله يقول: «وأما هذه فقد كُتِبتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣١)

وهو يُزيد هذا الإعلان وضوحاً وتأكيداً في رسالته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١: ٣و٤)

وفي مستهل رؤيته التي رآها بصورة ممتازة وفائقة لم يبلغها آخر يقول: «أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح... وسمعت ورائي صوتاً... والذي تراه أكتب في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس.» (رؤ١: ٩و١٠و١١)

فالقديس يوحنا يكتب مقدمة إنجيله عن اللوغُس مسجِّلاً كل ما رآه وعرفه وكل ما استُعلن له، يكتبها باسم الكنيسة: «نحن» ويستودعها صدر الكنيسة على مدى الدهور: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو١: ١٤)

رؤية القديس يوحنا للوغُس:

+ اللوغُس عند القديس يوحنا كائن في البدء في «الأرخي» ἀρχή أي قبل الزمن. فهو لا يمتُّ للخليقة بشيء ولا للعالم بالتالي. هذا هو يسوع المسيح قبل أن يتجسد، عند القديس يوحنا.

وهـو حينما يرفع عن المسيح في شخص اللوغُس أيَّ انتماء للعالم أو الخليقة فهو إنما يمهِّد لموقع المسيح من العالم والخليقة كخالق في البداية ثم مخلِّص وكقاضٍ وديَّان بالنهاية.

+ ذِكْرُ البدءِ «الأرخي» ἀρχή منسوباً للوغُس استدعى في الحال تحديد علاقة اللوغُس بالله لأن البدء خاص بالله وحده. فحدده يوحنا بقوله: «كان عند الله = πρὸς τὸν θεόν » وهي تفيد المكانة (لأن لفظ المكان يمتنع في الإلهيات). فكانة الكلمة اللوغُس بالنسبة لله هي «عنده» أي في المقابل المتَّجه على الدوام. وقد عرَّفها القديس يوحنا على مستوى الإستعلان للذات الإلهية بأن «الآب يحب الإبن» (يو٣: ٣٥). فالإبن متجه نحو الآب يجذبه حب الآب المستمر الأزلي والأبدي، عبَّر عن ذلك المسيح: «أنا حيٌّ بالآب.» (يو٦: ٥٧)

ويقابل جذب الآب انجذاب الإبن بالحب أيضاً، فالإبن يحب الآب: «ليفهم العالم أني أحب الآب.» (يو١٤: ٣١)

فما رآه القديس يوحنا في **اللوغُس** هو **«عند الله»** في المطلقات فيما وراء الزمن، استعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر الشعوري الإنساني فقال إنها محبة أزلية مزدوجة بين المسيح الإبن والله الآب لا انفصام فيها!!

ورؤية القديس يوحنا **للوغُس في مكانته وهو عند الله كحالة وجود قائم بذاته ثابت وأزلي** يستعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر اللاهوتي المسيحي أن المسيح قائم في الآب، والآب في الإبن: «أَلَسْتَ تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ١٠)

وبالتجسد صار المسيح يخاطب الآب **«أنا فيهم وأنت فيَّ»** (يو١٧: ٢٣)، ومن جهة الأعمال التي كان يعملها المسيح: «**الآب الحال فيَّ** هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

كذلك فإن رؤية القديس يوحنا الكلمة اللوغُس **قائماً عند الآب منذ البدء أي أزلياً** يعني أن قبل الكلمة لم يكن صمت أو سكوت في الله، فالله ناطق بالكلمة اللوغُس ولم يوجد قط غير ناطق باللوغُس، وهذا يستعلنه على مستوى الفكر المسيحي أن المسيح الإبن كائن دائم في حضن أبيه. لم يوجد الآب بدونه ولا وُجِد بدون الآب: «أنا والآب واحد»، «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر.» (يو١٠: ٣٠، ١: ١٨)

ولكن الوجود الذاتي للكلمة اللوغُس عند الله πρὸς τὸν θεόν ككيان قائم بذاته قد يُفهم خطأً أنه ثنائية في الله وأيهما السابق وأيهما اللاحق. لهذا عجَّل القديس يوحنا بتوضيح وحدانية الله بقوله وكان الكلمة الله، مسجِّلاً للاهوت المسيحي امتناع الثنائية وبالتالي المرؤوسية أو التبعية في

الله. فليس في الله أول وثانٍ أو أعظم وأقل. وهذا استعلنه لنا على مستوى الإنجيل: «وكل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (١٧: ١٠)، «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (٣: ٣٥)

هنا الكلمة — اللوغُس — والله لكل منهما وجوده الذاتي غير أنهما ذات واحدة. صحيح أن هذا اللغز يتضح حلُّه بتفسير أن الآب والإبن ذات واحدة في الله، وكلٌّ من الآب والإبن له شخصه وذاته التي يتكلم بها. ولكن لنا أيضاً في «اسم الله» في العهد القديم توضيحاً صريحاً آخر: فاسم الله له كيان الله وعمل الله ولكن يعمل بمفرده كما يعمل الله بمفرده تماماً. «ها أنا مُرْسِلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق وليجيء بك إلى المكان الذي أعددتُه. احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه. **لأنه لا يصفح عن ذنوبكم لأن اسمي فيه**» (خر٢٣: ٢٠و٢١). كذلك أيضاً في إشعياء: «**هوذا اسم الرب يأتي** من بعيد غضبه مشتعلٌ والحريق عظيم. شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة. ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة لغربلة الأمم.» (إش٣٠: ٢٧و٢٨)

هكذا الكلمة — اللوغُس — يعمل عمل الله وهو قائم بمفرده في الله. واللوغُس في العهد القديم هو المشار إليه بأنا هو ἐγώ εἰμι (٣): «أنا هو أنا هو الرب المتكلم بالصدق»
ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι Κύριος ὁ λαλῶν δικαιοσύνην (إش٤٥: ١٩ — السبعينية)

فكون اللوغُس قائماً عند الله في التساوي اللاهوتي أي بذات الطبيعة الإلهية الواحدة، صحَّ أن يقول: «وكان الكلمة **الله**» (يو١: ١) — وهنا الله في اليونانية بدون أل التعريف — حيث الكلمة اللوغُس هنا هو المبتدأ والخبر، هو الله، وهذا يعني أن **الكلمة بطبيعة الله** وليس بمعنى هو الله وإلاَّ كان يلزم أن يُقال أن الله هو الكلمة. هنا نسبة الله — بدون أل التعريف — للكلمة اللوغُس يعطيه حق «**الطبيعة الإلهية**» وليس «**الذات الإلهية الكلية**» وهكذا يظل «الله» محتفظاً بوحدانية الطبيعة والذات(٤).

هذا يستعلنه لنا القديس يوحنا على مستوى اللاهوت المسيحي أن الآب والإبن إله واحد — «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠) — وأنهما متساويان في الكرامة والمجد «لكي يكرم الجميع الإبن كما يكرمون الآب، مَن لا يكرم الإبن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو٥: ٢٣). أما المجد الواحد: «والآن مجِّدني أنت أيها الآب **عند ذاتك** بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو١٧: ٥)، حيث صار الإبن كما كان «ربي وإلهي» (يو٢٠: ٢٨). «الذي رآني فقد رأى

(٣) أنظر الشرح تحت عنوان «أنا هو» ἐγώ εἰμι صفحة ٢٢٠.
(٤) ذات الله واحدة وحدانية مطلقة وهي ذات كاملة آب وإبن وروح قدس.

الآب.» (يو١٤: ٩)

+ ولكي يحرس القديس يوحنا التساوي الأقنومي أو الشخصي بين الكلمة اللوغُس والله أعطى الجملة الحارسة للوحدانية مرة أخرى «هذا **كان في البدء عند الله.**» (يو١: ٢)

«هذا» هنا تنصب على اللوغُس، فبعد أن قال «وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، عاد وضبط المعنى حتى لا ينحرف نحو الثنائية أو تعدد الله فقال: «هذا كان في البدء عند الله»، أي أن **الله الكلمة كان عند الله.** هذا التناقض paradox ينحلُّ في الحال إذا فهمنا أن الكلمة اللوغُس هو «**الله متكلماً**»، أو **ناطقاً.** حينئذ يكون «الله متكلماً» ليس غريباً عن الله، ولا ثانياً له، بل هو الإستعلان الذاتى لله. فالكلمة اللوغُس هو المستعلِن لذات الله. هذا أيضاً يعود القديس يوحنا ويستعلنه في إنجيله على مستوى الإبن والآب. فالإبن هو المستعلِن للآب. هنا يتحتم أن يكون الإبن من طبيعة الآب ويساويه حتى يستطيع أن يقدم استعلاناً كاملاً وتاماً له. ولكن يظل الإبن والآب هما الله الواحد. الإبن في ذات الله هو المستعْلِن والآب هو ذات الله المستعْلَن. «الله لم يره أحد قط. الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر.» (يو١: ١٨)

+ ولكن لئلا يظهر اللوغُس وكأنه عمل استعلاني لله محصوراً في دائرة الزمن، أضاف القديس يوحنا مرة أخرى «**في البدء**»: «هذا كان في البدء عند الله» (يو١: ٢). وهذا بدوره يعود القديس يوحنا ويستعلنه لنا في المسيح على مستوى الفكر اللاهوتي أن الإبن قائم مع الآب منذ الأزل، لا يمتُّ للحدث الزمني: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني **لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم**» (يو١٧: ٢٤)؛ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨: ٥٨)

فإن كان اللوغُس هو الله — بدون «أل» التعريف — المستعلِن لله كما سبق وقلنا، أصبح كوننا نسمع من اللوغُس هو أننا نسمع لله رأساً. وبالتالي إذا تكلمنا عن اللوغُس فنحن نكون نتكلم عن الله. لأن هذا الإستعلان الذي يقوم به اللوغُس عن الله بالنسبة لنا هو **مشيئة الله لخلاصنا** الذي تم تدبيره عند الله منذ البدء وابتدأ اللوغُس بتنفيذه قبل الزمن منذ البدء.

ورُبَّ سائل يقول: وكيف يتم استعلان الله قبل الخلق وقبل الزمن ولحساب مَن يكون هذا الإستعلان؟ هنا لا يفوت على القارىء اللبيب أن القديس **يوحنا بدأ يستعلن لنا اللوغُس نفسه قبل الزمن وقبل الخلق** لما قال: «في البدء كان الكلمة» ثم «والكلمة كان عند الله»... إلخ. هذا بحد ذاته استعلان لله وللوغُس قبل الزمن وقبل الخلق! فنحن وإن كنا لم نكن قد خُلقنا بعد

ولكن الله بدأ يعمل لخلاصنا لأن الله هو الله لا يُستحدث عليه شيء، ولكن فعل الخلق هو الذي أوهمنا أن بدء علائقنا بالله تبدأ عند بدء الخلق.

ولكن الله استودع في الإنسان وعياً روحياً بالغ العمق يمتد حتى خارج حدود الزمن والخلق لنعرف به الله في ذاته وصفاته وأعماله. فعلى أساس هذا الوعي وقبل أن يوجد فينا، كان الله يرتب خلاصنا. وهذا طرف من استعلان اللوغُس لله من نحونا من جهة تدبير خلاصنا.

سؤال آخر يطرأ على الذهن: وماذا كان قبل تدبير خلاصنا؟
أمران خطيران للغاية يمنعان أن يكون في الله سكون أو عدم:
الأول: هو الوعي العميق الممتد الذي استودعه الله في الإنسان وقدرته الهائلة في الإمتداد ليخترق الزمن وفعل الخلق ذاته، فهو بذلك يتحدى العدم ويسخر من السكون.
والثاني: هو «**في البدء كان الكلمة**» أي بدء الإستعلان الإلهي بالفعل لحساب الإنسان قبل الزمن والخلق، في الأزل!!

معنى «الكلمة» اللوغُس:

أما اسم «اللوغُس» الذي تُرجم بـ«الكلمة» في اللغة العربية فهو في الحقيقة ذو صلة جذرية بوظيفة اللوغُس ذاته بصفته «المستعلِن» Revealer لله بمعنى أن عمله هو أن يجعل الله معروفاً. فهو جدير بأن يكون «**الكلمة**» لأن «الكلمة» وليدة «**المطلق**» باعتبارها «**كلمة الله**» في إحدى صورها. فهي أعلى من مثيلها البشري بلا حدود. فالكلمة عند الإنسان وليدة العقل، والعقل البشري محدود. لذلك فاللوغُس أعلى من الفكر العقلي عند الإنسان.

كذلك فالكلمة اللوغُس حينما قام بفعل الخلق فهذا «الفعل» أعلى من مثيله لدى الإنسان، فاللوغُس كفعل هو أعلى من كل أفعال الإنسان. لأن فعل الإنسان محكوم تحت محدودية الخليقة؛ أما اللوغُس كفعل فهو خلاّق ومُبدع من العدم لا يعتمد على القوة كطاقة مخلوقة. بل يعتمد على طاقة الله في الخلق والإبداع.

لذلك لا يصحُّ أن نشبِّه اللوغُس «**بالفكر**» ولا «**بالفعل**» لأن مفهوم الإنسان للفكر والفعل يختلف عن مضمونها الإلهي في اللوغُس كل الإختلاف. وهذا هو بعينه قصد القديس يوحنا من وضعه للكلمة «**في البدء كان الكلمة**»، أي قبل أن يوجد التفكير العقلي للإنسان وقبل الفعل المتولد من القوة المخلوقة عند الإنسان. ومن جهة هذا الأمر يستعلن لنا القديس يوحنا في شخص المسيح — على مستوى اللاهوت — بأن أقنوم المسيح استخدم «**الفكر**» واستخدم «**الفعل**»

(القوة) استخداماً. وذلك تحت سلطان «كلمته»: «كان يعلمهم كمَن له سلطان» (مر١: ٢٢)، «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧: ٤٦)، «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجموني؟ أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو١٠: ٣٢و٣٣). العمل «بالكلمة» هنا أعلى من مستوى الفعل البشري. فالمسيح لم يكن **إنسان العقل** ولا **إنسان الإلهام** ولم يكن **إنسان القوة الخارقة**، بل **إله العقل والقوة ورب الفكر والفعل** حتى في أعلى صورها. أو بمعنى آخر إن فكر المسيح الذي كان يعلّم به والطاقة الإلهية التي كان يعمل بها الأعمال لم تكن تنتمي للزمن أو للخليقة بل كانت إلهية وكائنة فيه كيان الأزل: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» (يو٨: ٢٥)، «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو٧: ١٦)، «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية.» (يو١٥: ٢٤)

دحض القول بأن «اللوغُس» مأخوذ من الفلاسفة:

القديس يوحنا لم يستلف **اللوغُس** من اليونان، ولا استقرأه من أسفار الحكمة ولا تعلّمه على يد الغنوسيين أو ورثه عن فيلو بل لوغُس القديس يوحنا هو «المسيح» وقد أدركه القديس يوحنا من أقواله وتعليمه ثم استلمه بالرؤيا وتكلم عنه كما يتكلم الإنسان عن شخص يراه.

٢ — «المسيا» في إنجيل يوحنا

سبق أن قدّمنا مفهوم لقب «المسيا» في إنجيل يوحنا في عرضنا لعلاقة هذا الإنجيل بالعهد القديم. (أنظر الباب الثاني — الفصل الثالث — ص ٨٩).

٣ ــ «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا وبالتالي في اللاهوت المسيحي

لقد صار من أهم معالم إنجيل يوحنا العناية الكبيرة التي أعطاها للقب ابن الإنسان بصورة فريدة، فقد ورد في أكثر من أحد عشر موضعاً:

ــ «وملائكة الله **يصعدون وينزلون** على **ابن الإنسان**.» (١: ٥١)

ــ «وليس أحد **صعد إلى السماء** إلاَّ الذي **نزل من السماء ابن الإنسان** الذي **هو في السماء**.» (٣: ١٣)

ــ «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي **أن يُرفع ابن الإنسان**.» (٣: ١٤)

ــ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته... وأعطاه سلطاناً **أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان**.» (٥: ٢٦و٢٧)

ــ «اعملوا لا للطعام البائد **بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان**، لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (٦: ٢٧)

ــ «فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم **تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه** فليس لكم حياة فيكم.» (٦: ٥٣)

ــ «فإن رأيتم **ابن الإنسان صاعداً** إلى **حيث كان أولاً**...» (٦: ٦٢)

ــ «فقال لهم يسوع: **متى رفعتم ابن الإنسان** فحينئذ تفهمون **أني أنا هو** ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علَّمني أبي.» (٨: ٢٨)

ــ «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة **ليتمجَّد ابن الإنسان**.» (١٢: ٢٣)

ــ «فأجابه الجميع نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن **يرتفع ابن الإنسان**؟ مَن هو **هذا ابن الإنسان**.» (١٢: ٣٤)

ــ «فلما خرج قال يسوع: الآن **تمجَّد ابن الإنسان، وتمجَّد الله فيه**، إن كان الله قد تمجَّد فيه فإن الله **سيمجِّده في ذاته ويمجده سريعاً**.» (١٣: ٣١و٣٢)

والحقيقة المدهشة أن هذه النصوص تحمل تركيباً منسجماً ذا علاقة متصلة. فبالتحليل نجد الآتي:

١) في الآيات (١٢:٣)، (٦٢:٦) نجد أن ابن الإنسان **ينزل من السماء ويصعد ثانية**.

٢) وفي الآيات (١٤:٣)، (٢٨:٨)، (٣٤:١٢) نجد **ارتفاع** ابن الإنسان إشارة إلى رفعه على صليب المجد.

٣) وفي الآيات (٢٣:١٢)، (٣١:١٣) نجد **تمجيد** ابن الإنسان.

فالثلاث المجموعات تصنع تركيباً متقابلاً ومتصلاً:

فالإرتفاع والتمجيد في الآيات (مجموعة ٢) و(مجموعة ٣) متصلان إتصالاً وثيقاً، وساعة الإرتفاع والتمجيد هي نفسها ساعة الصعود (كما في الآيات مجموعة ١)، وهي نفسها «**الآن**».

ثم بالتطبيق مع الخبز الحيِّ النازل من السماء الذي هو شخص ابن الإنسان المعطي الحياة الأبدية، ومع خبز الإفخارستيا الذي يؤكل للحياة الأبدية وهو الخبز الذي يعطيه ابن الإنسان أيضاً نجد أن العلاقة وثيقة. فهو يمثل النزول والإرتفاع.

فالكلام الوارد بخصوص ابن الإنسان ليس مجرد أوصاف حسب الظاهر، بل هي حقائق جوهرية متصلة تُعتبر مفتاحاً لفهم الإنجيل روحياً.

وحينما سأل المسيح سائلٌ من الجمع: «ومَن هو ابن الإنسان» (يو١٢: ٣٤)، فإن هذا في الواقع يحمل لفتة من الإنجيل عميقة ومُبدعة فهو ينبه ذهن القارىء أنه **هو هو** «المسيَّا» الذي على أساسه وُضعت أو قيلت الآيات **على ابن الإنسان** بتعليم عميق مسترسل ومتوازٍ ومتصل. وبشيء من الذكاء نفهم أن كلاً من السائل والقديس يوحنا يضمر من السؤال «مَن هو ابن الإنسان؟» توضيحاً لحقيقة شخص المسيح أنه المسيَّا. وهذا الحوار متصل أو منتهي بقول المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو ἐγώ εἰμι » (٢٨:٨) أي أنه المسيَّا!!! ابن الله. أما الآن فهو المسيَّا في سرٍّ!!

فـ«ابن الإنسان» هو اللقب المختار الذي يختفي وراءه لقب «المسيَّا». ليظل محتجباً عند الرافضين كما كان الله في العهد القديم: «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلِّص.» (إش٤٥: ١٥)

وحتى لو أخذنا الآية المنفردة بذاتها التي جاءت في الأصحاح الأول (٥١:١) التي تفيد أن ابن الإنسان على الأرض هو بآن واحد في السماء بمعنى أنه باتصال دائم مع الله، فهذه الآية تحمل

المضمون الإلهي نفسه من جهة النزول والصعود وتفيد أنه نزل ليكلمنا عن ما هو في السماء كرسالة وبعدها يعود. وما نزول الملائكة وصعودها عليه إلاّ تعبيراً عملياً أو تكميلاً لعمل ابن الإنسان في الإتصال الدائم بين السماء والأرض. فابن الإنسان يعمل على الأرض وفي السماء بآن واحد. ولكن لينتبه القارىء فنحن نعلم مسبقاً الآن مضمون النزول والطلوع والغاية منه. ولكن أثناء خدمة المسيح التي يتتبعها الإنجيل جاء هذا التعليم ليمهد في أذهان التلاميذ لحوادث الصلب والقيامة والصعود. فهو تعليم غاية في الأهمية للتلاميذ والمؤمنين به الذين كانوا يسمعون آنئذ. وأيضاً لكي ينبه أذهان تلاميذه أنه مزمع أن يتركهم ويختفي عنهم في مفهوم الإرتفاع.

كذلك الآية التي تقول أن الدينونة أُعطيت له «لأنه ابن الإنسان» (٥: ٢٦) فهي في القراءة السرية بحسب إنجيل يوحنا تكون: **لأنه هو «المسيَّا» المخلِّص والموعود به.** فلأنه سيخلِّص الذين يؤمنون به فحتماً سيدين الذين لا يؤمنون، والإيمان به يتركز حسب قول المسيح نفسه في حالة الإرتفاع التي سيُستعلن فيها «ومتى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون (تعرفون) أني أنا هو».

وهكذا نجد أن نزول ابن الإنسان وارتفاعه يكوِّنان معاً الهيكل التعليمي عن الخلاص والدينونة معاً مستعْلَناً في شخصه المنظور ومخفياً في اسمه الذي اختاره لنفسه. «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق (أرتفع) لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزِّي. ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكِّت العالم على خطية **وعلى برٍّ وعلى دينونة**... وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين» (يو١٦: ٧–١١)؛ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرَح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١)؛ وقوله: **«الآن»** لا يفيد في لغة إنجيل يوحنا الآنيَّة الزمنية بل رؤية المسيح النافذة التي تستحضر المستقبل في صميم الحاضر: «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو٤: ١٧)

والفرق بين نظرة الأناجيل الثلاثة للقب ابن الإنسان بالنسبة للمسيح عنها في إنجيل يوحنا يتركز في كون هذا اللقب أخذ في هذه الأناجيل مأخذاً رُؤيوياً فقط على مستوى نبوة دانيال النبي، أي أنه لقب مستقبلي يستعلن فيه المسيح في مجيئه؛ ولذلك لم تنشغل الأناجيل بابن الإنسان كحالة واقعة على الأرض في ملء الزمن مثلما ركز إنجيل يوحنا معتبراً أن المستقبل الزمني انفتح على الحاضر في شخص ابن الله المتجسد إذ نزل ابن الإنسان من السماء بالفعل ليفتتح الملكوت الأبدي الذي تنبأ عنه دانيال. فابن الإنسان هو اللقب الأكثر مناسبة للمسيح في مجيئه (نزوله) وفي حياته على الأرض كما هو في ظهوره الآتي من السماء، بل وفي ملكوته الأبدي، أليس هو الذي أملَى على دانيال الإسم؟

وقد استشهدت أسفار العهد الجديد على العموم بما جاء عن ابن الإنسان في العهد القديم:

+ مما ورد في المزمور ٨: ٤ و٥: «فمَن هو الإنسان حتى تذكره أو ابن الإنسان حتى تفتقده. أنقصته قليلاً عن الملائكة (في مظهره وموته) و بالمجد والكرامة توَّجته (في قيامته)» — (الترجمة السبعينية).

+ وفي دانيال ٧: ١٣ و١٤: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.»(٤)

وقد استخدم المسيح في إنجيل القديس مرقس صورة ابن الإنسان وهو آتٍ على السحاب كما جاءت في نبوة دانيال: «أما هو فكان ساكتاً ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: **أأنت المسيح** ابن المبارك. فقال يسوع: أنا هو، **وسوف تبصرون ابن الإنسان** جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر١٤: ٦١و٦٢)

وواضح جداً من كلام المسيح أعلاه أنه كان يفضِّل لقب ابن الإنسان على لقب المسيَّا. كذلك أيضاً في قوله: «فقال لهم: وأنتم مَن تقولون أني أنا. فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه. **وابتدأ يعلِّمهم أن ابن الإنسان** ينبغي أن يتألم...» (مر٨: ٢٩—٣١)

وإنجيل يوحنا يبرز «**ابن الإنسان**» على مستوى «**ابن الله**» لا فرق على الإطلاق. فهو نزل من السماء ويصعد أيضاً وهو في كل المواضع متحد بالله وقائم فيه، فحتى أثناء وجوده على الأرض هو «ابن الإنسان الذي في السماء» (يو٣: ١٣)، **والمسيح يضع العلاقة بينه كإبن الإنسان وبين الله الآب كنموذج أعلى للعلاقة التي ينتهي إليها المؤمنون المختارون في اتحادهم بالله**. وابن الإنسان هو النور الحقيقي والخبز الحقيقي والكرمة الحقيقية بمعنى أنه الحقيقة المطلقة لعناصر الحياة كلها. لذلك حينما يحل المسيح في المؤمنين تصير لهم حقيقة الحياة أو الحياة الحقيقية، ويصيرون متحدين به كاتحاد الأغصان بالكرمة ذاتها. **وهنا تظهر الكلِّية أو الشمولية التي يعنيها المسيح من لقبه المختار ابن الإنسان، فهو يحمل البشرية المفديَّة ويمثلها أمام الآب. فإبن الإنسان نزل من السماء ليجمع في شخصه وفي جسده البشرية المختارة، و يصعد إلى السماء بهم ليرثوا ميراثه و ينظروا مجده و يكونوا معه حيث يكون.**

ولقب «**ابن الإنسان**» بالنسبة للاهوت المسيحي سواء في الأناجيل الثلاثة أو في رسائل بولس

(٤) المعتقد حسب التقليد وقانون الأسفار أن دانيال عاش في زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد.

الرسول أو في إنجيل يوحنا يحمل عقيدة لاهوتية مضمونها أن المسيح والمؤمنين يكوّنان جسداً واحداً إنساناً واحداً. يشرح ذلك القديس بولس الرسول على مستوى الجسد الواحد والمسيح رأس له: «الأمم شركاء في الميراث والجسد» (أف٣:٦)؛ «... لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة **لبنيان جسد المسيح** إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله **إلى إنسان كامل**، إلى قياس **قامة ملء المسيح**» (أف٤: ١٢و١٣)؛ «بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء **إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً...**» (أف٤: ١٥و١٦)

وهذا يشرحه القديس متى على المستوى العملي هكذا: «لأني جُعْت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فآويتموني عرياناً فكسوتموني مريضاً فزرتموني محبوساً فأتيتم إليَّ... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت٢٥: ٣٥—٤٠)؛ وأيضاً في إنجيل متى: «مَن يقبلكم يقبلني.» (مت١٠: ٤٠)

أما إنجيل لوقا فيتفق أيضاً في هذه الوحدة: «الذي يسمع منكم يسمع مني والذي يرذلكم يرذلني.» (لو١٠: ١٦)

ويأتي إنجيل يوحنا ويقدم نفس التقليد «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَن أُرسله يقبلني.» (١٣: ٢٠)

هذه الرابطة أو الوحدة العملية بل **والوجودية** — أي بالإتحاد الجسدي — في شكلها وكيانها الكامل بين المسيح وشعبه هي هي قائمة ومكنونة في اللقب الذي اختاره المسيح لنفسه: «ابن الإنسان» !!

ونحن لو فحصنا بتدقيق ما جاء في نبوة دانيال نجد نفس الرابطة الكيانية بين ابن الإنسان «**وقديسي العلي**» إذ يذكرهما دانيال النبي الواحد بدل الآخر في أخذ المملكة وامتلاكها هكذا:

«... **ابن الإنسان** أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه. **فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له** كل الشعوب والأمم والألسنة. **سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض... وأما قديسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين...** حتى جاء القديم الأيام **وأُعطي الدين لقديسي العلي** وبلغ الوقت **فامتلك القديسون المملكة...** والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء **تُعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته** (الهاء تعود على شعب قديسي العلي) **ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون...**» (دا٧: ١٣—٢٧)

هنا التقابل بل التطابق بين «**ابن الإنسان**» وبين «**شعب قديسي العلي**» شيء مذهل للعقل حتى أن دانيال كان معذوراً أن يقف منذهلاً أمام عظمة هذا السر، **سر احتواء ابن الإنسان لشعب قديسي العلي**: «أما أنا دانيال فأفكاري أفزعتني كثيراً وتغيَّرت عليَّ هيأتي وحفظتُ الأمر في قلبي» (دا٧: ٢٨). وقديسو العلي عند دانيال هم شعب إسرائيل **الجديد** الذي يراه من خلف السنين.

وفي مزمور ٨٠، الذي تستشهد به أسفار العهد الجديد وتقليد الكنيسة حتى اليوم، يأتي **ابن الإنسان، والكرمة، والإبن، والشعب**، كلهم معاً والواحد بدل الآخر في تناسق ووحدة عجيبة الشكل(٥)!! «**كرمة** من مصر نقَلْتَ... **مدَّت قضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها**، (= أنا الكرمة وأنتم الأغصان – يو١٥: ٥)... يا إله الجنود **ارجعنَّ** اطَّلع من السماء وانظر **وتعهد هذه الكرمة**، والغرس الذي غَرَسَتْه يمينك **والإبن الذي اخترته لنفسك... وعلى ابن الإنسان الذي اخترته لنفسك، فلا نرتد عنك. أحْيِنَا** فندعو باسمك يا رب إله الجنود **أَرْجِعْنا**. أنر بوجهك فنخلص.» (مز ٨٠)

وهكذا يقف مزمور ٨٠ الدعامة الأولى والأكثر أهمية في جميع أسفار الكتاب بل ويتقدم على نبوة دانيال أيضاً في توضيح لقب «**ابن الإنسان**» الوارد في إنجيل يوحنا(٦).

والنص الوارد في إنجيل يوحنا (١: ٥١) واضح فيه كل الوضوح أن المسيح يتكلم وحلم يعقوب **إسرائيل** ماثل في ذهنه بصورته وألفاظه وحركته: «السماء مفتوحة وملائكة الله **يصعدون** وينزلون **على** ابن الإنسان...» حيث يرد «ابن الإنسان» بدل «**إسرائيل**» في حلم يعقوب. فلو أدركنا أن اسم يعقوب إسرائيل يؤخذ دائماً أبداً كشخص يعقوب إسرائيل وكشعب إسرائيل دون أي تفريق، حينئذ نفهم السر وراء اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان ووضعه موضع إسرائيل في حلم يعقوب إسرائيل، وأن الملائكة عوض أن تصعد وتنزل على يعقوب إسرائيل(٧) يرد في كلام المسيح أنها تنزل وتصعد على ابن الإنسان، لذلك فإن ذلك هو القصد المضمر في اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان وأن ذلك يشمل بالضرورة شعب المسيح، إسرائيل الجديد، الإنسان الجديد أو الخليقة الجديدة.

---

(٥) راجع شرح ما جاء في مزمور ٨٠ في عرضنا لرمز الكرمة.

6 C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 245.

(٧) يميل كل علماء الكتاب الآن بعد فحص التقليد اليهودي في شرح سلَّم يعقوب، إلى الأخذ بأن الملائكة تصعد وتنزل ليس على السلم بل على يعقوب إسرائيل، وبالتالي يكون إعلان المسيح عن نفسه كإبن الإنسان أن الملائكة تنزل وتصعد عليه مطابق لحلم يعقوب.

وبالتالي فإن السماء المفتوحة هي لمختاري الله المفديين، والملائكة تنزل وتصعد على أولاد الله لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. لأن المسيح لم يكن قط محتاجاً لمعونة ملائكة. فإن كان ابن الإنسان قد تُوِّج بقيامته من الأموات **ملكاً** لقديسي الله فهو «جعلنا **ملوكاً** وكهنة لله أبيه» (رؤ١: ٦)، لأننا قمنا معه. فهو بحسب تعبير سفر الرؤيا «**ملك الملوك.**» (١٧: ١٤)

وفي دائرة العهد القديم يُعتبر نزول الملائكة على يعقوب إسرائيل وصعودهم عليه نوعاً من التمجيد الخاص. لذلك ربط الحكماء الربِّيون اليهود في تعليم «المِشْنَاة» بين صعود ونزول الملائكة على يعقوب في سفر التكوين، وبين تمجيد الله الخاص بيعقوب في إشعياء «وقال لي: أنت عبدي إسرائيل **الذي به أتمجَّد**» (إش٤٩: ٣) — أي أن الله يتمجَّد فيه. وتعود النبوة في الآية التي بعدها لتضع في فم يعقوب **كيف أنه تمجَّد** أيضاً — أي أن الله مجَّده: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل **فأتمجَّد في عيني الرب** وإلهي يصير قوتي» (إش٤٩: ٥). وهذا ما يردده المسيح في إنجيل يوحنا بالمثل وبمنتهى التطابق عندما يقول بصفته ابن الإنسان «**الآن تمجَّد ابن الإنسان، وتمجَّد الله فيه**» (١٣: ٣١). ثم بالعودة إلى لماذا يتمجَّد الله في يعقوب ويتمجد يعقوب في عينيْ الله نجد أنَّ السبب واضح، إذ مذكور أنه سيجمع خراف بيت إسرائيل الضالة: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له **لإرجاع يعقوب إليه** (الشعب الضال) **فينضم إليه إسرائيل** فأتمجَّد...». وهذا أيضاً ينطبق على المسيح بصفته ابن الإنسان بمنتهى الدقة والتطابق «إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن **الأمة** فقط بل **ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.**» (يو١١: ٥١و٥٢)

وهنا يتضح أمران: الأول لماذا يموت المسيح؟ والثاني لماذا يتمجَّد الله في المسيح ويتمجَّد المسيح في الله؟ ويضيف الإنجيل إلى إرجاع أمة إسرائيل جَمْع شمل أبناء الله في العالم.

وأيضاً بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد سبب عمل يعقوب لجمع شمل إسرائيل وخلاص كل الأمم وإرجاعهم إلى الله يعتمد على صفة الإستنارة الممتازة **ليعقوب**: «فقال قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردِّ محفوظي إسرائيل. **قد جعلتُك نوراً للأمم** لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض» (إش٤٩: ٦). ثم يشرح إشعياء النبي **عمل النور** في يعقوب: «قائلاً للأَسْرَى اخرجوا. **للذين في الظلام اظهروا**» (إش٤٩: ٩). وبالمثل يأخذ إنجيل يوحنا نفس المبادرة لابن الإنسان ليكون نوراً للذين يسيرون وراءه: «أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم حتى كلُّ مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو١٢: ٤٦)؛ «أنا هو نور العالم. مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو٨: ١٢)

ثم بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد أن إرسالية «عبدي إسرائيل» تتحمل إطعام الشعب السائر وراءه ورعايتهم على المرتفعات فلا يجوعون ولا يعطشون: «على **الطرق يرعَوْن** وفي كل المضاب **مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون** ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم **وإلى ينابيع المياه يوردهم**» (إش٤٩: ٩و١٠). وإذا فحصنا إنجيل يوحنا نجد المطابقة لا تزال دقيقة ومتَّسقة مع النبوة: «أنا هو الباب. إنْ دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد **مرعى** — مَن يشرب **من الماء** الذي **أُعطيه** أنا **فلن يعطش** إلى الأبد. بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه **ينبوع ماء** ينبع إلى حياة أبدية — أنا هو خبز الحياة. مَن يُقْبِل إليَّ **فلا يجوع** ومَن يؤمن بي **فلا يعطش** أبداً.» (يو١٠: ٩؛ ٤: ١٤؛ ٦: ٣٥)

ولا يتوه عن بالنا أن في النبوة يظهر العبد (يعقوب إسرائيل) مرة أنه «**إسرائيل**» كشعب، ومرة أخرى يُعرَّف بأنه «**إسرائيل**» فرد كرسول من الله. وبمعنى استعلاني **تكون الفردية الشخصية، والجماعية الشعبية** ملتحمتان يستحيل التفريق بينهما لأنهما من صميم الشخصية ومن صميم العمل والإرسالية معاً. وهذا هو نفسه التعريف بمفهوم وبمضمون «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا.

وعلى أساس هذا المعنى العميق الذي يحويه «ابن الإنسان»، أي الإتحاد والإلتحام بين ابن الإنسان وبين شعبه المفدي = قديسي العلي = البشرية الجديدة، يمكن أن نفهم الآن المعنى العميق الذي يحتويه سر الإفخارستيا: «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦)، «الحق الحق أقول لكم: إن لم **تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه** فليس لكم حياة فيكم» (يو٦: ٥٣)، «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٥٤). فما معنى هذا على ضوء مفهوم **«ابن الإنسان»؟ واضح أن الإتحاد والإلتحام «بابن الإنسان»** هو رسالة المسيح، وهو هبته العظمى للقديسين، وهو صفته الذاتية والشخصية؛ لأن معنى **«ابن الإنسان» يحمل حتماً الإتحاد بشعب الله**، لذلك فأكل جسده وشرب دمه هو أعلى مفهوم جوهري منبثق من طبيعة المسيح وأعظم ضمان للإتحاد بابن الإنسان والحصول على الحياة الأبدية فيه، الأمر الذي من أجله نزل من السماء — تجسد — وصعد إلى السماء ليكمِّله، أما في اليوم الأخير فسيستعلنه!! أي أن لقب **«ابن الإنسان»** يفسر رسالة المسيح كلها بل يكشف عن كل مقاصد الله فيه من نحونا! وربما نعثر على أسرار ابن الإنسان أكثر في مضمون هذه الآية العجيبة **«لأنه يولد لنا** ولد **ونُعطَى ابناً** وتكون الرياسة على كتفه ويُدْعى اسمه عجيباً مشيراً **إلهاً قديراً** أباً أبدياً رئيس السلام.» (إش٩: ٦)

٤ — «ابن الله»

ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

في إنجيل القديس يوحنا

لقب «الكلمة» كأساس لإستعلان بنوة المسيح لله:

حينما افتتح القديس يوحنا إنجيله بتسميته المسيح «**الكلمة**» = λόγος لم يكن هذا اللقب أول تسمية للمسيح تحمل تعليماً للكنيسة يفيد الصفة الوظيفية والتعبير اللاهوتي الخاص بالمسيح. كذلك فهذا اللقب لا يمتُّ إلى الحبك الشعري أو التصور البشري ولكنه حقيقة شخصية تقوم على الواقع بالدرجة الأولى.

ونحن هنا نقدم أربعة أمثلة من كتابات القديس بولس الرسول المعتبرة من المدوَّنات الأولى للأسفار المقدسة في العهد الجديد: توضح فكر الكنيسة الأولى عن مَنْ هو المسيح بالنسبة للقب «الكلمة».

(١) ١كو١: ٢١—٢٤:

«إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة... لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة... وأما للمدعوين (أي المختارين) يهوداً ويونانيين فبالمسيح «**قوة الله**» و«**حكمة الله**».

فالمسيح هنا هو القوة الفعالة لله والحكمة المفكرة لله.

(٢) ١كو٨: ٦:

«لكن لنا إله واحد: **الآب** الذي منه جميع الأشياء ونحن له، **وربٌّ** واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به».

وهنا المسيح هو العامل أو الفاعل في الخلق. وأيضاً الوسيط بين الله والناس.

(٣) كولوسي ١: ١٥—١٧:

«الـذي هو **صورة الله غير المنظور** بكر كل خليقة. **فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض** مـا يُـرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. **الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل»**.

المسيح صورة الله، هنا الصورة أو الأيقونة ليست مجرد طبعة طبق الأصل منظورة للأصل غير المنـظور، بل استعلان ذاتي يستمد وجوده وذاته وحياته من الأصل ذاته، فهو ذات من ذات ووجود من وجود وحياة من حياة. الأول غير منظور والثاني منظور. فالتطابق مطلق وبالتالي فالتكامل مطلق.

(٤) عب١: ٢و٣ :

«الله... كـلـمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته...»

هـنـا واضح أن المسيح هو «**كلمة الله**» لنا، «**وابن الله**» و«**فعل الله**» الخالق. والخلقة هنا المُسْندة للمسيح هي عالم الروح والسماء وعالم الأرض جميعاً. كذلك فالمسيح هنا هو المجد المنظور لمجد الله الآب غير المنـظور والصورة أي الرسم المدرَك لجوهر الله غير المدرَك، والذي يحمل كل شيء أي يجمع ويحوي ويسيطر على كل ما في الوجود بقوته الناطقة، أي بتدبير قوته الفكرية.

هكذا نجد أن بلوغ القديس يوحنا إلى تسمية المسيح في وجوده السابق على التجسد «**بالكلمة**» في مفهومها المطلق غير المحدود **كأساس لإستعلان بنوّته لله** بعد ذلك، إنما يمثل الخطوة الأخيرة في الطريق الذي عبر عليه الوحي الإلهي منذ البدء في تشخيص المسيح طبقاً لجوهره وأعماله وعلاقته الفريدة بالآب الذي انتهى بتجسده وتأنسه.

صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله:

وإذا درسـنـا محتويات إنجيل يوحنا فلن يكون من الصعب أن نبلغ إلى لقب «**ابن الله**» كلقب هـو الأكثر مناسبة للمسيح، فجميع أقواله وأعماله تثبت بكل جراءة وتأكيد العلاقة الوثيقة والإتحاد الكامل مع أبيه. كما يؤكد هو ويشهد لنفسه أنه ابن الله (يو١٠: ٣٦).

والعوامل التي تبرز شخص المسيح وتكشف عن لاهوته وبنوّته الفريدة لله كثيرة:

١ ــ فمعرفة المسيح بكل الناس معرفة كاشفة لأفكارهم ونياتهم ومستقبل تصرفاتهم توضح حقيقة لاهوته. فهو قادر دائماً أن يقرأ ما في القلوب و يرد على الأفكار الحائرة دون سؤال:

+ «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب

نثنائيل وقال يا معلم **أنت ابن الله**.» (يو١: ٤٧—٤٩)

+ «وآمن كثيرون باسمه... لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه **لأنه كان يعرف الجميع** ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان **لأنه علم ما كان في الإنسان**.» (يو٢: ٢٣—٢٥)

+ «أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسناً قُلتِ ليس لي زوج، لأنه كان لكِ خمسة أزواج والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ، هذا قلتِ بالصدق. قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي.» (يو٤: ١٧—١٩)

+ «لكني قد عرَّفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم.» (يو٥: ٤٢)

+ «ولكن منكم قوم لا يؤمنون. لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يُسلِّمه.» (يو٦: ٦٤)

+ «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون.» (يو١٨: ٤)

٢ — بل ويعلم من هو ومتى كان!!:

+ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن ἐγὼ εἰμι» (يو٨: ٥٨). وترجمتها الدقيقة: «قبل أن يأتي إبراهيم إلى الوجود أنا كائن».

٣ — ويعلم مدى سلطانه وماذا وضع الله في يديه ومن أين أتى وإلى أين يذهب:

+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)

+ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو١٣: ٣)

+ «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق **لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب** وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب.» (يو٨: ١٤)

+ «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو١٦: ٢٨)

٤ — ويعلم ماذا سيعمل ومتى يكمل العمل:

+ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان.» (يو١٩: ٢٨)

٥ — وفي حضرته ليس التلاميذ فقط كانوا يخافونه بل و بيلاطس نفسه:
+ «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا.» (يو٦: ١٩)
+ «أجابه اليهود: لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله. فلما سمع بيلاطس هذا القول إزداد خوفاً.» (يو١٩: ٧و٨)

٦ — وحينما استنار المعمدان بالروح استطاع أن يتعرف على من هو المسيح:
+ «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣٤)
+ «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو٣: ٣١)
+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)
+ «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة أبدية بل يمكث عليه غضب الله.» (يو٣: ٣٦)

على أن معنى «غضب الله» بالمفهوم الإيجابي الروحي في إنجيل يوحنا، هو الإنفصال عن دائرة حب الله والحياة معه المعلنة في ابنه.

كذلك عمومية رسالة المسيح في إنجيل يوحنا: برفع خطية العالم، خلاص العالم، دينونة العالم، إنارة كل إنسان آتٍ إلى العالم، رعاية حظائر أخرى غير حظيرة إسرائيل، وموته ليس عن أمة اليهود فقط بل وليجمع أبناء الله المتفرقين، وقد رأى فيه السامريون عن خبرة أنه «مخلّص العالم» (يو٤: ٤٢)؛ هذه العمومية المطلقة سواء لخلاص العالم أو دينونة العالم توضح ارتفاع وعلو شخصية المسيح فوق مستوى النبوة العادية بدون قياس.

وأعمال المسيح الإلهية المطابقة لعمل الله والصادرة من إرادة الآب تشهد لبنوته ومساواته للآب، ووحدته معه. وهذا ما ركز عليه المسيح نفسه في شهادته لبنوته للآب.

«الآب» و«الإبن» في إنجيل القديس يوحنا:

وقد ورد في إنجيل يوحنا تعبير «**الإبن**» بصفته المطلقة بدون ذكر الآب كما ورد تعبير «**الآب**» بدون ذكر الإبن، كما يتبادل لفظ «**الآب**» مع لفظ «الله» عند ذكر إرسال الإبن. وكل منهما — أي الآب والإبن — له أعمال وله صفات الألوهة متبادلة دون أي تمييز «**بتساوٍ مطلق**» مما يستبعد أي ثنائية في **الطبيعة**. ثم يعود الإنجيل ويذكر الآب والإبن في توافق وحب ومجد وكرامة وإرادة ومشيئة وفكر وقول وعمل واحد مما يؤكد «**الوحدة**» المطلقة في **الذاتية**.

ومن التساوي المطلق بين الآب والإبن مع تبادل الوجود والكيان، يوضح قيام شخصين

متعادلين أو كما تسميهم الكنيسة أقنومين: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو٨:١٨)، «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥:١٧). ثم من واقع إتحادهما إتحاداً مطلقاً: «**أنا في الآب والآب فيَّ**» (يو١٤:١٠)، و«**أنا والآب واحد**» (يو١٠:٣٠)، يتضح أنهما **ذات واحدة!!**

فالآب والإبن لهما طبيعة واحدة أي جوهر إلهي واحد وهما ذات واحدة؛ بمعنى أن الذات الواحدة لله تحمل الأبوَّة والبُنوَّة معاً. وهذا ليس غريباً عن واقع أي «**ذات**». فالذات البشرية هي بحد ذاتها أب وابن معاً لا يفرقهما إلا الزمن. فكل أب كان ابناً، وكل ابن يمكن أن يصير أباً والذات هي هي. ولكن لا يوجد في ذات الله عامل الزمن فهو أب وابن دائماً ومنذ الأزل ولم يكن الله قط أباً بدون ابن ولا كان ابناً بدون أب. فكيانهما واحد وكل واحد كائن في الآخر. وهذا هو سر الله أو سر اللاهوت الذي كان مخفياً عن عقل الإنسان وإدراكه إلى أن أعلنه الله بإرساله ابنه — متجسداً علناً — لتجديد خلقة الإنسان.

أولاً: الإبن: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

١:١٤: «مجد كما **لوحيد** لأبيه» ὁ μονογενής .

٣:١٦: «أحب الله العالم حتى بذل **الإبن الوحيد**» (بحسب الأصل اليوناني).

٣:١٧: «لم يرسل الله **الإبن** إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (بحسب الأصل اليوناني).

٣:٣٥: «الآب يحب ,,**الإبن**،، وقد دفع كل شيء في يده».

٣:٣٦: «الذي يؤمن **بالإبن** له حياة أبدية».

٣:٣٦: «الذي لا يؤمن **بالإبن** لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله».

٥:١٩: «لا يقدر **الإبن** أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل».

٥:١٩: «لأن مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله **الإبن** كذلك».

٥:٢٠: «لأن الآب يحب ,,**الإبن**،، ويريه جميع ما هو يعمله».

٥:٢١: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك ,,**الإبن**،، **أيضاً** يحيي مَن يشاء».

٥:٢٢: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة **للإبن**».

٥:٢٣: «لكي يكرم الجميع ,,**الإبن**،، كما يكرمون الآب».

٥:٢٣: «مَن لا يكرم ,,**الإبن**،، لا يكرم الآب الذي أرسله».

٥:٢٦: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى ,,الإبن،، أيضاً أن تكون له حياة في ذاته».
٦:٤٠: «كل مَن يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير».
٨:٣٥: «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما ,,الإبن،، فيبقى إلى الأبد».
٨:٣٦: «فإن حرركم ,,الإبن،، فبالحقيقة تكونون أحراراً».
١٤:١٣: «مهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب ,,بالإبن،،».
١٧:١: «أيها الآب قد أتت الساعة، مجِّد ,,ابنك،، ليمجِّدك ,,ابنك،، أيضاً».

ويلاحظ أنه ورد في ٣:١٦و١٧ أن الإبن منسوب «لله» بكل وضوح عوض «الآب»، كما في مواضع أخرى كثيرة: «الله... بذل الإبن» (٣:١٦)، «الله أرسل الإبن» (٣:١٧)، هنا ترتاح كلمة «الآب» بعد ذلك في كل مواضعها على «الله» بدون اهتزاز.

كذلك يلاحظ أن هذه الشواهد كلها تقريباً نطقها «المسيح» بنفسه، فأوضح أنه هو هو «الإبن» كما قال بوضوح: «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي.» (يو٨:٣٨)

فإذا بحثنا في الشواهد الخاصة بالإبن التي وردت عاليه لنستخلص منها رسالة «الإبن» الخاصة به والتي تفوق قامة أي نبي بل وجميع الأنبياء والملائكة والرؤساء معاً، نلخصها في الآتي:
١ — إرسالية «الإبن» من «الله» أو «الآب» للعالم كله!! كرسالة خلاص نحو العالم؛ تتناسب مع العلاقة التي تربط الآب بالإبن، قام بها الإبن بصورة كاملة وفائقة.

٢ — انتقال محبة الله إلى العالم عن طريق محبة الآب للإبن.

٣ — قيام الإبن بأعمال خير وصلاح نحو العالم هي أصلاً أعمال الله الخاصة لم يكن ممكناً أن يقوم بها إلاَّ الآب شخصياً.

٤ — تقديم الطاعة والمحبة والمجد لله الآب. قام بها الإبن نيابة عن العالم فكانت أعظم عمل تقبّله الله الآب من البشرية؛ جاء على مستوى عظمته.

٥ — رفع حالة الإنسان عامة من حالة العبودية إلى حالة البنوَّة لله، كعمل يستحيل أن يقوم به إلاَّ الإبن بمؤهلاته الخاصة جداً.

٦ — إيجاد علاقة حب صميمية بين البشرية والله الآب تسمح بأن يطلب الإنسان من الله مهما يشاء باسم ابنه فيستجيب الله بتوسط شفاعة الإبن عند الآب.

٧ ــ كل مخصصات الإبن عند الآب من حب ومجد وحياة أبدية سلّمه الإبن للبشرية «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

ثانياً: «الآب»: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

أ ــ الآب الذي أرسلني:

٥: ٣٦: «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن **الآب** قد أرسلني».

٥: ٣٧: «**والآب** نفسه الذي أرسلني يشهد لي».

٦: ٤٤: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه ,,**الآب**،، **الذي أرسلني**».

٦: ٥٧: «**كما أرسلني الآب** الحي وأنا حيٌّ بالآب، فمَن يأكلني فهو يحيا بي».

٨: ١٦: «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا **والآب الذي أرسلني**».

٨: ١٨: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي ,,**الآب**،، **الذي أرسلني**».

١٠: ٣٦: «فالذي قدَّسه **الآب وأرسله** إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله».

١٢: ٤٩: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن **الآب الذي أرسلني** هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم».

١٤: ٢٤: «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل ,,**للآب**،، **الذي أرسلني**».

٢٠: ٢١: «فقال لهم يسوع أيضاً: سلام لكم. كما **أرسلني الآب** أُرسلكم أنا».

وضع لفظ «الله» بدل «الآب» في إرسال الإبن:

٣: ١٧: «لأنه لم **يرسل** ,,**الله**،، **ابنه** إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم».

٣: ٣٤: «لأن الذي **أرسله الله** يتكلم بكلام الله».

٦: ٢٩: «أجاب يسوع وقال لهم هذا هو **عمل** ,,**الله**،، أن تؤمنوا بالذي **هو أرسله**».

٨: ٤٢: «لأني خرجت من **قِبَلِ الله** وأتيت. لأني لم آتِ من نفسي».

المسيح يخاطب الآب في الصلاة بصفته الإله الحقيقي الذي أرسله:

١١: ٤١و٤٢: «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها **الآب** أشكرك لأنك سمعت لي... ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا **أنك أرسلتني**».

١٧: ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك **أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**».

١٧ :٨: «وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا **أنك أنت أرسلتني**».
١٧ :١٨: «كما **أرسلتني** إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم».
١٧ :٢١: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم **أنك أرسلتني**».
١٧ :٢٣: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد وليعلم العالم **أنك أرسلتني** وأحببتهم كما أحببتني».
١٧ :٢٥: «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا **أنك أنت أرسلتني**».

ب ــ الآب يعطي الإبن:

١٧ :١١: «أيها الآب القدوس احفظهم **في اسمك ,, الذي أعطيتني،،** ليكونوا واحداً كما نحن.» (٨)
١٧ :١٢: «حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم **في اسمك الذي أعطيتني**».
١٧ :٢٢: «وأنا قد **أعطيتهم المجد الذي أعطيتني** ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد».
١٧ :٢٤: «أيها الآب أريد أن هؤلاء **الذين أعطيتني** يكونون معي حيث أكون أنا».
١٧ :٨: «لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتُهم».
٥ :٣٦: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا **لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأُكمِّلها** هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني».
١٧ :٤: «أنا مجَّدتُك على الأرض. **العمل الذي أعطيتني** لأعمل قد أكملته».
٣ :٣٥: «الآب يحب الإبن وقد **دفع (أعطى) كل شيء** في يده».
١٣ :٣: «يسوع وهو عالم أن الآب قد **دفع (أعطى) كل شيء** إلى يديه».
٥ :٢٦: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك **أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته**».
٥ :٢٢: «لأن **الآب** لا يدين أحداً بل قد **أعطى كل الدينونة للإبن**».
٥ :٢٧: «**وأعطاه سلطاناً أن يدين** أيضاً لأنه ابن الإنسان».
١٧ :٢: «مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً **إذ أعطيته سلطاناً** على كل جسد ليعطي حياة أبدية **لكل مَن أعطيته**».
٦ :٣٧: «كل ما يعطيني الآب فإليَّ يُقبل ومَن يُقبل إليَّ لا أُخرجه خارجاً».

---

(٨) بحسب الأبحاث ومراجعة المخطوطات الموثوق بها ثبت صحة «... اسمك الذي أعطيتني»، وليس «... الذين أعطيتني».
أنظر: Schnackenburg, According to St. John, vol. 3, p. 179.

٣٩:٦: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً بل أُقيمه في اليوم الأخير».

٢٩:١٠: «أبي الذي أعطاني إياها (الخراف) هو أعظم من الكل».

٦:١٧: «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم».

٧:١٧: «والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك».

٩:١٨: «ليتم القول الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أُهلك منهم أحداً».

٣٢:٦-٣٥: «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء: لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم... أنا هو خبز الحياة...

و٥١: الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم».

وهذه هي أعظم عطية أعطاها الله الآب للعالم على أساس المحبة، أعطاه المسيح مبذولاً من أجل حياة العالم حتى لا يهلك كل مَن يؤمن به!

٤٩:١٢و٥٠: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته (تُختم بالصليب) هي حياة أبدية».

٣١:١٤: «ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب هكذا أفعل».

١٨:١٠: «ليس أحد يأخذها (أي نفسه) مني بل أضعها أنا من ذاتي (أموت بإرادتي). لي سلطان أن أضعها (أموت) ولي سلطان أن آخذها أيضاً (القيامة) هذه الوصية قبلتها من أبي!!».

١٠:١٥: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته».

١١:١٨: «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد. الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟».

وكانت هذه العطية هي لمجد المسيح وخلاص العالم.

ج - الآب يحب الإبن:

كَشْفُ سر عمق وحدة الآب مع الإبن وانعكاسها على حياة المسيح على الأرض.

٣٥:١٣: «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده».

٢٠:٥: «الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمله وسيريه أعمالاً أعظم...».

١٧:١٠: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً».

١٥: ٩: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا».

هذه الآيات والآيات الأخرى التي توضح الإتفاق بل الإنطباق الكلي بل الوحدة المشتركة في القول والعمل والسلوك حتى الموت، هذه كلها منبعها وحدة الجوهر أي الطبيعة مُضافاً إليها عمق الحب الإلهي المطلق بين الآب والإبن. هذا الذي رفع سيرة المسيح إلى مستوى الألوهة في كل شيء ولكنها ألوهة تفيض بالحب والحنان والإنعطاف الفائق نحو البشر. فهي قوة لاهوت مصبوبة في قالب من العواطف البشرية التي تسمو فوق قامة البشر. وهذا بالتالي ينطق بالعلاقة التي تربط المسيح بالله فهي فعلاً وبالضرورة علاقة ابن بآب، إنما على مستوى لاهوت. أو كيف يمكن أن يقول المسيح «قد أُعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض»؟ أو «كل شيء دُفع في يدي»؟ أو أن كل الدينونة أُعطيت لي؟ أو أنه يعطي الحياة الأبدية ويقيم من الموت الجسدي والروحي؟ أو أن الآب يمجّده عند ذاته بالمجد الذي له قبل كون العالم؟ أو أنه في الآب والآب فيه أو أنه يعرف كل ما عند الآب؟ أو أن كل ما للآب هو له أو أنه هو والآب واحد؟ لهذا قال المسيح عن حق أن مَن يعرفه يعرف الآب ومَن يراه فقد رأى الآب!! وكانت هذه منتهى رسالته في استعلان الله.

د ــ الآب يشهد للإبن[٩]، يضمن ويساند ويختم:

٥: ٣٧: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي».

٨: ١٨: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني».

واضح من كل ما سلف من الآيات أن الآب أرسل الإبن فصار يضمن رسالته ويساندها وخاصةً فيما يضطلع به الإبن من استعلان حقيقة الله وعمل الخلاص الذي جاء ليكمله. كما هو واضح أنه وقف وراء كل الأعمال والأقوال: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم.» (يو١٢: ٤٩و٥٠)

كما أنه واضح أيضاً كيف يساند الآب كل مجهودات الإبن فهو الذي يجذب المهيَّئين للإيمان ليُقبلوا إليه (يو٦: ٣٧و٤٤)؛ كما يساند بشهادته سواء العلنية من السماء بالصوت المسموع (يو١٢: ٢٨) أو بالأعمال التي تبرز مجد الإبن (يو٥: ٣٦). وما شهادة المعمدان للمسيح التي كان لها أكبر الأثر في بدء الخدمة إلاَّ تدخلٌ مباشر من الآب. كما أن إرسال الروح القدس لتكميل الشهادة ولمؤازرة عمل المسيح وتكميله وتمجيده ما هي إلاَّ تدبير خاص من الآب. بل وأيضاً فإن

---

(٩) أنظر الباب الثالث، الفصل الأول ص ١١٢.

قبول واستجابة صلاة المؤمنين باسم المسيح هي بحد ذاتها تمجيد للآب وللإبن وتزكية فائقة لعمله: «ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجّد الآب بالإبن» (يو١٤: ١٣)؛ «في ذلك اليوم تطلبون باسمي. ولست أقول لكم: إني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٦و٢٧)

ثالثاً: «أبي»: ورود الكلمة بصورتها التخصصية في فم المسيح:

كثيراً ما يدعو المسيح الله الآب أباً خاصاً له «أبي»:

٢: ١٦: «لا تجعلوا بيت **أبي** بيت تجارة».

٥: ١٧: «**أبي** يعمل حتى الآن وأنا أعمل».

٥: ٤٣: «أنا قد أتيت بإسم **أبي**».

٦: ٣٢: «**أبي** يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء».

٨: ١٩: «لو عرفتموني لعرفتم **أبي** أيضاً».

٨: ٢٨: «أتكلم بهذا كما علّمني **أبي**».

٨: ٤٩: «لكني أكرم **أبي** وأنتم تهينونني».

٨: ٥٤: «**أبي** هو الذي يمجّدني».

١٠: ١٨: «هذه الوصية قبلتها من **أبي**».

١٠: ٢٥: «الأعمال التي أنا أعملها باسم **أبي** هي تشهد لي».

١٠: ٢٩: «**أبي** الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد **أبي**».

١٠: ٣٢: «أعمال كثيرة حسنة أريتكم من عند **أبي**».

١٠: ٣٧: «إن كنت لست أعمل أعمال **أبي** فلا تؤمنوا بي».

١٤: ٢: «في بيت **أبي** منازل كثيرة».

١٤: ٧: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم **أبي** أيضاً».

١٤: ٢٠: «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في **أبي** وأنتم فيَّ وأنا فيكم».

١٤: ٢١: «الذي يحبني يحبه **أبي**».

١٤: ٢٣: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه **أبي**».

١٥: ١: «أنا الكرمة الحقيقية و**أبي** الكرام».

١٥: ٨: «بهذا يتمجّد **أبي** أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي».

١٥: ١٠: «كما أني أنا قد حفظت وصايا **أبي** وأثبت في محبته».

١٥:١٥: «لأني أعْلَمتكم بكل ما سمعته من أبي».
١٥:٢٤: «أبغَضُوني أنا وأبي».
١٦:١٠: «إني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً».
٢٠:١٧: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

لم يجرؤ أحد غير المسيح أن يدعو الله أباً خاصاً له بهذا المعنى الفريد «أبي». فنحن ندعو الله «أبانا» بمعنى أنه أب لجميعنا بالتساوي، وأما أن يدعوه أحد «أبي» فهذا يعني أن له بنوّة فريدة من نوعها أي أنه «الإبن الوحيد». ولم يفُتْ على الفريسيين ما في هذه العبارة من خطورة إذ لما قال لهم المسيح «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» أرادوا أن يرجموه بتهمة أنه «**دعا الله أباً خاصاً له** πατέρα ἴδιον **جاعلاً نفسه مساوياً لله** ἴσον τῷ θεῷ » (يو٥: ١٨ – بحسب الأصل اليوناني). فعبارة «أبي» في فم المسيح تعني أن المسيح يعتبر نفسه ابن الله الوحيد بل والمساوي أيضاً للآب، بشهادة الفريسيين أنفسهم!

ويلاحظ أن في إنجيل يوحنا كله لا نجد أي ذكر لله بأنه أب لنا إلا مرة واحدة فقط في الآية الأخيرة التي ذكرناها، وهي التي قالها الرب للمجدلية بعد القيامة «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». فالقديس يوحنا يحتجز إعلان أُبوّة الله لنا إلى ما بعد القيامة (بخلاف الأناجيل الثلاثة الأولى – أنظر مثلاً مت٦: ٣٢). وفي هذا إشارة لاهوتية إلى أن بنوّتنا نحن لله لم تتحقق بالفعل إلا بعد الصليب والقيامة، أي بعد أن دفع ثمنها الإبن الوحيد. وفي نص هذه الآية «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» ما يفيد التبادل الخلاصي العجيب الذي تم بيننا وبين «ابن الله». فالله أصلاً ليس أباً لنا بل هو أب للإبن الوحيد، وأما لنا فهو إلهنا ونحن عبيد له، كذلك الله لم يكن أصلاً إلهاً للإبن الوحيد بل آبٌ مساوٍ في الكرامة والألوهة، ولكن لما تجسد صار الله إلهاً لإبن الإنسان!!

فلما اشترك ابن الله في حال عبوديتنا، أشركنا معه في بنوته، فصار أبوه الخاص أباً لنا نحن أيضاً. «هو أخذ الذي لنا (حال عبوديتنا فصار الله إلها له)، وأعطانا الذي له (البنوة لله فصار الله أباً لنا) فلنسبحه ولنمجده ولنزيده علواً»!

لكن لينتبه القارىء! فإن بنوّتنا نحن لله لا يمكن أبداً أن تتساوى مع بنوة «ابن الله» الوحيد. فنحن أبناء بالتبني، وأما هو فهو يبقى الإبن الوحيد بحسب الطبيعة والجوهر. وإمعاناً في إبراز الفرق بين بنوتنا نحن لله وبنوة الإبن الوحيد، يتّبع القديس يوحنا قاعدة ثابتة في كل إنجيله ورسائله ولا يحيد عنها ولا مرة واحدة، وهي أنه يدعونا نحن باستمرار «أولاد الله» τὰ τέκνα τοῦ θεοῦ ،

بينما يحتجز للمسيح وحده لقب «ابن الله» ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

الطريق من الآب وإليه:

لقد افتتح الآب بنفسه الطريق من السماء إلى قلب الإنسان بإرساله الإبن، كما افتتح الإبن بموته على الصليب وارتفاعه الطريق من الإنسان إلى قلب الله. وبمنتهى رضى الآب أعد الإبن منازل كثيرة في بيت الآب مهيأة لاستقبال مَن سيأخذهم إلى هناك «ليكونوا حيث يكون هو»، «وليتبعوا الخروف أينما سار».

الآب هنا يأخذ على عاتقه تكريم محبي ابنه ويقبلهم ويحبهم «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي... لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ١—٩)

* * *

في جميع هذه الآيات التي انتخبناها والتي تخص «**الإبن**» والتي تخص «**الآب**» تتضح العروة الوثقى التي تربط الآب بالإبن، **وتُستعلن أعماق الصلة بينهما التي تؤلف جوهر الديانة المسيحية ومنهجها وقوة الخلاص القائمة على هذه الصلة والنابعة منها والتي تصب فيها**(١٠). حيث محور المسيحية الأساسي وقلبها النابض وسرُّها المعلن يتركز في صفة المسيح الجوهرية التي تجسد بها: أنه «**ابن الله**». فهي كلمة السر أو مفتاح الإستعلان الذي به ندخل إلى الله الآب وإلى مضمون الخلاص والحياة الأبدية وتجديد الإنسان. بل ونكتشف من هذه الصلة أسرار الحب الإلهي بين الآب والإبن والعمل المشترك النابع من هذا الحب بائتلاف يفوق الوصف حباً في الإنسان وخلاصه وإعادته إلى كرامته الأولى.

ومن نجاح المسيح المذهل في طاعة الآب لتكميل إرادة الخلاص التي حملها إلى الأرض حتى الموت، وتكريمه وتمجيده للآب على الأرض وتكميله للعمل الذي أعطاه إياه، وفتح باب الخلاص الأبدي وإعلان بدء ملكوت الله بكل قدرة وسلطان، الذي نال عليه كل المجد «مجَّدت وأمجِّد أيضاً» يتضح بأبلغ بيان أنه حقاً «**ابن الله**».

---

(١٠) أنظر هامش (١) ص ١١٣.

أما إرسال الروح القدس «روح الموعد القدوس» حسب وعد الإبن الذي تم علنا لتكميل الشهادة والرسالة التي اضطلع بها «ابن الله»، والذي لا يزال يعمل حتى اليوم وهذه الساعة في كل أنحاء العالم؛ فهو ختم صِدْق الله والمسيح الذي نتمسك به حتى الموت.

وبهذا صار «ابن الله» هو رأس مال الكنيسة وأساسها وجوهر لاهوتها وقوة خلاصها وفخر مسيحيتها.

وهكذا وفي ختام بحثنا عن «ابن الله»، وهي الصفة الجوهرية القائمة في الله التي استُعلنت في المسيح وكانت هي سر حياته وموته وقيامته والتي صارت أساساً للاهوت المسيحي، نجد أن هذه الصفة في إنجيل يوحنا مُعلنة بصورة عملية بعيداً عن مجادلات الفكر كحقيقة ينصبُّ عملها في خلاص الإنسان على أساس الفداء، أي الموت الذي جازه المسيح عن البشرية كلها وقيامته التي أنهى بها حكم الموت عن الإنسان.

وبذلك صار جوهر الإيمان المسيحي هو التجديد الروحي الكلي للمؤمن الذي صنعه المسيح بدمه وروحه ليؤهله للحياة الأبدية مع الله: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله»، «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله»، «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح.» (يو٣: ٣و٥و٦)

- «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس.» (مت٢٨: ١٩)
- «مَن آمن واعتمد خلص.» (مر١٦: ١٦)

٥ — «أنا هو» = ἐγώ εἰμι
وهو لقب الكينونة الإلهية

ينفرد إنجيل يوحنا دون بقية الأناجيل في استخدام هذا اللقب كما هو في أسفار العهد القديم بصورة مكثفة، فقد ورد فيه هذا اللقب على لسان المسيح ٢٦ مرة في حين ورد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أربع مرات.

ويُعتبر هذا اللقب لقباً استعلانياً في إنجيل يوحنا، فهو يلفت النظر أن المتكلم هو نفس المتكلم في أسفار العهد القديم: «أنا هو الرب»، «أنا هو الرب الإله».

ويزيد إنجيل يوحنا في الإمعان للتأكيد على استعلان المسيح بهذا اللقب، بأن جعله اسماً شخصياً للمسيح في بعض المواضع، تماماً كما جاء كذلك في بعض مواضع العهد القديم للتعبير عن اسم الله. بل ويزيد على ذلك — ولكن بصورة استعلانية يكشف فيها مصدر الإسم — بأن يقول المسيح لله: «أيها الآب القدوس احفظهم في **اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١١)؛ و«حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في **اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١٢). بمعنى أن اسم المسيح «أنا هو» الذي نادى به هو «اسم الله» الذي أعطاه الله للمسيح ليتكلم به معلناً أنه هو هو كلمة الله وأنه هو هو رسالة الله الشخصية، وهو حينما يتكلم فالله هو المتكلم.

وبسبب أهمية هذه الحقيقة ووضعها اللاهوتي الخطير، أوْليناه عناية فائقة لما يضفيه هذا اللقب على المسيح في إنجيل يوحنا من قيمة استعلانية تفوق في وزنها كثيراً الإعتبارات الأخرى.

ولهذا رأينا أن نقدم مختصراً نبحث فيه أصول هذا اللقب ومعانيه. وقد رتبنا هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في أسفار العهد القديم.

ثانياً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة.

رابعاً(١١): فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

(١١) لم تُكتب كعنوان محدد، ولكن سنركّز اهتمامنا في أثناء عرضنا لهذه الثلاثة فقط على فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

أولاً : لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι » في أسفار العهد القديم

جاء «أنا هو» في كلام الله خلال أسفار العهد القديم أول ما جاء ليعبّر عن اسم الله، كما أعلّمه لإبراهيم أولاً ثم موسى ثم شعب إسرائيل، ولكن بألفاظ متغيرة سنأتي على ذكرها جميعاً.

واسم الله في الحقيقة ليس، كأي اسم مجرد، اسم عَلَم يُعرف به الإنسان من بين الناس، ولكن اسم الله جاء يحمل طبيعة الله وصفاته، وهي عناصر أساسية يتكون منها الإسم، وصارت هي نفسها عناصر الإيمان بالله نفسه. لذلك يمتنع معرفة الله إلاّ إذا آمن الإنسان بعناصر هذا الإسم الذي تحوطه الأسرار والهيبة والجلال.

فالذي يؤمن بإسم الله هو الإنسان الذي عرف طبيعة الله وأدرك صفاته وبالتالي انضوى تحت سلطانه وخضع لمشيئة صفاته. من هذا نفهم لماذا كان «الإسم»، أي اسم الله، محل رهبة ومخافة وحذر شديد. وتمدُّنا النسخة السبعينية لترجمة التوراة بالنص الأصلي والصحيح للآية لاويين ٢٤:١٦: «**كل مَن نطق بإسم الرب** موتاً يموت، كل جماعة إسرائيل ترجمه بالحجارة سواء كان دخيلاً أو مواطناً، يموت لأنه نطق بإسم الرب». ولكن الترجمة العربية أوردتها: «**كل مَن جدَّف**». إن اسم الله كان غير كلمة «**الرب**». أما كلمة «الرب» فقد وُضعت مكانها تفادياً لنطق الإسم الذي كان عليه هذا التحذير، وسيأتي الكلام عليه.

اسم الله: يَهْوَه YHVH

نقرأها في سفر الخروج ٣:١٥: «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه[١٢] إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم».

ويهوه بحروفها اللاتينية YHVH[١٣] بدون تشكيل وردت بالإنجليزية **Yahwah**. ولكن في عصر النهضة حوالي سنة ١٦٠٠م عُدّلت الكلمة فصارت تُكتب **Jehova**، غير أن الكلمة «يَهْوَه» بنطقها الأصلي ضاعت معالمها وطريقة نطقها من اللسان اليهودي، وذلك منذ حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بسبب إحجامهم عن كتابتها أصلاً في الأسفار، إذ بسبب الخوف والرهبة من هذا الإسم

---

(١٢) جاء في هامش الكتاب المقدس — طبعة بيروت — تفسيراً لهذه الكلمة هكذا: [يهوه في العبرانية اسم علم للإله الحقيقي معناه «يكون» وقد تُرجم في هذه الترجمة بلفظة «رب»].

(١٣) أنظر: Oxford Dict. of Chr. Chur.: Yahwah

استبدلوه بالكلمة العبرية «**أدوناي**» التي في العربية «**الرب**»، وفي الإنجليزية **Lord**، وفي اليونانية **κύριος** كما جاءت في النسخة السبعينية، وفي اللاتينية **Dominus** كما جاءت في الفولجاتا، وفي الألمانية **Herr**، وفي الفرنسية **Seigneur**.

أصل كلمة يهوه وعلاقتها بـ«أنا هو» ἐγώ εἰμι :

أول ما جاءت كلمة «يهوه» كما سبق وقلنا كانت في سفر الخروج كتلقين من الله لموسى ليُعلم بها شعب إسرائيل. ولكن جذورها الأولى ظهرت في آية سابقة في نفس الأصحاح: «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: **,أهْيَه الذي أهْيَه،**. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهْيَه أرسلني إليكم.» (خر٣: ١٣—١٤)

وفي هامش الكتاب المقدس — طبعة بيروت — يقدم المترجم تفسيراً عربياً للكلمة ويقول: ومعناه «**أكون الذي أكون**». هذا يفسر لنا معنى اسم الله فهو يعني الكائن، لأن الأصل اليوناني لهذا الإسم «أهيه الذي أهيه» هو « **ἐγώ εἰμι ὁ ὤν** » وترجمتها بالإنجليزية « **I am the being** » أي «**أنا الكينونة**».

وقد وصلنا التفسير العبري لهذا الإصطلاح «أهْيَه الذي أهْيَه» إذ يقول أن معناها: « **I am who cause to be** »، أو« **I am he who cause to be** ». وترجمته: «أنا الذي أُقيم الكيان أو الوجود» أو «أنا هو الذي أُقيم الكيان أو الوجود».

أما ظهور الله لإبراهيم فقد عرَّف فيه نفسه لإبراهيم هكذا: «أنا الله القدير» (تك١٧: ١). وجاءت بالعبرية: «إلوهيم شداي».

وقد أعْلَم الله موسى أنه سابقاً لم يكن يُعرف بإسم يهوه «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي **,يهوه،** فلم أعرف عندهم.» (خر٦: ٢و٣)

بدء تدهور النطق واختفاء الكلمة «يَهْوَه» وظهور «أنا هو»:

وبسبب التحذير الواضح من نطق اسم الله كما جاء في لاويين ٢٤: ١٦ — طبعاً في غير الصلوات والتلاوات فإنهم اكتفوا بالكلمة «أدوناي» بدلاً منها — بدأ الإسم «يهوه» ينحصر في الإستخدام الطقسي فقط، ثم بعد ذلك بدأ يزحف على المخطوطات كلها، فلكي يتحاشى القارىء نطق يهوه — (التي لا نعرف الآن لا نحن ولا اليهود في كل العالم نطقها الصحيح) — وضعوا عليها

تشكيلاً من عندهم هو نفسه التشكيل الذي تنطق به أدوناي، وهو فتحة ثم ضمَّة ثم فتحة، حتى إذا لمح القارىء هذا التشكيل على كلمة YHVH ينطق أَدُونَاي بدلاً عنها.

وأخيراً وفي القرن الثالث اتفق اليهود على حذف كلمة «يهوه» من المخطوطات، ووضع كلمة «أدوناي» عوضاً عنها مع البادئة «أنا هو»، حيث «هو» تأتي من كلمة «أَهْيَه الذي هو أَهْيَه» أي الكائن، وفي مفهومنا العربي تعني «الهوية» أي الكينونة الشخصية أو ما نسميه تحقيق الشخصية. فـ«أنا هو» تعني «**أنا الكائن بذاتي**». لذلك فإن «**هو**» تحسب في العبري في هذا الموضع فعلاً وليس ضميراً، لذلك تجيء في الإنجليزية I am. فبدل أن كانت تُقرأ «**أنا يهوه**» صارت «**أنا هو أدوناي**»، «أنا هو الرب». وكثيراً ما تأتي «**أنا هو**» بدون تعريف آخر، فتكون هي التعبير الكامل عن «يهوه» أي اسم الله.

وهكذا بعد أن كان الإسم «يهوه» هو الإسم الوحيد، بدأ يزاحمه الإسم «أدوناي». فإزاء ورود «يهوه» ٦٧٠٠ مرة في كافة الأسفار في القرن العاشر قبل الميلاد، ورد لفظ «أدوناي» ٤٥٠ مرة، وكثيراً ما كان يُضاف «أدوناي» على «يهوه» للتفخيم: «السيد الرب»[(١٤)]. حتى جاء زمن النسخة السبعينية حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، فأُبدلت يهوه نهائياً بأدوناي = الرب ὁ κύριος.

ولكن بقيت «**أنا هو**» ἐγώ εἰμι هي التعبير المباشر للإسم «يَهْوَه». وهي شديدة التأثير على السمع، حيث تعني كما قلنا: «**أنا هو الكائن بذاتي، والمقيم لكل كيان**». ولا يزال هذا الإسم يهوه وعلاقته بـ«أنا هو» محل أبحاث.

أنا هو ἐγώ εἰμι:

وهي إما تجيء بمفردها لتعبِّر عن الإسم الكامل لله. أو تجيء ومعها الأسماء الأخرى:

١ — «أنا هو» وباليونانية ἐγώ εἰμι.

وبالعبرية «أني هُو ani hu » = אֲנִי־הוּא:

٢ — أو تجيء ومعها «**الرب**» وباليونانية κύριος.

وبالعبرية «أدوناي adonai».

٣ — أو تجيء ومعها «**الرب الإله**» وباليونانية κύριος ὁ θεός.

وبالعبرية «**أني أدوناي إيل**: el, elohim».

---

(١٤) أنظر مثلاً تك ١٥: ٢ (אֲדֹנָי יְהוִה) (أدوناي يهوه) حيث تُرجمت «أيها السيد الرب».

ويلاحظ أنها في العبرية لا تأخذ الفعل hu «هو» = «am» فهي «أني أدوناي». أما في اليونانية فهي إما تأتي بدون فعل أو بالفعل «am» = «ἐγώ εἰμι» أو «ἐγώ». علماً بأن إضافة «الرب»، و«الإله» أو «الرب الإله» مع «أنا هو» تعتمد على موضع اسم الله من الآية: هل يقولها الله للتعريف بنفسه أو للتأكيد على وجوده أو للتحذير. ولكن للأسف الشديد فإنه وبالرغم من الحساسية الشديدة من جهة الإضافة أو الحذف بالنسبة للفظ «أنا هو» للتعبير عن اسم الله، نجد النسخة العربية كثيراً ما تحذف «هو» من النص وتقول مباشرة «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله» في حين أنها تأتي في النص اليوناني في السبعينية «أنا هو». وهذا في الحقيقة يضيِّع علينا في النسخة العربية مفهوم «أنا هو» بحد ذاته في الآية. لذلك التزمنا بالرجوع إلى النص اليوناني في السبعينية في إيراد الآيات بجوار النص العربي.

وسوف يندهش القارىء حينا يعلم أن اسم الله «أنا هو» سواء جاء هكذا مطلقاً بدون إضافات أو مع الإضافات مثل «أنا هو الرب» أو «أنا هو الرب الإله»، جاء في مجموع أسفار العهد القديم ١٠٦ مرات، في حين أنه جاء في إنجيل يوحنا ٢٦ مرة، وفي بقية الأناجيل الثلاثة أربع مرات. وهذا يعني بوضوح أن إنجيل يوحنا هو إنجيل استعلاني كُتب بالروح خصيصاً ليستعلن «أنا هو الله» في كل ما يختص بـ«أنا هو» من معانٍ وأهداف لاهوتية.

وقد ورد هذا النص «أنا هو» في سفر اللاويين ٢٤ مرة، وفي الأصحاح التاسع عشر بمفرده ورد اثنتي عشرة مرة. وهذا بالنسبة لكونه السفر المختص بالفرائض والوصايا الهامة جداً، والتي لا يزال معظمها يُعتبر من أرقى التوصيات الأخلاقية الموروثة في العالم المتحضر مما يعني أنها كانت فرائض تأسيسية للبشرية كلها، ولذلك دعَّمها بإسمه إزاء كل فريضة هامة منها.

كذلك ورد في سفر حزقيال ٣٢ مرة، وهو سفر الأخرويات والرؤى والنبوات عن أيام المسيا، لذلك جاءت «أنا هو» كضمان عهد وتوكيد وَعْدٍ.

أما سفر إشعياء ففي جزئه الأول ١ — ٤٠ المعروف بإشعياء الأول فلم يَرِدْ فيه ولا مرة واحدة. ولكن من أصحاح ٤١ — ٦١ جاء ١٩ مرة، وهو ما يسمى بسفر إشعياء الثاني، وكلها تختص بتعزية إسرائيل عمَّا أصابها وبما سيُعوِّض لها بالحب والبركات والمعرفة والنور في أواخر الأيام.

علماً بأننا أسقطنا من أمثلتنا كل الآيات التي لم يرد فيها «أنا هو» أي التي تقول «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله»، وذلك لسبب واحد هو أننا بصدد شرح «أنا هو» ومعناها وقيمتها في إنجيل يوحنا.

وقد حدث في أيام ما قبل المسيح بمدة أن زاد التدقيق في عدم ذكر اسم «يهوه» حتى في الطقس، فما كان من الكهنة الذين كانوا يسبّحون بمزمور ١١٧ وهم يدورون حول المذبح بأوصانا أن استعاضوا بالإلهام عن يهوه في «أنا هو يهوه» بأن قالوها تلقائياً «أنا وهو»(١٥) بدل «أنا هو يهوه» أي بإضافة واو العطف. ومنذ ذلك الحين سرت في كل الليتورجيات وفسرها المفسرون بعد ذلك (رابي فنحاس Pinchas — منتصف القرن الثاني) بأنها تعني إسرائيل كشعب «أنا وإسرائيل». ولكن الواضح أنها تعبير سرّي عن الله. وواضح أيضاً أن المسيح استخدمها أو فكّ رموزها حينما كان يقول «أنا وأبي»، «ولست أنا وحدي»، «أنا والآب الذي أرسلني».

المواضع الأساسية التي جاءت فيها «أنا هو ἐγώ εἰμι» في العهد القديم

لكي نخرج بفكرة عامة جامعة عن الإصطلاح المقدس «أنا هو ἐγώ εἰμι» الذي جاء في العهد القديم معبّراً عن شخص الله، يمكننا حصر المواضع والأسباب التي جاءت فيها «أنا هو ἐγώ εἰμι» في المجموعات المختارة الآتية:

١ — المجموعة الأولى:

ويأتي «أنا هو» لتستعلن شخص الله وكأنها رد على سؤال مضمر: مَنْ أنت؟ فالله هنا يبادر بتعريف نفسه.

أ — خر٢: ١٣و١٤: **«فإذا قالوا لي ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذي أهيه»**. وقد جاءت في السبعينية ἐγώ εἰμι ὁ ὤν ويفهمها العبرانيون أنها تعني إما: I am he who cause to be أو I am who cause to be وترجمتها **«أنا هو الذي يقيم الوجود»** أو **«أنا الذي أقيم الوجود»**. ولكن النسخة الإنجليزية ترجمتها I am the being أي **«أنا الوجود»** أو **«أنا الكينونة»**.

والكلمة المُحيِّرة هنا هي ὤν. ولكي نعطي فكرة عنها نقرأها في آية أخرى وردت فيها بمعنى **القادر على كل شيء أو كلّي القدرة**:

[15] C.H. Dodd. op. cit. 95.

خر٦: ٣: «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب, **بأني الإله القادر على كل شيء ،...»** باليوناني θεὸς ὢν . وتُقرأ « ὢν » في النسخة العبرية = شدّاي ، وتُترجم بالإنجليزية هكذا God Almighty . وبهذا تكون الكلمة اليونانية « ὢν » قد ظهرت أول ما ظهرت في زمن إبراهيم أب الآباء ، وكانت تعني «شدّاي» أي القادر على كل شيء = omnipotent . وظلت هذه الصيغة بهذا المعنى قائمة ومستخدمة بكل لغة حتى هذا اليوم أي «كلّي القدرة» .

ب ــ تك١٧: ١: **«وظهر الله لإبراهيم وقال له: أنا الله القدير. سِرْ أمامي وكُن كاملا» .**

هذا هو الموقف الذي أشارت إليه الآية السالفة ونفس النص أيضاً **«أنا الله القدير»**. وواضح أن الله هنا يعرِّف نفسه لإبراهيم لأول مرة . فهي بداية تاريخ تعرُّف البشرية على الله ، أو بالحري أول استعلان الله لنفسه للبشرية على مستوى التاريخ . ويلاحظ أن الترجمة العربية أسقطت «هو» مع أنها موجودة في النسخة السبعينية « ἐγώ εἰμι ὁ θεός σου » «أنا هو إلهك» . ولكن في الأصل العبري جاءت: «أني إيل شدّاي» بدون «هو» ، لأن «هو» هي أصلاً مرتبطة بـ«يهوه» ، ويهوه هو الإسم الكلّي القداسة الذي أُعلن أول ما أُعلن لموسى النبي (خر٦: ٣): «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب, **بأني الإله القادر،** على كل شيء وأما بإسمي **,يَهْوَه**، فلم أُعرف عندهم» .

وهكذا صار **«أنا هو يهوه»** هو الإسم الرسمي عند شعب إسرائيل منذ أيام موسى النبي : «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل **يَهْوَه** ــ إله آبائكم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب ــ أرسلني إليكم ، **هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور.»** (خر٣: ١٥)

ج ــ تك٢٦: ٢٤: **«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف لأني معك».**

وفي الترجمة السبعينية جاءت « ἐγώ εἰμι ὁ θεὸς Ἀβραάμ » ، ويلاحظ أن السبعينية جاء فيها «أنا هو إله إبراهيم» ، بينما جاءت في

الترجمة العربية بدون «هو»: «أنا إله إبراهيم». كما يلاحظ أيضاً أن التعريف بإسم «أنا هو» في هذه الآية جاء معتمداً على ما شرحه الله عن نفسه من المعاني سابقاً لإبراهيم بسبب قوله: «أنا إله أبيك».

د – خر٧:٥: **«فيعرف المصريون أني أنا الرب حينما أمدُّ يدي على مصر وأُخرج بني إسرائيل من بينهم».**
في السبعينية جاء فيها «**أنا هو الرب**» « ἐγώ εἰμι ὁ κύριος ».

هـ – خر١٤:١٨: **«فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجَّد».**
في السبعينية جاء فيها «**أنا هو الرب**» ἐγώ εἰμι ὁ κύριος .

و – مز٤٦:١٠: **«كُفُّوا واعلموا أني أنا هو الله»** ἐγώ εἰμι ὁ θεός .

٢ – المجموعة الثانية:

وتأتي الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: **مَنْ أنت؟ وماذا تريد؟** ومواضعها دائماً في إعطاء الوصايا العشر وفي فرائض سفر اللاويين، وخاصة عند الكلام عن القداسة والتقديس لإعطاء الوصايا ضغطاً وتأكيداً أو رهبة ووقاراً.

أ – خر٢٠:٢و٣: **«أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر... لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهك»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ب – خر٢٠:٥: **«لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهك»**.

ἐγὼ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ج – لا١١:٤٤: **«إني أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأني أنا قدوس»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهكم»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

د – لا١٩:١٢: **«لا تحلفوا باسمي للكذب فتُدنِّس اسم إلهك. أنا الرب»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهكم»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

هـ - لا ١٩: ١٤: «لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة. بل اخشَ إلهك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

٣ - المجموعة الثالثة:

وتأتي الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: مَن أنت؟ وما هي قدراتك الذاتية؟ وهي التي تختص بتفرُّد الله في الألوهة والقدرة والخلاص:

أ - يوئيل ٢: ٢٧: «وتعلمون أني أنا في وسط إسرائيل وأني أنا الرب إلهكم وليس غيري». وفي السبعينية تجيء: «أنا هو وأنا الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι, καὶ ἐγὼ κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

ب - إش ٤٨: ١٢ و١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوتُه. أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر ويدي أسست الأرض ويميني نشرت السموات». وفي السبعينية: «أنا هو الأول وأنا هو إلى الدهر».

ἐγώ εἰμι πρῶτος καὶ ἐγώ εἰμι εἰς τὸν αἰῶνα.

ج - إش ٤١: ٤: «أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو». وصحتها في السبعينية: «أنا الله الأول وإلى نهاية المستقبل أنا هو».

ἐγὼ θεὸς πρῶτος, καὶ εἰς τὰ ἐπερχόμενα ἐγώ εἰμι

د - إر ٢٣: ٢٣ و٢٤:

«ألَعَلّي إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد... أنا يقول الرب. أما أملأ أنا السموات والأرض؟ يقول الرب». في السبعينية: «أنا هو الله من قريب». θεὸς ἐγγίζων ἐγώ εἰμι

هـ - حز ٣٧: ٥ و٦: «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام هأنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون، وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».

في السبعينية: «أنا هو الرب». ἐγώ εἰμι κύριος

و ــ حز٣٧: ١٣و١٤:

«فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون».

في السبعينية جاءت: «أنا هو الرب». ἐγώ εἰμι κύριος

ز ــ ملا ١: ١٤: «لأني أنا ملك عظيم قال رب الجنود واسمي مهيب بين الأمم». في السبعينية: «,أنا هو، ملك عظيم».

διότι βασιλεὺς μέγας ἐγώ εἰμι.

٤ ــ المجموعة الرابعة:

وتأتي فيها الأوصاف المضافة لـ«أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: مَن أنت؟ وماذا تستطيع عمله لنا؟؛ وفيها يقدّم الله نفسه كماحي الذنوب، والمخلّص، والشافي، والمُعزّي، والراعي، ومعلم الطريق، والمتكلم بالحق والبر.

أ ــ إش٤٣: ٢٥: «أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها». وجاءت في السبعينية ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι . التكرار هنا للتأكيد وللتحميل على «أنا هو» باعتبارها اسماً شخصياً، وهي شديدة الشبه بقول المسيح المتميز في إنجيل يوحنا: «الحق الحق أقول لكم».

ب ــ مز٣٥: ٣: «قلْ لنفسي خلاصُكِ أنا».

في السبعينية «أنا هو». σωτηρία σου ἐγώ εἰμι

ج ــ خر١٥: ٢٦: «إني أنا الرب شافيك».

وفي السبعينيةً «لأني أنا هو الرب إلهك شافيك».

ἐγὼ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου.

د ــ إش٥١: ١٢: «أنا أنا هو مُعزّيكم». وفي السبعينية: «أنا هو أنا هو».

ἐγώ εἰμι, ἐγώ εἰμι ὁ παρακαλῶν σε.

هـ ــ حز٣٤: ١٥: «أنا أرعى غنمي وأُربضها يقول السيد الرب وسيعلمون أني أنا هو الرب». جاءت في السبعينية:

ἐγὼ βοσκήσω ... ἐγὼ ἀναπαύσω ... ἐγώ εἰμι κύριος.

و ــ إش٤٨ : ١٧ : «هكذا يقول الرب ,فاديك، قدوس إسرائيل:
أنا الرب إلهك معلمك لتنتفع،
وأُمشّيك في طريق تسلك فيه».
وفي السبعينية: «أنا هو إلهك علمتك كيف تجد الطريق الذي تسلك فيه». ἐγώ εἰμι ὁ θεός σου.

ز ــ إش٤٥ : ١٩ : «أنا أنا الرب متكلم بالصدق (الحق) ومُخبر بالإستقامة».
في السبعينية جاءت: «أنا هو أنا هو». ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι

ح ــ تث ٣٢ : ٣٩ : «انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معي. أنا أُميت وأُحيي».
في السبعينية: «انظروا انظروا إني أنا هو» (إلحاح للتحذير).
ἴδετε ἴδετε ὅτι ἐγώ εἰμι.

٥ ــ المجموعة الخامسة:

وهي التي فيها تجيء «أنا هو» في وضعها الخاص كإسم «الله». فمجرد النطق بها يشير إلى أن الله هو المتكلم ويدعو إلى الإيمان به.

أ ــ إش٥٢ : ٦ : «لذلك يعرف شعبي اسمي. لذلك في ذلك اليوم يعرفون أني ,,أنا هو،، المتكلم هأنذا». وفي السبعينية ترجمتها الصحيحة: «لذلك فإن شعبي سيعرف اسمي في ذلك اليوم إني ,أنا هو، المتكلم».
ἐγώ εἰμι αὐτὸς ὁ λαλῶν

ب ــ إش٤٣ : ١٠ : «أنتم شهودي يقول الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا إني أنا هو». وفي السبعينية تجيء الترجمة هكذا: «أنتم شهودي وأنا أيضاً أشهد يقول الرب الإله وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا وتفهموا إني أنا هو». ὅτι ἐγώ εἰμι

يلاحظ أن «أنا هو» التي جاءت في هذه الآيات هي المقابل للعبري «أني هُـ אֲנִי־הוּא: » وهي المترجمة بالإنجليزية « I am ». حيث يتضح أن «هو» في «أنا هو» ليست مجرد ضمير بل فعل كينونة أو هويّة. وهي من وجهة النظر العبرية ذات صلة أساسية بـ«يهوه» الإسم المقدس الذي يتحاشى اليهود كتابته أو قراءته.

وهذه النماذج التي قدمناها هي محاولة لحصر المعاني والمواقف التي قيلت فيها أو قيلت بسببها. ولكن بالرغم من تنوُّع المواقف والمعاني، إلاَّ أن «أنا هو» ἐγώ εἰμι تربطها معاً في وحدة الشخص والكيان المتكلم، وإن كانت الأسفار الأولى جاءت مشحونة بـ «أنا هو» على مستوى التعريف بقدرات الله الفائقة لإستعلان صفات الله بالنسبة للشعب عامة، لكن نجد الأسفار الأخيرة أي النبوات تجيء «أنا هو» فيها مشحونة أيضاً بالوعود القادمة من جهة التعزيات والفداء والخلاص وخاصة في سفر إشعياء. وهذا ينقلنا بسهولة إلى إنجيل يوحنا.

ثانياً: «أنا هو ἐγώ εἰμι » في إنجيل يوحنا

إذا تأملنا في موقف الله بالنسبة لإبراهيم حينما بدأ يعلن نفسه له دون كل عشيرته وأهله، أو بالنسبة لموسى وهو يرعى غنمات يثرون حميه على جبل سيناء، أو حينما استقبل شعب إسرائيل في مصر الخبر من فم موسى أن الإله الذي يُدعى يَهْوَه يدعوهم للخروج من بلد قُدُور اللحم والبصل والكُرَّات؛ نجد أن المسيح في بداية خدمته واستعلانه لنفسه سواء لتلاميذه الأخصاء أو للشعب اليهودي ذاته واجه نفس المواقف والظروف.

فإن كان الله في القديم رأى أن يبتدىء يُعرِّف نفسه من مصدر القوة هكذا فعل المسيح:
«أنتم من أسفل أما, أنا هو، فمن فوق.» (يو٨: ٢٣)

ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμι

«أنا هو لستُ من هذا العالم.» (يو٨: ٢٣)

ἐγὼ οὐκ εἰμὶ ἐκ τοῦ κόσμου τούτου.

«قبل أن يكون إبراهيم ,أنا هو، (كائن) ἐγὼ εἰμί .» (يو٨: ٥٨)

وإن كان الله قد أعلن لهم قوة «أنا هو» بأنه يميت ويحيي (تث٣٢: ٣٩)، فالمسيح رأى أن يعلن لهم هذا أيضاً: «كذلك الإبن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء»، و«أنا هو القيامة والحياة.» (يو٥: ٢١؛ ١١: ٢٥)

وإن كان الله لما أراد أن يعدهم بوعود طيبة للغاية عضَّدها بـ«أنا هو» كنوع من ضمان العهد، هكذا أيضاً وبالتمام فعل المسيح «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الطريق والحق والحياة.» (يو٦: ٣٥؛ ٩: ٤؛ ١٠: ١١؛ ١٤: ٦)

وهكذا تجد أيها القارىء العزيز أن **«أنا هو»** الله العهد القديم بكل معناها وبكل ما يسندها من قوة إلهية وبكل ما يدعو إليها من ظروف غاية في الأهمية، صارت هي **«أنا هو»** المسيح في إنجيل يوحنا بكل انطباق. ولم يجد المسيح أي حذر أو ما يدعو للحذر في استخدامها بالرغم من سطوع شكلها ونبراتها في أسماع اليهود، حتى إنهم لما سمعوها واضحة من فم المسيح رفعوا الحجارة ليرجموه لأنهم لم يخطئوا معناها ولا القصد منها!!!

ولكن ــ وهذا بكل تأكيد ــ لم يستخدمها المسيح كمَنْ يريد أن يعلن أنه هو الله!!، بل

استخدمها بالفعل ليستعلن الله الذي فيه، وأن يعلن بكل قوة ويقين عن «أنا ἐγώ» الله الذي فيه «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو١٤: ١٠)، والآب والإبن واحد «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، هكذا رسالة المسيح العظمى هي استعلان الله فيه كآب واستعلان لاهوته كإبن متجسد لله.

فإن كان المسيح في موقف استعلاني لذات الله بالحقيقة، فاستخدامه لـ«أنا هو» هي ضرورة حتَّمها التجسد. بل هي استمرار لاستخدام الله لـ«أنا هو» في الأسفار المقدسة القديمة بلا أي اهتزاز أو نشاز ومن مصدر السلطة ذاتها.

والمسيح لم يغفل مصدر السلطة الذي به يتكلم. «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» (يو١٤: ٢٤). فـ«أنا هو» المسيح هي من داخل «أنا هو» الله الذي أرسلني، فوعد «الفداء» و«العزاء» و«الخلاص» و«القيامة» و«الحياة» التي وعدها الله في العهد القديم، ها هوذا قد جاء لينفذها. «فأنا هو المسيح» تجمع الوعد والتنفيذ معاً! اسمعه وهو يقول في هذا الصدد: «أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي» (يو١٤: ٦). إذن فـ«أنا هو» المسيح هي الموصِّل الوحيد والكاشف لأعماق «أنا هو» الله: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ»؛ «أنا والآب واحد» (يو١٤: ١١؛ ١٠: ٣٠). نعم فـ«أنا هو» واحدة في الأسفار جميعاً قديمها وجديدها.

ولكي نعطي للقارىء فكرة جليلة عن «أنا هو» في إنجيل يوحنا جمعناها في مجموعات، كل منها ينضوي تحت رؤية واحدة وربما هدف واحد.

المجموعة الأولى:

وفيها «أنا هو» تأتي حرَّة وبدون خبر أو أوصاف حيث يستعلن فيها المسيح ذاته فقط. لذلك فهي الإسم السري والخاص للمسيح بكل أصالة المعنى.

١ — **يو٤: ٢٦:** «قال لها يسوع, **أنا هو**، الذي يكلمك». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι

٢ — **يو٦: ٢٠:** «فقال لهم, **أنا هو**، لا تخافوا». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι.

٣ — **يو٨: ٢٤:** «لأنكم إن لم تؤمنوا, **إني أنا هو**، تموتون في خطاياكم». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٤ — **يو٨: ٢٨:** «فقال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون, **إني أنا هو**،». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٥ — **يو٨: ٥٨:** «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم **أنا** (كائن)

هو». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٦ – يو١٣: ١٩: «أقول لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون أني ,أنا هو,»، .
يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٧ – يو١٨: ٤و٥:
«مَن تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: ,أنا هو,»، .
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι

٨ – يو١٨: ٦: «فلما قال لهم إني ,أنا هو, رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض».
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι

٩ – يو١٨: ٨: «أجاب يسوع قد قلت لكم أني ,أنا هو,» يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

المسيح هنا في هذه التسعة الأمثلة يقدم نفسه فيها بالصفة المطلقة «أنا هو ἐγώ εἰμι» وهي تعريف حقيقي لشخصه على مستوى القدرات الفائقة التي لا يُسمع عنها إلا في أسفار العهد القديم، كما أن عُلُوَّها وسُمُوَّها مستمدان من قائلها في العهد القديم؛ ولكن هنا على مستوى تتميم الوعد! [رجاء الرجوع إلى كل مثل].

ففي المثل الأول: يعرِّف نفسه أنه هو المتكلِّم كما جاء في القديم «فتعرفون أني أنا هو المتكلم. هانذا» (إش٥٢: ٦) التي جاءت في السبعينية:
ὅτι ἐγώ εἰμι αὐτὸς ὁ λαλῶν .
ويلاحظ تشابهها الشديد مع ما جاء في إنجيل يوحنا للسامرية: «أنا هو المتكلم» ἐγώ εἰμι ὁ λαλῶν σοι.

وفي المثل الثاني: يعرِّف نفسه من مستوى الحال كسائر على المياه! (قارن أي٩: ٨ الماشي على أعالي البحر).

وفي الثالث: يعرِّف نفسه أنه الوحيد الذي يغفر الخطايا! (قارن إش٤٣: ٢٥ أنا هو الماحي ذنوبك).

وفي الرابع: يعرِّف نفسه من مستوى المجد الذي سيبلغه حتماً إن بالصليب أو بالقيامة.

وفي الخامس: إنه كان الكائن الأزلي قبل إبراهيم والأنبياء وكل كائن.

وفي السادس: أنه هو المتخطي الزمن والعارف بما سيكون.

وفي السابع: يظهر بشخصيته على حقيقتها وعلى مستوى قائلها في العهد القديم.

وهكذا في الثامن والتاسع. وفي هذين المثلين يُلمِّح الإنجيل على أنه إذا استحالت المعرفة بالإقناع فلا مانع أن يُظهر لهم ذاته بحضرته الإلهية التي لما رأوها **سقطوا على الأرض.** كما ظهر الملاك لحمار بلعام وبعد ثلاث مرات يخلي فيها الحمار الطريق للملاك الذي يعترضه فيضرب به بلعام بلا ذنب، أدرك بلعام ما أدركه الحمار بعد أن وبّخه حيوان أعجمي **فسقط على الأرض:** «خرَّ ساجداً على وجهه» (اقرأ سفر العدد ٢٢: ٢٢ — ٣٥)، وتم القول «الثور يعرف قانيه والحمار مِعْلَف صاحبه؛ أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم.» (إش١: ٣)

ولكن يتبقى السؤال فإن كان المسيح له هذه القدرات الفائقة والتي من خلالها وعلى أساسها يقف كإنسان — وهو يسوع — ويقول «**أنا هو**»، فما هو قصد المسيح بالأساس؟ إلا أن يُظهر نفسه أنه حامل «**لإسم الله**» كما في أسفار العهد القديم، ليس اختطافاً بل عن نفس القدرات الشخصية الفائقة لله قديماً التي تكلم عنها الله أنه سيوظِّفها لخدمة الإنسان، وبقيت هكذا معلَّقة إلى أن جاء المسيح وأكملها.

لذلك فإن لجوء المسيح للتعبير عن شخصه بهذا الإسم «**أنا هو**» هو من أقوى وأقصر الإستعلانات التي استخدمها المسيح لإستعلان لاهوته المختفي تحت ستار بشريته. ولما صرَّح المسيح أنه مع إمعانه في استخدام «**أنا هو**» إنما كان يستعلن اسم الآب أيضاً؛ صارت جميع الأقوال والأعمال التي عملها وقالها بالتركيز مع هذا الإسم «**أنا هو**» هي الوسيلة الفائقة والبارعة التي استعلن بها شخصه الإلهي وعلاقته المساوية لله الآب معاً. فقول المسيح «**أنا هو** ἐγώ εἰμι» بملء معناها هو المقابل السري لقوله: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). ولكي يشرح ذلك قال مراراً إنه جاء بإسم الآب: «أنا قد أتيت بإسم أبي (**أنا هو** ἐγώ εἰμι) ولستم تقبلونني. إنْ أتى آخر بإسم نفسه فذلك تقبلونه.» (يو٥: ٤٣)

فالأمر الذي كان يعتبره اليهود أنه تجديف على اسم الله: «لسنا نرجمك من أجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو١٠: ٣٣، ٨: ٥٩)؛ هو في الحقيقة إثبات أنه جاء بإسم الله «أنا هو» المعروف، وذلك بكل يقين، من أسفار العهد القديم ولم يجيء باسم نفسه، وقد قدم لهم الدليل الواضح على ذلك أنه لا يطلب مجد نفسه بل مجد الذي أرسله.

ولما طالبوه بإلحاح أن يقول «**من هو**» وهل هو المسيح؟ أوضح تأكيداً لقوله أنه لم يأتِ بإسم نفسه حتى ولو كان هو المسيا!!: «إني قلت لكم (إني أنا هو) ولستم تؤمنون، الأعمال التي أنا **أعملها بإسم أبي — أنا هو** ἐγώ εἰμι **— هي تشهد لي**» (يو١٠: ٢٥). **فلما ربط المسيح بين الأعمال التي يعملها «باسم الآب»** وبين قوله عن نفسه «**أنا هو**» قطع عليهم خط الرجعة

بالنسبة للتجديف، فهو ليس آخر بالنسبة لله، ولا هو يختطف اسمه طالما يعمل عمل الله ويمجد اسمه. لذلك فبكل جرأة وكل صدق وحق وإخلاص يخاطب المسيح الله قائلاً: «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو١٧: ٦)، «وعرّفتهم اسمك وسأعرّفهم» (يو١٧: ٢٦). وذلك طبعاً عن طريق الجمع بين عمل الله واسم الله «أنا هو».

وفي موضع آخر أيضاً يوضح أنه لا يختلس اسم الله لنفسه بل إن الله هو هو الذي أعطاه اسمه عن حق وجدارة وليس تنازلاً: «أيها الآب القدوس **احفظهم في اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١١)، علماً بأن الترجمة العربية غير دقيقة بينما الأصل اليوناني يوضح ذلك بلا لَبْس[١٦]: «حينما كنتُ معهم في العالم كنتُ **أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني**»[١٧] (يو١٧: ١٢).

وفي موقف آخر أكثر حساسية صرَّح المسيح لتلاميذه أن المجد الذي سيحوزه بالإرتفاع على الصليب هو بعينه مجد لإسم الآب: «أما يسوع فأجابهما قائلاً قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» (يو١٢: ٢٣). وبعدها مباشرة خاطب الآب ليسمعوه لأن الصوت الذي جاء من السماء كان لهم: «أيها الآب مجّد اسمك (الذي فيَّ). فجاء الصوت مجَّدتُ وأمجِّدُ أيضاً.» (يو١٢: ٢٨)

أما كيف مجَّد الله اسمه في المسيح، فهذا واضح، لأنه من بعد تلك الساعة أصبح اسم المسيح قوة مجيدة بمجد ذاته وصار بموازاة اسم الله في المجد: «**ومهما سألتم باسمي** فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن» (يو١٤: ١٣)، «**إن سألتم شيئاً باسمي** فإني أفعله» (يو١٤: ١٤). «لكي يعطيكم الآب **كل ما طلبتم باسمي**» (يو١٥: ١٦). «وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن **كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم**.» (يو١٦: ٢٣)

وهكذا صار اسم المسيح «**أنا هو**» ذا قوة فعّالة ليس في الأرض فقط بل وفي السماء لدى الآب، **فبإسم المسيح طلب المسيح من الآب أن يرسل الروح القدس، فأرسل**: «وأما المعزي (الباراكليت) الروح القدس الذي سيرسله الآب **باسمي** فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم.» (يو١٤: ٢٦)

وهكذا نفهم أن اسم المسيح «**أنا هو**» قد صار بالموت والقيامة على مستوى قوة الروح القدس وعمله. لذلك نفهم قوة السر الكائن في الإيمان باسم المسيح ابن الله، ومدى الخسارة في عدم الإيمان

---

16 ἐν τῷ ὀνόματί σου ᾧ δέδωκάς μοι.

17 Ibid.

به. «الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن به فقد دِيْنَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو٣:١٨). أنظر كيف صارت «**قوة الإسم**» على مستوى غفران الخطايا.

وقد انتبه جميع الآباء الرسل القديسين إلى **القوة الإلهية التي صارت كائنة في اسم المسيح** وترجموه إلى معناه القديم الأول: «لذلك رفّعه الله أيضاً وأعطاه **اسماً فوق كل اسم** لكي تجثو **باسم يسوع** كل ركبة ممّن في السموات ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن **يسوع هو رب** κύριος **لمجد الله الآب**» (في٢: ٨–١١). يلاحظ القارىء هنا أن اسم المسيح بدأ يأخذ ترجمته كما شرحناها في أسفار العهد القديم. فقد قام – شيخ الفريسيين سابقاً – بولس الرسول بترجمة «**أنا هو**» مباشرة إلى المقابل السرّي **κύριος** رب الذي استخدمه الربيون والفريسيون في أسفار العهد القديم عندما حوّلوا يهوه إلى κύριος أي «رب» ليتفادوا النطق بالإسم المقدس.

وأيضاً نجد شرحاً للإسم طريفاً للغاية إذ جاء من فم المسيح نفسه:

في مت ٢٢: ٤١–٤٤: «وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح ابن من هو؟ فقالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود **بالروح رباً** κύριον قائلاً **قال الرب لربي** κύριος τῷ κυρίῳ μου اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». فهنا باللغة اليهودية السِرِّية التي يفهمها الفريسيون تماماً: الله ربٌّ والمسيح ربٌّ في قوله: «قال الرب لربي».

أع٢: ٣٦: «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً **κύριον** ومسيحاًχριστόν».

رو١٠: ٩و١٢و١٣:

«لأنك إن اعترفت بفمك **بالرب يسوع** κύριον Ἰησοῦν وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خَلُصْتَ... لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع ὁ γὰρ αὐτὸς κύριος πάντων غنياً لجميع الذين يدعون به لأن كل من يدعو **بإسم الرب** τὸ ὄνομα κυρίου يخلص».

١كو٨: ٦: «**لنا إله واحد الآب** εἷς θεὸς ὁ πατήρ الذي منه جميع الأشياء ونحن له **ورب واحد يسوع المسيح**». εἷς κύριος Ἰησοῦς Χριστός.

١كو١٢: ٣: «ليس أحد يقدر أن يقول **يسوع رب** ΚΥΡΙΟΣ ΙΗΣΟΥΣ إلا بالروح القدس».

أف ٤ : ٥ : «رب واحد εἷς κύριος وإيمان واحد ومعمودية واحدة».

والآن إذا فحصنا الأمر بوعي مسيحي أصيل، غير تاركين الوعي التقليدي اليهودي الأول، الذي كشف لنا مكنوناته الإلهية شيخ الفريسيين المتقدم على أترابه جميعاً في العلم والمعرفة والأصول التفسيرية للتوراة، فماذا نجد؟ نجد أن القديس بولس الرسول هو الذي اكتشف **الأصول الأولى التي نبع منها اسم المسيح** بحكم استعلان شخصه الإلهي المجيد. فهو الذي ترجم ليس اسم المسيح بل شخصه المهيب بما يوازيه ويساويه في القديم **فوجده بالعلم وبالروح معاً أنه هو هو ὁ κύριος الرب** في كل أسفار العهد القديم، دون أن يلتفت إلى «أنا هو ἐγώ εἰμι » ولا مرة واحدة لأنه لم يسمع المسيح قط متكلماً بالسر بل سمعه ممجَّداً متكلماً من السماء وهالة النور تغطيه. ثم يجيء بعده القديس يوحنا الرسول فيكتشف في المسيح سر «**اسمه**» الذي يستخدمه باستمرار دون أن يلتفت إليه أحد ἐγώ εἰμι «أنا هو» فيسلط عليه الأضواء ويركزها بشدَّة ويكرر إبرازه للوعي المسيحي الفاحص لعله يدرك الجذور ويكتشف الحق العجيب الذي يحتويه الإسم!

فإذا جمعنا وعي بولس المدعو سابقاً شاول العجيب مع وعي يوحنا المدعو بالحبيب، ظهر لنا إنجيل يوحنا تحت أضواء الأسفار الإلهية القديمة اسماً وحقاً وعملاً.

فإذا عدنا إلى أسفار العهد القديم لنفحص متى وكيف توارد الإسمان معاً «**إله ورب**» كما أوردهما القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «**إله واحد الآب... ورب واحد** يسوع المسيح» (١كو٨: ٦)، نجد ذلك واضحاً في سفر الخروج ٦: ٢ و٣ «ثم كلم الله موسى وقال له أنا **الرب** وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني **الإله** القادر على كل شيء = θεὸς ὢν وأما باسمي يهوه (**رب** كما جاءت في السبعينية) ὄνομά μου κύριος فلم أعرف عندهم»: **اسمان إله ورب، والمتكلم واحد!**

لقد انكشف هذا الحق الإلهي مرة واحدة لتوما التلميذ الذي كان يحتاج في إيمانه إلى التأكيد بوضع الأصبع على جروح المسيح القائم من الموت! فلما تأكد صرخ «**ربي وإلهي**» (يو٢٠: ٢٨). إذن، فبالقديس توما صحَّ وتأكد قول المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان (أي تمجَّد) فحينئذ تعرفون **إني أنا هو** ἐγώ εἰμι = ,,**الرب الإله**،،».

المجموعة الثانية:

وهي مجموعة «**أنا هو**» التي جاءت مع قول الرب: «**حيث أكون أنا**» أو حيث أتيت وإلى حيث أذهب. فإذا كانت «**أنا هو** ἐγώ εἰμι » هي التعبير عن الكينونة الذاتية، فمن الواضح إذن أنها تأتي متصلة بالكينونة المكانية، حيث المكان بالنسبة للمسيح هو كما نعلم سمائي محض «ابن

الإنسان الذي نزل من السماء» و«ابن الإنسان الذي هو في السماء».

١ – **يو٧: ٣٤:** «ستطلبونني ولا تجدوني **وحيث أكون أنا هو** ὅπου εἰμὶ ἐγώ لا تقدرون أن تأتوا.» (تكرر هذا القول في يو٧: ٣٦)

٢ – **يو٨: ٢٣:** «فقال لهم أنتم من أسفل أما **أنا هو فمن فوق**».
ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμί
«أنتم من هذا العالم أما **أنا هو** فلست من هذا العالم».
ἐγὼ οὐκ εἰμὶ ἐκ τοῦ κόσμου τούτου

٣ – **يو٨: ١٨و١٩:** «**أنا هو** ἐγώ εἰμι الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني. فقالوا له: **أين** هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا ولا أبي».
«وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم **من أين** أتيت **وإلى أين** أذهب.» (يو٨: ١٤)

٤ – **يو١٢: ٢٦:** «إن كان أحد يخدمني فليتبعني **وحيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ هناك يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب».

٥ – **يو١٤: ٣:** «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ **حتى حيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ تكونون أنتم أيضاً».

٦ – **يو١٧: ٢٤:** «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي **حيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ ».

+ في «أنا هو» **في المثل الأول** يوضح المسيح استحالة وصول الإنسان إلى حيث يكون ὅπου εἰμὶ ἐγώ «حيث أكون أنا هو» لأن هذا المكان فائق عن مستوى إدراك أو وصول الإنسان. هنا يعلن التوافق الكلي بين «أنا هو» والمكان الذي سيذهب إليه. فهو يستعلن كيانه الذاتي المطلق في وجوده الإلهي المطلق الخارج عن المكان المدرك للإنسان. والقصد الأساسي من هذا الإستعلان الفائق أن الفرصة للإيمان به محدودة. بجوار تسجيل خطأ شنيع يرتكبه اليهود في رفض رسالته.

+ **في المثل الثاني:** يوضح المسيح مقر سكناه في الأعالي حتى ينبِّه ذهنهم الكليل بواسطة

إشارتين شديدتي الوقع على الأذن «**أنا هو**» و«أنا من فوق». «فأنا هو» قول ذات الله، و«أنا من فوق» قول لا يقوله إلاَّ الساكن في السموات الذي يقدمون له الخدمة والإكرام كل يوم. هذا الفهم لا يسقطه إلاَّ الأذن التي تغرَّبت عن الصوت الإلهي وعن مضمون العبادة.

+ **في المثل الثالث:** ترتبط «أنا هو» بالشهادة وترتبط الشهادة بمعرفة «من حيث أتى المسيح» و«إلى حيث سيذهب» «**أنا هو** الشاهد لنفسي وشهادتي حق لأني أعرف من حيث أتيت وإلى أين أذهب».

هنا حجَّة المسيح القوية في رسالته الإلهية. فإن كانوا يرونه إنساناً يتكلم إلاَّ أن كلامه يسفر عن ألوهية تتكلم بسلطان. فإن كان قوله: «أنا هو نور العالم» صار مصدر احتجاج الفريسيين لأنه بهذا يشهد لنفسه، فاحتجاج المسيح أنه يشهد للنور كالتزام لأنه كيف لا يشهد النور لنفسه، وإن شهد فهو حق، فإذا شهد الإنسان أي إنسان للحق فهو يشهد بقوة لأنه يعرف المصدر الذي يشهد له. فما بالك إذا كان النور أو الحق يشهد لنفسه وهو هو نفسه مصدر النور والحق. فالمسيح يعرف من أين أتى، هذه هي قوة إرساليته كنور وحق؛ ويعرف إلى أين يذهب، وهذا مصدر دينونة العالم. هكذا ارتبط اسم المسيح «**أنا هو**» بـ«**حيث أكون**» لحساب خلاص العالم.

+ **في المثل الرابع:** هنا النقلة الخلاصية التي جاء من أجلها المسيح ليجعل «**حيث يكون خادمي**» تساوي «**حيث أكون أنا** ὅπου εἰμὶ ἐγώ». هذا هو السخاء الإلهي العجيب أن يجعل كينونته اللانهائية الذاتية والمكانية مفتوحة على الإنسان «فسيروا ما دام لكم النور». «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو١٢: ٣٥؛ ١٤: ٢١). هكذا صار الإيمان بالمسيح كخدمة في النور وحياة في حب بالنسبة للإنسان. لأن «أنا هو ἐγώ εἰμι» صار جسداً فصرنا فيه لا خدَّام إلهيات بل في شركة طبيعته وأمجاده. وهكذا صار الإنسان يحيا من داخل «أنا هو ἐγώ εἰμι»، بل وصار «أنا هو» يحيا في الإنسان.

+ **وفي المثل الخامس:** عجيب قول الرب أنه سيذهب ويعد لهم مكاناً في اللامكان!! قصد الرب واضح، أنه ذاهب ليفتتح ببشريته طريقاً إلى الأقداس العليا يصلح أن يقتفي أثره الإنسان وهو ممسك به ليدخل إلى المواضع السماوية، تلك التي يقف اللسان عاجزاً عن أوصافها. لقد تنازل الله أيَّما تنازل عندما صار حيث نكون نحن، أي تجسد. والآن صار التنازل الأعظم أن نكون نحن حيث يكون هو. لقد قلنا أن «أنا هو» في الأسفار القديمة، أي الله، صار جسداً، فصار لنا بالحق مكان في «أنا هو». إنه حق اكتسبته البشرية بتجسد ابن الله. والآن تظهر المقاصد الحسنة والغاية الإلهية

من محبة الله للإنسان، وهي أن يصير للإنسان مكان «حيث أكون أنا». هذا هو غاية المحبة المصلوبة وأسعد وأبهج أعمال ابن الإنسان من نحو الإنسان.

+ **وفي المثل السادس:** يتسرع المسيح ويبوح وهو على عتبة الصليب بسر مقاصده الحسنة إلى الآب بصلاة مسموعة، ويطلب غاية ونهاية لأعمال آلامه وصليبه: أن يفرح بمفدييه حينما يشاركونه أفراح مجده. كان هذا هو أجرة المسيح التي يطلبها من الآب ثمناً لدمائه المسفوكة على أرض الإنسان، أن يحيا الإنسان في أفراح ابن الإنسان ويسعد برؤية مجده.

المجموعة الثالثة:

وهي الأكثر شيوعاً ووضوحاً في إنجيل يوحنا. حيث تأخذ «أنا هو» اسماً آخر يبدو للتشبيه بنوع من المجاز يقع من «أنا هو» موقع الخبر: «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الكرمة الحقيقية»، «أنا هو خبز الحياة». وقد تبدو هذه الجملة المركبة وكأنها نوع من التشبيه بالشيء. ولكن الخطورة أن المسيح يضيف إلى الإسم المشبَّه به كلمة «الصالح»، والصلاح لقب الله وحده؛ و«الحقيقي»، ومعروف أن الأليثيا ἀλήθεια توقف حالة التشبيه في الحال وتجعلها حقيقة واقعة بنوع ما «إلهي»، فـ«أنا الكرمة الحقيقية» ترفع من مفهوم الكرمة لتضعه في مستوى الإلهيات. أما الكرمة الأرضية فتهبط إلى مستوى التشبيه وذلك بعكس ما يظن الشرَّاح. فأوصاف المسيح لذاته بالكرمة والخبز الحي ليست رموزاً ولا تشبيهات بل هي حقائق جديدة إلهية.

وإنجيل يوحنا يورد سبعة أمثلة لذلك:

الخبز — نور العالم — باب الخراف — الراعي الصالح — القيامة والحياة — الطريق والحق والحياة — الكرمة.

١ — **يو٦: ٣٥:** «فقال لهم يسوع: **أنا هو خبز الحياة**، مَن يُقبِل إليَّ فلا يجوع ومَن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

ἐγώ εἰμι ὁ ἄρτος τῆς ζωῆς

٢ — **يو٦: ٤٨:** «**أنا هو خبز الحياة**».

ἐγώ εἰμι ὁ ἄρτος τῆς ζωῆς

٣ — **يو٦: ٤١:** «فكان اليهود يتذمرون عليه أنه قال **أنا هو الخبز الذي نزل من السماء**».

Ἐγώ εἰμι ὁ ἄρτος ὁ καταβὰς ἐκ τοῦ οὐρανοῦ

٤ — يو٦: ٥١: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد».

ἐγώ εἰμι ὁ ἄρτος ὁ ζῶν ὁ ἐκ τοῦ οὐρανοῦ καταβάς

٥ — يو٨: ١٢: «أنا هو نور العالم. مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة».

Ἐγώ εἶμι τὸ φῶς τοῦ κόσμου

٦ — يو١٠: ٧: «الحق الحق أقول لكم: إني أنا هو باب الخراف».

ἐγώ εἰμι ἡ θύρα τῶν προβάτων

٧ — يو١٠: ٩: «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى». ἐγώ εἰμι ἡ θύρα

٨ — يو١٠: ١١: «أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».

Ἐγώ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός

٩ — يو١٠: ١٤: «أما أنا فإني هو الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني».

Ἐγώ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός

١٠ — يو١١: ٢٥: «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. مَن آمن بي ولو مات فسيحيا».

Ἐγώ εἰμι ἡ ἀνάστασις καὶ ἡ ζωη

١١ — يو١٤: ٦: «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي».

Ἐγώ εἰμι ἡ ὁδὸς καὶ ἡ ἀλήθεια καὶ ἡ ζωή

١٢ — يو١٥: ١و٥: «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام».

Ἐγώ εἰμι ἡ ἄμπελος ἡ ἀληθινή

«أنا الكرمة وأنتم الأغصان».

ἐγώ εἰμι ἡ ἄμπελος, ὑμεῖς τὰ κλήματα.

هذه الأمثلة السبعة، الموزعة على الآيات الإثنتي عشرة، كانت في علم اللاهوت والأدب

العبريين السائدين في أيام المسيح الموروثين من واقع النبوات، عبارة عن رموز ترمز للتوراة والناموس وإسرائيل... إلخ. ولكن لما اتخذها المسيح لنفسه بصفته الإلهية «أنا هو» رفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية التي تُعاش، وهو لم يكن لها مفسراً بل مُستَعلِناً لحقائق الله في ذاته بأعماله!

وعلى سبيل المثال، فالنور المعروف أنه كناية عن الله، لأنه قادهم في البرية على هيئة عمود من السحاب المضيء يضيء لهم طريق التيه نحو كنعان الأرضية. ظلّوا يعيّدون له باعتباره الرمز الذي يعيشون على ذكراه فقط كل سنة مرة في عيد المظال فيضيئون المنارات في رواق النساء ليضيء أورشليم! في هذه اللحظة وقف المسيح وقال: «أنا هو نور العالم». هنا فكّ المسيح رمز النور عند إسرائيل، ليس كأنه نور لإسرائيل يضيء أورشليم، بل باعتباره نور العالم، وليس للتعييد السنوي، بل: «مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢)، أي نور يُعاش بالليل والنهار، في الأيام السوداء والبيضاء، في الظعن (الترحال المضني) أو الإقامة على السواء، نور للحياة وليس للعيد.

ولكن بأن يدعم المسيح كَوْنَه النور بالإسم المقدس «أنا هو»، جعل النور طبيعة تشع من المسيح كصفة إلهية دخلت العالم جديداً في شخص يسوع. هنا الإسم الإلهي «أنا هو» صار فعلاً يضيء كيان الإنسان في العالم — فأين هذا من منارات رواق النساء يوم عيد المظال؟ أنظر كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استعلنه في ذاته!

ويعوزني الوقت والمجال الضيق الذي أتيح لي لأشرح كلمة «أنا هو» في إنجيل يوحنا، لأمرّ على هذه الأمثلة كلها مثلاً مثلاً، فهذا معناه أني سأكلّف بشرح إنجيل يوحنا كله من خلال «أنا هو».

ويكفي أن نقول أن المسيح لما استخدم هذه الرموز مدعَّمة ومقوّاة بـ«أنا هو» فرفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية الدائمة في ذاته؛ لم يقصد استعلان ذاته أو استعلان الآب وحسب، بل كانت الغاية الأكثر عجباً وإدهاشاً لنا في هذه الأمثلة جميعاً هي توصيل هذه الحقائق الإلهية إلى الناس على المستوى المفهوم والمحسوس.

وبذلك فإن هذه الأسماء التي تقدست بالحق الإلهي، سواء «الراعي» أو «الخبز» أو «الكرمة»، لما تبنّاها المسيح في «أنا هو» في إنجيل يوحنا، صارت منهج خلاص واستعلان أسرار المسيح التي هي بالمفهوم الغربي الكريستولوچيا أو منهج المسيحيات العميق. إذ جعلت أعمال الخلاص منظورة في المسيح بصورة ساطعة ورموز رفع عنها الغطاء فإذ هي «أليثيا» حق وحياة بلا تحفظ. و بسهولة ظل المسيح يقودنا من خلال هذه الـ«أنا هو» من آية لآية حتى أقنعنا أن نأكل جسده ونشرب دمه، وأننا إن فعلنا ذلك صرنا أغصاناً حقيقية في كرمة حقيقية عصيرها يحمل سر

الدم والحياة بالروح الأزلي فيها.

وحينما قال: «أنا هو الباب»، اندهشنا كيف يكون هذا، ولما أكمل قوله أن «**لا أحد يدخل إلى الآب إلا بي**» زال الإندهاش وجاء العجب بهذه البساطة المتناهية كيف يشرح المسيح منهج الخلاص بهذا القدر، ولكن بشيء من التعمق تزداد الرؤيا ويزداد العجب لأن «أنا هو» ليست مجرد «أنا» بل هي تعبير عن الكينونة والطبيعة الإلهية الكائنة بذاتها، فالباب هنا لما نُسب لـ «أنا هو» ارتفع من مجرد منظر مرسوم أو صورة أو حتى رمز، إلى حقيقة إلهية قائمة لو فقدها الإنسان ضاعت منه الحياة الأبدية!!

لقد صوَّر لنا المسيح بهذه الصورة التي ضمها إلى طبيعته بقوله: «أنا هو» كل محيط الخلاص من كل نواحيه التي تحمل سر الحياة للإنسان من الراعي الصالح لخبز الحياة للكرمة الحقيقية؛ كل هذه الصور التي ملأت آفاق الليتورچيا في الكنيسة بل وكل فنونها المقدسة بل وملأت العالم.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة

الآن نجد من السهولة وبعد أن استوفينا «أنا هو ἐγώ εἰμι » في كلٍّ من العهدين القديم والجديد، أن نقدم مقارنة بسيطة ومختصرة بين «أنا هو» العهد القديم و«أنا هو» العهد الجديد لنرى مقدار التوازي البديع أحياناً ومقدار التقابل الملفت للنظر ثم مقدار التكميل المثير للدهشة والإيمان. ففي التوازي نرى «أنا هو» في مقابل «أنا هو» وكل منهما يناظر الآخر في الدقة والموقف والمعنى وفي التقابل مقدار التشابه الذي يجعل «أنا هو» الجديد هو بعينه القديم، أما التكميل فنرى كيف «أنا هو» العهد القديم ظلت معلقة بلا تكميل تنتظر «أنا هو» الجديد الذي تمم وأكمل الوعد والعهد، فصار «أنا هو» الله في القديم أميناً وصادقاً فيما قال، وصار المسيح «أنا هو» الكلمة الذي أكمل الوعد بكل أمانة البذل وصدق العمل.

أنا هو العهد القديم على فم الله	**أنا هو** العهد الجديد على فم المسيح
خر٣: ١٣و١٤: «فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى **أكون الذي أكون**» (أنا هو) ومعناها في العبري واليوناني: **أنا الكائن بذاتي.**	**يو٨: ٥٣و٥٨:** «ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات؟... مَنْ تجعل نفسك؟ الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم **أنا كائن**». الترجمة العربية ترجمت «أنا هو» مباشرة إلى أنا كائن.
خر١٤: ١٨: «فيعرف المصريون „**أني أنا هو**"، حينما **أتمجَّد**». الترجمة العربية قدمت أنا الرب والأصل أنا هو.	**يو٨: ٢٨:** «فمتى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون „**إني أنا هو**"». علماً بأن رفع المسيح على الصليب والقيامة هو **التمجيد.**
إش٤٣: ١٠، تث٣٢: ٣٩: «لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا **إني أنا هو**»، «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي **أنا أُميت وأُحيي**».	**يو٨: ٢٤:** «لأنكم **إن لم تؤمنوا إني أنا هو، تموتون في خطاياكم**».

تك٢٦: ٢٤:

«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: **أنا هو** إله إبراهيم أبيك **لا تخف لأني معك**».

يو٦: ١٧ــ ٢٠:

«وكان الظلام قد أقبل،... وهاج البحر... ونظروا يسوع ماشياً على البحر... فقال لهم: **أنا هو لا تخافوا**».

إش٤٨: ١٧:

«**أنا هو الرب إلهك معلمك**... أُمشّيك في **طريق** تسلك فيه».

يو١٤: ٤و٦:

«**وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق والحق والحياة**».

حز٣٤: ١٥و٣٠:

«**أنا أرعى غنمي** وأربضها يقول السيد الرب... **فيعلمون أني أنا هو الرب**».

يو١٠: ١٤:

«**أنا هو الراعي الصالح** وأعرف خاصتي **وخاصتي تعرفني**».

حز٣٧: ٦؛ حز٣٧: ١٢ــ ١٤:

«أضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً **وأجعل فيكم روحاً فتحيون** وتعلمون **أني أنا هو الرب**».

«ها أنذا أفتح قبوركم وأُصعدكم من قبوركم يا شعبي... **فتعلمون أني أنا هو الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون**».

يو١١: ٢٥؛ يو١١: ٤٣:

«قال لها يسوع: **أنا هو القيامة والحياة**. مَنْ آمن بي **ولو مات فسيحيا**».

«**لعازر هلم خارجاً**».

إش٤٨: ١٢و١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته **أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر. ويدي أسست الأرض ويميني نشرت السموات**».

في سفر الرؤيا للقديس يوحنا

رؤ١: ٨؛ رؤ١: ١٧و١٨:

«**أنا هو الألف والياء. البداية والنهاية** يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي **القادر على كل شيء**».

«**أنا هو الأول والآخر** والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين».

إش ٤١ : ٤ :

«مَنْ فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء. أنا **الرب الأول ومع الآخرين أنا هو».**

رؤ٢١ : ٦ :

«قد تمَّ. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إر١٧ : ١٠ :

«أنا الرب فاحص القلب مُختبر الكُلَى لأُعطي كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله».

رؤ٢ : ٢٣ :

«فستعرف جميع الكنائس **أني أنا هو الفاحص الكُلَى والقلوب وسأُعطي كل واحد منكم بحسب أعماله».**

الفصل الثاني

الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

«الباراكليت»

في الترجمة العربية لإنجيل يوحنا لم يذكر المترجم اسم «الباراكليت» بهذا اللفظ المعرَّبة حروفه. وهذا نقص معيب وتصرُّف من المترجم حيث ترجم معناها من اليونانية إلى معناها بالعربية وجعلها اسم صفة: «المعزِّي» παράκλητος

فإذا فحصنا كلمة «الروح» τὸ πνεῦμα نجدها تأتي في الإنجيل، في اللغة اليونانية الأصلية، لغوياً ومن جهة النحو– كإسم مجرَّد، أي اسم معنوي يفيد المعنى العام، ومحايد الجنس (لا مذكر ولا مؤنث) neuter . والكلمة تعني إما ريح أو رياح أو نفخة أو نَفَس أو ملاك أو روح إنسان، أو الروح القدس حيث وُضعت صفة «القدس» كصفة خاصة للتعبير عن روح الله «القدوس» [1].

أما لفظ «الباراكليت» فيأتي **كإسم عَلَم شخص مذكَّر**. لذلك يُعتبر إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي أعطى للروح القدس – لغوياً من جهة النحو– صفته الشخصية إذ نقله لغوياً من دائرة المجرَّدات كقوة إلى ذات مُشخَّصة. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد مهد بهذا اللقب لمفهوم الثالوث الأقدس [2].

ولكن بحسب الأبحاث اللغوية فإن العلماء لم يستقروا على ترجمة لهذا الإسم «الباراكليت» **وقد اتفقوا جميعاً على ترك الإسم كما هو بألفاظه المنقولة عن اللفظ اليوناني، «الباراكليت»**،

---

1 Liddle and Scott Lex.

2 Barrett. op. cit. p. 77.

وذلك بسبب تعدد معنى الكلمة باليونانية. وهذه هي المعاني التي تحويها هذه الكلمة:

١ — تأتي بمعنى المُعين = called to the side of ، أي بغرض المساعدة.

٢ — كما جاءت في الترجمة اللاتينية advocatus كإصطلاح شرعي يفيد معنى المستشار أو المحامي للدفاع الرسمي في المحكمة. وقد وجدها العالم وستكوت Westcott في كتابات الربيين تفيد هذا المعنى.

٣ — في رسالة برنابا (كُتبت ما بين عام ٧٠ — ١٠٠ م.) علّق الكاتب على كلمة «الباراكليت» بمعنى المعزّي Consoler أو المُريح Comforter وهي الصفة التي صارت شائعة عند الآباء اليونان. ويقول العلماء أنه بالرغم من الإحترام الفائق الذي يكنُّه العلماء لرأي الآباء اليونان إلا أنه ببحث الكلمة وُجد أنها لا تفيد الإيجابية فقط أي العطاء الإيجابي مثل إعطاء العزاء أو الراحة ولكن يفيد فعلها أيضاً درء الخطر، أي منع السلبيات، بمعنى «**الدفاع**»؛ فهو يشفع ويتوسل ويدافع عن شعب المسيح، والآيات التي توضح ذلك تكشف عن صدق هذا المعنى مثل: «فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. **لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس**» (مرقس ١٣: ١١). وهنا فإن الروح القدس يكون هو المتكلّم فهو يأخذ وظيفة المحامي والمدافع والمعين أيضاً. وفي الآية المقابلة في هذا المعنى في إنجيل لوقا تجيء هكذا: «لأن الروح القدس **يعلّمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه**» (لو١٢: ١١). وهنا الروح القدس يأخذ وظيفة المعلّم والناصح والمرشد في وقت الخطر.

وعمل الروح القدس بوجه عام في إنجيل يوحنا نجمله في النقاط الآتية:

١ — يُعتبر هو العامل الأساسي في فاعلية الأسرار (٣: ٥؛ ٦: ٦٣)، سواء المعمودية أو الإفخارستيا حيث بواسطة الروح القدس ينال المؤمن في الأسرار مواعيد الله ومواهبه وعطية الحياة الأبدية.

٢ — هو عماد الإقتراب من الله بالعبادة. فالعبادة لله في العهد الجديد هي «بالروح والحق» و«الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له... بالروح والحق» (يو٤: ٢٣و٢٤). إذن، فليس بالوسائل المادية ولا الجسدية بل بالروح لأن الله روح.

٣ — هو أساس وقوة الخدمة في الكنيسة حيث تقف الإرسالية كعمل إلهي مساوٍ لإرسالية الآب للإبن: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢١و٢٢). وهكذا الخدمة، فهي لا تقوم إلا بقوة الروح القدس.

٤ ـــ مقارعة الروح القدس لروح العالم، فهو يوبخه ويكشف أعماله ويضعه تحت الدينونة. وطبعاً يكون ذلك من خلال شهادة الكنيسة.

٥ ـــ الروح القدس هو الذي سيكشف الأمور الخاصة بالمستقبل أي كل ما يتعلق بالآخرة والأخرويات = الإسخاتولوجيا والحياة القادمة: «يخبركم بأمور آتية» (١٦: ١٣). أي سيكون له وظيفة الأنبياء في العهد القديم والتي تحققت في العهد الجديد. فهو سيعلن لنا ما هو آتٍ، وما هو فوق، وهي الأمور التي أعدها الله لمحبيه. وإن كان عمله الآن هو أن يعرِّفنا كل الحق فهو يكشف لنا كيف سيستعلن هذا الحق يوماً ما ليكون عوناً لمحبيه وعاراً على رافضيه؛ أي أنه سيكمل عمل المسيح.

وفي إنجيل يوحنا جاء التعريف بالروح القدس في مواضع خمسة:

التعريف الأول:

ويأتي على لسان يوحنا المعمدان: «وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليُظهَرَ لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣١ــ ٣٤)

هنا عمل الروح القدس كان أول عمل يتم من السماء على الأرض مباشرة لإستعلان شخص يسوع المسيح أن هذا هو ابن الله. كما كان أول إعلان عن علاقة المعمودية بالروح القدس. ولو رجعنا إلى القديس مرقس في رواية عماد المسيح نجد المرادف هكذا: «وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه. وكان صوت من السموات. أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر١: ١٠و١١). وهكذا يبدأ الروح القدس عمله في استعلان بنوّة المسيح لله. ومن الروايتين يتضح أن عمل الروح القدس في عماد المسيح كان **لإظهار، أو للإعلان عن شخص المسيح أنه ابن الله،** كشهادة مسموعة لكلٍّ من المسيح والمعمدان. ويلاحظ أن هذه هي الوظيفة الأساسية للروح القدس: «هو يشهد لي.» (يو١٥: ٢٦)

أما كيف أن المسيح سيعمدكم بالروح القدس (يو١: ٣٣) حسب قول المعمدان، فهذا يتضح من حديث المسيح مع نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله... الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا.» (يو٣: ٥و١١)

ولكن المسيح لم يعمد بالماء كما جاء على لسان القديس يوحنا الرسول: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه» (يو٤: ٢)، أما الروح المعمِّد فكان يهبه المسيح في كلماته: «أنتم الآن أنقياء، لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو١٥: ٣) «**الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.**» (يو٦: ٦٣)

أما الروح القدس كشخص ذي عمل محدد في الخلاص فلم يبدأ عمله أثناء حياة المسيح: «من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه. لأن الروح القدس **لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد** (أي لم يُصلب ويقوم بعد).» (يو٧: ٣٨و٣٩)

ولكن المسيح بعد القيامة مباشرة نفخ في تلاميذه قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢٢) (كمقدمة ليوم الخمسين)، وأعطاهم سلطان مغفرة الخطايا.

التعريف الثاني:

وقد جاء بلسان المسيح: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم **معزياً آخر** ليمكث معكم إلى الأبد. **روح الحق** الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم **ويكون فيكم.**» (يو١٤: ١٦و١٧)

هنا الروح القدس يأخذ وظيفة التعزية والشفاعة معاً في معنى الباراكليت تماماً عوض المسيح. كذلك يأخذ صفة إلهية خاصة بالمسيح نفسه أي «الحق». فإن كان المسيح هو «**الحق**» فالروح القدس هو «**روح الحق**». فكما أن «الحق» الذي في المسيح كان مرشداً للتلاميذ أنه ابن الله، كذلك فإن «روح الحق» سيصير مرشداً للتلاميذ للتعرُّف على الآب والإبن. كذلك كما أن المسيح وعد أنه سيكون فيهم: «**أنا فيهم وأنت فيَّ**» (يو١٧: ٢٣)، كذلك عن الروح القدس، فقد وعد المسيحُ أنه سيكون «**فيهم**».

التعريف الثالث:

«بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزِّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم.» (يو١٤: ٢٥و٢٦)

وهنا يَعِدُ المسيح تلاميذه وهو موجود معهم أنه بعد أن يتركهم فإن **الآب سيرسل الروح القدس باسم المسيح** كما **أُرسل المسيح باسم الآب**، ليعلِّمهم كما كان المسيح يعلِّمهم؛ وهنا يضيف كلمة «كل شيء» وهي الأشياء التي لم يستطيعوا معرفتها من المسيح بسبب عدم وجود

الروح القدس: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦: ١٢)، وهذه هي التي سيعلنها لهم بواسطة الروح القدس الذي سيأخذ مما له ويخبرهم! وقد تم هذا بصورة عظمى في كتابة إنجيل يوحنا نفسه! وقول المسيح أن الآب سيرسل الروح القدس باسمه – أي باسم المسيح – يعني أنه سيضطلع بتكميل رسالة المسيح قولاً وعملاً، كما أتى المسيح باسم الآب ليكمل إرادة الآب قولاً وعملاً.

التعريف الرابع:

«ومتى جاء ,المعزي، الذي سأرسله ,أنا, إليكم من ,الآب، روح الحق الذي **من عند الآب ينبثق.** فهو يشهد لي – وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

هنا يبلغ الإعلان عن «**شخص**» (أقنوم) الروح القدس وطبيعته (جوهره) أقصى إعلان في أسفار العهد الجديد. وذلك من جهة علاقته بالآب والإبن حيث يبلغ الثالوث المقدس أول ظهوره على فم المسيح في إنجيل يوحنا هكذا: «**سأرسله أنا إليكم من الآب**».

ويعود المسيح ويكشف عن كيفية خروج الروح القدس كأقنوم من عند الآب هكذا: «**الذي من عند الآب ينبثق**»: ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται

هنا بحسب تحقيق العلماء المتخصصين تكون ἐκπορεύεται حينما تأتي وحدها تفيد الإنبثاق أو الخروج وحسب، فإذا أخذت الحرف ἐκ فهي تفيد الإنبثاق «**من المنبع أي من الجوهر**»، وقد جاءت بهذا التركيب في الآية: «وسيفٌ ماضٍ ذو حدين **يخرج من فمه** ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها» (رؤ١: ١٦). أما الوضع الثاني أي الخروج أو الإنبثاق «**كإرسال**» فهي تحتاج حتماً إلى الحرف παρά **أي من عند أو من جانب**. وهي الجملة المعروفة والسائدة في **خروج الإبن من عند الآب** بمعنى الإرسال، مثل «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني **من عند الله خرجتُ**» (يو١٦: ٢٧). وهنا النص على انبثاق الروح القدس من عند الآب يقطع بخروج أو انبثاق الروح القدس **من عند الآب** «**كإرسال**» زمني. كما جاءت في الموضعين: «ومتى جاء المعزّي الذي **سأرسله أنا إليكم من الآب**» وباليونانية:

ὃν ἐγὼ πέμψω ὑμῖν παρὰ τοῦ πατρός

«**روح الحق الذي من عند الآب ينبثق** فهو يشهد لي»: وباليونانية:

τὸ πνεῦμα τῆς ἀληθείας ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται

لذلك عندما قرر الآباء في المجامع المسكونية مسوقين بالروح القدس نفسه، أن انبثاقه هو صدور

من المنبع وليس مجرد إرسال زمني، هذا من جهة طبيعته وعلاقته الذاتية الأزلية بالآب — فالوا هكذا:

ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب:

هكذا باليونانية: τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον τὸ ἐκ τοῦ πατρὸς ἐκπορευόμενον

لتفيد الإنبثاق الأزلي غير الزمني بحسب الجوهر. أي أنهم استخدموا ἐκ أي «خروج من» بدل الحرف παρά «خروج من عنده أو من جانبه أو من جواره». ونقلوا الفعل من وضعه في مضارع الصيغة الإخبارية الذي يمكن أن يفيد المستقبل ἐκπορεύεται إلى وضع المفعول به المضارع الدائم ἐκπορευόμενον ليفيد الإستمرار الكياني للروح القدس في انبثاقه من الآب([٣]).

والذي يهمنا في هذا المجال هو أن إرسال الروح القدس المرسَل من عند الآب يفيد هنا عملية الشهادة للحق بصفته «روح الحق»، أي أن يشهد لحق المسيح فيما يخص حقيقة ارتفاعه أي صلبه كختام كل أعماله على الأرض الذي ارتفع به أيضاً إلى أعلى السموات. فهنا إرسالية الروح القدس هي للتوعية والدفاع معاً عن حقيقة صلب المسيح في محيط الناس. وفي نفس الوقت قصد المسيح قصداً من هذه الآية التعريف بالروح القدس وبصلته الأزلية بالآب والإبن فهو دائماً من الآب بالإبن.

كما يلاحظ أن المسيح هنا لم يقل «سأرسله لكم من عند أبي» بل «من عند , **الآب**،» للتعبير عن أبوّة الله العامة للناس، فالروح القدس مُرسَل من الله الآب للناس تماماً كالإبن المرسَل من الله الآب للعالم. وكما أن العالم لم يعرف «**الكلمة**»، كذلك الروح القدس «لا يعرفه العالم.» (يو١٤:١٧)

ومعنى أن الروح القدس يشهد للمسيح هو أنه ينطق داخل قلوبهم سواء للوعظ أو لكتابة الأناجيل والرسائل كما يقول قانون الإيمان: «الناطق في الأنبياء». وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس: «لأنه هو سينطق، لذلك أنتم حتماً ستتكلمون، هو ينطق في قلوبكم وأنتم تتكلمون بأفواهكم، هو بالإلهام وأنتم بالكلمة» — شرح يوحنا ٩٣. (PL 35)

التعريف الخامس:

«لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن

[3] Westcott op. cit. p. 224,225.

ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكِّت العالم على خطية وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.» (يو١٦: ٧—١١)

المسيح يكشف هنا بوضوح امتناع تلازم الخدمتين معاً: خدمة التجسد وخدمة عمل الروح القدس. فخدمة الإبن متجسداً تختص باستعلان وتمجيد الآب؛ وخدمة الروح القدس تختص باستعلان وتمجيد الإبن. وبالنهاية فالخدمتان هما عمل واحد متصل لإستعلان طبيعة الله وعمله في الثالوث الأقدس.

لذلك يشدد المسيح على أنه بالنسبة للتلاميذ فخير لهم أن ينطلق حتى يبدأ الروح القدس يكمل لهم استعلان كل الأمور أو، كما يقول المسيح، «كل شيء» و«كل الحق»، دون أن تنقطع شركتهم غير المنظورة مع المسيح الذي وعد أن يكون فيهم ومعهم كل الأيام.

على أن وظيفة الروح تظل بالنسبة للعالم في حدود عمل المبكِّت إزاء كل جحود وعدم إيمان ليظل فيه بصيصٌ من الأمل في التوبة وذلك بواسطة الوعظ بالكلمة وشهادة الكنيسة للمسيح: «الروح يشهد لي وأنتم أيضاً تشهدون.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

التعريف السادس:

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كلُّ ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو١٦: ١٢—١٤)

هنا يصرِّح المسيح أن كل التعاليم والإعلانات التي أكملها مع تلاميذه، سواء ما تخص الآب أو ما تخصه أو ما يخص علاقتهم بالملكوت والحياة الأبدية وأمور حياتهم اليومية، لم تغطِّها الثلاث السنين والنصف التي قضاها معهم، ليس بسبب قصر المدة بل بسبب عدم استطاعتهم استيعاب أعماق أسرار الروح، خاصة أخبار الصليب والجلد وسفك الدم — لوحيد من الآب المملوء نعمة وحقاً!! فإن مجرد تصوُّر هذا الحِمْل فقط يقصم الظهر ويذهل العقل الطبيعي «من صدَّق خبرنا؟ ولمن استُعلنت ذراع الرب» «واندهش منك كثيرون» (إش٥٣: ١؛ ٥٢: ١٤)، أو كما يقول المسيح نفسه: «لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦: ١٢)، حيث جاءت كلمة «تحتملوا» βαστάζειν بمعنى «الحِمْل الثقيل» وباللاتينية في الڤولجاتا Portare . ولاحظ كلمة «الآن» فالمسيح كان يدرك فداحة تصوُّر الصليب على التلاميذ، ولكنه بعد أن صُلب ثم تمجد وارتفع وصار

أعلى من السموات، صار هذا الحمل خفيفاً هيناً، فصار حمل المسيح هذا عينه — أي الصليب — هو ناموس المسيح البديع: «احملوا نيري عليكم ... لأن نيري هيِّن وحملي خفيف.» (متى ١١: ٢٩و٣٠)

هذا الحِمْل حمله القديس بولس فاستلذَّ به أيَّما لذة وسمَّاه «ناموس المسيح»، وصار يبشر به: «احملوا بعضكم أثقال بعض (أي احملوا صلبان بعضكم بعضاً) وهكذا تمموا ناموس المسيح.» (غل٦: ٢)

فالقيامة بروحها المبهج أفقدت الصليب ثقله وألغت مرارته وحزنه. وهذا كله صنعه الروح القدس، فهذه صَنْعته!!

وهكذا بمجيء الروح القدس سوف تمتد خدمة الإستعلان وإدراك الحق الإلهي من جميع نواحيه وفي كل الأمور حتى إلى كمال استطاعة الوعي البشري، لأن البصيرة ستنمو والمعرفة ستزداد لحساب مجد المسيح والآب.

أما قوله: «**ويخبركم بأمور آتية**»، فتأتي في اللغة اليونانية معرَّفة بأداة التعريف τὰ ἐρχόμενα أي بأمور المستقبل المعدَّة من قِبَل الله للتنفيذ في وقتها. وهذا ينصب على كيفية نمو الكنيسة وتأسيسها وقيامها واكتمال هيأتها مع مرور السنين لتمثيل «النظام الإلهي» عوض النظام اليهودي المتداعي، بإعتبار الكنيسة هي الإستعلان الزمني لملكوت الله على الأرض، كونها خاضعة للتدبير الإلهي ومُسيَّرة بالروح القدس.

الفصل الثالث

الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

١ — الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا(١)

الكنيسة في واقعها الإلهي نشأت في اللحظة التي قال فيها المسيح للتلاميذ: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تُغفر له. ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢١—٢٣)

هنا الكنيسة قامت وتأسست على الثالوث الأقدس الآب والإبن (المسيح) والروح القدس، تستمد رسالتها أو إرساليتها في العالم من الآب والإبن وبسلطان الروح القدس لغفران الخطايا.

ولو دققنا النظر، لوجدنا أن رسالة إنجيل يوحنا من أوله إلى آخره تهدف إلى ظهور الكنيسة المسيحية في مقابل اختفاء الكنيسة اليهودية التي رفضت وجودها بيدها. علماً بأن القديس يوحنا كان يكتب إنجيله ويشخص إلى الكنيسة التي أمامه وهي بنت سبعين سنة! وهي وسط أعنف تيارات الإضطهاد والضغط من كل جهة.

وقد استخدم القديس يوحنا في إنجيله بعض الرموز اللاهوتية للتعبير عن المضمون الكنسي والسرائري. **فمن جهة الأسرار** نجد أن الماء والميلاد الجديد يعبّران عن المعمودية(٢)، والخبز النازل من السماء الباقي للحياة الأبدية المبذول من أجل حياة العالم والمأكول بالروح، يعبّر عن

(١) لم نشأ أن نُعثر القارىء بآراء النقاد ونقدهم السلبي المرير لإنجيل يوحنا بادّعاء أنه أغفل الكنيسة كمفهوم لاهوتي وكشعب مختار وكجماعة ذات وجود سرائري ولاهوتي. ولكن اكتفينا بالرد.

(٢) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا».

الإفخارستيا(٣)، والماء والدم النابعان من جنب المسيح يعبّران عن سرّي الحياة الأبدية النابعَين من المسيح، وهما المعمودية والإفخارستيا معاً، كسرَّين متلازمين وحتميين(٤)، وتحويل الماء خمراً في عرس قانا بحضور المسيح يُعبّر عن تقديس سِرّ الزيجة(٥)، ورفعه إلى مستوى بهجة التجديد بالحضور الإلهي عوض ثمرة الحزن الأول (تك٣: ١٦و١٧).

وأما من جهة الكنيسة نفسها فقد عبّر عنها إنجيل يوحنا على أنها شعب الله وأولاد الله، وذلك بالرموز المقروءة روحياً أيضاً:

أ — فيبدأ إنجيل يوحنا بتعريف **شعب المسيح** الجديد أي الكنيسة بصورة سرّيَّة بأنه شعب عوض شعب، وخاصَّةٌ مقبولة عِوَض خاصَّةٍ مرفوضة: «جاء إلى خاصته (شعب اليهود) وخاصَّتُه لم تقبله (الرفض الحتمي). أما **كل الذين** قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (شعباً جديداً بالتبني) أي المؤمنون باسمه (الإيمان الجديد بالإسم)، الذين وُلدوا ليس من دم (آدم الأول) ولا من مشيئة جسد (شهوة الزيجة) ولا من مشيئة رجل (إرادة بشرية) بل من الله (ميلاداً روحياً سماوياً من فوق).» (يو١: ١١—١٣)

ب — ووضع إنجيل يوحنا **قاعدة العبادة** للكنيسة في ناموس المسيح عوض ناموس العبادة الجسدي في العهد القديم «ولكن تأتى ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون (عوض السجود الشكلي بالجسد) يسجدون للآب بالروح والحق (بدافع الروح القدس وتدبيره وإلهامه للكنيسة). لأن الآب **طالبٌ** مثل هؤلاء الساجدين له (عنصر العبادة في الكنيسة يعبّر عن تتميم مشيئة وإلحاح من الله «طالبٌ»). الله روح (تفوُّق العبادة في الكنيسة عن كل تصوُّرات العهد القديم الحسِّية) والذين يسجدون له فبالروح والحق (العبادة في الكنيسة مستمدة من طبيعة الله) ينبغي أن يسجدوا.» (يو٤: ٢٣—٢٤)

ج — **الفردية والجماعية في الكنيسة:**

١ — في مَثَل «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»: هنا ليس هذا الرمز سهلاً كما يتراءى لأول وهلة، فأصل الرمز أو المَثَل مأخوذ من كرمة العهد القديم (مز٨٠: ٨و١٤). وفيها «أنا» هو **ابن الإنسان**

---

(٣) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٤) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٥) أنظر نفس الفصل المذكور.

متحداً بشعب الله(٦). لذلك فبالرغم من حتمية الإيمان الفردي والثبوت الفردي للمسيحي في المسيح إلا أن المسيح هنا يجمع ويوحِّد الأغصان في نفسه: «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤). فالكنيسة هنا موجودة ومُعلَنة بالفرد والجماعة في المسيح. والذي يحكم الثبوت الفردي في الكرمة واحتساب الفرد عضواً حياً ضمن الجماعة أي الكنيسة هو إثماره. فهنا قانون صلاحية الفرد وصحة الجماعة قائم كالسيف «كلُّ غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه (يُقطع)» (يو١٥: ٢)، كما يقوم في الحال بجواره وفي مقابله قانون النمو والتوبة ليخفف من شدته ويستقطب حدوثه: «وكل ما يأتي بثمرٍ ينقِّيه ليأتي بثمرٍ أكثر.» (يو١٥: ٢)

ولكن الذي يتحتم الإنتباه إليه جداً هو حقيقة تأهيل العضو وكيفية اتصاله بالكنيسة. فالتأهيل والكيفية يضعها مَثَل الكرمة في وضع الإلتحام الطبيعي العضوي الحي القائم على التغذية الحية بعصارة الحياة القادمة من أصل الكرمة. فالعضوية في الكنيسة ليست عضوية نظام وتنظيم ودفع أموال وتقييد أسماء في كشوفات أو اعتراف شفاهي أو عضوية فخرية، بل تغذية وإثمار «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)

فإذا كانت الكرمة والأغصان هي الكنيسة، إذن فقد صحَّ القانون القائل أن: [خارج الكنيسة لا يوجد خلاص]، وأن الإنفصال عن الكنيسة هو موت، لأنه يحمل حتماً الحرمان من كل وعد المسيح للكنيسة. لذلك فكلمة «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» ذات وزن عالٍ جداً على مستوى الكنيسة الحية.

وجَمْع شمل المؤمنين في الكنيسة هو عمل سرِّي من أعمال المسيح الفائقة نسمع صداه في صلاة المسيح للآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو١٧: ٢١). وهنا فإن عامل الحب الإلهي المتبادَل هو العنصر الموحِّد للفرد في المسيح وفي الجماعة لإستعلان الكنيسة: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). فالفردية في الكنيسة قائمة على الإيمان الفردي، والجماعية في الكنيسة قائمة على المحبة؛ ولا غِنًى عنهما كليهما، لأن الكنيسة في إنجيل يوحنا مبنية على الإيمان والمحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ بعضاً لبعض» (يو١٣: ٣٥). بهذا يُحسب إنجيل يوحنا أنه بالدرجة الأولى إنجيل استعلان طبيعة الكنيسة الفائقة المستمدة من حضور المسيح الدائم وفعل محبته السرّي الذي يفوق العقل.

---

(٦) أنظر ما جاء في شرح لقب «ابن الإنسان» عن التحام الشخصية الفردية مع الجماعية الشعبية حيث نقدّم أيضاً شرحاً مفصلاً للمزمور الثمانين.

٢ — في مَثَل الراعي الصالح:

كذلك فإن الفردية المختفية في الجماعة، والجماعة المبنية على الفردية واضحة في مَثَل المسيح كراعٍ صالح في قوله «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي **وتكون رعيَّةٌ واحدة وراعٍ واحد**» (يو١٠: ١٦). هنا منتهى كمال استعلان سر الوحدة في الكنيسة المجموعة من خراف كثيرة ذات أوطان وألوان أُخر. ومن هنا جاء الإصطلاح الكنسي المجيد كنيسة واحدة وحيدة جامعة رسولية. وهذه اللمحة للصفة الإلهية الجامعة للكنيسة كانت حاضرة في ذهن القديس يوحنا بوضوح حينما شرح نبوّة قيافا رئيس الكهنة: «ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (اليهودي — الخراف العتيقة) ولا تهلك الأمة كلها — ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمعٌ أن يموت عن الأُمَّة. وليس عن الأُمَّة فقط بل **ليجمع أبناء الله المتفرقين (في العالم) إلى واحد.**» (يو١١: ٥٠—٥٢)

فالرعية والخراف والحظيرة كلها رموز تهدف لتحديد موقع الكنيسة من المسيح. فهي رعية المسيح وخراف المسيح وحظيرة المسيح (يو١٠: ١٦). وهنا الصورة الجماعية للكنيسة تبدو ممتازة جداً كمكلكية شخصية للمسيح، فهو الراعي، والكنيسة هي الرعية، تعرف صوته وتتبعه حيث يقودها. هنا رباط الإلتزام الواحد بالآخر يبدو وكأنه بلا انفكاك. فعلى مستوى قول المسيح «أنا هو الراعي الصالح» تقف الكنيسة لترد قائلة: «وأنا هي الرعية — المدعوة والمختارة والمحبوبة — التي للراعي الصالح». فلا الراعي يبقى بلا رعية ولا الرعية تبقى بلا راعٍ. والإيمان هو الرباط الذي يربطها به: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنَّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو٦: ٦٨و٦٩). ويرد المسيح «الراعي» على ذلك بقوله: «أليس أني أنا اخترتكم أنتم الإثني عشر.» (يو٦: ٧٠)

د — سر الكنيسة كعروس المسيح:

مَثَل العريس والعروس: على فم المعمدان جاء هذا التعبير الكنسي كاستعلان غاية في السمو لوظيفة المسيح بالنسبة للكنيسة وموقع يوحنا المعمدان من هذا السر: «**مَنْ له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس.** إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو٣: ٢٩—٣٠). هنا استعلان السر القائم في علاقة المسيح بالكنيسة علاقة عروس بعريس. في العهد القديم كان شعب إسرائيل محسوباً أنه مربوط بالله كزوجة، ولكن لما أخطأ شعب إسرائيل خطية تستوجب الطلاق، أعلن الله حالة طلاق رسمي لشعب إسرائيل كما قال الرب بفم إشعياء النبي: (هنا نقدم القراءة الصحيحة بحسب النسخة السبعينية): «هكذا قال الرب (يسأل) **ما العلة التي يحملها** كتاب طلاق أمكم؟

أو من هو الدائن الذي بعتكم له؟ (ويقدم الله الجواب) هوذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طلقتُ أمكم» (إش٥٠: ١و٢). والآن نحن بصدد العروس الجديدة (الشعب والكنيسة الجديدة) التي جاء يوحنا المعمدان بروح إيليا لكي يعلن ويوثِّق عُرْسَها. فالمعمدان هو الإشبين المرسَل من عمق الماضي بروح إيليا الذي طالما تاق توقاً لرؤية هذا العريس من خلال حُجُب ظلام الماضي. لذلك أيّ فرح يكون للمعمدان إذ رأى وسمع صوت العريس؟ في الواقع إن المتكلم هنا هو هو إيليا، نعم كم هي فرْحَتُك يا إيليا، لقد انتظرتها انتظاراً وها هي تكملت لك. أما النقصان فليس للمعمدان ولا لإيليا بعد، ولكن لكنيسة البرية كنيسة العهد القديم في شكلها ومبناها. وأما الزيادة فهي ليست للمسيح، فكيف يزداد مَنْ «مِنْ ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (١:١٦)؟ لأن المسيح هو استعلان الله الكامل، والله لا يزداد كمالاً، وإنما الذي ازداد ويزداد فهو العروس كنيسة المسيح التي سقاها دمه، العروس التي زُفَّت إليه يوم صلبوته، حين غسلها بالماء وقدسها بالدم النابعين من جنبه المفتوح.

وسِرُّ الكنيسة كعروس لمسيحها الذي اختارها وفداها وغسلها بالماء والدم واضح في سفر الرؤيا أيضاً: «لنفرح ونتهلل ونُعْطِه المجد لأن عُرْس الخروف قد جاء وامرأته هيَّأت نفسها وأُعطيت أن تلبس بزًّا نقياً بهياً (كتان أبيض) لأن البزَّ هو تبرُّرات القديسين» (رؤ١٩: ٧و٨). فالقديس يوحنا إنما هو على يقين مما رأى وسمع. والكنيسة في سفر الرؤيا هي هي أورشليم الجديدة التي سيستعلن مجدها في مجيء المسيح:

– «وتكلَّم معي قائلاً هلمَّ فأُريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله...» (رؤ٢١: ٩و١٠)

– «وأنا يوحنا رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيَّأة كعروس مزيَّنة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم.» (رؤ٢١: ٢و٣)

فأين تكون أمامها أورشليم العتيقة قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين؟

وإذا ظهر المسيح مشتهى الأنبياء ورأته العين ولمسته اليد، فأين يقف المعمدان أو إيليا أو كل النبوات؟ وإذا «ظهرت الآية العظيمة في السماء امرأة متسربلة بالشمس (المسيح) والقمر (يوحنا المعمدان) تحت رجليها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً (الرسل)» (رؤ١٢: ١)، فأين تكون التي بكى عليها المسيح التي لم تعرف زمان افتقادها، التي صلبت مخلِّصها وجلست وحدها تبكي على زمان ترمُّلها؟!!

هـ ـ سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح:

لقد أعطى القديس يوحنا أهمية كبيرة لحادثة خروج الماء والدم من جنب المسيح على الصليب، مع أن بقية الإنجيليين لم يهتموا ولا حتى بذكرها:

ـ «وللوقت خرج دمٌ وماء. والذي عاين شهد وشهادته حقٌ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم.» (يو١٩: ٣٥)

ثم عاد في رسالته الأولى إلى تأكيد أهمية هذه الحادثة:

ـ «هذا هو الذي أتى بماء ودم يسوع المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد.» (١يو٥: ٨)

ويتضح من هذا التركيز على هذه الحادثة أن لها أهمية لاهوتية أساسية في فكر القديس يوحنا. وقد اعتبر كثير من الآباء أن القديس يوحنا يريد أن يشير بذلك إلى خروج أسرار الكنيسة أي المعمودية (الماء) والإفخارستيا (الدم)، وبالتالي إلى خروج الكنيسة نفسها بصفتها حواء الجديدة، من جنب المسيح النائم على الصليب، كما خرجت حواء الأولى من جنب آدم النائم (القديسون أغسطينوس وكيرلس الأورشليمي وذهبي الفم وغيرهم حسب تحقيق العالِم I agrange)(٧).

وجدير بالملاحظة أننا نجد ما يوازي هذا الفكر عند القديس بولس الرسول إذ أنه في نهاية حديثه عن الكنيسة كعروس للمسيح قال:

«فإننا نحن جسده من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠). وواضح أن هذا الإقتباس مأخوذ من قول آدم في سفر التكوين عقب خروج حواء من جنبه حيث قال: «هذه الآن عَظْمٌ من عظمي ولحم من لحمي.» (تك٢: ٢٣)

و ـ الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والإبن:

الكنيسة تستمد جوهرها وكيانها الحقيقي من الوحدة الأزلية الكائنة بين الآب والإبن. يتضح ذلك من كلام الرب السري في صلاته الأخيرة (يو١٧):

+ «**كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا**» (يو١٧: ٢١)؛

حيث يظهر من ذلك أن الوحدة الأزلية بين الآب والإبن ليست فقط **النموذج الأعلى** (بقوله «**كما**»...) لوحدتنا الكنسية، بل هي فوق ذلك **الوسط الإلهي** المعروض علينا أن ندخل فيه: «ليكونوا واحداً **فينا**»، لتتحقق **داخله** وحدتنا الكنسية. فالكنيسة بالأساس مغمورة في هذا الوسط الإلهي الذي هو الحب المتبادل بين الآب والإبن.

---

7 M.-J. Lagrange, Evangile selon saint Jean, Paris, 1925, p. 499.

+ «**أنا فيهم** (بالتجسد) **وأنت فيَّ** (بعلاقتي الجوهرية بك كإبن وحيد لك، كائن فيك منذ الأزل) ليكونوا مكمَّلين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني.» (يو١٧: ٢٣)
عبارة «أنا فيهم» بدأت تتحقق لما صار الكلمة جسداً، فإن تجسد الكلمة هو جوهر تكوين الكنيسة، أي جوهر دخولنا في الوحدة مع الآب والإبن. **فالكنيسة بالأساس هي امتداد لتجسد الكلمة أي لإتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح**(٨).

+ **الكنيسة في جوهرها شركة مع الآب والإبن:** ما سمعه القديس يوحنا من فم الرب في صلاته الأخيرة عن وحدة المؤمنين في الآب وفي الإبن، أعاد صياغته في رسالته الأولى مستخدماً عبارة «الشركة» κοινωνίαν ، تلك الكلمة التي دخلت فيا بعد في التقليد المسيحي للتعبير عن «الشركة الكنسية»:

«**نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا** κοινωνία (الشركة الكنسية). **وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح** (الشركة مع الآب والإبن هي الأساس الوحيد الذي تُبنى عليه الشركة الكنسية). **ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً** (هذه الوحدة مع الآب والإبن التي نحن مدعوون أن ندخل إليها في سر الكنيسة، والتي تفوق الزمن، هي سر الفرح الكامل).» (١يو١: ٣و٤)(٩)

ز ــ النظام وتدبير الخدمة في الكنيسة، في إنجيل يوحنا:

لم يضع لها إنجيل يوحنا مفردات كثيرة ولكن وضع لها قاعدته العريضة التي إن سارت عليها الكنيسة وسار عليها رؤساؤها عاشت وازدهرت، وإن تمردت عليها انحصرت وتضايقت: «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم

---

(٨) راجع شرح هذه النقطة بأكثر تفصيل في كتاب: «العنصرة» للمؤلف، (أعيد طبعه ضمن كتاب: «الروح القدس الرب المحيي» ص١٣٥ــ١٨١)، حيث يقول: «لقد استُعلنت الكنيسة أول ما استعلنت في تجسد الإبن؛ لأن إتحاد اللاهوت بالناسوت هو في الواقع أصل ومعنى وحقيقة الكنيسة (إجتماع الله بالناس). لذلك فظهور الله في جسد إنسان هو أول استعلان لطبيعة الكنيسة وتحقيق وجودها عملياً على الأرض... فإذا نظرنا إلى المسيح المولود من العذراء من جهة اللاهوت الكنسي لتيقّنا أنه هو هو الكنيسة في معناها الإلهي المطلق» (ص١٥٣). «إذن غاية التجسد الإلهي قد بلغت ذروتها يوم الخمسين حينما صار الكل في المسيح... لقد صار وكمل في العلية ما بُدىء به في بيت لحم. لقد وُلد المسيح في بيت لحم لتولد الكنيسة في العلية.» (ص١٥٦)

(٩) راجع ما جاء في الباب الثالث ــ الفصل السادس عن الوحدة والشركة مع الله كمعايير روحية أساسية في إنجيل القديس يوحنا (ص١٧٣ وما يليها).

أيضاً. الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مُرسله. **إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه» (يو١٣: ١٢—١٧). هذا هو قانون النظام في الكنيسة وقاعدة التدبير فيها.**

ح — الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً
لمغفرة الخطايا والكرازة، في إنجيل القديس يوحنا:

— «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَنْ أُرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣: ٢٠)

السيد المسيح هنا يتبنى عملية تعيين الرسل والمرسلين والإرساليات، ويرفع من قدر المرسل رفعاً إلهياً خطيراً، فالمرسل المسيحي يحمل اسم المسيح والآب، ورسالته أخطر مما يتصور الناس فهي على التوازي والتكامل مع إرسالية الآب للإبن. **هذا هو المفهوم الإلهي للإرساليات في الكنيسة.**

— «أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.» (يو٤: ٣٨)

عمل المرسَلِين سبق المسيح وأسس منهجه وتولى تذليل مصاعبه، وزرع وسقى ونمَّى، وما بقي على المرسَل إلا الحصاد. لقد تولى المسيح رفع كل أتعاب الخدمة وعثراتها بعمله الروحي الخفي، وضمن للعامل نجاحه وفرحه.

— «يا سمعان بن يونا **أتحبني أكثر من هؤلاء؟** قال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له **ارعَ خرافي.»** (يو٢١: ١٥)

الرعاية في الكنيسة هي أمر تنصيب من قِبَل راعي الرعاة الأعظم. **ومؤهلات الراعي في الكنيسة التي تجعله متقدماً على خراف الرعية هي المحبة الأكثر:** «أكثر من هؤلاء».

— «فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. **كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا.** ولما قال هذا نفخ وقال لهم **اقبلوا الروح القدس. مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له. ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت.»** (يو٢٠: ٢١—٢٣)

المسيح يمنح المرسَلين في الكنيسة سلامه الخاص ليمنحوه بدورهم، وروحه القدوس لمغفرة خطايا الشعب أو لحجب الغفران (للتأديب والتوبة).

هنا يضطلع الروح القدس بوظيفة الكنيسة: «وأما المعزِّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي **فهو يعلِّمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم»** (يو١٤: ٢٦). «روح الحق الذي

لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم» (يو١٤: ١٧). «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً...» (يو١٥: ٢٦و٢٧). «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق...، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو١٦: ١٣و١٤)

وهكذا إذ تكون الكنيسة قد تكامل نضجها، في منظور إنجيل القديس يوحنا، تنطلق لتكرز بما رأت وسمعت ببشارة الفرح: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح — (بالروح القدس) — ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١: ٣و٤)

ط — مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا:

— «وسور المدينة (الكنيسة) كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الخروف الإثني عشر.» (رؤ٢١: ١٤)

الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا كما رآها في رؤياه مبنية على أساس الرسل. أما أسماؤهم المكتوبة على الأساس فهي تعبير قوي عن حضورهم الدائم بالروح في الكنيسة، ويمثله الآن التقليد الرسولي المدوَّن في الأربعة الأناجيل، والشفاهي المسلَّم للكنيسة في الأسرار وشرح الكلمة بالتسليم.

— «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذاً فيكم.» (١يو٢: ٢٤)

لقد آزرهم المسيح بالروح القدس حتى يتذكروا كل ما قاله لهم ويعلِّمهم كل الحق ويأخذ ما للمسيح ويخبرهم بالأمور التي عسر عليهم فهمها في حينها حتى يشهدوا له: «أنتم تشهدون أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يو١٥: ٢٧). هذه هي الميزة العظمى التي كانت لشهادة الرسل والتي عليها وبها قامت الكنيسة في كل العالم. ولقد حملت الكنيسة في كيانها هذه الشهادة كذخيرة لا يمكن أن تتكرر قط. فعندما نقول إن الكنيسة رسولية، فهذا يعني أنها تحمل الشهادة المدموغة بالروح القدس وختم المسيح.

ي — رؤية الكنيسة من الداخل:

«إصعد إلى هنا فأُريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليَشْب والعقيق، وقوسُ قُزَح حول العرش في المنظر شبه الزُّمُرُّد. وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً (قسيساً) جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب.» (رؤ٤: ١—٤)

القديس يوحنا صعد إلى السماويات ورأى، كما صعد موسى بالروح ورأى؛ هذا رأى شبه السماويات وظلّها، وذاك رأى السماويات عينها. أما موسى فصنع خيمة الإجتماع كما رآها بالروح؛ وأما القديس يوحنا فرتّب نظام الكنيسة وترتيبها من الداخل لتكون صورة منظورة لما سيكون في السماء. وكان القديس يوحنا بالفعل يلبس ملابس رئيس الكهنة بيضاءً وعليه صدرة وربما إكليل([10]). ونعتقد أن الكنيسة تسلمت منه شكلها وترتيبها الداخلي وترتيب جلوس الأسقف وحوله الكهنة. ونستدل هذا من رسائل القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا، وذلك في رسائله الست التي كتبها سنة ١٠٧ إلى كنائس آسيا ومقدونيا وهو في طريقه إلى الإستشهاد في روما، حيث يحث أساقفة الكنائس – وحتى إلى پوليكارپوس نفسه أسقف سميرنا – على كيفية الإجتماع والجلوس داخل الكنيسة واحترام الأسقف: [حيث يكون الأسقف في موضع الله والكهنة في موضع جماعة الرسل]([11])، تماماً حسب الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في السماء حيث عرش الله يحيط به عروش الأربعة والعشرين شيخاً بملابسهم البيضاء وأكاليلهم.

وهكذا أيضاً نتأكد من بقية رسائل القديس إغناطيوس أن النظام والقانون الكنسيين وتدبير الخدمة بدأت تأخذ كمالها الإلهي في أيام القديس يوحنا وبعده.

٢ – الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا

يقول العالم باريت في صفحة ٦٩ من كتابه شرح إنجيل القديس يوحنا: [في إنجيل القديس يوحنا توجد تعاليم عن الأسرار أكثر من بقية الأناجيل]. هذا رداً على النقاد الذين يقولون إن إنجيل يوحنا يخلو من الحديث عن الأسرار الكنسية.

وقد سبق أن قلنا في تعريفنا للكنيسة، أن الرموز الخاصة بالأسرار في إنجيل القديس يوحنا تحمل معاني خصبة للغاية **«الميلاد من الروح»**، **«الماء الحي»**، **«الميلاد الثاني من فوق»**، **«تفتيح عيني الأعمى»**، و**«الإغتسال في بركة سلوام»**، مقعد بيت حسدا ذو الـ٣٨ سنة على سرير الخطية. كلها أنوار مسلّطة على المعمودية تشرح كل لاهوتها. وكذلك **وليمة الغذاء في حضرة الرب** في معجزة الخمس الخبزات، **والخبز النازل من السماء الذي مَنْ يأكله لا يموت، الشكر الإفخارستي عليه، والمسيح ناظر إلى أعلى، وتكسير الخبز (القسمة) والتوزيع، وجمع الكسر حتى**

[10] Euseb. Eccl. Hist. III,31; V,24.

[11] Ep. Magn VI, Trall. ii,iii cited by W.F. Hourd Christ. Acc. to St. John, p. 129.

لا يضيع شيء»، «أكل الحق وشرب الحق». ثم الخمر في عرس قانا الجليل والكرمة، أنوار مسلّطة كلها على سر الإفخارستيا. وحضور المسيح (كعريس حقيقي) في عرس قانا الجليل، والأم العذراء حاضرة أيضاً (الكنيسة)، أنوار مسلّطة على سر الزيجة. ونفخ الروح القدس في وجه التلاميذ وإرسالهم للخدمة وإعطاؤهم سلطان غفران الخطايا، أضواء مسلّطة على سرَّي الكهنوت والإعتراف.

وفي هذه الرموز جميعاً يُبرز إنجيل يوحنا الصلة الجوهرية بين الأسرار والمسيح، فكلها تنبع منه وتبقى قائمة ودائمة فيه. وقد التزم السيد المسيح بالرموز في حديثه عن المعمودية (يو ٣) وعن الإفخارستيا (يو ٦)، ولم يشرح السر عملياً لأنه لم يكن يكلم الكنيسة آنئذ بل كان يتكلم إما مع معلم الناموس أو في المجمع في كفرناحوم.

وإنجيل يوحنا ينفرد دون بقية الأناجيل في شرح الغرض من هذه الأسرار وتوضيح لزومها وأهميتها المطلقة بالنسبة للحياة الأبدية، بل ويجعل من ممارستها حتمية خلاصية: «**إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر** أن يرى ملكوت الله» (يو٣: ٣)، «**إن كان أحد لا يولد** من الماء والروح **لا يقدر** أن يدخل ملكوت الله» (يو٣: ٥). ولكن جاءت كلها بلغة سرية مستقبلية، فهو يتكلم مع اليهود ولكن يخاطب كنيسة الدهور: «**إن لم تأكلوا** جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه **فليس لكم حياة فيكم**» (يو٦: ٥٣). اليهود رفضوا هذا وبعض التلاميذ أيضاً، لأن الكلام لم يكن لهم.

وواضح أن اختصاص إنجيل يوحنا يتجاوز دائماً الممارسات الشكلية لأنه كان يتكلم مع غير المختصين بالشكل والأداء. فهو لم يصف طريقة ممارسة سر العماد، ولا وصف طريقة ممارسة سر الإفخارستيا؛ ولكنه تجاوز الشكل والحركة إلى المضمون والجوهر. ويكفي أنه لم يذكر قط كلمة واحدة عن ميلاد المسيح أو نسبه أو بلده أو عماده. ولكنه أسهب في وصف تجسده الذي هو التعبير اللاهوتي عن الميلاد. ثم أسهب في وصف شهادة يوحنا المعمدان وما سمعه بالروح القدس وشهادة الله عن ابن الله وقت العماد.

كذلك يختص إنجيل يوحنا بالتأكيد على دور الروح القدس في المعمودية، فبعد أن ذكر الميلاد من فوق والميلاد من الماء والروح، عاد ثالثة ليؤكد أنه ميلاد من الروح القدس: «**هكذا كل من وُلد من الروح**» (يو٣: ٣و٧و٥و٨). كذلك في سر الإفخارستيا، فإنه بعد أن وضع أساس الإفخارستيا كأكل الجسد وشرب الدم، عاد وأكد أن للروح القدس الفعل الجوهري في عملية السر بأكمله. «**الروح هو الذي يحيي**، أما الجسد — كمجرد طعام بالفم — فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

ويلاحظ أن «الجسد» في الإفخارستيا هو التعبير الكامل عن جسد المسيح الحي الذي مات وقام. ولا يمكن فصم الجسد عن الروح القدس الذي فيه باعتبار أنه جسد الإبن الوحيد الحامل لروح الله، كذلك لا يمكن فصله عن الروح القدس الذي حلَّ عليه واستقر فيه، فالذي يأكل الجسد يقبل الروح القدس الذي فيه. لذلك فالجسد محيي «لأني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). وكذلك الدم فهو في المسيح قائم «بروح أزلي» (عب٩: ١٤)، ومعروف في لاهوت العهد القديم أن «الحياة في الدم» (لا١٧: ١٠و١٦). أما دم المسيح ففيه الحياة البشرية والحياة الأبدية معاً أو الحياة التي بلا فساد أو موت، فالذي يشربه يتحد به ويحيا إلى الأبد ولا يجوز عليه الموت. لذلك اعتبر الآباء القديسون أن الإفخارستيا هي antidote أو ترياق عدم الموت أو الدواء الذي يمنع الموت. وقد أجمل القديس يوحنا في رسالته الأولى عمل الروح مع الماء مع الدم كعمل واحد ذي شهادة «والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد.» (١يو٥: ٨)

ثم يعود القديس يوحنا ليؤكد على العمل السرائري في حياة المسيح بصورة عميقة للغاية. فبحسب الإنجيل عامة كتقليد رسولي، فإن حياة السيد المسيح تبدأ بالمعمودية والروح القدس وتختم بالإفخارستيا، طقساً في الثلاثة الأناجيل، وتعليماً في إنجيل يوحنا، وتطبيقاً على الصليب في الأناجيل الأربعة. ويُعقِّب على هذا القديس يوحنا في رسالته بقوله عن المسيح ككل: «هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ يسوعُ المسيحُ، لا بالماء فقط (يوحنا المعمدان) بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١يو٥: ٦). لأن الروح القدس هو الذي شهد في المعمودية وهو أيضاً اضطلع بإقامة المسيح من الموت (رو١: ٤)، معلناً بذلك أن دم الصليب كان للفداء.

+ وقد أكد القديس يوحنا ثلاث مرات على قيمة الإعتراف بالخطايا كسرٍّ من أسرار الغفران والشفاعة:

— «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١يو١: ٧)

— «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل (أمين بحسب الوعد وعادل بحسب القضاء) حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١يو١: ٨و٩)

— «إن قلنا إننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا... وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١يو١: ١٠، ١يو٢: ١و٢)

+ كما يبرز القديس يوحنا **الإيمان** بالمسيح على أساس أنه سر خلاصي:

ــ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله.» (١يو٥: ١)

ــ «كلُّ من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا.» (١يو٥: ٤)

ــ «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١يو٥: ٥)

الفصل الرابع

الرموز في إنجيل القديس يوحنا

(أو اللاهوت الرمزي)

الراعي الصالح ، الكرمة الحقيقية ، الخبز الحي ، الماء الحي... إلخ .

يستخدم المسيح هذه الرموز في إنجيل يوحنا **لتوضيح حقائق أبدية**. وهذه هي إحدى خصائص إنجيل يوحنا .

١ ــ رمز الراعي الصالح:

في مثل «أنا هو الراعي الصالح» يقول الرب إنه هو باب الخراف أيضاً، ويستحيل بحسب المدلولات أن يكون الراعي هو الباب؛ فهذه رموز تهدف إلى حقيقة أخرى إلهية أو لاهوتية عالية جداً. فبعد أن يعرِّف المسيح نفسه بأنه هو الراعي وأنه هو باب الخراف وأنه «يعرف خاصته وخاصته تعرفه»، يرتفع مرة واحدة بالرمز ليُدخله في دائرة الله ليكشف عن هويَّته هكذا: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب...» (يو١٠: ١٥)، ثم من داخل الرمز يشير إلى رسالته حتى منتهاها بكلمة: «وأنا أضع نفسي عن الخراف» (يو١٠: ١٥). فالمسيح يستخدم كلمة «الراعي» وكلمة «الباب» وكلمة «الخراف» كشِفْرَة أو رمز لموضوع حقيقي على مستوى عمله الإلهي وهو: كيف سيخلِّص المؤمنين باسمه الذين عرفوه وعرفهم، وسوف يعطيهم الحياة الأبدية، وكيف ستكون الصلة بينه وبينهم؟

والمسيح لم يستخدم هذه الرموز كشيء جديد، بل هي بعينها رموز العهد القديم التي استخدمها الله مع شعبه. ففي العهد القديم معروف من المزامير أن «الرب راعٍ»، فيَهْوَه يرعى شعبه، وشعبه هو بمثابة خراف «**الرعية**»: «نحن شعبك وغنم رعايتك» (مز٧٩: ١٣). والله نفسه هو «**الراعي**».

والنبوّة تشير على أن الله سيأتي كراعٍ له صفة القوة والبأس مع حنان وعطف: «هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له. هوذا أُجرته معه (ليس أجيراً) وعُمْلته معه. كراعٍ يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات.» (إش٤٠ : ١٠و١١)

ولكن على مدى السنين اختار الله رعاة من المختارين من الشعب ليقوموا بالرعاية من تحته هو «كراعي الرعاة الأعظم». «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المرضَعات أتى به ليرعى يعقوب شعبه وإسرائيل ميراثه، فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهارة يديه هداهم.» (مز٧٨ : ٧٠—٧٢)

ولكن في السبي ابتدأ الله يصرِّح على فم أنبيائه أنه سيعاقب الرعاة، وأنه فيما بعد سيرعى بنفسه ويقيم رعاة أيضاً. والإشارة واضحة على المسيح والرسل ثم الكنيسة: «ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيَّتي يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي. أنتم بدَّدتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها. ها أنذا أُعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب. وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي... وأُقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفْقَد يقول الرب.» (إر٢٣ : ١—٤)

ولكن على مدى الأيام فسد الرعاة وأفسدوا الرعية جداً، ومن جهة هذا الأمر يصرخ حزقيال النبي: «وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبأ على رعاة إسرائيل، تنبأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، **ويل لرعاة إسرائيل** الذين كانوا يرعون أنفسهم، ألا يرعى الرعاة الغنم. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم (أي نهبوا الرعية). المريض لم تقوُّوه والمجروح لم تَعْصِبوه والمكسور لم تُجبروه والمطرود لم تستردُّوه والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلَّطتم عليهم. فتشتَّتت بلا راعٍ وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتتت. ضلَّت غنمي في كل الجبال وعلى كل تلٍّ عالٍ. وعلى كل وجه الأرض تشتتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا على الرعاة وأطلب غنمي من يدهم **وأكفُّهم عن رَعْي الغنم. ... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها كما يفتقد الراعي قطيعه... أرعاها في مرعى جيد... أنا أرعى غنمي وأربضها يقول السيد الرب.»** (حز٣٤ : ١—١٥)

ويقول المسيح: «إن كل الذين جاءوا قبلي (من الرعاة) هم سُرَّاق ولصوص» (يو١٠:٨)، والله نحَّاهم: «أكفُّهم عن رعْي الغنم». وجاء هو بنفسه يهوه بنفسه: «أنا أرعى غنمي يقول السيد الرب». وزاد المسيح بقوله: «أنا أضع نفسي عن الخراف»، وجعل هذا برهاناً لصلاحه: «أنا هو

الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو١٠: ١١)

والآن لو تأمل القارىء جيداً في نبوة حزقيال(١) في قوله إن الله سيكفُّ الرعاة المفسدين عن رعْي الغنم وأنه سيرعى بنفسه الغنم، فإنه لا يجد لهذا القول أي تنفيذ عملي في العهد القديم من بعد زمان حزقيال النبي. فلا الرب أوقف الرعاة عن الرعاية، ولا الرب قام بنفسه برعاية الشعب، بل على النقيض أهمل الأمة تماماً، وظلت كلمة الرب محبوسة بلا نبي ولا معلم إلى مجيء المسيح، ما عدا نبوات الأنبياء الصغار الذين جاءوا من بعد حزقيال وحَذَوا حَذْوَه في نقد أعمال الرعاة.

وفجأة وبعد أربعمائة سنة من آخر نبي من الأنبياء الصغار، كلها صمتٌ، يأتي العهد الجديد ويقف المسيح فيقول: «أنا هو الراعي الصالح» (يو١٠: ١١)، ويؤكد: «أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي (من الرعاة) هم سُرَّاق ولصوص» (يو١٠: ٧و٨). وهكذا ومن هذا الصوت القوي ندرك أن يهوه يتكلم، فهذا صوت السيد الرب الذي نطق في حزقيال قديماً.

وبهذا ينكشف أمامنا سر قوله: «أنا هو الراعي الصالح»، أي أنه ليس مثل رعاة إسرائيل الذين سرقوا الشعب ونهبوه ونتفوا صوفه وأكلوا لحمه وعصروا لَبَنه حتى الدم، بل هو «صالح». وفي موضع آخر صرَّح بغاية الوضوح أن ليس «صالحاً» إلا الله. وهكذا يصل بنا الرمز إلى استعلان شخص المسيح استعلاناً كاملاً.

وهذا هو أسلوب إنجيل يوحنا في استخدام الرمز، إذ يستعلن به الجديد المخفيَّ في القديم، ويضرب به من بعيد ما فسد وساء، ويرفع به من قرَّبه الله ورفعه وعلاَّه.

٢ — رمز الكرمة:

وأيضاً إذا جئنا إلى رمز الكرمة في قول الرب: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو١٥: ٥)، والكرَّام يقظ، كلُّ غصن فيه لا يثمر يقطعه والذي يثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر. فلو نحَّينا جانباً شرح العلاقة الحيَّة السرية بين الكرمة وأغصانها وبين عصير الكرمة ودم المسيح الذي يعطي حياة أبدية للأغصان الثابتة والمثمرة — لو نحَّينا هذا جانباً لنسأل: لماذا اختار المسيح هذا الرمز بالذات؟

فإننا نجد هنا العودة إلى الوعود والتوسلات المقبولة التي قُدِّمت في العهد القديم عن الكرمة

---

(١) حزقيال النبي: كتب نُبوَّته قبل وبعد السبي، حوالي (٥٩٧—٥٨٦ق.م.) وهو ثالث الأنبياء الكبار وآخرهم بعد إشعياء وإرميا.

ومضمونها. فنرى في مثل المسيح أنه يتمم وعداً وعده الله على لسان داود بالروح، وعلى لسان إشعياء أيضاً نرى وعداً لم يتم قط في العهد القديم حتى نهايته إلى أن جاء المسيح ليعلن أن زمان تحقيق وعد الله ورجاءات الأنبياء بالروح قد تم في شخصه!!

نبوة إشعياء: كما يتغنى إشعياء بأغنية حزينة عن «الكرمة»، فالروح القدس ينطق على فمه نشيداً مُبْكياً عن كرمة (كانت محبوبة لله)، والكرمة هي الشعب، أي شعب إسرائيل قديماً الذي أعزّه جداً واعتنى به للغاية كما يعتني كرّام صالح بكرمه. ثم يعطي الروح الكلمة للمسيح ليتكلم عن كرمه ويحتكم إلى شعبه شعب يهوذا (أي الكرمة ذاتها)، ويُفصح عن عزمه على كسر أسوارها أي رفع العناية الإلهية بها ثم هدمها، وقد هدمها بالفعل سنة ٧٠م؛ ويوصي السماء أن لا تمطر عليها، أي يرفع نعمته ورحمته عنها. وفعلاً صار شعب إسرائيل ويهوذا مهاناً مرذولاً في العالم كله. «لأنْشِدنَّ عن حبيب نشيد محبّي (أي محبوبي my beloved) لكرمه: كان لحبيبي كَرم على أكمة خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورق (سورق للأسف كلمة يونانية عن العبرية وضعت كما هي σωρηκ وترجمتها جيد أو مختار)، وبنى برجاً في وسطه ونَقَر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا، احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً. فالآن أعرِّفكم ماذا أصنع بكرمي. أنزع سياجه فيصير للرعي. أهدم جدرانه فيصير للدّوْس. وأجعله خراباً لا يُقضب ولا يُنقب فيطلع شوك وحَسك وأوصي الغيم أن لا يُمطر عليه مطراً. إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل وغرسُ لذّته رجال يهوذا. فانتظر حقاً، فإذا سَفْكُ دمٍ؛ وعدلاً، فإذا صراخٌ.» (إش٥: ١—٧)

تعقيب على نبوة إشعياء: ولكن ما جاء في المزمور ٨٠: ٨—١٧ يُعتبر تشفُّعاً واسترحاماً لِمَا جاء في إشعياء النبي هنا. فنبوة إشعياء تنتهي بخراب الأمة وهجران الله لشعب إسرائيل وصبِّ غضبه ونقمته عليه. ولكن المزمور ٨٠ الذي يتكلم عن كرمة داود، سبق فنظر إلى ما بعد الخراب والغضب والهجران، وتطلع من بعيد إلى الكنيسة الجديدة — إسرائيل الجديد — الكرمة المحبوبة التي غرسها المسيح في جسده ومن جسده، ورواها بدمه وسيَّج حولها بالروح القدس لتبقى إلى الأبد.

نبوة كرمة داود: «كرمةً من مصر نَقَلْتَ(٢). طردتَ أمماً وغرستها. هيَّأْتَ قدامها فأَصَّلَتْ أُصولها فملأت الأرض. غطى الجبال ظلُّها، وأغصانُها أرزَ الله. مدَّت قضبانها إلى البحر، وإلى النهر

(٢) هنا الكرمة هي شعب إسرائيل الذي انحدر من فلسطين كفرع جاف أو كَشُتْلة تحتاج إلى رعاية كثيفة لتنمو نمواً جيداً، أرسلها الله إلى مصر وشُتِلت هناك في أرض الفراعنة لتشرب الحكمة، وترضع الفنون، وتتهذب بأخلاق الفراعنة الأماجد، وتنمو وتزدهر على =

فروعها. فلماذا هدَمْتَ جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق. يُفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية. يا إله الجنود ارجعنَّ اطَّلع من السماء وانظر وتعهَّد هذه الكرمة، والغَرْس الذي غرسته يمينك، و,,**الإبن**،، الذي اخترته لنفسك... لتكن يدك على رَجُل يمينك وعلى **ابن آدم** (أي ابن الإنسان) الذي اخترته لنفسك.» (مز٨٠: ٨–١٧)

واضح هنا أن الرمز «الكرمة» يستعلن من داخله «أشخاصاً»؛ فيوجد «**الإبن**» الذي اخترته لنفسك، ويوجد «**ابن الإنسان**» الذي اخترته أيضاً لنفسك بجوار «الكرمة» في حد ذاتها التي ينصبُّ مدلولها على شعب إسرائيل بكل وضوح. ولكن النبوة تجمع الكرمة (الشعب)، و«الإبن»، و«ابن الإنسان» في مفهوم واحد: كيف يكون ذلك؟ هذا أمر مستحيل حسب الشكل والمنطق(٣).

ثم نأتي إلى الدعاء الملحّ، وهو مُقدَّم بالروح: «ارْجِعَنَّ اطّلع من السماء، وانظر وتعهَّد هذه الكرمة...، وهذا الإبن...، رَجُل يمينك...، وعلى ابن الإنسان...».

وهذا لم يتم في العهد القديم على الإطلاق، فالله بعد داود لم يفتقد هذا الشعب، و«الإبن» الذي هو المسيَّا لم يظهر، ولا عُرف مَنْ هو «رَجُل يمين الرب»، ولا مَن هو «ابن الإنسان».

ولكن يأتي المسيح ويقول: «أنا هو الكرمة الحقيقية» (يو١٥: ١)، هنا وبكلمة **الحقيقية** ἀληθεια يرتفع إلى الطبيعة الإلهية. ويعود المسيح مباشرة ويميط اللثام عن علاقة هذه «**الكرمة الحقيقية**» (أي المسيح) بالله، فيقول: «**وأبي الكرَّام**» (يو١٥: ١)، أي أنه «**ابن الكرَّام**». وهنا يرتفع بالرمز حتى يوصله بالله مباشرة. إذن، فالكرمة ليست مجرد شجرة بل هي «**الإبن**» — «**ابن الكرَّام**». ثم يعود مباشرة ويقول: «وأنتم الأغصان» (يو١٥: ٥). إذن، فهو من نوع أو من جنس الأغصان؟؟ أي هو «**ابن الإنسان**». وهكذا وفي آية واحدة أخذ المسيح الرمز من العهد القديم: «**الكرمة**» واستعلن بها **ذاته الإلهية، وعلاقته بالآب، وتجسُّده، مرة واحدة**، أليس هذا عجباً؟؟ وليس هذا فقط، بل بقوله أنه ابن الكرَّام وابن الإنسان معاً يفيد اتحاده بشعبه، فهو يستعلن الكنيسة من داخله، الكرمة الحقيقية الكاملة، «أنتم فيَّ وأنا فيكم»، الكنيسة الجديدة التي نقلها من الأرض إلى السماء. لذلك أخذت الكنيسة مَثَل الكرمة هذا وجعلت منه تسبحة ترددها

= ضفاف النيل، حتى ضربت جذورها وصَلُحَتْ للنقل فنقلها الله من مصر. وفي مصر أيضاً غَرَس كنيسته المحبوبة، كنيسة القبط، التي كانت معلِّمة المسكونة. فمصر هي حقل الله الذي تبنّاه لنفسه.

(٣) راجع شرح لقب «ابن الإنسان» واتصاله بما جاء في المزمور ٨٠، ص٢٠١.

على مدى الأجيال، فهذا اللحن يُقال في القداس الإلهي(٤).

ولولا أن المسيح قال هذا المثل لظلت نبوة كرمة داود (في المزمور ٨٠، وفي نبوات إشعياء) متعطلة كوعد بلا تنفيذ، وكدعاء بلا استجابة. وهذا مستحيل في منهج الله والأنبياء.

٣ — رمز «الخبز النازل من السماء»:

«خبز السماء» لم يكن يُنظر إليه كرمز في العهد القديم، بل كحقيقة واقعة، ولكن في حدود الجسد، فهو خبز الشبع الجسدي «فقال لهم موسى: **هو الخبز (المنُّ) الذي أعطاكم الرب لتأكلوا**» (خر١٦: ١٥). وقد أسماه داود في المزمور **بخبز السماء**: «**سألوا فأتاهم بالسَّلْوى وخبز السماء أشبعهم**» (مز١٠٥: ٤٠). كما أسماه المزمور أيضاً **خبز الملائكة**: «أكل الإنسان خبز الملائكة.» (مز٧٨: ٢٥)

ونحميا يدعوه **خبزاً من السماء**: «وأعطيْتهم **خبزاً من السماء** لجوعهم وأخرجْتَ لهم ماءً من الصخرة لعطشهم» (نح٩: ١٥). هذا الخبز الذي عبَّر عنه نحميا «**خبزٌ من السماء**» — الذي هو نفس تعبير المسيح «أنا هو الخبز الحي **النازل من السماء**» (يو٦: ٥١) — كان يفتقر حقاً إلى تصحيح، فإن «خبزٌ من السماء» لا يمكن أن يكون لجوع الإنسان الجسدي. فالأرض مسئولة عن خبز الجسد، وعرق جبين الإنسان (ثمرة الخطية) هو الذي ينتج هذا الخبز.

فالمن الذي نزل من السماء كان خبزاً، نعم، ولكن على مستوى النبوة لما هو آتٍ. فالله سبق فأنْبأ عن نزول «الخبز الحي الحقيقي»، خبز الحياة الأبدية، لإعالة شعبه ليس في قفر التيه في سيناء، بل في قفر تيه العالم.

والمسيح لما صنع معجزة الخمس الخبزات والسمكتين حيث الخبز كان بديلاً للمن، والسمك بديلاً للسلوى، كان يريد أن ينبه ذهن إسرائيل وهم في قفر بيت صيدا الجليل أن بديل المن المادي قائم أمام أعينهم، إذ بثَّ قوته الإلهية التي من السماء فجعل الخمس الخبزات تطعم خمسة آلاف رجل، أي رفع حدود العدد والرقم، ألغاه وأبطله ليمتد إلى مالانهاية، إلى مئات ألوف ألوف، أو إلى العالم كله، بل ويفيض لملء الشبع.

---

(٤) [أيها الرب إله القوات، ارجع واطلع من السماء،
أنظر وتعهد هذه الكرمة، أصلحها وثبتها،
هذه التي غرستها يمينك.]
ويُعرف هذا اللحن في الطقس باسم «أسبسمس واطس».

وهكذا هو يمهد لقَوْلته الإلهية المستعلِنة لشخصه وطبيعته: «أنا هو الخبز... النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يو٦: ٤١و٣٣). فكما فتح عينيْ الأعمى المولود بلا عينين خالقاً له البصر من جديد ليرى نور العالم لكي يستطيع أن يقول بالحق كل الحق: «أنا هو نور العالم» (يو٩: ٥)، ويكون صادقاً؛ كذلك بثَّ قوّته السمائية في الخبز ليشبع الألوف لكي يستطيع أن يقول: «أنا هو خبز الحياة... النازل من السماء» (يو٦: ٣٥و٣٣). إن سِرَّ الشبع الذي بثَّه في الخبز بلا حدود هو هو قوته الإلهية التي أعلنها لهم في وضعها الروحي الأصيل، كسرِّ شبع الروح والحياة، الذي أسْماه: «الطعام الباقي للحياة الأبدية»؛ في مقابل المنّ أو الخمس الخبزات، أي «الطعام البائد»، إلا إذا اكتشف فيه الإنسان سِرَّ الرمز.

فالمسيح صحَّح الوضع القديم في سيناء إذ جعل «خبز السماء» هذا أو «خبز من السماء» (ثمرة محبة الله) ليس لإشباع الجوع الجسدي للإنسان، بل لإشباع جوعه الروحي. وهو لا يؤكل بالفم، وإنما يؤكل بالروح، فخبز السماء هو زاد السماء وليس زاداً للأرض. فلا يُعقل أبداً أن الله يعطي خبزاً من عنده من السماء لأَوَدِ الجسد ليأكله الإنسان ويموت، حاشا. فهذا كان رمزاً أرضياً للآتي. وهو ككل رموز العهد القديم يظل في حدوده المادية شبه الحقيقية ينتظر مَنْ يحقِّقه على مستوى «الحقيقة ἀλήθεια ». إلى أن جاء المسيح وقال: **«أنا هو الخبز الحقيقي»**: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم **الخبز الحقيقي من السماء**» (يو٦: ٣٢)، «**أنا** هو خبز الحياة» (يو٦: ٣٥). فالمن لم يكن خبزاً حقيقياً، بل شِبْه الحقيقة كباقي كل رموز وصور العهد القديم: «شِبْه السمويات وظلُّها.» (عب٨: ٥)

— **كان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يجوع أيضاً**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يجوع إلى الأبد: «أنا هو خبز الحياة، مَنْ يُقْبِل إليَّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣٥)

— **وكان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يموت أيضاً**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يموت: «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنَّ (خبز السماء الرمزي) في البرية وماتوا. هذا هو الخبز (الحقيقي) النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو٦: ٤٨—٥٠)

— **كان «الرمز» القديم مأكلاً زائلاً**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ رمز الأكل من الخبز فهو مأكلٌ حقيقيٌ باقٍ إلى الأبد: «الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي... جسدي مأكلٌ حقٌ ἀληθής.» (يو٦: ٥١و٥٥)

— **كان «الرمز» القديم في صورة مادية ميتة، ينتن إذا تُرِك لليوم الثاني،** أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فهو حيٌّ ومحيي: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو٦: ٥١)

— **كان «الرمز» القديم أَكْلُه يُنْشِيء شهوة:** «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للَّعب... كما زنى أناس منهم...» (١كو١٠: ٧و٨). أما الخبز الحقيقي فيُبطل الشهوة وينشيء تقوى: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو٦: ٥٦)

— **كان «الرمز» القديم لامتداد الحياة الأرضية للإنسان العتيق،** أما الخبز الحقيقي فهو طعام الحياة الأبدية لقوام الإنسان الجديد: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، كما «أنا حيٌّ بالآب» (يو٦: ٥٧)!!

والآن، فلينظر القارىء كيف اقتحم المسيح هذا الرمز: «خبز من السماء (المنّ)» ليكشف قصوره في القديم وعدم توافقه على الإطلاق مع طبيعة الإنسان، إذ هو «مَنُّ السماء»، ولكنه لم يشبع ولم يُغني عن جوع بل أَنْشَأَ شهوة بل خطية بل موتاً. لهذا كان أمراً حتمياً، وبالضرورة، أن يتبنى المسيح هذا «الرمز»؛ ليستعلن فيه طبيعته السماوية، ونزوله الحقيقي من السماء، ومصدره الإلهي، وفعله المحيي الخلاَّق في طبيعة الإنسان. الأمر الذي من أجله أنزل الله المنّ من السماء في القديم، ليكون عربوناً لعطية الله العظمى بتجسد ابنه المسيح يسوع الذي جاء ليعطي الإنسان الجديد خلقته الروحية الثانية، ويقيم أَوَدَها من جسده الإلهي لتحيا ولا تموت، ولتؤهَّل لحياة الأبد.

لقد سلَّم المسيح لكنيسته الأولى هذا **الرمز المستعلَن بالروح** في جسده للأكل وفي دمه للشرب، لتظل تُطعم بهما أولاد الله المخلوقين جديداً حسب صورة خالقهم، لا أربعين سنة كخبز الدموع والمشقَّة والتيه الذي ينتظر راحة في أرض كنعان وقمحها، ولكن إلى نهاية كل الدهور كطعامِ الحق والفرح والتهليل وبهجة القيامة، لحياة ممتدة في المسيح إلى أن يجيء.

٤ — رمز الماء النابع من جنب الصخرة:

أولاً: رمز المياه في القديم:

أ — الوجه السلبي للمياه: كانت المياه في وجهها السلبي مخيفة في الفكر اليهودي، فمياه الفيضان تمثل غضب الله على عالم الأشرار أرضاً وزرعاً وأحياءً وذلك سواء في الفيضان أو في انطباق مياه البحر الأحمر على الأعداء المتعقِّبين للشعب الهارب من مصر فقتلتهم؛ أما هم فالمياه خدمتهم وسهَّلت طريقهم «شقَّ البحر فعبَّرهم ونصب المياه كتدٍّ» (مز٧٨: ١٣). «وانتهر بحر سوف فيبس وسيَّرهم في اللجج كالبرِّية. وخلَّصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو، وغطَّت المياه

مضايقيهم واحدٌ منهم لم يَبْقَ.» (مز١٠٦: ٩—١١)

ولكن في هذا الوجه السلبي للمياه المخيفة كان الله صاحب سلطان على المياه يطأها بقدمه. «أبصرتْكَ المياه يا الله، أبصرتْكَ المياه ففزعت. ارتعدت أيضاً اللجج» (مز٧٧:١٦). «في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تعرف» (مز٧٧:١٩). هكذا سار المسيح فوق المياه؛ كما أن المياه وهي عدوٌّ، فتحت طريقاً لأرجل الكهنة وبعدهم الشعب ليعبروا نهر الأردن (يش٣:٨و١٤)؛ وكذلك إيليا وأليشع من بعده (٢مل٢:٨).

وفي التقليد اليهودي بحسب إشعياء النبي، فالمياه تمثل في وجهها السلبي القوى الشريرة، فتمثَّل بالتنين الحية القديمة، بينما سلطان الله يطأها: «استيقظي استيقظي، البسي قوة يا ذراعَ الرب، استيقظي كما في أيام القِدم كما في الأدوار (الدهور) القديمة، ألستِ أنتِ القاطعة رَهَبَ الطاعنة التنين. ألستِ أنتِ هي المنشِّفة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم وعلى رؤوسهم فرحٌ أبدي.» (إش٥١: ٩—١١)

ب — الوجه الإيجابي للمياه:

١ — المياه النابعة من جنب الصخرة:

وهذا الوجه الإيجابي للمياه له شأن عظيم في التقليد والأدب اليهودي وعند الربيين. فالصخرة التي نبعت منها المياه في برية سيناء لم تكن صخرة عادية بل هي جزءٌ مقدس من الأرض أخرج الماء من الأعماق، وهذه المياه، في عُرْف هذا التقليد، هي المسئولة عن إبطال كل فيضان على الأرض، فهي التي أوقفت غضب الله!! فلم تعد المياه تُميت وتمسح الحياة من على وجه الأرض! بل وإن المياه النابعة من جنب هذه الصخرة إنما تسري في عروق تتخلل كل الأرض في كل أنحاء العالم! وهذه المياه هي المسئولة عن خصوبة الأرض، وهي تنبع من الصخرة استجابة للصلوات والطقوس التي تقدم على رمز الصخرة المقدسة (كانت تقدم فوق مذبح المحرقة في الهيكل من جرة فضية تُملأ من مياه بركة سلوام، وتُفرَّغ على المذبح المعتبر أنه هو الصخرة بضربها على المذبح فتنشق ويخرج منها الماء الذي يفيض على المذبح— وذلك في طقس عيد المظال)، حيث من هذا المكان سوف ينبع نهر الفردوس في الدهر الآتي وهو نهر الخلاص لري المخلَّصين(٥). لقد اهتم المسيح أن يحضر هذا العيد ويَستعلن نفسه — في هذه اللحظة التي تنكسر فيها الجرة ويخرج منها الماء — وذلك ليلغي هذا الطقس، ويعلن أنه هو الصخرة وأن ماءَها هو الروح الذي سيعطيه، الذي هو نهر الفردوس لري المخلَّصين بلا نزاع.

5 Theological Dict. of the N.T., Vol. VIII, p. 320.

٢ ــ مياه التطهير:

أما الجزء الآخر في الوجه الإيجابي للمياه، فهو **مياه التطهير:**

وبالإضافة إلى مسألة الغسيل والتنظيف، فالمياه كانت تدخل في مفهوم التقديس، في ترحيض الجسم في المناسبات المقدسة وخاصة عند التراثي والوقوف أمام الله أو في هيكله (لا١١ــ١٥). ويُشترط في مياه التطهير للتقديس أن تكون مياهاً جارية أي مياهاً حية: «ويأمر الكاهن أن يُذبح العصفور الواحد في إناء خزفٍ على ماء حي (من مصدر مياه جارية). أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي، وينضح على المتطهِّر من البَرَص سبع مرات فيطهِّره ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء» (لا١٤: ٥ــ٧). وواضح هنا الفداء بالماء والدم، وواضح أيضاً أن الدم هو من عصفور «**مذبوح حيٍّ**»، إشارة بليغة لدم الصليب وللماء والدم اللذين خرجا من جنب المخلص الذي طهَّرنا من بَرَص الخطية!!

وعلى هذا المنوال يتم التطهير بالماء في الناموس على أشكال متعددة، ولكن مضمونها كله يجمعه المزمور هكذا: «طهِّرني بالزوفا فأطْهُر. اغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج... استرْ وجهك عن خطاياي وامْحُ كل آثامي» (مز٥١: ٧ــ٩). هنا تلميح اسكاتولوجي ــ أي أخروي ــ للتطهير بالروح وبماء إلهي من نوع يقدمه الله.

هذا الأمر يوضحه حزقيال النبي بغاية الوضوح: «وأرش عليكم ماءً طاهراً فتُطهَّرون، من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أُطهِّركم. وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم» (حز٣٦: ٢٥و٢٦). ويلاحَظ هنا أهمية اقتران الماء الطاهر (الإلهي) مع الروح الجديد: «وأجعل روحي في داخلكم» (حز٣٦:٢٧)، مع التجديد ممثَّلاً في القلب. فالله هنا سوف يطهِّر شعبه بماء طاهر من عنده، وبروحه الخاص في داخلهم ــ الأمر الذي لم يحدث قط في العهد القديم ــ والذي دفع الله أن يعطي هذا العهد الجديد وهذا الوعد والموعد، هو عدم نفع ماء تطهير الناموس والطقوس!

وإشعياء النبي يوضح أن مثل هذا التطهير الإلهي بهذا الماء الطاهر وهذا الروح إنما هو وعد إلهي سيتم في حينه ــ ولم يتم قط على مدى كل العهد القديم: «ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يُترك في أورشليم (مشيراً إلى ما سيحدث بعد خراب سنة ٧٠م) يُسمَّى قدوساً: (بولس الرسول يسمي المسيحيين بالقديسين في...)، كلُّ من كُتب للحياة في أورشليم. إذا غسل السيد قَذَر بنات صهيون ونقَّى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وروح الإحراق.» (إش٤:٣و٤)

طقس غسل الأيدي ومعناه اللاهوتي: «إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك

لتملكها واقعاً في الحقل لا يُعلم من قتله... يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة (البقرة) المكسورة العُنُق في الوادي، ويصرِّحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيُغفر لهم الدم»(٦) (تث٢١: ١—٨). وهذا أصل وسبب غسل الأيدي قبل كل صلاة. «حين تبسطون أيديكم أسْتُر عينيَّ عنكم. وإن كثَّرتم الصلاة لا أسمع. **أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا.** تنقَّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينيَّ. كُفُّوا عن فعل الشر.» (إش١: ١٥و١٦)

«أغسِل يديَّ في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب» (مز٢٦: ٦)؛ بمعنى أنه يعلن براءته من كل خطية وإثم.

وقد صار طقس غسل الأيدي قبل الإقتراب من الصلاة والوقوف أمام الله طقساً كهنوتياً هاماً ولدى المتنسكين أيضاً فكان يُعمل به لدى الربيين والأسينيين. ثم تطور عند اليهود وصار طقساً إلزامياً لدى كل اليهود أي كل الشعب قبل الأكل.

وكان الإعتقاد السائد الراسخ والسائد لدى الربيين اليهود أن الماء لا يُطهِّر بذاته لذلك كان يلزم تكرار التطهير. وهذا هو تعليم الربيين أيام المسيح: [في كل حياتك (إعلم) أن الميت لا يدنِّس وأن الماء لا يطهر ولكنها وصايا ملك الملوك.](٧)

وكان إيمان الأسينيين اليهود السائد هو [الله سوف يقوم بالتطهير النهائي وسوف ينضح روح الحق مثل غسيل الماء]، معتمدين على نبوة حزقيال النبي: «وأرشُّ عليكم ماءً طاهراً فتُطهَّرون من كل نجاستكم... وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم... وأجعل روحي في داخلكم.» (حز٣٦: ٢٥—٢٧)

ومعروف أن المسيح رفض مبدأ تطهير اليدين قبل الأكل لا من جهة الغسيل للنظافة ولكن بمعنى التطهير الطقسي، لأن المسيح كان يطلب نقاوة القلب لا نقاوة اليدين. «ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيدٍ دنسة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم

---

(٦) في إنجيل القديس متى يذكر أن بيلاطس أجرى هذا العمل: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار. أبْصِروا أنتم» (مت٢٧: ٢٤). وللأسف الشديد أخذ الشعب على مسئوليته هذا الدم: «فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا» (مت٢٧: ٢٥). وليتهم ما قالوا أبداً أبداً.

[7] Theological Dict. of the N.T., op. cit., p. 321.

باعتناء لا يأكلون... ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيدٍ غير مغسولة. فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب: هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي وصايا الناس.» (مر٧: ٢—٧)

من هذا يتضح أن التطهير بالماء في مفهومه الميكانيكي، كمجرد غسيل لتتميم تعاليم الناس، يُخْلي وصايا الله من مضمونها الروحي.

٣ — الله مصدر المياه الحية:

— «شعبي عمل شرّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماءً.» (إر٢: ١٣)

— «يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نوراً.» (مز٣٦: ٨و٩)

إذن فلا بد أن يكون هناك عطش إلى الله:

— «يا الله إلهي أنت. إليك أبكّر. عطشت إليك نفسي.» (مز٦٣: ١)

— «كما يشتاق الإيّل (الغزال) إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.» (مز٤٢: ١)

— «عطشت نفسي إلى الله إلى الإله الحي. متى أجيء وأتراءى قدام الله.» (مز٤٢: ٢)

— «هوذا أيام تأتي يقول السيد الرب أرسل جوعاً في الأرض (٤٠٠ سنة من آخر الأنبياء إلى السيد المسيح) لا جوعاً للخبز ولا عطشاً للماء بل لاستماع كلمات الرب.» (عا٨: ١١)

— «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكُلُوا، هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً.» (إش٥٥: ١)

— «لأني أسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذُرّيتك.» (إش٤٤: ٣)

ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد:

هذه النبوات كلها لم تتحقق في العهد القديم، وهي نبوات يتحتم بالضرورة أن تتحقق ليكون الله صادقاً في كل مواعيده وتعهداته. كذلك فإن الصفات التي أوْرَدتها النبوات عن الله أنه يعطي الماء ويروي العطشان ويطهّر ويغسل بماء طاهر، هذه كلها كان لا بد أن تتم وتُستعْلَن. إنجيل

القديس يوحنا أخذ على عاتقه أن يسجل للمسيح كل الأعمال التي تعهد الله قديماً أن يكملها بنفسه في وقتها وزمانها المحدد؛ هذه أكملها المسيح وأعلنها وحققها بنفسه، كما جاءت تماماً حسب قول المسيح «ليتم **الكتاب**.» (يو١٣: ١٨ ولو٢٤: ٤٤)

+ فالماء، كعدوٍّ عنيد يهدد بالموت، وطأه المسيح بقدميه وسار عليه كما على اليابس. ولما اتحد الماء مع الريح العاصف ليهيج البحر ويهدد بالموت، انتهر الرب الريح والبحر معاً، فهدأت الرياح وصمت البحر. وكأن المسيح يواجه تنيناً حياً ينتهره، فيسمع التنين ويرضخ. وهكذا حقق الله نبوة إشعياء التي يستصرخ الله فيها أن يستعيد الله عمله كما كان في القديم ويهتف بذراع الرب أن استيقظي: «استيقظي استيقظي إلبسي قوةً يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم... ألستِ أنتِ هي المنشِّفة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين» (إش ٥١: ٩و١٠). ومن هو «ذراع الرب» الذي يستصرخه إشعياء لكي يُستعلن، إلا يسوع المسيح الآتي في ملء الأيام، الذي لَبِس القوة وتمنطق بها، وسار على وجه الماء العاصف، وأخرس الريح، والبحر أبكمه؟

— «وهاج البحر من ريح عظيمة تهب... ونظروا يسوع ماشياً على البحر.» (يو٦: ١٨و١٩)

— «يا معلم أما يهمك أننا نهلك. فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكتْ. ابكمْ. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم... فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض **من هو هذا، فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه.**» (مر٤: ٣٨—٤١)

سؤالهم هذا له مدلوله، فالله وحده الذي له سلطان إسكات عجيج البحار وانتهار الريح:

— «المهدِّىء عجيج البحار عجيج أمواجها.» (مز٦٥: ٧)

— «يا رب إله الجنود مَنْ مِثْلك قوي؟ ... أنت متسلِّط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكِّنها.» (مز٨٩: ٨و٩)

— «هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق. أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه. يصعدون إلى السموات يهبطون إلى الأعماق. ذابت أنفسهم بالشقاء... يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتُلعت. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم ومن شدائدهم يخلِّصهم. يهدىء العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا فيهديهم إلى المرفأ الذي يريدونه.» (مز١٠٧: ٢٣—٣٠)

هكذا تم بالحرف الواحد للتلاميذ يوم عبروا بحيرة طبرية. وهكذا آمنوا أن قوة الله ورحمته ومعونته

هي في المسيح في فمه وصوته الذي أسكَتَ البحر وأبْكَم الرياح، ونجاهم من الهلاك.

+ أما الوجه الإيجابي للماء، فالصخرة نفسها التي ضربها موسى بعصاه فخرج الماء منها، كانت هي المسيح، في وضعها السرِّي، أي ما كانت الصخرة بمائها الذي خرج من جنبها بضربة عصا موسى (خر١٧: ٦) إلا رمزاً ملموساً للمسيح الذي طُعن في جنبه بالحربة فخرج منه دم وماء لخلاص العالم: «لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح» (١كو١٠: ٤).

ولكن العجيب حقاً أن يذكر القديس بولس أن الماء الذي كان يخرج من الصخرة في سيناء كان **شراباً روحياً**. «وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً (المن) وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح.» (١كو١٠: ٣و٤)

فلينتبه القارىء إلى سر الرمز قديماً، فالصخرة كانت روحية والماء كان شراباً روحياً، ولكن بسبب عدم إيمان الشعب وضعف رؤيته وكثرة تذمره على الله أخفى عن عيونهم حقيقة الصخرة وحقيقة مائها. فهل إلى الأبد يبقى هذا السر الإلهي مكتوماً؟ فإن كان قد جاء الزمان الذي تفتحت فيه قلوب وعيون وأسماع الإنسان بقبول الإيمان وتصديق الحق وطاعة الله وانسكاب الروح القدس، لذلك كان من المحتم أن يعلن المسيح عن نفسه أنه كان هو الطعام الروحي الذي أكلوه في هيئة المنِّ ولم يعرفوه، وهو هو الشراب الروحي الذي شربوه وارتووا من الصخرة في برية سيناء الذي تذمروا عليه. أما هؤلاء القوم، شعب إسرائيل — فلم ينتفعوا بما أكلوا وبما شربوا، إذ يقول القديس بولس الرسول: «لكن بأكثرهم لم يُسَرَّ الله لأنهم طُرحوا في القفر... وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا.» (١كو١٠: ٥و٦)

لذلك فالمسيح — وهو حاضر في عيد المظال، في اليوم العظيم منه وهم يحتفلون فيه بخروج الماء من الصخرة في سيناء بكسر جرَّة فضية مملوءة ماءً من بِرْكة سلوام على مذبح المحرقة المحتسب أنه هو الصخرة — وقف ونادى وكأنه يقول أنا هو الصخرة وأنا هو ينبوع الماء الحي: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إنْ عَطِشَ أحد فليُقْبِل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حيّ.» (يو٧: ٣٧و٣٨)

هذا، ولو أضفنا إليه ما يقوله المسيح للسامرية بنوع خاص، لأدركنا تفوُّق واقع المسيح عن مضمون النبوة: «كلُّ من يشرب من هذا الماء (بئر يعقوب وماء بركات الآباء) يعطش أيضاً،

ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. **بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.**» (يو٤: ١٣و١٤)

واضح من قول الرب أن ماء بئر يعقوب لم يغني السامرية عن فعل الخطية مع أنه ماء الآباء الذي يحمل ذكراهم وبركاتهم، ولكن الماء الذي يعطيه المسيح يطفىء الشهوة ويبطل فعل الخطية فلا يعود الإنسان يعطش إلى حياة الدنيا حياة الخطية أو التعلُّق بهذا العالم؛ على أساس أن هناك فرقاً جوهرياً بين هذا الماء وذاك: فماء بئر يعقوب هو أصلاً مادة أرضية لحاجة الجسد أما «ماء الحياة» الذي يعطيه المسيح فهو ليس ماءً مادياً أرضياً بل هو كلمة الله وفعْلُه — روح وحياة — حينما يستقبلها الإنسان بقلبه وروحه بواسطة الروح القدس الذي يحولها في قلب الإنسان إلى شهادة وكرازة وإلى صلاة وعبادة، فلا يعود الإنسان يعطش بعد إلى أمور العالم وخطاياه، لأن ينبوع الروح القدس يظل يفيض من قلبه تعزيات وأفراحاً يتعزّى بها ويفرح ويعزّي الآخرين ويُفرّح قلوبهم أيضاً.

يلاحظ القارىء أن تعبيرات المسيح عن عطيته الروحية وقدرته على فك رموز العهد القديم في شخصه تفوق تعبيرات النبوات التي جاءت عنه جميعاً وتزيد عليها أضعافاً. فإنسان العهد الجديد الذي آمن بالمسيح والتصق بالرب كالغصن الملتصق في أصل الكرمة لا يرتوي من المسيح والروح فقط حسب كل رجاء ودعاء الأنبياء بل ينبع منه الروح أيضاً ويفيض ارتواءً للآخرين. هذا لم يخطر على بال النبي في تصوراته وتوسلاته القديمة للعهد الجديد.

كذلك فإن الماء الحقيقي الذي يعطيه المسيح دعاه بماء «**الحياة**» أو «**الحقيقي**»، لأنه ليس فقط يغسل ويطهر البدن ويروي العطش، بل أيضاً يجدد الداخل ويخلق الإنسان لحياة أسمى. والشُّرب من الماء الذي يعطيه المسيح هو هو عملية الإيمان بالمسيح، فهو استقاءٌ وارتواءٌ بالروح كأرض عطشانة فاضت عليها المياه، حيث تتقبل الطبيعة البشرية الجافة المتعفنة وشبه الميتة روح المسيح، فتحيا وتنتعش وتزهر وتعطي أثمارها للخلاص.

٥ — رمز الخبز والماء معاً:

«الخبز الحي والماء الحي»، «المأكل الحقُّ والمشرب الحقُّ».

الصلة الكامنة بين الحقيقي وغير الحقيقي:

نحن لا نشتهي الخبز من أجل الأكل ولا نشتهي الماء من أجل الشرب، كذلك نحن لا نشتهي الأكل والشرب في ذاتها ولا حتى من أجل الشبع والإرتواء، ولكن هناك علّة نفسانية خفيّة هامة

للغاية وراء الأكل والشرب هي:

أولاً: الخوف من الجوع والعطش وبالتالي من الموت.

ثانياً: رغبة ملحة ومستميتة في الحياة. فنحن في الحقيقة نشتهي الحياة شهوة غلاَّبة كما نخاف خوفاً طبيعياً جباناً من الموت. لذلك نأكل ونشرب بنَهَمٍ أحياناً. ولكن لسان حالنا، ونحن نكرر الأكل ونكرر الشرب بلا هوادة، هو أننا نرغب أشد الرغبة في دوام الحياة أو الحياة الدائمة، وهذا مستحيل، لأن دوام الحياة هو الحياة الأبدية، والحياة الأبدية يستحيل بلوغها عن طريق الأكل والشرب اللذين مآلهما للفناء.

إذن، هنا في شهوة الأكل من الخبز البائد يكمن خداع بصر لا بد أن نتحول عنه، فنطلب ونشتهي الخبز الحقيقي والماء الحقيقي. المسيح وحده عنده خبز الحياة الأبدية وشراب الحياة الأبدية — الذي يأكله ويشربه يحيا ولا يموت — ولكن هذا الخبز وهذا الشراب هو في الحقيقة كلمته التي هي روح وحياة، فهو لا يتم عن طريق الجسد بل عن طريق الروح، أي يؤكل ويُشْرَب بالروح، ليس لملء البطن بل لملء قامة الإنسان الروحية، ليؤهَّل أن يكون إنساناً جديداً كاملاً لائقاً للحياة الأبدية.

هذا الخبز الحي والماء الحي إذ هما «روح» و«حياة»، هما أيضاً للأكل الدائم والشرب الدائم مرات ومرات: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كو١١: ٢٦)

إذن، فأكل خبز الحياة وشُرب ماء الحياة لا ينتهيان عند حدٍّ أيضاً. ولكن كل مرة نأكل من طعام الحق ونشرب من شراب الحق نزداد في الحق وفي الحياة، وليس كأكل خبز الجسد وشرب ماء الجسد اللذين ينتهيان كل مرة إلى جوع ونقصان، وربما إلى مرض أو إلى موت.

والمسيح يقول إنه يعطي خبز الحياة وماء الحياة دائماً وباستمرار: «من يُقْبل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣٥)، كما تقول الحكمة: «الذي يأكلني يجوع إليَّ والذي يشرب مني يعود إليَّ عطشاناً» (ابن سيراخ ٢٤: ٢١). لأنه بمجرد أن يذوق الإنسان هذا الطعام وهذا الشراب فلن يطلب شبعاً من آخر، لأن استعلان الحياة الأبدية التي في المسيح هي بحد ذاتها شبعٌ فوق شبع وارتواءٌ فوق ارتواء لا ينتهيان. فالإنسان جائع أصلاً وبالأساس إلى الحياة مع الله، ولن يسدَّ جوعه إلا الله: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧). القديس بولس الرسول أكل وشبع فقال: «لي الحياة هي المسيح» (في١: ٢١). وما معجزة الخمس الخبزات إلا وسيلة إيضاح!! تم تطبيقها على الصليب.

وإشعياء النبي يصدِّق بنبوته على قول المسيح هكذا: «**لا يجوعون ولا يعطشون... لأن الذي** يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه (الحقيقية) يوردهم» (إش٤٩: ١٠). إشعياء يتكلم عن خبز الحياة الذي كل من يأكله لا يجوع إلى شيء غيره، وماء الحياة الذي كل من يشرب منه يعود إليه وحده. فهو ليس ماءً بعد، بل هو الروح، وهو ينبوع الخلاص. كما تنبأ إشعياء أيضاً: «**هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب** (من موت)، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. **فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص.**» (إش١٢: ٢و٣)

وإنجيل القديس يوحنا يُلِحُّ على القارىء أن لا يخطأ خطأ السامرية، إذ ظنت أن المياه الحية الحقيقية التي يعطيها المسيح ستستقي منها وهي في الحرام، وتسقي زوجها الذي هو ليس زوجها، أو أن هذه المياه ستغنيها عن عطش الجسد والحاجة إلى الماء الطبيعي، وتريحها من عناء الذهاب إلى البئر كل يوم وثقل الدلو وبُطء البكرة التي هدَّت ذراعيها، هذا خداع بصر؛ يسقط فيه كل يوم معظمنا وأعظمنا حينما يطلبون المسيح وعطاياه — وفي وسطهم حرام — ليزدادوا راحة جسدية أو شبعاً من مالٍ أو عيال أو نجاح أو مكاسب، أو هرباً من حزن أو اضطهاد أو موت! لأن هذا معناه أننا أخطأنا الرؤيا كما أخطأت السامرية.

واستعلان سر المعمودية من كلام المسيح واضح في حديثه عن الماء. فقوله: «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. مَنْ آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو٧: ٣٧و٣٨)، لم يَفُتْ على القديس يوحنا أن يعلن فيه سر المعمودية الكامن وراء الكلمات، فعقَّب على كلام المسيح بقوله: «**قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد.**» (يو٧: ٣٩)

هنا يلزم بكل احتراس فهم أن الروح القدس في المعمودية مرتبط ارتباطاً كلياً بموت المسيح، أي بالدم المسفوك على الصليب. لذلك فإن الروح القدس لم يُعطَ إلا بعد أن أتم المسيح الفداء بالدم. لهذا يضغط القديس يوحنا بشدة على حقيقة خروج دم وماء من جنب المسيح المطعون (يو١٩: ٣٤)، إشارة بليغة إلى ارتباط المعمودية بالدم وبالإفخارستيا، وبالتالي بموت المسيح!! حيث يتقدس الجسد بالماء الطاهر أي المتقدِّس، والروح أو النفس أو القلب يتقدس بالدم والروح القدس. ولهذا أيضاً فإن المسيح لم يعطِ «ماء الحياة» إلاَّ بعد قيامته، وذلك بإرسال الروح القدس يوم الخمسين، حيث بدأ الرسل العماد بالماء والروح القدس باسم الثالوث: «ومتى جاء المعزِّي الذي سأُرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق **فهو يشهد لي**، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يو١٥: ٢٦و٢٧). هذه الشهادة للمسيح من الروح القدس

والرسل معاً بدأت واستمرت بالمعمودية (الماء) وبالإفخارستيا (الدم). لهذا كان ولا يزال من طقس المعمَّدين الأساسي هو تناول الجسد والدم بعد العماد مباشرة. أما الآن فيحل الإعتراف الذي هو بمثابة ختم التوبة، والتوبة هي المعمودية الثانية المتكررة قبل كل تناول من الجسد والدم. حتى الكاهن نفسه يتحتم عليه أن يستبرىء ذمته ويغسل يديه قبل أن يقترب من الجسد والدم.

إذن، فالعطش هو للحياة الأبدية، والشرب هو الإيمان بالمسيح وقبول الروح القدس، والأنهار الحية النابعة من داخل المؤمن هي هي الروح القدس بمفاعيله الخلاصية،من كرازة وشهادة. إذن، فعطية المسيح للذي يقبل — أي يؤمن به — هي الروح القدس — الذي يعتمد به — الذي يسكن قلبه ويبقى معه إلى الأبد، وهو الذي يحييه أي يُدخله الحياة، الحياة الأبدية. هذا هو الماء الحي. فالروح القدس يأخذ في الأسفار المقدسة صفات الماء الطبيعي ولكن فعله يكون روحياً. لذلك، فالمعمودية بالروح القدس تسمى اغتسالاً للنفس، في التقليد الكتابي والكنسي والليتورجي. ويُقال عن الروح القدس أنه «ينسكب» مع أن الإنسكاب صفة الماء: «بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد **الروح القدس الذي سكبه** بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا» (تي٣: ٥و٦). وهو نفس الإصطلاح الذي استخدمه يوئيل النبي: «ويكون بعد ذلك **إني أسكب روحي على كل بشر**... وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء **أسكب روحي** في تلك الأيام» (يوئيل ٢:٢٨و٢٩). وحتى اسم «**النهر**» يستعيره الأنبياء للتدليل على الروح القدس: «ومن **نهر نعمتك تسقيهم**» (مز٣٦:٨)، مع أن السَّقْي هو من عمل الماء.

نعود إلى ما قلناه أن إنجيل القديس يوحنا يحتِّم أن معمودية الماء تشمل في مضمونها الإلهي السري دم المسيح (أي موته). من جهة هذا يصرِّح القديس يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «هذا هو الذي **أتى بماءٍ ودمٍ**، يسوع المسيح؛ لا بالماء فقط بل **بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد** لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة «**الآب والكلمة والروح القدس**»، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة «**الروح والماء والدم**» والثلاثة هم في الواحد» (١يو٥:٦—٨). علماً بأن المسيح نفسه — بحسب اللاهوت الآبائي — هو الذي يعمِّد كما هو واضح في هذه الآية: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي **يقدسها مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة**» (أف٥:٢٥و٢٦). حيث «**بالكلمة**» يعني الدعاء بمنطوق دستور أو قانون الإيمان الخاص بالعماد، و«دعاء» الإسم حيث الإسم — اسم المسيح — يجعل المعمودية صبغة. وهذا الطقس يلغي جميع طقوس الغسولات والتطهيرات في العهد القديم؛ وحيث المعمودية لا تُكرَّر قط لأنها ليست اغتسالاً بالمعنى المادي بل هي ختم، وصبغة، وتقديس.

والأمر الهام الذي ينبغي ملاحظته أن ماء المعمودية يعتبره بعض المعلمين أنه مادة المعمودية الساذجة، ولكن الروح القدس هو الفعّال في المعتمد في سر المعمودية. غير أن القديس كيرلس الكبير ينبه أن الماء يتقدس بالروح القدس ويكون له فعل روحي إلهي: [إذ كما أن الإنسان مركّب في طبيعته وليس بسيطاً، وهو مركّب من جسد محسوس ونفس عاقلة، لذلك فهو محتاج شفاءً مزدوجاً ليبلغ ميلاده الجديد لكلا العنصرين فيه، أي الجسد والنفس. **لأن بالروح تتقدس روح الإنسان؛ وبالماء الذي تقدَّس يُقدَّس الجسد.** لأن الماء إذا وُضع في إبريق على النار فإنه بملامسته للنار يتقبل في طبيعته فعل تأثير النار. **هكذا يفعل الروح القدس، فإن الماء المحسوس تتغير طبيعته** trans-elemented **أو يتغير معدنه إلى تأثير إلهي غير منطوق به فيقدّس كل من يقترب إليه**](٨). من هنا كان ترتيب الكنيسة الأولى من جهة تصريف ماء المعمودية في نهر جارٍ وليس في البالوعات(٩).

ويشترك مع القديس كيرلس الإسكندري الكبير الآباء الأوائل، فهو تقليد منذ ما قبل القرن الثاني وبعده:

فالقديس إغناطيوس الأنطاكي المعروف بصلته بالقديس يوحنا الرسول يقول في رسالته إلى أفسس: [إنه وُلد واعتمد ليُطهِّر (يقدّس) καθαρίζω الماء بآلامه] (أفسس ١٨ : ٢).

كذلك العلاّمة ترتليانس يقول نفس الشيء: [المخلِّص نفسه اعتمد لكي يقدِّس sanctify كل مياه التجديد](١٠).

ومن بعد القرن الثاني ابتدأ يوضع دعاءٌ خاص بالإسم epiclesis على الماء للتقديس، وقد ذكر ذلك كلٌّ من القديسين كبريانوس وإيرينيئوس، كما ذكره العلاّمة أوريجانوس من قبل (في تفسيره يو٣: ٥). وهو مذكور أيضاً في مؤلَّف العلاّمة هيبوليتس «في التقليد الرسولي» (٢١ : ٦).

والعلاّمة ترتليانُس يذكر في كتابه عن المعمودية: [الروح بحسب جوهره السمائي ينزل على الماء بواسطة الدعاء إلى الله ويمنح الماء قوة التقديس.](١١)

□□□

(٨) شرح إنجيل القديس يوحنا ٣: ٦ـ٨ ص١٦٨ وص١٦٩ = Lib. of Fathers of the H.C. Church, vol. I.

(٩) لم نحاول أن نشرح سر العماد أو طقسه لأن ليس المجال هنا مجاله، إذ اكتفينا بالعبور بمجرد عبور على رمز «الماء» في العهد القديم وفك رموزه في العهد الجديد.

10 Adv. Judaeos 8.

11 Tert. Bapt. 4, cf. 8.

والذي يهمنا من هذه الرموز جميعاً، التي اخترنا الأمثلة الهامة منها، هو توضيح أن كل الرموز التي وقفت وتصلّبت عند حدودها الأرضية في الواقع المنظور في العهد القديم، حينما تبنّاها المسيح استعلنها كحقائق للحياة الأبدية، فصارت لُبَّ الإنجيل، ثم تبنّتها الكنيسة باعتبارها جسد المسيح المستعلَن في هاته الرموز، واستحضرت فيها الجسد الحقيقي بالروح والكلمة، وصارت سرَّها الإلهي ككرمة حقيقية تلد أغصاناً جُدداً، وتُرضعهم من عصيرها للحياة: فالخبز، بدعاء الإسم عليه، يُستعلَن فيه سر الجسد المأكول كطعام الحق ἀλήθεια ، والخمر يُستعلَن فيه سرُّ الدم الإلهي كذلك كشراب الحق ἀλήθεια ، أو شراب الروح.

والماء أيضاً، بدعاء الإسم عليه، يحل الروح القدس عليه وفيه، فيتقدّس ويَلِد حياة جديدة كخليقة روحية. هذا كله نابعٌ من أن المسيح تبنى هذه الرموز، فاستعلن فيها حياة جديدة للإنسان من كل نوع.

والمسيح لما صنع بداية معجزاته، أعلن بغاية القوة والوضوح عن سر التحول هذا الذي هو هو صميم وقلب رسالته، وذلك حينما حوّل ستة أجران ماء التطهير إلى خمر جيد، و«الجيد» في المفهوم الإنجيلي يرقى إلى «الروحي». والتحول هنا هو تحوُّل في صميم طبيعة الناموس والمادة.

ثم انتقالاً من تحويله الخمس الخبزات والسمكتين إلى طعام يشبع الآلاف بلا حدود، يصبح التحول هنا واقعاً في صميم الحدود التي تنحصر فيها **المادة**، فهو قام بفكِّ هذه الحدود لتقبل **«اللانهائية»** في صميم طبيعتها، واللانهائية صفة الروح اللامحدود. ثم لما أمسك الخبزة في يده وقسمها وقال: «خذوا كُلُوا جسدي المكسور عنكم»، قام بإجراء تحوُّل هو قمة التحول الفائق من المادة الميتة التي هي الخبز إلى الجسد الحي المحيي بالروح الذي فيه، فمهّد لحقيقة القيامة. كذلك لما أمسك الكأس الذي به الخمر الممزوج بالماء وقال: «هذا هو دمي، خذوا اشربوا منه كلكم»، فإنه قام هنا بعملية تحوُّل من خمر إلى دم هي مثيل لتحوُّل الخبز إلى جسدٍ أي من مادة ميتة إلى روح، لأن الروح في الدم ــ حسب إيمان الكتاب (لا١٧ : ١١).

وبالنهاية، كما قال للعازر الميت المنتن: «قم»، فقام وعاش ودبَّت فيه الحياة، محوِّلاً الموت إلى قيامة؛ هكذا سلَّم الإنسان طريق التحول كله من القديم إلى الجديد، من أسفل إلى فوق، من أرضي إلى سمائي، من موت إلى حياة، حيث انتهى بالتحول إلى صميم خِلْقَة الإنسان من خليقة أولى عتيقة ميتة إلى خليقة أخرى روحية سماوية مُعدَّة لميراث الحياة مع الله. وكل هذا التحوُّل يتم بمجرد **دعاء «الإسم»** الذي هو هو حالة **«حضور إلهي سري»**.

وإن إنجيل القديس يوحنا غنيٌّ بصورة عميقة للغاية في الكشف عن سر الحضور الإلهي، هذا الذي بدأ منذ قال: «والكلمة صار جسداً، وحلَّ بيننا، **ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا**» (يو١: ١٤و١٦)! هنا الأبدي غير الزمني صار زمنياً، ظهر كحادثة، عاش بيننا وعشناه ولمسته أيدينا ورأته عيوننا. وهو هو الحق والحياة عينها!! الأليثيا ἀλήθεια .

وإنجيل القديس يوحنا كله يستضيء بهذه الحقيقة الأساسية: «الكلمة صار جسداً»، وبالتالي فإن المادة صارت متجلية بحلول اللاهوت فيها؛ وهكذا صارت الرموز المادية القديمة متجلية بحلول الحق الإلهي «الأليثيا» فيها. فاللاهوت الرمزي الذي يتّبعه القديس يوحنا في إنجيله، يحمل الطابع الأساسي لهذا الإنجيل كله الذي هو حلول اللاهوت في المادة المنظورة! حتى خرجت المادة المنظورة من حدودها الميتة وصارت حاملة للحق الأزلي «الأليثيا»!

لقد استطاع المسيح أن يمجد المظهر الإنساني ويكرم المادة التي يتعامل معها الإنسان لحسابه، ويفك لغز الرموز وسرَّها ويستعلن فيها لاهوته والخلاص الذي يمارسه، ويطعم الإنسان ويسقيه بالأليثيا، بل ويُلبسه الروح الإلهي عوض ثوب الخطية. لذلك دُعي الإنسان في العهد الجديد باللابس الروح = «**ابنفماتوفورس**» بل واللابس المسيح = «**خريستوفورس**»، بل واللابس الإله = «**ثيئوفورس**».

الفصل الخامس

المعجزات (الآيات) في إنجيل القديس يوحنا

«آية» باليونانية σημεῖον

«عمل» باليونانية ἔργον

«معجزة» باليونانية τεράς

«قوة» باليونانية δύναμις

في كل أسفار العهد الجديد نقابل هذه الإصطلاحات للتعبير عن المعجزات التي صنعها الرب، فكل **معجزة** تحوي ثلاثة مفاعيل أو ثلاثة مؤثرات:

الأول: الدهشة، التي تترك الناس في تعجب واندهال.

الثاني: القوة، وجمعها قوات، وهذا تعبير عن سلطان الله المؤثر على أي جزء من الإنسان ليصلحه ويعيد له القوة والعمل، سواء العقل، أو البدن، أو النفس، أو القلب الكسير.

الثالث: الإشارة إلى عمل الله ووجوده «ملكوت الله»، سواء في الطبيعة أو في الرحمة والمحبة الموجَّهة للإنسان.

معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى:

إنها حقيقة واضحة أن الثلاثة الأناجيل جعلت **«استعلان»** ملكوت الله – **«ومجيئه»** – هما الهدف اللاهوتي الذي تتحرك نحوه كل المعجزات. وملكوت الله يعني **«حكم الله»** كمفهوم أُخروي (اسخاتولوچي)، ويفيد عمل الله الفائق لخلاص الإنسان وغلبة الشر وتأسيس النظام الإلهي الجديد أي العهد الجديد. وليس ذلك بمجرد الرجاء أو التمني في الأفق البعيد – كشأن النبوات، وإنما كحقيقة واقعة منظورة وملموسة. فكانت القوات المعمولة، أي المعجزات، بمثابة

الإشارة والدليل على افتتاح عهد مجيء ملكوت الله بقوة بواسطة المسيَّا — أي المسيح — الذي فيه تُستَعلَن قوة الله الحي حسب النبوات.

وقد كانت هذه القوات، إما بالمعجزات وخاصة الأشفية كطرد لروح السقم، باعتبار الأمراض استبداداً من جانب قُوى الطبيعة بضعف الإنسان؛ أو بتمزيق قوة الشياطين التي كانت قد استبدت بالإنسان، وقد صار ذلك كله إعلاناً عن غلبة الشر وانهزامه.

إذن، كانت القوات المعمولة بواسطة المسيح في الأناجيل الثلاثة هي بمثابة ظهور ملكوت الله أو حكم الله بالفعل!! وذلك كجزء لا يتجزأ من رسالة المسيح: «ولكن إن كنت بأصبع الله أُخرِجُ الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (لو١١: ٢٠؛ مت١٢: ٢٨)؛ «واشْفُوا المرضى... وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله.» (لو١٠: ٩؛ مت١٠: ٧و٨)

وفي نفس الوقت، كان يصاحب المعجزات ويسندها الأمثال التي فاه بها الرب يسوع المسيح عن مجيء ونمو ملكوت الله.

كذلك، ومن وجهة أخرى، كان لهذه المعجزات مغزى آخر أشار إليه المسيح في الثلاثة الأناجيل، كقوات خارقة تعلن عن تكميل النبوات التي تخص مجيء الزمان وظهور المسيا وتتميم وعد الله. وذلك واضح غاية الوضوح من قول الرب لتلميذي المعمدان اللذين جاءا بسؤال من معلمهم: «هل هو الآتي أم ننتظر آخر؟»؛ «فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما. إن العُمْيَ يُبْصرون والعُرْج يمشون والبُرْصَ يُطهَّرون والصُمَّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ» (لو٧: ٢٢–٢٣). وهذا الرد يسترجع ما قاله إشعياء النبي عن ظهور ملكوت الله والمسيا سمعاً وبصراً: «ويسمع في ذلك اليوم الصمُّ أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العُمْي» (إش٢٩: ١٨)؛ «حينئذٍ تتفقح عيون العُمْي، وآذان الصُمِّ تتفتح» (إش٣٥: ٥)؛ «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأعْصِبَ منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعِتْق وللمأسورين بالإطلاق» (إش٦١: ١). الأمر الذي طوَّب المسيح فيه عيون تلاميذه وآذانهم لأنها سمعت ورأت ملكوت الله بقوة قولاً وعملاً!!

الآيات في إنجيل القديس يوحنا: آية = σημεῖον وآيات = σημεῖα

وقد اختص إنجيل يوحنا بـ«الآيات» للتعبير والإشارة والإعلان عن سر وجود الله، أي حضوره، وسر محبته للإنسان في المعجزات التي كان يعملها المسيح. وقد وردت هذه الكلمة ١٧ مرة في إنجيل يوحنا، وهي تأتي بمعنى «المعجزة» و«القوات»، وهما اللفظان اللذان اختارتها الأناجيل

الثلاثة. أما إنجيل يوحنا فقد امتنع عن استخدامها بمعناها الوارد في الثلاثة الأناجيل للإعلان عن مجيء ملكوت الله — كما قلنا — واستبدل الكلمة «**معجزة**» بالكلمة «**آية**» **للإعلان عن مجد الله وعن عمله الخلاصي**.

وواضح أن القديس يوحنا تحاشى في إنجيله أن يقدم «المسيَّا» بصورة القوة الزمنية كملك بالمفهوم السياسي حسب ترقُّب اليهود الخاطىء؛ إذ اعتبر جميع المعجزات التي صنعها المسيح أنها مجرد آيات تشير إلى أن المسيح هو ابن الله! على أساس أن هذه «الأعمال» هي أعمال يعملها الله الآب الحالُّ فيه، توضيحاً وإعلاناً عن أن الآب يعمل الأعمال بالإبن. الآب «**مشيئة**» والإبن «**فعل**»، الآب «**فِكْر**»، والإبن «**نُطْق**». فالآب والإبن هما واحد يعملان عملاً واحداً.

وقد ركز إنجيل القديس يوحنا على كلمة «الآية» للعمل الذي يعمله المسيح على أساس أن العمل إنما يشير إشارة خفية إلى، أو يعلن إعلاناً صامتاً عن معانٍ روحية أو حقيقة إلهية أكبر من المعجزة بحد ذاتها.

وفي العهد القديم الذي يستند إليه إنجيل يوحنا، فإن الآية التي كان يعملها النبي، فبجوار أنها كانت حَدَثاً هاماً يحدث في الحال فهي كانت أيضاً وفي واقع الأمر تعني شيئاً سيحدث في المستقبل، ولكنه يكون قد بدأ بالفعل في التدبير الإلهي!

فالآية، التي هي بالعبرية oth «عوت»، هي عمل رمزي تحمل مُسْبَقاً صورة لما هو آتٍ وتعهداً بتحقيقه كعربون يقطع بالتتميم في حينه ولا بد!! فمثلاً في سفر إرميا حينما أخذ إرميا النبي حسب قول الرب الجرة الفخارية وكسرها في وادي ابن هنوم (إر١٩: ١-٣)، لم يكن ذلك مجرد عمل درامي يوضح كيف سيكون خراب أورشليم كتحطيم الجُرَّة الفخارية، ولكن كان يُحتَسب في الواقع الروحي والإلهي أنه جزء لا يتجزأ من العملية ولكنه غير مرئي، «لأنه متمِّمُ أمرٍ وقاضٍ بالبر. لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو٩: ٢٨). فالعمل النبوي ولو أنه يشير إلى حَدَثٍ قادم، إلا أنه يُحسَبُ من جهة الله أنه قد تم.

إنجيل يوحنا يمتد بهذا المفهوم النبوي للمعجزة كآية تحدث في الزمن المنظور، لتشير إلى حدث أو حقيقة قد تمت بالروح في غير المنظور، كبداية لعهد كامل وشامل قد بدأ بالفعل، وليس يُنتَظَرُ في المستقبل. فالأعمى منذ ولادته صُنعت فيه معجزة خَلْقِ عينٍ جديدة يرى بها نور العالم، إشارة تقول وتنادي وتشهد وتحكي أن «النور الإلهي الحقيقي» قد دخل بالفعل والقول إلى العالم!! وأن المسيح — الذي كأنه أخذ من نوره وأعطى للأعمى — هو النور الحقيقي الصانع المعجزة، وهو الخالق

بالضرورة فيما كان — الخلق القديم — وهو الخالق الآن، إنما الآن خِلْقَة جديدة أعمق وأبعد من العين التي ترى نور العالم. لأن الأعمى بعد أن قَبِلَ نور عينيه ليرى العالم، تعرَّف على المسيح وآمن أنه ابن الله، فتعرَّف على الله في المسيح، وهذا هو «**النور الحقيقي**». وهذا النور الحقيقي قد بدأ وجوده وبدأ فعله في الإنسان العائش في ظلمة العالم المادية والروحية، وسوف يستمر وجوده وفعله إلى الأبد: «**ما دمت في العالم فأنا نور العالم**» (يو٩: ٥)، «**وها أنا معكم** كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

وهكذا يرى معي القارىء أن هذه الوسيلة في التعليم هي أقوى وأعمق الوسائل طُرًّا في تعليم الحقائق الروحية التي تختص بالله وتعلن عنه وعن وجوده وعمله، وهذا ما شهد به نيقوديموس معلم الناموس: «فقال (نيقوديموس) له: يا **معلِّم** نعلم أنك قد أتيت **من الله** «**معلِّماً**» لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه **الآيات** التي أنت تعملها إن لم يكن الله معه.» (يو٣: ٢)

كذلك، فإن إطعام المسيح للجموع الحاشدة في مكان قفر حتى شبعوا وفاض عنهم اثنتي عشرة قفة مملوءة كِسَراً، من الخمس الخبزات والسمكتين، إنما هو بمثابة عمل إلهي غير منظور قد ابتدأ فعله في العالم في ذلك اليوم وسيظل فاعلاً وفائضاً إلى نهاية الدهور، ولكن ليس على مستوى الظاهر، بل كأن المسيح كان يقسم فعلاً من جسده ولحمه ويُطْعم هؤلاء الجائعين. لذلك شرح هذا العمل هكذا: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي **يعطيكم ابن الإنسان** لأن هذا — ابن الإنسان — الله الآب قد ختمه (ليكون هو الخبز الحي السماوي)» (يو٦: ٢٧) [حيث كلمة «ختمه» تعود على «ابن الإنسان» ولا تعود على «الطعام» وذلك بحسب التحليل اللغوي للكلمات اليونانية للآية.]؛ «**أنا هو خبز الحياة.** مَنْ يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو٦: ٣٥)؛ «**الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي** الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو٦: ٥١)؛ «**من يأكلني فهو يحيا بي**» (يو٦: ٥٧)؛ وهذه هي الحياة الأبدية.

فالمعجزة الباهرة من خارجها لا تفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو٦: ٦٣)، ولكن الآية التي فيها، هي استعلان روحي لعمل خطير للغاية لفعلٍ جديد لا يمتُّ للجسد أو العالم، بل هو عمل وفعل الله لحياة متصلة بالله.

القديس يوحنا يؤكد على هذه الحقيقة ويشير إليها مراراً حتى ينتبه القارىء والسامع. في معجزة قانا الجليل عندما حوَّل المسيح الماء خمراً، أردف خبر المعجزة بقوله أنها كانت «آية»: «هذه بداية **الآيات** فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (يو٢: ١١). وكلمة «**أظهر مجده**» تعني «استعلن وجوده» أو «**استعلن حضوره الإلهي**»، وهذا المعنى الذي عبَّر عنه القديس

يوحنا من قبل بقوله عن كلمة الله «وحلّ بيننا، ورأينا مجده» (يو١: ١٤). هذا الحلول أو استعلان الحضور هو هو المجد بعينه. وهذه الآية يقول عنها الإنجيل أنها «بداية الآيات»، أي بدء استعلان حضور الله، الذي كان على مستوى تحويل الماء رمز التطهير إلى خمر رمز الفداء بالدم. والمسيح أكمل استعلان هذا التحويل بآخر آيات التحويل عندما أمسك كأس «الخمر الممزوج بالماء» بيده وقال: هذا هو «دمي»، «خذوا اشربوا منه كلكم». إذ أصبح في يد الإنسان وفي فمه «سر التحوُّل نفسه»، الذي به يتحول الإنسان من القديم الجسدي إلى الجديد الروحي.

والقديس يوحنا يعتبر أن إنجيله إنما هو سجلٌ يحوي آيات ذكرها باختيارٍ خاص من ضمن ألوف آيات أخرى، حتى إنَّ كلَّ من قَبِلَها ويؤمن ينال الحياة: «وآيات أُخَر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتَب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣٠—٣١)

مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا:

لم يُكثِر المسيح من استعمال كلمة «آيات»، ولكنه استخدم في موضعها ومعناها كلمة «أعمال» ἔργα التي جاءت ١٨ مرة ليصف بها «أعمال الآب»، أو الأعمال التي أعطاه الآب أن يعملها؛ بل واستخدمها أيضاً ليشرح كل رسالته: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (يو١٧: ٤). والمسيح، بهذا الإصطلاح، إنما يشير إلى أعمال الله في العهد القديم سواء في الخليقة أو في التمهيد للخلاص. وبذلك يجمع المسيح بين أعمال الله في العهد القديم وأعماله في العهد الجديد، وصرَّح بذلك قائلاً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧). ولكن القديس يوحنا هو الذي يعبِّر عن هذه الأعمال بأنها آيات، مشيراً بذلك إلى نفس الآياتِ أيضاً التي أجراها الله في القديم، خاصة في مصر في أعمال الخروج التي تشكل الخلفية الذهنية في الإنجيل. فالمعجزات كانت في القديم في حقيقتها آياتٍ تشير إلى ما هو سيصير حادثاً مع المسيح.

إذن، تسمية أعمال المسيح بالمعجزات هو عودة إلى الوراء، ولكن تسميتها بالأعمال هو امتداد صحيح لأعمال الله، وتسميتها من جهة القديس يوحنا بالآيات هو إشارة إلى أن عمل المسيح قد أكمل القصد من معجزات القديم. فمعجزة الخمس الخبزات هي، في حقيقتها الإستعلانية، ليست معجزة بل آية تشير إلى أن معجزة المنّ في سيناء قد استعلنها المسيح في نفسه كخبز حي نازل من السماء باعتبار أن العهد الجديد المشار إليه في القديم قد جاء واستُعلن.

وبمعنى توضيحي، فإن ملكوت الله الذي كان العهد القديم يشير إلى مجيئه وظهوره في ملء الزمان قد جاء وظهر في المسيح وبه.

إذن، عدم ذكر كلمة «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا – إلا مرة واحدة مع نيقوديموس (يو٣:٣و٥) – لا يشكِّل أي نقص في إنجيل يوحنا، فالإنجيل يعبِّر عن مجيء ملكوت الله بالآيات التي يصنعها المسيح، كأعمال حقيقية يعملها الآب به، مفتتحاً بها عصر الخلاص واستعلان دخول الله في تاريخ الإنسان، فهي ليست معجزات بعد ولا حتى آيات بالنسبة للمسيح نفسه بل هي أعمال ممتدة للآب وله!! وهذه الأعمال لم تَعُدْ تعبِّر عن مجيء ملكوت الله بل عن مجد الله المنظور، وعن الخلاص والحق والحياة في صميم الواقع الزمني. وهكذا، فإن ما تعتبره الثلاثة الأناجيل في **المعجزات** التي كان يعملها المسيح أنها إعلان عن **ملكوت الله**، يعتبرها إنجيل يوحنا هي نفسها، ولكن تحت اسم «**أعمال**»، أنها هي هي ملكوت الله تحت اسم «**الحياة الأبدية**» وأنها قد أُظْهِرَت.

«الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا: عمل = ἔργον ؛ أعمال = ἔργα

لقد صمم إنجيل يوحنا أن يسمي المعجزات أو الآيات التي كان يعملها المسيح «**أعمال**»؛ وهي نفس الكلمة التي تُطلق على أعمالنا العادية سواء كانت شراً أو خيراً. وكان قصد المسيح والإنجيل من ذلك هو لكي يردَّ المعجزات إلى وضعها الصحيح عند الله والمسيح، فهي ليست معجزات، لا بالنسبة لله ولا بالنسبة للمسيح. بل إن كل الأمور الفائقة التصور والإدراك عندنا، هي أعمال الله العادية التي باشرها المسيح كإبن الله! فإصرار الإنجيل على اعتبار أن المعجزات هي مجرد **أعمال**، يهدف مباشرة إلى التعريف بالمسيح أنه ليس مجرد إنسان كما يدل مظهره، ولكنه أيضاً إله حسب حقيقته وجوهره. فأعمال المسيح هي أعمال الله، وأعمال الله كلها معجزات في نظرنا وتفكيرنا.

لذلك يصِرُّ المسيح أيضاً من وجه آخر بأن هذه الأعمال هي أعمال الله وهي «بالآب معمولة»، والآب الحالُّ فيه هو يعمل الأعمال (يو١٤: ١٠)، والله لا يقصد أن يعمل أعمالاً إعجازية مخصوصة لتظهر لنا باهرة وأخَّاذة حتى نؤمن بالمسيح الذي يعملها، ولكن العكس صحيح، فالمسيح يصِرُّ على أنها مجرد أعمال الله التي يعملها منذ البدء في الخلق، وأنه إنما يكمل أعمال الخليقة التي بدأها مع الآب: «أبي يعمل حتى **الآن** وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، وأنه يستمر في تكميلها، إنما على المستوى الروحي التجديدي، أي لتجديد خلقة الإنسان وإصلاح ما فسد فيها.

وحينما اعترض اليهود على شفاء المسيح للإنسان المشلول المقعد منذ ٣٨ سنة في يوم سبت، كان رد المسيح عن هذه الآية أنه يتمم ويصحح ويقيم من الموت الخليقة التي خلقها مع الآب. وواضح من قوله للمقعد بعد أن شفاه: «فلا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو٥: ١٤)، أن الرجل هو

الذي أفسد خلقته بإرادته، بعمله الشر، والمسيح إنما رفع عنه لعنة الخطية المفسدة فصار صحيحاً. وقوله: «لا تخطىء أيضاً»، معناه أنه صار الآن بلا خطيئة، أي خلقة جديدة، فكلمة المسيح مجدِّدة ولها قوة الخلق والإحياء والتجديد.

لذلك، كان المسيح يعترض على الذين يطلبون منه عمل المعجزات لكي يؤمنوا به: «لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو٤: ٤٨). فهو يعملها من ذاته لأنها عمله الذي جاء ليعمله، والآب أرسله لكي يعمل أعمال الآب. ويكفي أن يروه يعمل الأعمال التي لم يعملها أحد قبله ليدركوا أنه ابن الله. فإذا أصرُّوا على طلب معجزة، فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا به أنه ابن الله بل مجرد إنسان صانع معجزات مدهشة فيكرموه لذاته؛ مع أنه جاء ليشهد بهذه الأعمال للآب الذي أرسله. فالذي يؤمن بالأعمال، فهو يمجد الآب الذي أرسله، وبالتالي يمجده لأنه يعمل أعمال الله. لذلك كان المسيح يكرر قوله لليهود: «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو١٠: ٣٨).

والقديس يوحنا لم يذكر حادثة التجلي كأنها عمل فريد أو آية فريدة في حياة المسيح، لأنه رأى في أعمال المسيح كلها والتي كان يعملها ويعلِّم بها كل يوم أنها «تجلي» بأقصى معناه: وهو إظهار مجده وإعلان نوره. لذلك كان تعليق القديس يوحنا على معجزة قانا الجليل أنه بها «**أَظْهَرَ مجده**»، أي بالمعنى اللغوي اليوناني والروحي واللاهوتي أنه «**تجلَّى**»، **فإظهار المجد هو إظهار أو استعلان وجوده الإلهي**. وقول المسيح في صلاته للآب: «أنا أظهرت اسمك للناس، أنا مجَّدتك على الأرض» (يو١٧: ٦و٤) يُعني أنه أظهر وجوده وحلوله فيه على الأرض، وهذا منتهى «**التجلي**» لله في المسيح.

كذلك في تفتيح عيني أعمى مولود بلا عينين، فإن هذا عمل الله. فإذا عمله المسيح فهو يقوم بعمل الله المختص بصميم خلقة الإنسان. لذلك لما سأله تلاميذه عن هذا الأعمى: «من أخطأ هذا أم أبواه» (يو٩: ٢)، كان رد المسيح: «لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر **أعمال الله فيه، ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني**» (يو٩: ٣-٤). عمل المسيح في تفتيح عيني الأعمى هو آية وليس معجزة، هو عمل من صميم اختصاص عمل المسيح والله معاً، **وهذا هو استعلان شخص المسيح أنه ابن الله** الذي أرسله الله إلى العالم ليعمل أعمال الله ليتعرف الناس على الإبن من خلال عمل الآب. وهذه هي رسالة محبة الله للعالم أنه أرسل ابنه ليعلن عن محبة الله نحو الإنسان التي استُعلنت في أوَجِ قوتها بالفداء. وهذا ما قرره المسيح في نهاية إرساليته وهو على عتبة الصليب: «**العمل** الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم»

(يو١٧: ٤و٢٦). وهذه كانت شهوة المسيح الأساسية وشغله الشاغل الذي كان ينسيه الطعام والشراب: «طعامي أن أصنع مشيئة الذي أرسلني **وأتمم عمله**.» (يو٤: ٣٤)

وفي نهاية «**الأعمال**» نلفت نظر القارىء أن كلمة «أعمال = ἔργα — ἔργον» هو اللفظ الذي اختاره المسيح، ولم يستخدم كلمة «آية» إلا مرتين في غير وضعها كأعمال. لذلك فكلمة «**أعمال**» في إنجيل يوحنا وعلى فم المسيح هي جزء لا يتجزأ من المنهج اللاهوتي في الإنجيل باعتبار أن المسيح بالأعمال (التي نسميها نحن بالمعجزات والآيات) إنما يمارس عمله الإلهي الذاتي مع الآب. **على أن كل عمل إلهي هو في الحقيقة يحمل في طياته استعلاناً أي آية تشير إلى طبيعة المسيح الإلهية. فالآية تأتي كإشارة داخل «العمل»، فالعمل هو الأساس في الإستعلان، والآية مستخرجة منه.**

الفصل السادس

الشخصيات الواردة في إنجيل القديس يوحنا
وهي نماذج للبشرية المتجاوبة أو الرافضة للنور

في إنجيل القديس يوحنا يلمح القارىء حركة مدٍّ عام إلى الأمام، صعوداً وهبوطاً، تسير جنباً إلى جنب مع حركة استعلان المسيح كإبن الله في امتدادها وتدرُّجها في الإستعلان.

فجميع الشخصيات التي احتكت بالمسيح إما تزداد هبوطاً إلى أسفل؛ أو تزداد ارتفاعاً إلى الأعلى، إما تتمادى في المقاومة والعناد وعدم الإيمان؛ وإما تتمادى في القبول والإذعان والإيمان. هذه الحقيقة وليدة التأثر المباشر بحركة استعلان حقيقة المسيح كنور الآب. فالنور يكشف ذوي البصيرة ويزيدهم إبصاراً، كذلك وبنفس المقدار يفضح الكارهين للنور ويُفقدهم الرؤيا: «لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون.» (يو٩: ٣٩)

أولاً: الرافضون: «جاء إلى خاصَّته، وخاصَّتهُ لم تقبله»:

الشعب اليهودي ينقسم في إنجيل القديس يوحنا إلى قسمين رئيسيين، يسميهما الإنجيل «الجموع»، و«اليهود».

أ ــ الجموع: ὁ ὄχλος

وهم يمثلون التجمعات العامة للسكان اليهود الذين يظهرون في مسرح الحياة اليومية في الإنجيل، وأغلبهم من منطقة الجليل. وهم شديدو الإنفعال، وليس لهم سياسة محددة ولا يثبتون على رأيهم، يتجمعون بسرعة لكل بادرة تطرأ في محيطهم. وهم الذين استقبلوا المسيح استقبالاً حافلاً عند نزوله إلى منطقتهم، أي الجليل، بعد رؤيتهم المعجزات التي صنعها المسيح في أورشليم (يو٤: ٤٥)، وهم الذين كانوا يتبعونه في جموع غفيرة: «خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد» (مت١٤: ٢١)،

وكانوا يزحفون خلفه حتى إلى الجبال، وعلى مدى اليوم كله، حتى بلا طعام!! وعلى القارىء أن يتصور هذا الحشد الهائل يسير وراء المعلم دون أي اعتبارٍ لتعبٍ أو جوعٍ أو زمن: في إنجيل القديس متى نقرأ: «الموضع خلاء والوقت قد مضى» (مت١٤: ١٥)، وإنجيل القديس مرقس يقول: «فابتدأ يعلمهم كثيراً، وبعد ساعات كثيرة تقدّم تلاميذه ...» (مر٦: ٣٤و٣٥)، وفي إنجيل القديس لوقا: «فابتدأ النهار يميل» (لو٩: ١٢). هذا المنظر يكشف لنا عن أمرين: الأول طباع أهل الجليل، والثاني شدة تأثير المسيح في قلوب الناس، فإنه على قدر امتداد النور، على قدر ما كان امتداد حركة الشعب.

أما إيمان أهل الجليل فصار ملتهباً بعد سماعهم للمسيح هذه الساعات الطوال، حتى إنهم بعد أن رأوا معجزة الخمس الخبزات والسمكتين لم يحتملوا التسويف فيما أضمروه بل تحركوا ليختطفوه ويجعلوه ملكاً بالقوة (يو٦: ١٥).

كانوا يتركون بيوتهم ومدنهم ويزحفون وراءه صعوداً إلى أورشليم في كل المناسبات، ويذكرهم الإنجيل بكلمة «جموع كثيرة» مثل عيّنة «الخمسة الآلاف». ويلاحظ القارىء أن الجليليين هم الذين تبعوا المسيح إلى أورشليم ومعهم سعف النخيل وزفّوه في موكب ملكي ارتجت له أورشليم المدينة، وبالأخص لما انضم إليهم سكان أورشليم الذين كانوا قد زاروا بالأمس بيت عنيا لتعزية مرثا ومريم ورأوا معجزة قيامة لعازر: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.» (مت٢١: ١٠—١١)

كما، وللأسف، هم أيضاً الجليليون الذين دفعهم رؤساء الكهنة والشيوخ ليصرخوا أمام بيلاطس: «أصلبه أصلبه»: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرَّضوا الجموع...» (مت٢٧: ٢٠). وهذا المشهد الأخير المبكي حقاً يوضح مدى خطية رؤساء الكهنة والشيوخ في تضليل هذا الشعب الطيب المتحمس الذي كان على أتم استعداد للإيمان والشهادة! وهل ننسى أن معظم التلاميذ الإثني عشر كانوا من الجليل؟...

ب — اليهود:

وهؤلاء يأتون في المقابل للجموع في إنجيل يوحنا. فكما أن كلمة «الجموع» اصطلاح يعبّر عن أخلاق أهل الجليل، كذلك كلمة «اليهود» فهي اصطلاح يعبّر عن أخلاق وسلوك أهل أورشليم العاصمة: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟» (يو١: ١٩) وكما أن **«الجموع»** موطنهم **الجليل**، كذلك **«اليهود»** فإن موطنهم إقليم **اليهودية**، وهو القسم الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم.

ولكن بينما «الجموع» كانوا يمثلون جماعة، أكثر مما يمثلون اتجاهاً فكرياً، إذ ليست لهم مبادىء معينة، نجد اليهود يتمسكون جداً بآمال الأمة وانتظار الشعب لمسيَّا الملك القومي لسيادة اليهود على العالم، فهم يمثلون أصدق تمثيل العنصرية اليهودية المتعصِّبة بالطبيعة.

بدأ اليهود مصادمتهم مع المسيح في أول معجزة تمت في سبت: «إنه سبتٌ. لا يحلُّ لك أن تحمل سريرك» (يو٥: ١٠). وأنهوا رسالة تعصبهم، التي أنهوا بها في الحقيقة على أنفسهم، حينما وقفوا يحرسون السبت بتكسير أرجل المحكوم عليهم ليُنْهوا على حياتهم قبل حلول السبت: «فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً سأل اليهود بيلاطس أن تُكسر سيقانهم ويُرفعوا.» (يو١٩: ٣١)

وبينما كانت «الجموع» تقف تسمع التعاليم بانفعال وإعجاب وقبول: «فقالوا له يا سيد أعْطِنا في كل حين هذا الخبز» (يو٦: ٣٤)، نجد اليهود يعترضون ويشوشون ويتذمرون: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء» (يو٦: ٤١). وحتى إذا ما رأوا بعضاً من زملائهم اليهود وقد قبلوا التعليم بفرح كانوا ينازعونهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل.» (يو٦: ٥٢)

وإذا وقفت «الجموع» تصغي، كانت تخاف أن تُظْهِر مشاعرها ومديحها أو إيمانها بالتعليم خوفاً من «اليهود»: «وكان في ,,الجموع،، مناجاة كثيرة من نحوه، بعضهم يقولون إنه صالح، وآخرون يقولون لا بل يُضل الشعب. ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود.» (يو٧: ١٢—١٣)

وحتى إذا اقتنع اليهود وآمنوا بالفعل، كانوا يقدمون التحفُّظات على الكلام والإستفسارات الإستنكارية التي تنتهي بهم إلى النكوص: «فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به: إنكم إن ثَبَتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم، أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نُستَعبَد لأحدٍ قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً؟» (يو٨: ٣١—٣٣) وهكذا انتهى بهم الموقف إلى الرفض الكامل: «لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي، أنتم من أبٍ هو إبليس.» (يو٨: ٤٣و٤٤)

ومن أجل غيرتهم على الناموس كانوا مستعدين أن يرجموا المسيح: «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يو١٠: ٣١)

واليهود كانوا في الحقيقة هم العنصر الغالب في التقرير النهائي بضرورة صلب المسيح، لأن قيافا

نفسه لم يستطع أن يقرر ذلك إلا بعد أن أشار إلى اليهود لكي يتحركوا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو١٨: ١٤)

واليهود هم الذين وقفوا وقْفة إصرار أمام بيلاطس ليُصْدِر حكمه بالصلب: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً (هذا كذب فقد قتلوا استفانوس فيما بعد).» (يو١٨: ٣١)

والمسيح نفسه كان يعرف تماماً أنهم العنصر الأساسي في صلبه: «لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود» (يو١٨: ٣٦)؛ «خرج (بيلاطس) أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه عِلَّةً واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحداً في الفصح، أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضاً جميعهم قائلين ليس هذا بل باراباس. وكان باراباس لصاً.» (يو١٨: ٣٨—٤٠)

والقديس يوحنا لا يتحامل في إنجيله على اليهود، ولكنه بعد أن مرّت به هذه السنين الطوال، فإنه ينظر نظرة حزن وأسى متأملاً كيف أن المسيح كان يترجى لـ«إسرائيل» الخلاص، ويرى فيهم من الصفاء والصدق ما يصلح أن يكون لهم دورٌ في الخلاص. اسمعه وهو يسجِّل للمسيح قوله عن نثنائيل: «**هوذا إسرائيلي حقاً، لا غشَّ فيه**» (يو١: ٤٧)، فهنا «إسرائيل» واقعة في ضمير المسيح موقع الحق بحسب ما كان يترجّى. أو اسمعه وهو يسجل للمعمدان قوله: «وأنا لم أكن أعرفه لكن **ليُظْهَرَ لإسرائيل** لذلك جئت أعمِّد بالماء» (يو١: ٣١)، هنا «إسرائيل» صاحبة الحق الأول في التعرُّف على مسيحها!! وذلك بحسب ما كان يظن ويترجى المعمدان بل والمسيح نفسه: «لأن الخلاص هو من اليهود.» (يو٤: ٢٢)

وإنجيل القديس يوحنا يهتم بصورة عامة أن يجعل خدمة المسيح على خلفية يهودية، فكل عمل وكل قول يجعله يتحرك على خلفية يهودية والأمثلة كثيرة:

فإن معجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرْس قانا الجليل أجراها على خلفية يهودية: «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير „**اليهود**،،.» (يو٢: ٦)

ومعجزة الخمس الخبزات وحديث الجليل المطوَّل في الأصحاح السادس يجريان على خلفية من اليهود مع أنه كان في الجليل: «فصعد يسوع إلى الجبل وجلس هناك مع تلاميذه، وكان الفصح عيد „**اليهود**،، قريباً.» (يو٦: ٣—٤)

ومعجزة ابن خادم الملك التي صنعها وهو في الجليل، هذه أيضاً صنعها على خلفية من اليهودية

واليهود: «هذا إذ سمع أن يسوع قد جاء ,,من اليهودية،، إلى الجليل انطلق إليه وسأله...» (يو٤: ٤٧)؛ «هذه أيضاً آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من ,,اليهودية،، إلى الجليل.» (يو٤: ٥٤)

وحتى لما جاء إلى الجليل ليقيم فيها، أقام فيها على خلفية من اليهودية واليهود: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يُرِدْ أن يتردد في اليهودية لأن ,,اليهود،، كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو٧: ١)

ولما ترك المسيح الجليل وصعد إلى أورشليم، كان ذلك أيضاً على خلفية من ,,اليهود،،: «وبعد هذا كان عيدٌ ,,لليهود،، فصعد يسوع إلى أورشليم.» (يو٥: ١)

ولما بشَّر المرأة السامرية بالخلاص وقبلت الإيمان، بشَّرها على أساس اليهود: «لأن الخلاص هو من ,,اليهود،،.» (يو٤: ٢٢)

هذا الإصرار في جعل اليهود واليهودية خلفية عامة لخدمة المسيح المطوَّلة، يوضح عقيدة القديس يوحنا الراسخة أن اليهود كانوا أصحاب الحق الأول في خدمة المسيح وفي الخلاص لولا أنهم لم يقبلوه.

بل ولا يزال القديس يوحنا يلحُّ على هذه الحقيقة — إنما بصورة سرية ورمزية أيضاً — حتى آخر لحظة على الصليب حينما التفت المسيح إلى أمه وقال، آخر ما قال، للتلميذ الذي كان يسوع يحبه: «هوذا أُمك» (يو١٩: ٢٧)؛ القديس يوحنا يسجلها باهتمام وكأنها الوصية الأخيرة للكنيسة ممثلة في القديس يوحنا — آخر رسول للمسيح وآخر تلميذ — أن تبقى الأمة اليهودية (أم المسيح)، ممثَّلة في جميع أسفارها وذخائر أنبيائها وروحانيتها، قائمة كأم للكنيسة ترضع لبنها العتيق المعتق. كما أن وصية المسيح لأمه «هوذا ابنُكِ» (يو١٩: ٢٦) أن تبقى الكنيسة (التلميذ الذي كان يسوع يحبه) في حضن الأم العتيقة لا تنفصل عنها.

وقد صار ذلك بالفعل، إذ احتضنت الكنيسة العهد القديم وصارت تغتذي من كنوزه حتى اليوم.

واليهود ينقسمون عامة إلى شيعتين: **شيعة الفريسيين، وشيعة الصدوقيين.** أما الصدوقيون فلم يذكرهم القديس يوحنا بالإسم ولكنه يذكر خصائصهم تحت اسم **رؤساء الكهنة**، زمرة حنان وقيافا، الرؤساء المغامرون الذين يختلفون على طول الخط مع زمرة الفريسيين الغيورين على الدين. على أن الفريقين — الصدوقيين والفريسيين — يظهرون في مظهر الإتحاد ويعملون معاً داخل المجمع

الكبير: «سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه (أي المسيح) فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُدَّاماً ليمسكوه» (يو٧: ٣٢). «فجاء الخُدَّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين...» (يو٧: ٤٥)؛ «فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً وقالوا ماذا نصنع...» (يو١١: ٤٧)؛ «وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمراً...» (يو١١: ٥٧)؛ «فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح.» (يو١٨: ٣)

وهم يجتمعون ضماناً لتوحيد كلمتهم ككتلة متعاونة شكلاً، ولكن غير منسجمة في الداخل. ويأتي رؤساء الكهنة في المركز الأول من جهة القسوة واستخدام العنف، ولكن ما يستفز رؤساء الكهنة (الصدوقيين) هو الإستشعار بأي خطر نحو نظامهم الكهنوتي. أما الفريسيون، وهم الممثِّلون الشرعيون لليهود، فكان ما يستفزهم هو الإخلال بالناموس، وهم الذين أرسلوا بعثة تقصِّي الحقائق عن خدمة المعمدان (يو١: ٢٤)؛ وأيضاً ما ترامى لأسماعهم عن أن الرب يعمِّد، إذ اعتبروا ذلك أمراً خطيراً بالنسبة لسلطانهم، بل إن هذا وحده كان كفيلاً أن يعجِّل بالصدام والصليب، لذلك نسمع: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يُصيِّر ويعمِّد تلاميذ أكثر من يوحنا — مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمِّد بل تلاميذه — ترك اليهودية ومضى أيضاً إلى الجليل» (يو٤: ١—٣)، لأن الساعة لم تكن قد جاءت بعد.

والفريسيون يحتقرون اليهود غير المتعلمين ويرفضون آراءهم: «فأجابهم الفريسيون ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم. ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يو٧: ٤٧—٤٩). والذي كان يستفز كبرياء الفريسيين بشدة، تفرُّد المسيح بسلطانه الذي كان يعلِّم به: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً» (يو٨: ١٣). كما أدانوا معجزات المسيح الباهرة ليس لسبب إلاَّ لأنها عُملت في سبت (يو٩: ١٦).

والفريسيون هم الذين أخذوا على عاتقهم حرمان وطرد أتباع المسيح: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو١٢: ٤٢و٤٣)

ولكن في ختام صداماتهم المتوالية بلغهم الإعياء، وأُصيبوا بخيبة أمل من جراء نجاح المسيح واكتساحه الميدان رغماً عن محاصراتهم: «فقالَ الفريسيون بعضهم لبعض انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو١٢: ١٩). **ومن بعدها تنحُّوا وتركوا أمر تدبير خطة قتل المسيح لرؤساء الكهنة وحدهم، إذ لم يَعُدْ الإنجيل يذكرهم بعد ذلك مع رؤساء الكهنة.** وهذا يظهر من قول بيلاطس للمسيح: «ألعلِّي أنا يهودي؟ أُمَّتُك ورؤساء الكهنة أسْلَموك إليَّ»

(يو١٨: ٣٥)؛ «فلما رآه رؤساء الكهنة والخُدّام صرخوا قائلين أصلبه أصلبه» (يو١٩: ٦). ولكي ينتهوا قسراً من قضية المسيح، ضغطوا على بيلاطس وأحرجوه، فجحدوا إيمانهم بالله علناً وكفروا بيهوه الملك العظيم الذي رعاهم وتبنّاهم هذا الدهر كله: «ليس لنا ملك إلاّ قيصر.» (يو١٩: ١٥)

وعلى العموم، فإن الصراع العنيف الذي لم يكُف أبداً في إنجيل يوحنا بين اليهود والمسيح والذي تحمّله المسيح حتى أقصاه، كان يمثل ولا يزال صراع العالم مع الكنيسة الذي لم يهدأ ولا يوماً واحداً ولن يهدأ: «أنا قد أعطيتُهم كلامك؛ والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم، كما أني أنا لست من العالم. لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يو١٧: ١٤و١٥). وقد صدق الذي قاله القديس بولس الرسول: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجّد أيضاً معه» (رو٨: ١٧). ولكن يقولها إنجيل يوحنا بصورة الواقع الحاضر: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

ومن جهة الأخلاق أو السلوك الفردي وخط الرفض العريض، أي عدم الإيمان الذي أظهره اليهود والرومان في أثناء آلام الرب وصلبه، نجد ثلاثة عوامل شخصية تحكّمت في ثلاث نفوس انحطّت مقاديرها فأصابها العمى والضعف والأنانية:

+ أما **العمى** فبلغ أقصاه عند رئيس الكهنة الذي جلب الخراب على أُمّته إذ حكم على دم بريء!!

+ وأما **الضعف** فكان في الوالي الروماني الذي انقطع عزمه، وامتنع حَزْمه، وأهان كبرياء القضاء الروماني: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم!!» (يو١٨: ٣١)؛ «وقال لهم: أنا لست أجد فيه علّة واحدة!!!» (يو١٨: ٣٨)

+ وأما **الأنانية** فكانت في التلميذ الذي خان المحبة وأسْلَمَ معلمه.

ثلاثة أشخاص، ولكنهم، في الحقيقة كما يقدمهم لنا إنجيل يوحنا، هم ثلاثة عناصر مرذولة تمثل لا الرفض فقط، بل والعداوة تجاه الإيمان: **«اليهود»**، و**«الأمم»**، و**«التلميذ»**.

+++ **فقيافا** يمسك عليه الإنجيل تصريحه الخطير الذي يكشف الإتجاه النفسي عند اليهود عموماً، ويمثلهم الرؤساء والمسئولون حينما يصيبهم العمى فيضحّوا بمستقبل الرسالة في سبيل الحفاظ على حطام الدنيا: «فقال لهم واحدٌ منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» (يو١١: ٤٩و٥٠). هكذا بلغ العمى أن تُقتَل البراءة ويُزهَق الحق لتبقى الأرض ويبقى الكيان! وعند هذه

المشورة توقفت العناية الإلهية عن مسار الكهنوت اليهودي، ورُفِعَتْ اليد العالية عن حماية الأمة، وأنطفأ مصباح الله في هيكل اليهود إلى الأبد.

فإن كانت الأمة اليهودية قد بدأت مع إبراهيم حينما قدّم ابنه اسحق ذبيحة لله حيث كان هذا قمة الإيمان الذي بنيت عليه الأمة؛ فقد انتهت وانتهى إيمانها مع رئيس الكهنة قيافا عندما قدّم ابن الله ذبيحة على مذبح الرومان.

+++ والأمم ويمثلهم بيلاطس. وتعليقنا عليه هو هذه الآية من القديس بولس الرسول: «فإن كان لكم محاكم في أمور هذه الحياة فأجْلِسُوا المحتقَرين في الكنيسة قضاة. لتخجيلكم أقول. أهكذا ليس بينكم حكيم ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته. لكن الأخ يحاكم الأخ، وذلك عند غير المؤمنين. فالآن فيكم عيب مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض. لماذا لا تُظلَمون بالحري. لماذا لا تُسلَبون بالحري. لكن أنتم تَظلِمون وتَسلُبون، وذلك للإخوة. أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟» (١كو٦: ٤–٩)

+++ أما يهوذا التلميذ الذي سرق الصندوق، فليس عجباً إن هو باع النور. والذي أحب المال كان سهلاً عليه أن يدوس المحبة. ولكن يهوذا كان تلميذاً، وكان داخل الجماعة، وكان مؤتمناً على سر الكنيسة الصغيرة أي الإثني عشر، لذلك استطاع أن يسلّم معلمه في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. فكانت خطيته أعظم: «الذي أسْلَمني إليك له خطية أعظم.» (يو١٩: ١١)

يهوذا – بحسب إنجيل يوحنا – مثّل دور أخيتوفل الذي كان مشيراً لداود يجلس على مائدته ويأكل أفضل خبزه، هذا لما دخله الشيطان خان سيده داود مسيح الرب، وأشار على ابنه (ابن داود) أبشالوم أن يقتل أباه داود ليجلس ملكاً عوضاً عنه، ولما خابت مشورة أخيتوفل بموت أبشالوم ذهب وخنق نفسه، هذا ما فعله يهوذا! ولهذا قال الرب: «لكن ليتم الكتاب، الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه» (يو١٣: ١٨). أما الكتاب الذي أشار إليه الرب فهو المزمور ٤١: ٩: «رجل سلامتي الذي وثقتُ به، آكل خبزي، رفع عليَّ عَقِبَه».

ثانياً: المؤمنون:

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو١: ١٢)

وكما يقدم إنجيل يوحنا الأشخاص الرافضين في مدٍّ متهاوٍ إلى أسفل، حتى بلغ بهم الرفض وعدم الإيمان مبلغ تسليم الرب والمعلم للقتل وبيد تلميذ من الإثني عشر، هكذا يقدم الإنجيل المدّ الإيماني

الصاعد في النور إلى أعلى الدرجات. وهكذا نأتي إلى الأشخاص الذين سمعوا وقبلوا وآمنوا وتحمسوا وصاروا من التابعين.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة على التلاميذ الذين تسابقوا في الصعود على سلّم الإيمان، ينبغي أن نترك الرسل الذين ذكرتهم الأناجيل الثلاثة الأولى؛ كبطرس وأولاد زبدي وأمهم، والشخصيات الحبيبة التي رافقت طفولة المسيح ولازمته حتى النهاية، والنسوة التقيات اللائي أخذن على أنفسهن متابعة المسيح في اليهودية والجليل وأورشليم حتى الصليب والصرف عليه من أموالهن الخاصة؛ لنأتي إلى الشخصيات التي لم تذكرها الأناجيل الثلاثة، وكيف يُبْرز سجاياهم عن وعي روحي ونفساني عميق، إذ يضعهم القديس يوحنا في تيار الإنجيل فتتّسق حركتهم الإيمانية مع حركة المدّ صعوداً في استعلان المسيح.

ويضع القديس يوحنا في افتتاحية طريق التعرف على الرب، «نثنائيل»، كزهرة تفتحت مبكراً لتعطّر طريق الشهادة الحلو: «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يو١: ٤٩). ويلازمه على الطريق في خطواته الأولى «أندراوس»، الذي ظهر كمَن كان يدرس باجتهاد متى يأتي المسيح، «قد وجدنا مسيّا» (يو١: ٤١). وكذلك «فيلُبّس»، واحدٌ من زمرة الباحثين باهتمام مِنْ أين يأتي المسيح: «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من **الناصرة**» (يو١: ٤٥). وفيلبس هذا هو القديس والرسول الذي يقول أقدم التقليد الموروث عن العلاّمة اكليمندس الإسكندري([1]) إنه هو التلميذ الذي سأل الرب أن يذهب ويدفن أباه، فتلقى هذا الرد الحاسم: «اتبعني ودَعْ الموتى يدفنون موتاهم» (مت٨: ٢٢)، فترك وتبع وكان من الرابحين!...

كما يقدم لنا شخصية «توما» باعتباره إمام الشكّاكين في المنهج المسيحي، ولكنه شكَّ من أجل مزيد من الإيمان، فانتهى به شكُّه إلى صرخة استعلان لم يبلغها أحد قبله: «ربي وإلهي.» (يو٢٠: ٢٨)

والقديس يوحنا يمهد في إنجيله تمهيداً رائعاً لموكب الخطاة، تقوده أُمية أو نصف يهودية، هي سامرية مكروهة مع كل السامريين، ولكن المسيح جاء من أجل المكروهين، فقد قيل عنه هو نفسه في الأنبياء: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه للمُهَان النفس، **لمكروه الأُمَة**، لعبد المتسلطين...» (إش٤٩: ٧). كانت مكروهة ولكن أحبها المسيح ليتم في هذه السامرية العجيبة قول

[1] Clement of Alexandria, Stromata III.4 ch 25.

هوشع النبي «سأدعو التي ليست محبوبة محبوبة» (رو٩: ٢٥، هو٢: ٢٣ في الترجمة السبعينية)، ويتم في هذا الشعب السامري العجيب: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي» (رو٩: ٢٥، هو٢: ٢٣). كانت السامرية رائدة التائبين بل والمبشِّرين، فخلصت، وخلَّصت مدينة!!

وبعدها تأتي تلك التي كرَّمها الإنجيل بل والدنيا كلها: «المجدلية». ومَنْ ذا الذي لا يعرف المجدلية؟ التي هي «مادلين» — باللغة الفرنسية؟ هذه التي استأسرت بعطف المسيح بعد أن كانت أسيرة لسبعة شياطين، فحفظت الجميل حتى الصليب والقبر وأيضاً القيامة. فكانت أول من نطق المسيح بإسمها: «يا مريم»، كأول كلمة بعد أنين الصليب وغصَّة الموت وصمت القبر!!

وإنجيل يوحنا لا يقدِّم روايات عن شخصيات، بل سهام من نور انطلقت تتقدم طريق النور الحقيقي وتتبعه شهادة تلو شهادة شيء يخطف الأبصار، منها مَن كان يسير بسرعة الضوء «أنت ابن الله» (يو١: ٣٤و٤٩؛ ١١: ٢٧). ومنها مَن كان يتدحرج كطفل يمسك بتلابيب أمه يسير الهوينا، ولكنه ملتصق بالنور: «توما»: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو١١: ١٦). ومنها مَنْ كان يقدِّم رِجلاً ويؤخِّر أخرى بإيمان زاحف كأنه يجر وراءه ثقلاً: «نيقوديموس» معلم إسرائيل، الذي جاء إلى المسيح مع صبح البشارة، وانتهى إليه في غسق الكرازة، ليُنزل الجسد من فوق الصليب ويستودعه القبر في إيمان ذاهل لا يعرف متى أتاه وكيف يعلنه!

وفي تصوير القديس يوحنا، نرى من خلف نيقوديموس، السامرية تظهر وهي الإنسانة اللاهية أو التي يلهو بها الناس، والتي بعد مناوشة لم تستغرق بعض الساعة ختمت لهو صباها بجدِّية الرجال، وتركت جرَّتها التي هي بمثابة صَنْعتها — ماء العطش — رهن إيمان اليقين الذي استبدَّ بها، وكان لسان حالها: «لا خطية بعد الآن» و«لا» لكل أهل مدينتها ما دام «مسيًّا» الآتي قد أتى!! فلا عودة لبئر يعقوب؛ ونبع الحياة قد صار في أعماقها. ومثلما قالت وعملت، هكذا قال كل أهل مدينتها وعملوا؛ وسرق السامريون الخلاص من اليهود إذ شهدوا: «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم.» (يو٤: ٤٢)

ولكن ليس جزافاً أن يضع القديس يوحنا صورة السامرية في مقابل صورة نيقوديموس، فهذا النقيض البالغ حد المبالغة نراه في سباق الإيمان في إنجيل يوحنا: فقمة العلم في وجه قمة الجهالة: يهوديٌّ هو معلم إسرائيل فريسيٌّ حامي حمى أكاديمية التوراة وقداسة الناموس، عضو مجلس السنهدريم الأعلى، عَلَمٌ في أورشليم العاصمة المقدسة، وعلى مشارف هيكل الله يأتيه خلسة في ظلام الليل يسأل عن كُنْه المسيح؛ والصورة الأخرى: امرأة سامرية جاهلة، فتيلة مدخِّنة، ودخانها يعمي العيون السليمة، لا نبْضَ فيها يُنبىء بأي حياة، فقد استهلكتها الخطية واللامبالاة، قابلها أو هي قابلته على

مشارف هيكل جِرْزِيم المكرَّس لعبادة منشقة حيث يسجدون لِمَا لا يعلمون، تأتيه في وضح النهار وقت الظهيرة والشمس ساطعة والكل غادٍ ورائح يطلب البئر! يسألها المسيح ليشرب، وهي تُعرض عن السماع، وتستنكر السؤال، وتجفل من الحديث. والرب يتودد إليها، يُظْهِر فَقْرِه ويُخْفِي غِنَاه: «الذي افتقر من أجلنا وهو غني» (٢كو٨: ٩)، لأنه لم يكن عطشاناً إلى مائها، ولكنه كان جائعاً حقاً لمشيئة الآب التي من أجلها نزل فقيراً متغرِّباً إلى عالم الخطاة والخطية، حتى أوصلته قدماه المتعبتان إلى البئر وإلى السامرية.

حديث نيقوديموس **بدأ مزخرفاً بالتودد:** «يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً، لأن ليس أحدٌ يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه» (يو٣: ٢)، ولكنه **كان محشوًّا بالتنكر والإستنكار:** «كيف يمكن؟؟» (يو٣: ٤)؛ «ألَعلَّه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية؟؟» (يو٣: ٤)؛ «كيف يمكن أن يكون هذا؟؟» (يو٣: ٩). كان نيقوديموس عصِيَّ الإيمان، لأن بُرْقع الناموس أخفى عنه نور وجه المسيح! فلما أُعيي المسيح من ردِّه وصدِّه، تركه **ثلاث سنوات ونصف!...**

وحديث السامرية بدأ بشبه عراك، كقطة قد استفزتها المباغتة فأخرجت أظافرها. **وقد بدأت السامرية بالتنكُّر والإستنكار:** «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟» (يو٤: ٩). ثلاثة استنكارات في جملة واحدة، فالشرب من يد السامريين نجاسة كأكل لحم الخنازير، واليهودي لا يعامل السامريين أصلاً، والرجل لا يليق به أن يكلم امرأة!! وسرعان سرعان ما نظرت إليه مليًّا لتقول له: «يا سيد أرى أنك نبي» (يو٤: ١٩). ولكنه استصغر نظرتها، وكثَّف لها نور استعلانه، فارتفعت بسرعة النور الذي اخترق قلبها. وظلت تتساءل في هواجس أفكارها عمَّا سمعته وهي صغيرة عن «مسيَّا» آتٍ يستطيع أن يرد على كل سؤال ويحل كل مشاكل الإنسان — ومشاكلها كثيرة — ألعله يكون هو «المسيَّا»؟ وأخيراً رمت بدلوها وهي هيَّابة تقول وكأنها تسأل أو تتمنى: «أنا أعلم أن مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء» (يو٤: ٢٥). فسمعت منه «أنا هو ἐγώ εἰμι» (يو٤: ٢٦). وهكذا، **وفي أقل ما يمكن أن يسمح به الزمن** لاستعلان حقيقة المسيح، بلغت هذه السامرية في سهولة عجيبة إلى قمة الإيمان: «هذا هو المسيح.» (يو٤: ٢٩)

نماذج أخرى للإيمان الزاحف في إنجيل القديس يوحنا:

إيمان فيلبس:

قلنا إن فيلبس، كما يقول التقليد، هو التلميذ الذي لما دعاه المسيح طلب مهلة لكي يدفن أباه،

فبادره المسيح بأن يُعدّل مسار إيمانه فيترك الموتى يدفنون موتاهم ويهتم هو بإتباع المسيح، أي الحياة. هذا في بكور تعرُّفه على المسيح وعلى معنى الإيمان، فتوكَّل فيلُبُّس على مَنْ يُحيي الموتى، وانتقل من الموت إلى الحياة وكان من التابعين. ولكن بقايا إيمان الموتى كان لا يزال لاصقاً فيه، هذا كان يعلمه المسيح ويعلمه القديس يوحنا. وكان على المسيح أن يزيل بقايا رائحة الموت من إيمان فيلبس. إلى أن جاءت معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، وأبصر المسيح الجمع الحاشد من حوله وكانوا قد قضوا ساعات طويلة في الإستماع إلى وعظ المسيح وجاعوا والمكان كان قفراً؛ فابتدر المسيح فيلُبُّس يسأله: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» (يو٦: ٥). يقول القديس يوحنا: «إنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل» (يو٦: ٦). ويكاد هذا القول يحكي عن كيف كان إيمان فيلبس موضع امتحان في نظر التلاميذ، أو على الأقل في نظر يوحنا. وما حسبه المسيح ويوحنا كان صحيحاً إذ جاء رد فيلبس خالياً من الإيمان جملة وتفصيلاً، إذ بعد تقدير عدد الرجال والنساء والأولاد وحساب ما يكفيهم من طعام وبعد عملية حسابية تقوم على الجمع والضرب والقسمة، أجاب فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً» (يو٦: ٧). هذا هو إيمان الحسابات وهو قرين إيمان دفن الموتى.

لم يكن جزافاً أن يسرد القديس يوحنا هذه الرواية، فهو هنا يضع الحد الفاصل بين إيمان وإيمان، إيمان المنطق والعقل والواقع والحسابات، وإيمان المسيح الذي يقيم الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، إيمان الخمسة الآلاف رجل والخمس الخبزات لا تقبل القسمة على الإطلاق، فالقديس يوحنا يعرض لنا نموذج ما ينبغي أن يكون عليه إيمان الذين يتبعون المسيح. ووقف فيلبس يوزع مع الموزعين من الخمس الخبزات ومن السمكتين ما أشبع الخمسة الآلاف رجل ومن معهم من النساء والأولاد، ثم انطلق مع التلاميذ يجمع الكِسَر المتبقية ما ملأ اثنتي عشرة قفة مملوءة!!

كان درساً لمن يجوع في حضرة المسيح، يتعلمُ منه من يريد أن يتعلم أن مع المسيح «شبع سرور وبيمينهُ ملآنة خيرات» (راجع مز١٦: ١١). وكان درساً لفيلُبُّس أن يجحد حساباته والأرقام، طالما هو يتبع من دُفع له كل سلطان ما في السموات وما على الأرض.

ولكن إيمان فيلبس كان لا يزال ينبض فيه عِرْق الموتى. وكان المسيح على استعداد لإستئصاله أيضاً. فلما طرح المسيح في أواخر كرازته مشروع تسليم تلاميذه الطريق إلى الآب الذي عبّده بالكلمة والروح والحياة وهو مزمع أن يدشّنه بجسده، انفجر فيلبس دون باقي التلاميذ يسأل سؤاله الذي ينضح بنسيان كل تعاليم المسيح — وكأنه لم يسمع منه قط علاقته بالآب أن الفكر فكره والقول

قوله والعمل عمله والمشيئة مشيئته والحب حبه والحياة حياته؟ فماذا يتبقى لفيلبس أن يسأل: «يا سيد أرنا الآب وكفانا» (يو١٤: ٨)؟ هذه لما سمعها المسيح أخذ يراجع مع فيلبس الدروس من أولها متحسّراً على زمان طويل قضاه فيلبس يسمع ولا يفهم وينظر ولا يرى ويسير مع السائرين دون أن يعرف الهدف. أجابه المسيح باختصار: «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟؟؟» (يو١٤: ٩) وأردف بعد وقفة حزن ليعطي الحقيقة الإلهية النهائية لشخصه وعمله ورسالته: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). وعاد يستنكر على فيلبس وعلى كل مؤمن وتابع مثل هذا السؤال الذي يعني عدم الإيمان: «فكيف تقول أنت أرِنا الآب؟ ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ» (يو١٤: ٩ــ١٠). وبهذا القول يكون المسيح قد راجع مع فيلبس وكل إنسان، في كل زمان ومكان، ما هو الإيمان المسيحي وكيف يتخلص من أعمال الموتى ومنطق حسابات الدنيا ويرى المسيح صورةً منظورةً لله الآب غير المنظور.

إيمان توما:

كان إيمان توما ينقصه الرجاء الحي، وهذا العيب الخطير إذا أصاب الإيمان يجعله يحتاج إلى «**العيان**»، أي لا يثق إلا بما يرى ويسمع ويفهم. لأن الإيمان الصحيح غير المُعَاب هو: «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عب١١: ١)، كما يقول القديس بولس الرسول، أي أن نثق أننا ننال ما نترجاه مثلاً، أو نؤمن بالله غير المنظور أو ننتظر قيامة الأموات.

وإيمان توما ظهر ضعفه أولاً عندما كان المسيح موجوداً في بيت عَبْرة أو بيت عنيا عبر الأردن (شرق الأردن) ــ ومعروف في التقليد اليهودي أن المسيح كان له خمسة تلاميذ من عبر الأردن وكان توماً واحداً منهم. وجاءه رسول من عند مرثا ومريم يخبره أن لعازر مريض، فقال المسيح بعد أن عرف أنه مات: «لنذهب إلى هناك» أي إلى اليهودية، وكان اليهود هناك متربصين به يريدون أن يقتلوه، فجزع توما من فكرة الذهاب إلى اليهودية ولكنه سلَّم نفسه للموت على أنه ليس رجاء في الحياة إن هم ذهبوا إلى اليهودية، فقال واليأس يخيم على قوله: «فقال توما الذي يُقال له التوأم للتلاميذ رفقائه لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو١١: ١٦). واضح من هذا القول أن توما يحب المسيح ويؤمن به ويتبعه من كل قلبه، ولكنه كان قد قرر أن إتِّباع المسيح ليس وراءه إلا الآلام والموت، ولكن لا مانع من الإتِّباع.

وعلى نفس المنوال كان المسيح قد لاحظ اضطراب التلاميذ، وأولهم في هذا كان توما، عندما أحسوا من كلام الرب أنه ينوي تركهم وأن هناك موتاً ينتظره: «لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي» (يو١٤: ١). واضح أن المسيح يراجعهم في مستوى إيمانهم به إذ لم يكونوا قد وثقوا

بعد أنه «ابن الله» والإيمان به ينبغي أن يكون على مستوى الإيمان بالله. ثم أضاف: «في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو١٤: ٢-٤). وهنا يمهد المسيح في أذهان التلاميذ لقبول أخبار انطلاقه إلى الآب عَبْر الصليب، وتدشينه الطريق إلى الأقداس العليا بدمه، مفتتحاً الباب لعودة الإنسان إلى كرامته الأولى للحياة في حضرة الله. ولكن توما لم يفهم شيئاً: «قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق» (يو١٤: ٥). لا هو فهم أين يذهب المسيح - وكأن المسيح لم يكن له رسالة إلا تعزية توما والبقاء بجواره إلى الأبد، ولا هو فهم معنى الطريق المؤدي إلى السماء وكأنه سيعيش على الأرض مخلّداً، ولا هو فهم معنى الصليب! وفي جملة مختصرة للغاية أراد المسيح من توما أن يمسك به وكفاه كالطفل الذي يضج من صعوبة السير مع أمه ولا يعلم إلى أين تسير، فتقول له: «امسك في ثوبي واتبعني وكفى»: «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو١٤: ٦). فإن كان المسيح هو الطريق فلماذا تنعي همَّ الطريق؟

وفجأة أُخذ المعلم منه ورآه وقد احتواه القبر، إلى هنا توقف إيمان توما. فلما قام المسيح من بين الأموات وبلغته الأخبار - وغالباً كان توما متغيباً عبر الأردن في مدينته؛ فلم يصدقها. ولما تواترت الأخبار أكثر فأكثر، حضر توما إلى أورشليم وقابل التلاميذ ولكنه لم يتزحزح عن إيمان الصليب والمجروح والموت والقبر: «فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب. فقال لهم إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع أصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن» (يو٢٠: ٢٥). إيمانٌ تُعوزه الرؤيا ويعوزه تصديق الشهادة، هو هو إيمان الموت وكفى وهو الذي تعوزه الحياة. لكن الحياة، وهي المسيح، قد أظهرت في إيمان القديس يوحنا الرسول وهي تحت الرؤيا والعيان، لذلك لم يمانع المسيح المُقام أن يظهر لتوما خصيصاً، وليس في الحقيقة لتوما ولكن لكل من بلغ في إيمانه شك توما وأعوزه اليقين؛ ولكي تبقى شهادة توما صكاً محفوظاً في خزانة الإنجيل يُغني عن وضع الأصبع في أثر المسامير واليد في الجنب المفتوح!! «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديَّ وهاتِ يدك، وضَعْها في جنبي، ولا تكون غير مؤمن بل مؤمناً.» (يو٢٠: ٢٧)

ولأول ولآخر مرة في تاريخ الإيمان بل في تاريخ الإنسان يتحسس إنسانٌ القيامة بإصبعه ويده. إيمان توما بلغ هنا النهاية، بل بلغ الذروة: «أجاب توما وقال له ربي وإلهي» (يو٢٠: ٢٨). لكن صبر الرب على شكوك توما بلغ أيضاً النهاية والذروة، فلم يعُدْ يطيق هذا المنهج جملة وتفصيلاً: «قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو٢٠: ٢٩). لقد حصر الرب

الطوبى أي البركة والسعادة في الإيمان الذي لا يطلب العيان.

ولينتبه القارىء فإنجيل القديس يوحنا ليس منشغلاً في تصوير شخصياته ولا كشف سرّ أعمالهم وحياتهم، ولكنه يقصد من هذا العرض المتعدِّد القامات لرجال الإيمان ونسائه أن يُبرز شخص المسيح، بحد ذاته، كيف يلقي ضوءه فيغيِّر من فكر الإنسان وسلوكه من قامة إلى قامة ومن مجد إلى مجد. هذا هو شغل إنجيل القديس يوحنا الشاغل.

الفصل السابع

الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

إنجيل القديس يوحنا لا يستقيم فهمه أو شرحه على مستوى كل تعليم بمفرده أو كل آية بمفردها، أو حتى كل أصحاح بمفرده، دون الإلتفات إلى الرباط السري الذي يربط الحديث بالمعجزة والمعجزة بمعجزة أخرى، سواء جاءت قبلها أو جاءت بعدها. فهناك ارتباط دقيق وعميق يربط بين حديث وآخر وبين معجزة وأخرى، بل وبين بدايته ونهايته. هذا الإرتباط الذي يسري في كل الإنجيل يلحّ على القارىء حتى يكتشفه. وبمجرد أن يكتشفه يعتبر أنه حصل على مفتاح الإنجيل الذي يدرك به مسار الروح في كل كلماته وأصحاحاته، ويبدأ يحس بحركة الروح تنتقل إلى قلبه وفكره وتضيء ذهنه. وهذا هو هو الإستعلان في إنجيل يوحنا، وهو من عمل الروح القدس الذي أوحى بالإنجيل وأملاه، وهذا ما ينشده كاتب الإنجيل أقصى ما ينشده!

هذا مع العلم أن كل آية تخدم موضعها تماماً، لتعطي المضمون الذي يقصده الحديث كجزء قائم بذاته، ليكون خطوة في كشف أو استعلان الحق والغرض الذي يهدف إليه الإنجيل. إلا أن كل آية بما يتصل بها من حديث وتعليم هي، في حقيقتها الكبرى، مرتبطة بآيات أخرى لتعطي في النهاية الصورة الكاملة المتدرِّجة للإستعلان الذي يهدف إليه الإنجيل.

ويكفي لكي نلفت نظر القارىء إلى هذه الحقيقة أن نقول إن الموضوع الرئيسي الذي يهدف إليه الإنجيل هو: «**لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه**» (يو٢٠: ٣١)؛ وأن بداية التعليم الذي بدأ به إنجيل يوحنا هو «**ينبغي أن تولدوا من فوق**» (يو٣: ٧)؛ وينتهي بمعجزة القيامة من الأموات!

وهكذا فإن إنجيل يوحنا يحوي منهجاً تفصيلياً يخضع لحساسية متناهية من حيث ترتيب وتدرج المبادىء الأساسية بحيث لا يحتمل على الإطلاق أي تغيير في مواضع الآيات والتعاليم وإلا تختل الوحدة القوية التي يبرزها الفكر الخلاَّق الذي وضعها!!

وعلى سبيل المثال نقدم آية تفتيح عيني الأعمى:

إذ نجد أن الإنجيل قبل أن يسرد قصة تفتيح عيني المولود أعمى مباشرة، يقدم المسيح معلناً عن نفسه أنه نور العالم: «**أنا هو نور العالم**» (يو٩: ٥)؛ فيبدو الكلام صعباً يحتاج إلى ما يبرهنه ويصدق عليه، لأن المتكلم الواقف أمامهم هو مجرد إنسان بحسب مظهره، وهم يعرفونه ويعرفون أسرته ومدينته، فكيف يُقبَل أن يكون هو نور العالم؟ وكيف؟ ولكن بعد خطوات وبدون تقديم أو تعليق يقدم الإنجيل معجزة شفاء المولود أعمى ويرى الناس أن الأعمى صار بصيراً وبالتالي كيف تحولت الظلمة عنده إلى نور. ولكن للأسف، فالناس ينشغلون بمعجزة الشفاء — بحد ذاتها — التي تمت في السبت، كما انشغلوا في قوله: «أنا هو نور العالم» كمقولة بحد ذاتها دون أن يربطوا ما قال بما عمل حتى يدركوا من يكون هذا الذي يعطي الأعمى نور العالم؟ لذلك فاتهم تطبيق القول على العمل ليروا أن العمل ينطق بحد ذاته بصدق ما قال، وهذا ما أخذه المسيح على اليهود، ويا ليته لا يأخذه أيضاً على القارىء. لأنه بمجرد الإحساس بالإرتباط بين كلام المسيح وعمله، تتكون لدى القارىء حاسة انفتاح البصيرة لإدراك سر المسيح.

وأيضاً حتى وبعد أن سرد الإنجيل المعجزة، لم يكتفِ الإنجيل بذلك. بل لكي يلفت الإنجيل فكر القارىء إلى الغاية من التعليم والغاية من المعجزة، عاد يحكي عن كيف قابل المسيح هذا الأعمى عينه، وكيف عرض عليه الإيمان به كإبن الله؛ فنجد الأعمى بلا أي تردد على الإطلاق يؤمن في الحال ويسجد. وهكذا يكشف الإنجيل عن معجزة أخرى يودُّها ويتمناها للقارىء، وهي انفتاح بصيرة الأعمى روحياً وإدراكه سر المسيح، فنال الحياة الأبدية بعد أن نال نور العالم. الأعمى البصير ربط بين ما تم له وبين هذا الذي فتح عينيه، فقبله في الحال بصفته التي أعلن بها عن نفسه وزاد عليها أن سجد له متعبِّداً!!

وهكذا، فإن ربط التعليم بالمعجزة ينشىء الإيمان. ثم بالتعليم والآية والإيمان يشير الإنجيل في صمت مهيب إلى صدق بدء الشهادة التي يشهد بها القديس يوحنا للمسيح أن «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو١: ٤). وبذلك يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح التاسع بما جاء في الأصحاح الأول، دون أي لفت نظر أو شرح، ليعطي القارىء فرصة لكي يدخل هذا المجال ويعيشه.

وعلى نمط المثال السابق وبنفس العمق، يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح الثالث بما جاء في الأصحاح الرابع دون أي تعليق أو لفت نظر. في الأصحاح الثالث ينفتح المشهد فجأة عن فريسي كبير معلم للناموس يأتي إلى المسيح في الظلام ليسأل عن الرسالة، فلا يردُّ المسيح عليه في

موضوع سؤاله، بل يداهمه بحقيقة تقطع عليه خط الرجعة في حواره الذي يريده، وتقلب كيان تفكيره، إذ تُنهي من دائرة معرفته كل مذخرات علمه وتعليمه؛ إذ قال له المسيح مباشرة لا يمكن لإنسان أن يرى أو يدخل ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد!! ولما اعترض واستنكر ووضع العقبات، بادره المسيح كما بادرنا معه: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا» (يو٣: ١٠)، لكي ينتبه ذهننا أن العهد القديم انتهى بمعلميه، لأنه هوذا معلم إسرائيل لا يعرف. إذن، فقد انتهت المعرفة من القائمين على المعرفة. وأخيراً يتركه المسيح بعد أن وضع أساساً جديداً ومتيناً للعهد الجديد. وهنا يصمت الإنجيل.

وبعدها يدخل الإنجيل إلى الأصحاح الرابع ليقدم لنا المرأة السامرية، امرأة خاطئة بلا اسم، ليست يهودية ولا أممية، ولا تعلم أي علم، هذه اختارها السيد المسيح ليطبق عليها درس نيقوديموس. ومن خلال مناقشة قصيرة عن ماء بئر يعقوب — ماء بركات الآباء — الغاطس في قاع البئر وشحّه والمُعطش أيضاً، كناية عن تراث الماضي وعدم نفعه، يكلمها المسيح عن الماء الحي. فبسرعة مدهشة طلبته ولكن في غير استعداد، فاستدرجها المسيح لتعترف بما فيها وبخطاياها، فاعترفت ولم تنكر، وكانت صادقة، فسكب عليها الماء الحي أي الروح. فاغترفت من الماء، وكانت أول من شهد عن المسيّا من غير اليهود. وهنا يصمت الإنجيل أيضاً، ليترك القارىء يفكر ويفهم أن نصف الأممية قد وُلدت من جديد من الماء والروح على يدي المسيح؛ من حيث تعذرت ولادة معلم الناموس! ولكن صمت الإنجيل هناك عند نيقوديموس وهنا عند السامرية هو التعليم الروحي عند إنجيل يوحنا، لأن فيه دعوة سريّة للقارىء ليرى ويقرر كيف خسر نيقوديموس العرض وكيف ربحته السامرية، وعلى أية شروط!!

ولكن لا ينتهي الربط بين هذين الأصحاحين بعد. إذ أننا لو عُدنا إلى الأصحاح الأول نجد أصل وشرح الأساس اللاهوتي والإيماني الذي فرّق أو الذي ربط بين نيقوديموس والسامرية!! أي بين الأصحاحين الثالث والرابع بجملتها: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله.» (يو١: ١٢و١٣)

هذا هو إنجيل يوحنا، يشرح بإسهاب، ويقدم المعجزة ببساطة، ويترك للقارىء فرصة ليستعلن المسيح.

وعلى مدى الإنجيل يحاول الكاتب أن ينبه ذهن القارىء بالرباط العميق الهادف، الذي يربط بين الحوادث والأقوال والمعجزات، وذلك بأن يذكّر القارىء بالمواقف السابقة التي يكون قد عبرها

بأصحاحات كثيرة حتى يلتحم ذهن الإنسان بسر الإنجيل وينمو الإستعلان في قلبه.

فمثلاً في الأصحاح الأول عدد ٣٠ يعطي الإنجيل فرصة ليوحنا المعمدان أن يشهد للمسيح قائلاً: «هذا هو الذي قلت عنه: يأتي بعدي رجل صار قدامي (في الرتبة) لأنه كان قبلي (أزلي)». وبعد ذلك في الأصحاح الثالث عدد ٢٦ يعتمد الإنجيل على ذاكرة القارىء فيما قرأ في الأصحاح الأول عن هذه الشهادة: «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن (المسيح) الذي أنت **قد شهدت له** هو يعمِّد».

وبالمثل يذكر الإنجيل في الأصحاح الأول كلام الفريسيين ليوحنا المعمدان هكذا: «فسألوه وقالوا له فما بالك تعمِّد إنْ كنتَ لست المسيح»؟ وبعد ثلاثة أصحاحات يعود الإنجيل ويستخدم ذاكرة القارىء فيما قرأ؛ حينما يواجه يوحنا المعمدان الفريسيين: «**أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح.**» (يو٣: ٢٨)

ثم يعود الإنجيل في الأصحاح الخامس يستخدم هاتين الواقعتين معاً حينما يقول بفم المسيح مخاطباً الفريسيين: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق.» (يو٥: ٣٣)

وأيضاً يقول المسيح في الأصحاح السابع مخاطباً اليهود: «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يو٧: ٣٤). ويعود المسيح في الأصحاح الثالث عشر يعقب على هذا القول مخاطباً تلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبونني، **وكما قلت لليهود**، حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا.» (يو١٣: ٣٣)

أما من حيث التدرج في الإستعلان مع الترابط الشديد في الأقوال والمعجزات فنعطي هذا المثل:

نقرأ في الأصحاح الخامس: «كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥: ٢٦). وذلك توضيحاً للآية التي أتت قبلها هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون.» (يو٥: ٢٥)

ثم في الأصحاح الحادي عشر إذ يقترب من المعجزة — الآية — التي نوى أن يصنعها، يصرِّح بأكثر وضوح وهو في طريقه لقبر لعازر الميت مشيراً إلى المعجزة أنها قيامة حقيقية من الموت بإعطاء الحياة: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥). ثم أمام قبر لعازر الميت يقول لمرثا: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠)، مشيراً إلى أن إقامة الميت من القبر وإعطاءه الحياة هو تمجيد لله الآب الذي أعطاه هذا السلطان. وأخيراً يخاطب الميت كما يخاطب حيًّا: «لعازر هلم خارجاً»

(يو١١: ٤٣)، فيقوم لعازر من بين الأموات، ويثبت المسيح أنه حقاً هو القيامة والحياة، ليطبقها على نفسه على الصليب وما بعده.

والآن إذا عدنا إلى الأصحاح الأول نجد الأساس اللاهوتي الذي بُنيت عليه كل هذه الأقوال وهذه المعجزات: «كان الكلمة الله... فيه كانت الحياة» (يو١: ١و٤). هذه في الواقع هي المسحة الروحية التي كُتِب بها إنجيل يوحنا.

فإذا عاد القارىء إلى هذه الآيات وغيرها وراجعها في مواضعها بتدقيق وبحث عن المقابل والمكمّل، يدرك شدة تداخل المواقف في الإنجيل واعتماد بعضها على بعض بصورة رتيبة دقيقة مركبة الواحدة فوق الأخرى، في امتداد مع ارتفاع متواصل في الإستعلان لخدمة بناء فكر وإيمان القارىء على أساس قوي لا يهتز.

هذا في الواقع قليل من كثير مما يفوق طاقة أي مؤلف بشري مهما كانت قدراته، وهذا بحد ذاته عجيبة في حد ذاتها وآية تهون بجوارها أي معجزة مهما كانت باهرة. فالروح واضح في الرباط الذي يربط بين القول والمعجزة، والمعجزة والمعجزة، والأصحاح والأصحاح، والبداية والنهاية.

هذا مع ملاحظة أن البؤرة التي تتجمّع فيها جميع هذه الأضواء المتسلطة من جميع الآيات وجميع التعاليم وجميع الرموز إنما هي **شخص المسيح** نفسه[1] باعتباره الكلمة المتجسد، أي باعتبار شخصه الإلهي الظاهر في جسد إنسان! فكل ما في إنجيل يوحنا، سواء كان حادثة أو آية أو تعليماً أو رمزاً، إنما يهدف إلى إلقاء ضوء جديد على هذه الحقيقة العظمى المعلّنة من بدء الأصحاح الأول: أن المسيح هو الكلمة وقد صار جسداً وحلَّ بيننا — ثم يُعتبر بالتالي دعوة سرية للقارىء ليؤمن به أنه ابن الله فينال منه الحياة الأبدية!

(١) راجع ما جاء في نهاية فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «المعجزات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «الشخصيات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي المقارنة بين «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا والثلاثة أناجيل الأخرى.

الباب الخامس

علاقة إنجيل القديس يوحنا بأسفار العهد الجديد

لم نشأ أن نضع المقارنات بين إنجيل يوحنا وبقية أسفار العهد الجديد من الرسائل وأناجيل ورؤيا، إلا بعد أن نكون قد قدّمنا عرضاً شاملاً لمحتويات إنجيل يوحنا نفسه. لذلك جاء هذا الباب متأخراً من جهة الترتيب المنهجي في الدراسة، ولكنه جاء في صميم موضعه من جهة المادة والعرض اللازمين لعمل المقارنات.

الفصل الأول

الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

توجد علاقة صميمية بين رسائل القديس يوحنا وإنجيله مما لا يَدَعُ هناك أي شك في نسبة إنجيل يوحنا لنفس كاتب الرسائل. علماً بأن الرسالة الأولى تأتي غُفْلاً من أسماء، أما الثانية والثالثة فتأتيان باسم الشيخ أو الكاهن πρεσβύτερος ولكن كلها تحمل الطابع الرسولي.

والرسائل تأتي بمفهومها الوعظي كشرح لدستور الإنجيل القائم على الحوادث التاريخية من آيات وتعاليم، وقد سُجِّل كلٌّ منها في أوانه وموضعه.

والرسالة الأولى بالذات تصور ما جاء في الإنجيل إنما في أسلوب شرحي ووعظي، ولكن بالرغم من التشابه المتوازي في الفكر والتركيب بين الرسالة والإنجيل إلاَّ أنه يبقى بعض الإختلافات في الإتجاهات العامة:

أ — ففي الرسائل نجد النظرية التعليمية قائمة على إبراز بشرية المسيح، بينما نجد في الإنجيل أن الإتجاه كله متجه ناحية إظهار مجده الإلهي. فالثقل التعليمي في الرسائل واقع كله على أن المسيا — أي المسيح — رجاء الأمم هو هو «يسوع»: «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (١يو٤: ٢و٣)، مما جعل كاتب الرسالة ينشغل في إثبات إنسانية المسيح الكاملة ويسوق التيار التاريخي في حياة المسيح إلى الروحيات المثالية. وهذا يتمشى تماماً مع عمل الواعظ والمبشر، في مقابل عمل الإنجيلي الذي يقوم على الدعم التاريخي لتصديق الدعوة.

ب — كما يوجد فارق هام في النظرة إلى الأخرويات، أي الأمور الخاصة باليوم الأخير والقيامة والحياة الأبدية وما يتبع ذلك. فالإنجيل يمرُّ في تعليمه على مجيء الرب (٢١: ٢٢)، (١٤: ٣) كما يمرُّ على ذكر اليوم الأخير (٦: ٤٠و٤٤)، ويذكر الدينونة العتيدة (٥: ٢٨) كل هذه يلمسها لمساً رقيقاً

دون أن يركّز عليها أو يجعلها هدفاً خاصاً لتعليمه. بعكس ما جاء في الرسائل، فاستعلان المسيح (٢٨:٢) وحضوره يبرزان كحقائق هامة ومحورية يركّز عليها وينتظر وقوعها تاريخياً وفي العالم. فإنه سيأتي تماماً كما أتى بالجسد: «لأنه قد دخل إلى العالم مُضلُّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً (مستقبلاً) في الجسد» (٢يو٧). «والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه حتى إذا أُظهر يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (١يو٢:٢٨)

ج — كذلك هناك فارق واضح في موضوع الشفاعة ἱλασμός عند الآب، فهي في الرسالة واضحة ودقيقة دقة كاملة أكثر منها في الإنجيل، وكذلك الإعتراف بالخطايا:

— «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١يو١:٨و٩)

— «وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفَّارة ἱλασμός لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١يو٢:١و٢)

د — كذلك في الرسالة الأولى يبرز القديس يوحنا موضوعاً جديداً وهو «المسحة» التي ينالها المسيحيون: «وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء» (١يو٢:٢٠)، «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً، كما علمتكم تثبتون فيه.» (١يو٢:٢٧)

والقديس يوحنا يذكرها في سفر الرؤيا أيضاً بصورة عملية عالية القدر ومجيدة للغاية:

— «... ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكْر من الأموات ورئيس ملوك الأرض (ممسوح) الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة (ممسوحين بالروح القدس) لله أبيه له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (رؤ١:٥و٦)

هـ — ومعروف في التقليد الكنسي والشرحي أن الرسالة هي من تأليف القديس يوحنا اللاهوتي، أما كلام الإنجيل فهو فوق أنه موحى به من الروح القدس حسب تقليد الكنيسة، فهو أيضاً كلام المسيح منقولاً، وله طابع الأصالة ومأخوذاً على أنه قاعدة أساسية وقضية إلهية مسلَّمة بسلطان إلهي.

ولكن الواضح أن القديس يوحنا أخذ كلام المسيح ومعجزاته وصاغها، لتكون صورة حية تشهد بواقعها الإلهي بما يصلح أن يكون إنجيلاً للإيمان يقوم على أساس التقليد الرسولي. وبناء على ذلك نجد القاعدة التاريخية في الإنجيل قد انكسرت في الرسائل ولم يعد لها التوقيع الزمني أو ملابسات

الظروف بل انطلقت التعاليم حرة ومطلقة تصلح لكل تاريخ.

و - كذلك نجد كلام الرسائل مكشوفاً وواضحاً لا يحتاج إلى تأويل. أما كلام الإنجيل فله تيارات تحتية، محمولٌ على الرمز يحتاج إلى شرح وتفسير كما هو واضح من المقارنة الآتية، حيث سيجد القارىء التوازي المدهش بين الإنجيل والرسائل، كما يتضح أن الرسائل كأنها الشرح والتفسير المطابق تماماً وأحياناً الرد أو الحل لسؤال كيف؟

الإنجيل	الرسائل
٣ : ١٦ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».	١يو ٤ : ٩ «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به».
٨ : ١٢ «أنا هو نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة».	١يو ١ : ٥-٧ «الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق. ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض».
١٥ : ٢٣ «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً».	١يو ٢ : ٢٣ «من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً».
٣ : ١١ «إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا».	١يو ١ : ٢ «الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا».
٥ : ٣٢-٣٤ «الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان».	١يو ٥ : ٩ «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه».

٥ : ٢٤ «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة».	١ يو ٣ : ١٤ «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة».
٥ : ٣٨ «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم».	١ يو ٢ : ١٤ «وكلمة الله ثابتة فيكم».
٦ : ٥٦ «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه».	١ يو ٤ : ١٥ «من اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله».
٨ : ٢٩ «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه».	١ يو ٣ : ٢٢ «ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضيَّة أمامه».
٨ : ٤٤ «ذاك كان قتَّالاً للناس من البدء».	١ يو ٣ : ٨ «لأن إبليس من البدء يخطىء».
٨ : ٤٦ «من منكم يبكّتني على خطية».	١ يو ٣ : ٥ «ليس فيه خطية».
٨ : ٤٧ «الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله».	١ يو ٤ : ٦ «نحن من الله، فمَنْ يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا».
١٠ : ١٥ «وأنا أضع نفسي عن الخراف».	١ يو ٣ : ١٦ «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا».
١٢ : ٣٥ «الذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب».	١ يو ٢ : ١١ «من يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضي».
١٣ : ٣٤ «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً».	١ يو ٣ : ٢٣ «وهذه هي وصيته أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح ونحب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصية».

١٥ : ١٠ «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي».	١يو ٤ : ١٦ «ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينـا. الله محبة، ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه».
١٥ : ١٨ «إن كـان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم».	١يو ٣ : ١٣ «لا تـتعجبوا يا إخوتي إن كان العالم يبغضكم».
١٦ : ٢٤ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً».	١يو ١ : ٤ «ونكـتـب إليـكـم هـذا لـكي يكون فرحكم كاملاً».
١٦ : ٣٣ «ثقوا أنا قد غلبت العالم».	١يو ٥ : ٤ «هـذه هـي الـغـلـبـة التي تـغلب العالم إيماننا».
٢٠ : ٣١ «وأما هـذه فـقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه».	١يو ٥ : ١٣ «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لـكـي تـعـلـمـوا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله».

كذلك نقدم على التوازي مجمل التعاليم التي قدمها القديس يوحنا في بداية إنجيله وهي من تأليفه في مقابل ما جاء في رسالته الأولى:

الإنجيل	الرسالة
١ : ١ «في البدء كان الكلمة ... وكان الكلمة الله».	١ : ١ «الـذي كـان من الـبدء ... من جهة كلمة الحياة».
	١ : ٢ «... ونخبـركـم بـالحياة الأبدية التي كانت عند الآب».
١ : ٩ «كان النور الحقيقي ... آتياً إلى العالم».	٢ : ٨ «إن الـظـلـمة قد مضت والنور الحقيقي الآن يضيء».

١ : ١٢ «وأما كـل الـذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله».	٣ : ١و٢ «أنـظروا أية محبة أعطانا الآب حتى تُـدعَـى أولاد الله... أيهـا الأحبـاء الآن نحـن أولاد الله».
١ : ١٢ «... أي المؤمنون باسمه».	٥ : ١٣ «أنتم المؤمنين باسم ابن الله».
١ : ١٣ «الذين وُلِدوا ... من الله».	٥ : ١ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِد من الله».
١ : ١٤ «والكلمة صار جسداً وحل بيننا».	٤ : ٢ «كـل روح يـعـتـرف بـيـسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله».
١ : ١٤ «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب».	١ : ١ «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه».
١ : ١٨ «الله لم يَرَهُ أحد قط».	٤ : ١٢ «الله لم ينظره أحد قط».

هـذا الـتـطابق بين رسالة القديس يوحنا الأولى وبين إنجيله، بل وهذا الإنضباط في المعنى البالغ الـدقـة والـصـحـة، والذي نجده في رسالته التي كتبها مبكراً جداً عن إنجيله، يشهد بلا نزاع أنه كان يحـمـل كـل تـعـاليم إنجـيله بين ضلوعه قبل أن يضع إنجيله. كما يتضح لدى القارىء أننا أمام معلم رسولي عالي القدر والقدرة لم يَحِدْ عن الخط الرسولي في تعليمه أو في إنجيله، بل ارتفع به إلى القمة!!

الفصل الثاني

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

يلاحظ القارىء في إنجيل يوحنا ألفاظاً واصطلاحات تُستخدم في الأسفار الرؤيوية، وبالأخص سفر دانيال وكذلك سفر الرؤيا مثل:

١ — اسم «**ابن الإنسان**» واسم «**المسيَّا**»، وهما الإسمان المحبوبان اللذان كانا دائماً على لسان المسيح.

٢ — كذلك تعبير «**ملكوت الله**»، و«**ملكوت المسيح**»، ويجمعهما بالنهاية في قوله: «ولكن الآن ليست **مملكتي** من هنا.» (يو١٨: ٣٦)

٣ — كذلك يذكر إنجيل يوحنا «قيامة الأجساد من القبور» (يو٥: ٢٨و١١: ٤٣)، وبعدها يذكر الدينونة (٥: ٢٩) سواء للذين فعلوا الصالحات أو للذين فعلوا السيئات. وهذا التعبير ورد بنفس التعبير في رؤيا دانيال ١٢: ٢٢. ثم يطوِّر مفهوم القيامة ومفهوم الدينونة ويجعلها من أفعال الحاضر الزمني (يو٥: ٢٤و٢٥ و١١: ٢٤—٢٦ و١٢: ٣١)؛ وهذا يوضح أن الخط الرؤيوي يغلب على روح الإنجيل.

٤ — كما يذكر الإنجيل أن «ابن الإنسان» هو الذي سيدين، وهذا تعبير رؤيوي (يو٥: ٢٧). هذا يمهد الذهن لقبول العلاقة بين كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا.

ويُعتبر سفر الرؤيا من حيث المذهب التعليمي وسيطاً بين الثلاثة الأناجيل الأولى وإنجيل يوحنا، ويكوِّن حلقة اتصال بينهما.

والأفكار التي تضع الخطوط الأساسية في إنجيل يوحنا نجدها واردة بصورة ما في سفر الرؤيا، ولكنها صورة متطورة من تعاليم الرسل في عصرها الأول. وقد نشأت إثر الظروف القاسية التي

دخلت فيها الكنيسة بعد خراب أورشليم والهيكل ووقوع الكنيسة في اضطهاد ظالم من روما، بعد أن أُخذت بذنب اليهود دون تفريق.

وبالرغم من ذلك، فإن سفر الرؤيا ينسجم عن قرب مع إنجيل يوحنا في التعاليم وترتيب الأفكار حتى أنه يُظهر سفر الرؤيا كأنه البذرة التي انطلق منها إنجيل يوحنا بطبيعة التقدم الذي تفرضه الحياة الروحية في الكنيسة.

نقاط التلاقي بين سفر الرؤيا وإنجيل القديس يوحنا:

إن نقاط التلاقي بين السفرين هي أكثر كثيراً مما يظن القارىء العادي لأول وهلة. فالفكرة الرئيسية فيهما كليهما واحدة!!

١ — فكل منهما يقدم صورة للصراع الماثل بين قوى الخير والصلاح وقوى الشر الهدامة. ولكن في إنجيل يوحنا يُصاغ هذا الصراع على أساس أخلاقي ومُدْرَكات واضحة لاهوتية؛ أما في سفر الرؤيا فيقدم نفس الصراع إنما في مناظر وصور رمزية.

إنجيل يوحنا يصيغ القوى المتصارعة في مسمياتها المطلقة، كالنور والظلمة والحياة والموت والمحبة والبغضة والحرية والعبودية.

أما سفر الرؤيا فيقدمها في أشخاصها: الله والمسيح والملكوت والكنيسة في مقابل الشيطان والوحش والنبي الكذاب.

ولكن الشخصية المركزية في كلا السفرين هي المسيح، الذي حينما يبلغ نصرته النهائية ينتهي التاريخ وتبلغ المناظر أَوَجَ كمالها. أما النصرة فتنعقد على شخص المسيح أولاً ثم أعماله. ولكن هذه النصرة الحقيقية تبدو دائماً في هيئة خذلان ظاهري: ألم، ذبح، دم، صليب، موت:

— «هؤلاء هم الذين أتوا من **الضيقة العظيمة**، وقد غسَّلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم **الخروف.**» (رؤ٧: ١٤)

— «وهم غلبوه بدم **الخروف** وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى **الموت.**» (رؤ١٢: ١١)

— «ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من **الأموات** ورئيس ملوك الأرض. الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا **بدمه** وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه.» (رؤ١: ٥و٦)

– «وستنظره كل عين والذين **طعنوه** وينوح عليه جميع قبائل الأرض. نعم آمين.» (رؤ١: ٧)

– «لأنك **ذُبحت** واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ٥: ٩)

– «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغِنَى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.» (رؤ٥: ١٢)

وفي كلا السفرين يكون ظهور مجد المسيح واستعلان قدرته وسلطانه من بعد امتحان وأزمة عنيفة ومحاكمة: «فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه (سفر خطايا العالم والقضايا المرفوعة من الشيطان ضد خطاة الأرض). فصرت أنا أبكي كثيراً لأنه لم يوجد أحد مستحقاً أن يفتح السفر ويقرأه ولا أن ينظر إليه. فقال لي واحد من الشيوخ: لا تَبْكِ، هوذا قد غَلَبَ (على الصليب) الأسدُ الذي من سبط يهوذا، أصلُ داود، ليفتح السفر ويفكَّ ختومه السبعة.» (رؤ٥: ٣–٥)

ويصطلع سفر الرؤيا بشرح تاريخي مثالي يحلل فيه المجرى المأساوي لعدم الإيمان ومقاومة الحق حتى الموت، الذي يوازيه في إنجيل يوحنا مجمل الأصحاح الثامن، والذي ينتهي بالحقيقة السافرة لعدم إيمان اليهود ومقاومتهم وبغضتهم الشنيعة للمسيح حتى تدبير القتل: «**أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا**. ذلك كان قتّالاً للناس من البدء» (يو٨: ٤٤)؛ في مقابل سفر الرؤيا: «**والتنين وقف أمام المرأة** العتيدة أن تلد **حتى يبتلع ولدها** متى وَلَدت. فولَدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصاً من حديد واختُطِف ولدها إلى الله وإلى عرشه.» (رؤ١٢: ٤و٥)

كذلك وبوضوح سافر: «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك مع أنك غني. **وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.**» (رؤ٢: ٩)

– «هأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، هأنذا أُصيِّرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك.» (رؤ٣: ٩)

كذلك في كلا السفرين يعاني المؤمنون مرارة الإضطهاد والتشريد ولا منقذ، إلا بالتمسك بالإيمان وحفظ شهادة المسيح ووصاياه حتى الموت؛ ففي إنجيل يوحنا نقرأ:

— «سيُخرِجونكم من الجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو١٦: ٢)

— «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم.» (يو١٥: ١٨و٢٠)

— «اثبتوا في محبتي. إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي.» (يو١٥: ٩و١٠)

— «الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح... فأنتم كذلك عندكم الآن حزن ولكن سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦: ٢٠و٢٢)

وفي مقابل ذلك نقرأ في سفر الرؤيا:

— «**فغضب التنين** على المرأة (الكنيسة) **وذهب ليصنع حرباً مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح.**» (رؤ١٢: ١٧)

— «**هنا صبر القديسين** هنا الذين **يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع.**» (رؤ١٤: ١٢)

— «أنا عارف أعمالك وتعبك **وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار وقد جرَّبت** القائلين **إنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين وقد احتملتَ، ولك صبر، وتعبتَ من أجل اسمي ولم تَكِلّ...**

لا تخف البتة مما أنت عتيد **أن تتألم به. هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضاً منكم في السجن** لكي **تُجرَّبوا ويكون لكم ضيق... كن أميناً إلى الموت...** أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسي الشيطان **وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني... من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن** المخفي وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد.» (رؤ٢: ٢و٣و١٠و١٣و١٧)

٢ — وسفر الرؤيا كالإنجيل لا يغفل فيها القديس يوحنا **الخصوصية التي لليهود** الذين ابتدأ منهم الخلاص للعالم كله «لأن الخلاص هو من اليهود» (يو٤: ٢٢). ولكن ينتهي بالخلاص لعمومية العالم كله: «هوذا يأتي مع السحاب وستنظره **كل عين**، والذين طعنوه (اليهود)، وينوح عليه جميع قبائل الأرض» (رؤ١: ٧)؛ «فحدثت أصوات عظيمة **في السماء** قائلة **قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه** فسيملك إلى أبد الآبدين» (رؤ١١: ١٥)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه.» (رؤ١٢: ١٠)

٣ — والملاحظ أن كلاً من إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا موثّق ومختوم **بالشهادة**، ليكونا على مستوى العمومية. وهي شهادة متعددة السلطة والسلطان، وعلى رأسها شهادة الرب يسوع نفسه لضمان خلاص كل من يتمسك بالمسيح والإنعتاق من غضب الله وهلاك الموت، الأمر الذي كفّله كلٌّ من الإنجيل وسفر الرؤيا بسخاء!

فنقرأ في مستهل سفر الرؤيا هكذا:

— «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب وبيّنه مُرسَلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا، **الذي شهد بكلمة الله — وبشهادة يسوع المسيح** بكل ما رآه.» (رؤ١: ١و٢)

— «كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.» (رؤ١: ٩)

— «اسجد لله، **فإن شهادة يسوع هي روح النبوّة.**» (رؤ١٩: ١٠)

أما إنجيل يوحنا فروح الشهادة فيه تغطي الإنجيل كله.

٤ — وفي سفر الرؤيا نرى أن التركيز على بشرية المسيح مع الشهادة «شهادة يسوع»، وهذا ما اختصره الإنجيل في الآية: «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٤)، يرتقي أيضاً إلى الإستعلان الصريح لبنوّة المسيح لله: «هذا يقوله ابن الله» (رؤ٢: ١٨ — أنظر أيضاً رؤ٢: ٢٧ و٣: ٥). ثم من إعطائه «المجد والسلطان» للمسيح (رؤ٥: ١٣) على مستوى الله، جنباً إلى جنب مع «الجالس على العرش»، ينكشف شخص المسيح كما جاء في الإنجيل: «أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٣٠)

٥ — ومن روح سفر الرؤيا التي تتعلق بتجسد المسيح وظهوره الإنساني، تنبثق العلاقة القوية بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا والتي تقوم على **تنازل الله وسكناه مع الإنسان**، كدليل مباشر على نجاح المسيح في أداء رسالة الفداء والمصالحة النهائية مع الله.

فكما نقرأ في إنجيل يوحنا: «أجاب يسوع وقال له إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، **وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً**» (يو١٤: ٢٣)؛ يرد عليه سفر الرؤيا بمطابقة فريدة: «هأنذا واقف على الباب وأقرع (القلوب المُحبّة) إن سمع أحد صوتي وفتح الباب **أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس **وهو سيسكن معهم.**» (رؤ٢١: ٣)

مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا:

بقدر ما يوجد بين السفرين من تطابق في الأفكار الهامة التي تحكم مسار المحتوى كله، إلا أنه توجد أيضاً مواضيع مواجهة عامة بين الإثنين نلخصها كالآتي:

١ — **موضوع المجيء الثاني:** في سفر الرؤيا نجده هو الموضوع الرئيسي، ولكن في إنجيل يوحنا لا يضعه في الوضع الرئيسي، بل يتلامس معه دون تركيز.

٢ — **الدينونة:** بقدر وضوح موضوع المجيء الثاني العلني في سفر الرؤيا، كذلك الدينونة، في حين أن إنجيل يوحنا يجعل من الدينونة عملاً روحياً حيث كل واحد يدين نفسه ويحاكمها على ضوء الإنجيل: «من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو١٢: ٤٨). هذا بالنسبة لليوم الأخير، ولكن في مواضع أخرى يجعل الدينونة منفصلة عن الزمن: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

أما في سفر الرؤيا فتأتي الدينونة واضحة: «ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء (انتهاء الزمن) ولم يوجد لهما موضع، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودِينَ الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم. وسلّم البحر الأموات الذين فيه وسلّم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله.» (رؤ٢٠: ١١—١٣)

٣ — **منظر الختام** في سفر الرؤيا سماء جديدة وأرض جديدة، أي تجديد العالم؛ في حين نجد إنجيل يوحنا يجعل الختام «**في بيت أبي** منازل كثيرة» (يو١٤: ٢). فلو انتبهنا لقول المسيح على الهيكل «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة...» (يو٢: ١٦)، ثم قوله أيضاً على الهيكل: «انقضوا **هذا الهيكل** وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو٢: ١٩)، ثم التفسير الذي انتهى إليه التلاميذ لما قال المسيح: «وأما هو فكان يقول عن **هيكل جسده**» (يو٢: ٢١)، من هذا نستطيع أن نفهم أن «في بيت أبي منازل كثيرة» تعني **الكنيسة السماوية**، أي جسده، وحيث «**المنازل**» هي مقام كل عضو في جسد المسيح السري!

٤ — **النصرة والتغيير النهائي** في سفر الرؤيا نراهما من الخارج، وبالقوة، وفي مضمون المستقبل الزمني ومصوَّران بتصوير مادي، في حين يقدم إنجيل يوحنا النصرة والتغيير اللذين يمارسهما المؤمن في الداخل بالروح وبتأثير روحي. وهما يتمان في الحاضر، حيث الحاضر الإلهي في المسيح هو استعلان

المستقبل بعينه، أي بمعنى آخر أن الخلاص والتغيير ونوال الحياة الأبدية كل هذا يتم منفصلاً عن الزمن.

٥ — **الصراع بين الخير والشر:** في سفر الرؤيا يمثّل بمناظر عديدة، كمعركة مهولة بين المسيح وبين اليهودية الكاذبة، وعبادة الأوثان، والسلطة الرومانية الإمبراطورية المضطهدة، وكل حليف لها أو خليفة، كذلك وبالأكثر مع النبوة الكاذبة. في حين يقدمه إنجيل يوحنا على حقيقته كصدام خفي ولكن دائم بين النور والظلمة، وبين الحق والباطل، وبين البر والخطية.

٦ — **أدوات الشر والباطل:** في سفر الرؤيا وحوش وتنانين ذات مناظر مفزعة وكأنها أرواح متجسدة منظورة. في حين يقدمها الإنجيل في إطار روح التزييف، وتعاليم فاسدة، وشهوات الشر الداخلية.

٧ — **أعمال الله:** يقدمها سفر الرؤيا كحياة ملؤها الأحزان والتعب، تتخللها الإنهزامات والصراخ ليتدخل الله بالنقمة ويعطي النصرة والسلام الدائم. في حين يقدم إنجيل يوحنا أعمال الله كلها متركزة في شخص المسيح، ومتعلقة به أساساً وكلياً، الذي عندما يفتقد قلب أحبائه بحضوره الإلهي يملأ الحياة فرحاً وسروراً ونعيماً في وسط أحزان الدنيا دون أن يتأثروا بها.

٨ — **شكل المسيحية وطبيعتها:**
أ — إذا نظرناها في سفر الرؤيا بمنظار يهودي متنصّر، أي من خلال جو زمانها، فإننا نرى الكنيسة بالخيال اليهودي الذي كان يشتهي أن يرى ويعيش زمن المسيا. فالكنيسة هي التكميل الضمني لنبوات العهد القديم، وخطوطها العريضة في العالم كمثل إسرائيل الجديدة النموذجية الشاملة للعالم: «وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل سبط من بني إسرائيل...» (رؤ٧: ٤)

وفيها أورشليم الجديدة، وهيكلها الإلهي، عوض ما خرّبه الرومان: «مَنْ يغلبْ، فسأجعله عموداً في هيكل إلهي ولا يعود يخرج إلى خارج (الطرد من المجمع)، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي واسمي الجديد.» (رؤ٣: ١٢)

— «لم أرَ فيها هيكلاً.» (رؤ٢١: ٢٢)

أما العبادة فهي على مستوى الطهارة بالفكر اليهودي: «لأن خارجاً الكلاب (النجاسة) والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً... ولا تكون لعنة في ما بعد.

وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه.» (رو٢٢: ١٥و٣)

ب ــ فإذا رجعنا إلى إنجيل يوحنا ونظرنا إلى المسيحية فيه بنظرٍ مسيحي صافٍ أي من خلال رؤية المؤمنين في زمان كتابة الإنجيل (سنة ١٠٠م)، فالمسيحية يُنادَى بها باعتبارها الحق المكمَّل الخالص؛ حيث تظهر اليهودية كعدوٍّ مقاوم لكلمة المسيح في العالم، كذلك تظهر معزولة عن المسيحية تماماً وخارجاً عنها، متعفِّنة، لا يُحسب لها حساب: «أجابوا (اليهود) وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع... أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٣٩و٤٤)

٩ ــ **النظرة إلى الله والتعبير عنه:**

في سفر الرؤيا يُنظر إلى الله بنفس نظرة العهد القديم، فهو «القادر على كل شيء (الكلي القدرة)» (رؤ١: ٨)، «الكائن والذي كان» (رؤ١: ٨ و١١: ١٧)، والذي يتمم دينونة عادلة على كل العالم (رؤ١١: ١٨).

ولكن لا يذكر السفر شيئاً قط عن محبة الله، وإرساله لإبنه، ولكنه يذكر الروح والكنيسة: «الروح والعروس يقولان تعال» (رؤ٢٢: ١٧).

في حين يستعلن إنجيل يوحنا الله في صفاته الجوهرية كآب وابن، ويستعلن عمل الله الآب فيما يخص محبته للعالم الخاطىء، كما يستعلن صلته السرية الدائمة بالعالم وغرضه من وجود العالم وخطة الخلاص العظمى التي أضْمَرها الله منذ قبل إنشاء العالم. ويذكر الروح القدس بأسمائه وأعماله المتعددة.

١٠ ــ كما يوجد بين السفرين نقاط اختلاف واضحة في اللغة، سواء في الكلمات أو في الأسلوب. لذلك فالإختلاف بين وجهات النظر تزداد مع اختلاف اللغة.

ويلاحظ أن عدم انتظام الأسلوب في سفر الرؤيا لا يُنسب كثيراً للجهل باللغة، بقدر ما يُنسب إلى عدم التدقيق في اختيار الألفاظ. ويُعزى ذلك للغرائب والمفازع التي رآها القديس يوحنا، وفي نفس الوقت لا ننسى أن الكاتب يكتب بلغة غريبة عليه.

على أنه يمكن اعتبار إمكانية التغيير إلى أفضل، إذا وضعنا في الحسبان فارق الزمن الطويل منذ بدأ الكاتب يخالط القوم الذين يكتب بلغتهم؛ ونقصد الزمن من كتابة سفر الرؤيا إلى كتابة إنجيل يوحنا، بمعنى أن القديس يوحنا أتقن اللغة اليونانية بعد ما مكث في أفسس ما يزيد على ثلاثين سنة! لأن كتابة سفر الرؤيا تمت بحسب حسابات العلماء بعد خراب أورشليم والهيكل سنة

٧٠م، وإنجيل يوحنا كما علمنا تم حوالي سنة ١٠٠م.

وبالرغم من أن كثيرين من العلماء يقطعون بعدم نسبة سفر الرؤيا للقديس يوحنا بصورة جازمة، يقف بعضٌ من أشهر وألمع العلماء مثل «و. بوسّيت» W. Bousset الذي كتب أعظم تفسير لسفر الرؤيا باللغة الألمانية، وكذلك «ر. هـ. تشارلز» R.H. Charles الذي كتب مجلدين في حلقة I.C.C. للشرح باللغة الإنجليزية ويعتبر أكمل شرح ظهر في هذا الموضوع. وكلا المؤلفين يؤكدان أنه بالرغم من الإختلافات ذات القيمة في الأسلوب والمحتوى التي توحي باختلاف المؤلف في كل من الإنجيل وسفر الرؤيا، إلا أن التشابه بينهما في الجمل والتعاليم تُظهر أن هناك بالقطع علاقة كبيرة بين نفس كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا[1].

ويقدِّم العالم الألماني المشهور «جوهانس ڤايز» نظريته التي تقول إن كتابة سفر الرؤيا والرسائل والإنجيل تمت من وسط حلقة خاصة بنفس الكتَّاب في نفس المكان ونفس الزمان تقريباً، ولها نفس التركيب الواحد!

هذه هي باختصار شديد نقاط الإتفاق والإختلاف بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا. ولكن هذه النقاط في الإختلاف والوفاق يمكن استقراء نتائج لها:

أ — فالإختلافات بين السفرين إنما تُعزَى إلى اختلاف في ظروف كتابة كل منهما. على أنه لا يوجد ثمة تناقض بينهما ما يمس شخصية الكاتب، أي أن الإختلاف ليس بالدرجة التي تنتهي بنا إلى القطع باختلاف شخصية الكاتبين. علماً بأن الكنيسة القبطية تؤمن أن كاتب سفر الرؤيا هو القديس الرسول يوحنا بن زبدي.

ب — بدراسة محتوى السفرين، يتضح أن كتابة سفر الرؤيا أقدم من كتابة إنجيل يوحنا، وهي أقل وضوحاً وأقل ترتيباً سواء في الفكر أو الأسلوب. ولكن موضوع سفر الرؤيا يحمل أفكاراً تقدمية عن زمن كتابة الأناجيل الثلاثة الأولى سواء في أسلوب الشرح أو الرموز الحية.

ومن المؤكد أن سفر الرؤيا كُتب بعد أن ختم القديس بولس الرسول رسائله، بل بعد استشهاده الحزين مع القديس بطرس الرسول.

كما نلاحظ أن سفر الرؤيا قريب من الرسالة إلى العبرانيين ورسالتي بطرس الرسول ورسالة يهوذا، التي فيها لا تزال المسيحية ماسكة بتلابيب العهد القديم.

---

[1] Howard, W.F., op. cit., p. 14.

وأخيراً، وبينما نجد سفر الرؤيا يلحّ على سرعة مجيء الرب، كرسالتي بطرس الرسول، وذلك بسبب عنف الإضطهاد والضغط الذي كان واقعاً على الكنيسة آنئذ، نجد أن مجيء الرب في إنجيل يوحنا له معنىً روحي واقعي في الحاضر المُعاش الآن. لهذا فإن إنجيل يوحنا يُعتبر أنه بمثابة الردّ الروحي على صراخ سفر الرؤيا. فمادة إنجيل يوحنا صَقّلتها السنين، وأضاءت لها الحوادث، فازدادت ثراءً وواقعية روحية بمرور الزمن.

وكان ضياع مركز الديانة اليهودية بتحطيم أورشليم والهيكل وتشريد اليهود، هو البداية الحاسمة المتألقة التي رسَّخت أقدام المسيحية، وسار بها الروح على دروب العالم الواسع يرشد أقدام الرسل أينما ساروا إلى الحق كل الحق حسب الوعد.

وهكذا يقع سفر الرؤيا كحلقة ربط بين الأناجيل الثلاثة وإنجيل يوحنا، فتعاليم سفر الرؤيا عن المسيح وأعماله تُظهر نوع التقدم في الإستعلان الذي سار فيه السفر بعد الأناجيل الثلاثة. ومن الأوصاف الآتية يتضح للقارىء مدى التقدم في التعبير عن صفات المسيح وأعماله:

+ الأسد الغالب من سبط يهوذا، أصل وذُرِّيَّة داود، كوكب الصبح المنير: رؤ٥:٥، رؤ٢٢:١٦.

+ ذُبح، مصلوب، مطعون، قام حيًّا من الأموات: رؤ١١:٨ و٥:٩ و١:٧ و١:٥.

+ غسلنا بدمه من خطايانا، اشترانا بدمه لله: رؤ١:٥ و٥:٩.

+ أعطانا الغلبة بدمه: رؤ١٢:١١.

+ رُفع في مجد وكرامة، وأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة: رؤ٥:١٢.

+ شهادته هي روح النبوة: رؤ١٩:١٠.

+ رئيس كهنة متمنطق على صدره: رؤ١:١٢.

+ «ابن الله»، «كما أخذت أنا أيضاً من عند أبي» رؤ٢:١٨ و٢:٢٧ و٣:٥.

+ ابن الإنسان: رؤ١:١٢.

+ القدوس الحق: رؤ٣:٧.

+ كلمة الله: رؤ١٩:١٣.

+ ملك الملوك ورب الأرباب: رؤ١٧:١٤.

+ الأجناد التي في السماوات يتبعونه (رب الجنود): رؤ١٩:١٤.

+ الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: رؤ١:٨ و١:١٧.

+ قائم مع الله في المجد والكرامة والسلطان: رؤ٥:١٣.

+ صارت له مع الله كل ممالك العالم، وسيملك إلى أبد الآبدين: رؤ١١:١٥.

وهكذا يلاحظ القارىء أن سفر الرؤيا يعطي المسيح كل ألقاب الله في العهد القديم. وفي الوقت الذي تخلو فيه الثلاثة الأناجيل من أيّ ذكر للمسيح قبل تجسده، نجد سفر الرؤيا يعطي تلميحات بخصوص وجوده السابق للتجسد، فيصف المسيح:

١ — بالألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: ١:٨ و١:١٧.
٢ — الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء: ١:٨.
٣ — بداءة خلقة الله (العِلّة الأولى للخلق): ٣:١٤.
٤ — كلمة الله: ١٩:١٣.

وهذه هي الإرهاصات الأولى التي وُضعت خطوط إنجيل يوحنا على ضوئها. فالقديس يوحنا سمع بأذنه اسم ابن الله «الكلمة»، فلم يأخذها من غنوسيين أو غيرهم. وهكذا نتحسس بداية معرفة «اللوغُس»، ولكن في غلاف من مفهومات وألقاب العهد القديم الخاصة بالله وحده. فإذا كان رسول ما قد استطاع أن يسمع ويرى «المعلم» الذي كان يتبعه كتلميذ بهذه الأوصاف كلها، ويُزيد عليها أنه رأى القوات السمائية تعطيه الخضوع والولاء والعبادة والسجود وتتبعه، فلا يوجد أية صعوبة في فهم كيف ارتفع هذا الرسول والتلميذ الرائي — دون أن يأخذ الفكر البشري بالعنف بل في هوادة وتؤدة روحية — ليرى الحقيقة في السر الأزلي الذي كان مخفياً، أي: «في البدء كان الكلمة... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده»!! (يو١:١و١٤)

وفي الختام، ومن دراسة الأناجيل الثلاثة وبعدها سفر الرؤيا ثم إنجيل يوحنا على التتابع، يظهر لنا بالتمام كيف استطاع الوحي الإلهي أن يرتفع بالفكر البشري تحت الظروف المواتية والمتتالية لكي يصل إلى إعلان ملء مجد المسيح ابن الله، ليس مرة واحدة ولكن خطوة خطوة، مستعيناً بتعاليم الأنبياء: «لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة، إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقْبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبَتُ التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم.» (٢بط١:١٦—١٩)

الفصل الثالث

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

ما هو الإنجيل وكيف نقترب إليه؟

«إنجيل» كلمة ليست عربية بل يونانية صرف: εὐαγγέλιον (إڤانْجِلْيُون)، وهي من مقطعين:

الأول — εὐ يعني سار أو مفرح.

والثاني من كلمة ἀγγελία وتعني خبر أو رسالة أو بشارة. فبادىء ذي بدء ينبغي أن نعلم أننا نتعامل مع إنجيل، أي مع الخبر السار أو البشارة المفرحة. فهو ليس مؤلَّف أدبي أو علمي أو تاريخي، بل رسالة خلاص مبهجة جاء بها المسيح معلناً عن كشف أو استعلان أو انفتاح طريق الخلود والحياة الأبدية وبدء زمان الأُخرويات. «ما أجمل على الجبال قدمي **المبشر المُخبر بالسلام، المبشر بالخير، المُخبر بالخلاص،** εὐαγγελιζόμενος، القائل لصهيون: قد مَلَك إلهك» (إش٥٢: ٧). فالمبشِّر بالسلام وبالخلاص يقول: قد مَلَك الإله!

ويسوع المسيح الذي في الأناجيل الثلاثة بَشَّر بإنجيل الله: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل **يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول قد كَمُل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل**» (مر١: ١٤و١٥). فالمسيح الذي بشَّر بإنجيل «**مُلْك الله**»، استُعْلن في النهاية أنه هو هو «**إنجيل الله**» كما يراه ويعلِّم به القديس بولس:

«بولس عبدٌ ليسوع المسيح، المدعوُّ رسولاً المُفرَزُ **لإنجيل الله** الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه...» (رو١: ١و٢)

وكما تراه الكنيسة وتعيشه، فإنجيلها هو ربنا يسوع المسيح، الألف والياء فيه! فالمناداة بالكلمة الشفهية عن استعلان الخلاص الذي تم في المسيح وبه، التي قالها المسيح عن نفسه، كُتبت بعد

ذلك في كتاب هو الإنجيل، مسجِّلاً فيه كل ما قال المسيح وعمل، وبالدرجة الأولى موته وقيامته، حتى يقبله الناس ويؤمنوا به فيخلصوا.

فإذا أقدم العلم والعلماء ليفحصوا «الإنجيل» على مستوى كلماته وتراكيبه وحروفه وأسلوبه الأدبي فقط، دون أن ينتبهوا لمحتواه الروحي الأساسي، يكون العلم والعلماء قد عثروا عثرة بليغة تكاد تكون مميتة في فهم الإنجيليين وقصدهم الذي كتبوا من أجله الأناجيل.

فهل أقدَم الإنجيليون على تسجيل أناجيلهم بقصد سرد رواية حياة يسوع الناصري كسفر أخبار أيام وأقوال وأعمال **فقط**؟ هذا ما توهّمه العلماء النقديون، وكان هو الباب الخاطىء الذي دخلوا منه فتاهوا وهم يبحثون عن صحة التواريخ وأوليات الكلام وأواخره، وأشكاله ومصادره، ومعقولية الحوادث وتصنيفها، وإخضاعها للمقابلات بين هذا الإنجيل وذاك.

وهكذا عندما بدأت المقارنات بين الأناجيل على المستوى التاريخي والحرفي واللفظي، ظهر في الحال إنجيل يوحنا أنه مخالف لبقية الأناجيل الثلاثة، فابتدأت تتسلط عليه أضواء النقّاد؛ واصطدموا حتماً، وبالضرورة، بالمفارقات والمتضادات بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل لأنهم سقطوا تحت مقتل الحرف: «الحرف يقتل» (٢كو٣:٦)، وأما الروح ففلت من بين أيديهم وعقولهم المتصارعة مع الحق الإلهي المختبىء وراء الحرف المكتوب. وهكذا انطمست معالم التركيب الروحي العميق في الإنجيل أمام عقولهم، ليس في إنجيل يوحنا فحسب بل وكل الأناجيل.

تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى:

ليس من العسير على أي قارىء أن يلحظ الفارق في الرواية وإبراز شخصية المسيح، عندما يقرأ الأناجيل الثلاثة، ثم يدخل في قراءة إنجيل يوحنا.

فإنجيل يوحنا يوضّح، بما لا يدعو إلى الشك، أن المسيحية فيه قد بلغت مرحلتها المتقدمة في الفكر، وأن الكنيسة دخلت دوراً حاسماً في التاريخ. فقد انقضى ما يقرب من ٥٠ سنة بين كتابة الأناجيل الثلاثة وكتابة إنجيل يوحنا[1].

هذه النظرة من نحو الأناجيل، وتفوُّق إنجيل يوحنا عليها، أمر ثابت في التقليد الآبائي في شرح إنجيل يوحنا. وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[إن الأربعة الأناجيل، أو بالحري الأربعة الكُتب التي للإنجيل الواحد؛ نرى فيها القديس

1 Leon-Dufour, Xavier, The Gospel & History, p. 41.

يوحنا الرسول، ليس بعدم استحقاق من جهة معرفته الروحية يُمثَّل بالنسر الذي ارتفع بتعاليمه أعلى وأكثر سموًّا من الثلاثة الأناجيل الأخرى. وارتفاعه بتعاليمه هذه (عظاته) رفع قلوبنا بالمثل. لأن الثلاثة الإنجيليين تمشّوا مع الرب على مستوى الأرض كما مع إنسان، أما فيما يختص بلاهوته فلم يتكلموا إلاَّ قليلاً. أما هذا الإنجيلي — يوحنا — فقد نأى عن الأرض والتمشي فيها، إذ أرعد علينا من علٍ منذ افتتاح حديثه، وحلّق مرتفعاً ليس فوق الأرض وكل دائرة الكون أرضاً وسماءً؛ بل وفوق جيوش الملائكة وكل طغمات القوات غير المنظورة، حتى أتى إلى مَنْ خلق العالمين.](٢)

وبالرغم من أن التقليد الكنسي يؤكد أن القديس يوحنا كان على دراية بالأناجيل الثلاثة وكتب إنجيله على هذا الأساس، إلا أن رأي العلماء المشهورين والمقتدرين في أبحاث الكتاب المقدس ومن دول كثيرة، استقر على أن إنجيل يوحنا مستقلٌّ تماماً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، بمعنى أنه لم يأخذ عن إنجيل آخر، وإن كان على دراية حتمية بالتقليد الرسولي الذي استخدمته الأناجيل الأربعة على السواء.

ومن العلماء المعتدّ بهم حديثاً مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ من الأناجيل الأخرى، مثل العالم المشهور Barrett C.K.، وخاصة من إنجيل مرقس، لأن هناك عدة حوادث وأحاديث جاءت بنفس ترتيبها هنا وهناك. ولكن انبرى له العالم Leon Morris (٣) سنة ١٩٧١م عميد جامعة ملبورن بأستراليا، وفنّد أقواله وبراهينه وأضْعَفَ من حُججه، ونقد جدوله الذي تعب فيه طويلاً، وأثبت صحة رأي العلماء القائلين باستقلال إنجيل يوحنا تماماً.

ونحن نرى — وبحسب التقليد القبطي الذي يقول أن القديس يوحنا هو كاتب سفر الرؤيا وإنجيله — أن انفراد إنجيل يوحنا عن باقي الأناجيل هو بسبب استلامه أموراً أكثر استعلاناً، خاصة فيما استلمه مباشرة من المسيح في الرؤيا. ومَن يدري ماذا أخذ بعد الرؤيا؟ وكان يجب أن يكون هذا واضحاً ومعلوماً عند الجميع.

ونحن لا نريد أن نقارن أيضاً أو نوفِّق بين الأربعة الأناجيل على مستوى الحرف، بل على مستوى الروح العميق.

---

2 St. August., Hom. on Gosp. of St. John, tract. XXXVI.

3 Morris, Leon, The Gosp. accord. to St. John, p. 51.

ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا:

يأتي تشبيه ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل على شكل أمثلة من **أمور الحياة الأرضية**، فمثلاً يُشبَّه ملكوت السموات بحبة خردل، أو بشبكة أُلقيت في البحر، أو بقمح زُرع وأخذ ينمو... إلخ. ثم ينتهي بنا إلى سؤال محيِّر: وما هو ومَن هو ملكوت الله؟

في إنجيل يوحنا يأتي بنفس التشبيه بعينه، ولكن ليس على **«ملكوت الله»** بل على **«المسيح نفسه»!!** فالمسيح يشبِّه نفسه **بأمور الحياة الأرضية**: «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الكرمة»، أو يشبِّه نفسه **بحبة الحنطة**، التي وقعت لتموت ثم تقوم وتنمو لتأتي بثمر كثير!! (يو١٢: ٢٤). **وواضح هنا أن إنجيل يوحنا يضع المسيح نفسه موضع ملكوت الله**[٤] **وبهذا يشرح ما هو ملكوت الله الذي ركَّزت عليه الثلاثة الأناجيل!!**

وهنا فهمنا أن ملكوت الله هو امتلاك الله للإنسان، ودخول الإنسان في مُلْك الله، في شخص المسيح نفسه!!!

فتشبيه ملكوت الله بحبة خردل أخذت تنمو حتى صارت شجرة تتآوى فيها طيور السماء، هذا التشبيه وحده يحتاج إلى تفسير، فيأتي إنجيل يوحنا ويقول شارحاً ومُضيفاً الإستعلان المخفي في المثل، وهو المسيح نفسه! لأن حبة الخردل أو حبة الحنطة سيَّان، يتحتم أن تقع لتموت أولاً ثم تقوم. وهنا يضع المسيح نفسه موضع هذه الحبَّة، فيُصلب ويموت ويُدفن في الأرض، ويقوم كشجرة كبيرة أو كنيسة، يملك عليها الله، أو كرمة حقيقية ذات أغصان تتآوى فيها طيور السماء أي أبناء الله، يأويهم المسيح في حضنه، أو كأعضاء في جسده يرعاهم ويعولهم!

هكذا يستطيع إنجيل يوحنا أن يعطي التفسير لكافة الأمثال التي جاءت في الثلاثة الأناجيل، على أساس أن التشبيه يقوم بالنسبة لشخص المسيح نفسه — فالمسيح أعطى بحياته وموته وقيامته ما يكفي لشرح كل ما يخصُّ الإنسان في الحاضر والمستقبل. وليس من الصعب بعد أن فكَّ القديس يوحنا في إنجيله الرمز في المثل، أن يعود القارىء ليشرح لنفسه كل أمثال المسيح.

بهذا يُعتبر إنجيل يوحنا — بسبب قوة الإستعلان الذاتي للمسيح فيه — شارحاً ومكمِّلاً لكل ما جاء في الثلاثة الأناجيل مكوِّناً منها وحدة واحدة أو إنجيلاً واحداً. حتى إنه بدون إنجيل يوحنا، تبدو الثلاثة الأناجيل كسؤال يحتاج إلى حل!

---

(٤) وهذا يتفق تماماً مع سمة إنجيل يوحنا في تسليط الأضواء على شخص المسيح نفسه، في كل ما يتضمنه هذا الإنجيل من أحاديث وتعاليم ورموز ومعجزات. وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

المسيح في الأربعة الأناجيل:

الثلاثة الأناجيل الأولى أبرزت المسيح في صورته البشرية، أي أنها ركّزت على تأنُّس الإله، وطبعاً لم تُغفل لاهوته إذ هو مُعلَن في معجزاته وقيامته.

فجاء إنجيل يوحنا وأبرز المسيح في صورته الإلهية، أي أنه ركّز على لاهوت المسيح ولم يُغْفِل الجسد أيضاً إذ أعلنه واضحاً: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا» (يو١: ١٤)!!

ومن هذا الجدول البسيط الآتى لبعض المواقف يتبين، إلى حدٍّ ما، هذه المقابلة المكمّلة لبعضها:

الثلاثة الأناجيل [التركيز على الصورة البشرية]	إنجيل يوحنا [التركيز على اللاهوت]
مت ١: ١ و١: ١٨ ,,ميلاد،، المسيح الجسدي: + «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود...». + «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا...».	يو ١ : ١و١٤ الميلاد الأزلي أو البنوة الأزلية على الأصح: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» ... «والكلمة صار جسداً».
لو ٢ : ٥٢ «كان ,,يتقدم،، في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».	يو ١ : ١٤و١٦ «وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً، ... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة».
مت ٩ : ٢٧ معجزة الأعميين: «تبعه أعميان يصرخان ويقولان: ارحمنا يا ابن داود».	يو ٩ : ٧و٣٥–٣٨ معجزة المولود أعمى: «فمضى واغتسل وأتى بصيراً... وقال له أتؤمن «بابن الله»... من هو يا سيد لأومن به؟... قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو. فقال أومن يا سيد، وسجد له».

مت ١٢ : ١—٨

كسر السبت والتشبيه بداود:

«**فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون**. فالفريسيون ... قالوا ... لا يحل فعله في السبت.

فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود...

فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً».

يو ٥ : ١٦—١٨

كسر السبت والتشبيه بالله الآب نفسه:

«كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت.

فأجابهم يسوع **أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل** ...

... لم ينقض السبت فقط بل قال أيضاً **أن الله أبوه معادلاً نفسه بالله**».

مر ٦ : ١ ؛ مت ١٣ : ٥٤

وطن المسيح الأرضي:

«وخرج من هناك وجاء إلى **وطنه** وتبعه تلاميذه».

«ولما جاء إلى **وطنه** كان يعلمهم في مجامعهم».

يو ٨ : ٢٣ و١ : ١٨ و١٦ : ٢٨ و٣ : ١٣

وطن المسيح السماوي:

«أنتم من أسفل أما **أنا فمن فوق**؛ أنتم من هذا العالم **أما أنا فلست من هذا العالم**».

«**الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب** هو خبَّر».

«**خرجتُ من عند الآب**، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أترك العالم **وأذهب إلى الآب**».

«ليس أحدٌ صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء **ابن الإنسان الذي هو في السماء**».

مت ٢٦ : ٣٦—٣٩

في مواجهة الصليب، مواجهة الجسد للموت:

«اجلسوا ههنا حتى أمضي **وأُصلي** هناك... وابتدأ **يحزن ويكتئب**. فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت... **اسهروا معي**... **وخرَّ على وجهه** وكان يصلي...».

يو ١٧ : ١ و٤ و٥ و١٨ : ٤

في مواجهة الصليب، مواجهة اللاهوت للموت:

«أيها الآب قد أتت الساعة. **مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً**».

«**أنا مجدتك على الأرض**. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. **والآن مجِّدني أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم**».

«**وخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه**».

لو ٢٣ : ٤ و١١	يو ١٨ : ٣٣–٣٧
أمام بيلاطس: مجرد إنسان محتقَر:	**أمام بيلاطس:** ملك ومُلْكُه ليس من هذا العالم:
«**إني لا أجد علة في هذا الإنسان**».	«ودعا يسوعَ وقال له **أنت ملك اليهود؟**...
«**فاحتقره هيرودس**».	أجاب يسوع **مملكتي ليست من هذا العالم!...**
	فقال له بيلاطس **أفأنت إذن ملك؟ ... أنت تقول أني ملك. هذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق.**
لو ٢٤ : ٤١و٤٣و٥١	يو ٢٠ : ٢٨و١٧
بعد القيامة: تحقيق صحة الجسد:	**بعد القيامة:** تحقيق لاهوت المسيح:
«قال لهم أعندكم ههنا طعام؟... **فأخذ وأكل قدامهم**».	«أجاب توما وقال له: **ربي وإلهي...**».
«**وأصعد إلى السماء**».	«**إني أصعد إلى أبي**».

من هذه المقابلة، يتضح بأجلى بيان مقدار تركيز إنجيل يوحنا على استعلان لاهوت المسيح في جميع المواقف وعلى كافة المستويات، وكأنه يشرح الأناجيل الثلاثة قولاً على قول؛ هم يشهدون على تأنُّس الإله وكيف سلك كواحد من بني البشر، ويوحنا يشهد للاهوته الفائق كإله يسكن بين بني البشر(٥). لهذا لم يكن في منهج القديس يوحنا أن يوقِّع حياة المسيح تاريخياً على دقائق الزمان وثوانيه، لأنه كان مشغولاً باستعلان الأزلية فيا يخص المسيح في لاهوته وفي علوِّ مجده وأسراره، وبالنهاية انتهى إلى ما يقصده: «**وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله**»!! (يو٢٠: ٣١)

ولكي يأخذ القارىء فكرة خاطفة عن رؤية إنجيل يوحنا للمسيح اسمه وهو يقول: «خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم وأذهب إلى الآب»!! (يو١٦: ٢٨)

فبالرغم من الخروج والمجيء والذهاب على مستوى الحركة الزمنية والمكانية، التي هي قصة

---

(٥) ويعلق على هذا العالم K.E. Schäfer بقلم شناكنبرج: [نحن نرى المسيح في إنجيل يوحنا من خلال شفافية واضحة، ... مثل الثلاثة الأناجيل أيضاً. والفكرة التي أعمت كثيرين من العلماء أن المسيح ظهر كإله فقط في إنجيل يوحنا وكإنسان فقط في الأناجيل الأخرى قد انتهت تماماً اليوم. وقد تأكدنا مرة أخرى أن مسيح الأناجيل الثلاثة حتى وفي إنجيل القديس مرقس هو أيضاً شخصية إلهية.] Cited by Schnack. op. cit. p. 14 n. 14.

الأناجيل الثلاثة المتحركة داخل إطار الزمن أي التاريخ، يبقى المسيح كما هو في إنجيل يوحنا: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يو١: ١٨)، «ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣: ١٣). وكأنما يتمجد الزمان إلى لحظة، ويتلاشى المكان من الرؤيا العينية، ليُستعلن المسيح ومكانته فوق الزمان والمكان — وبلغة سفر الرؤيا: «**الكائن**، والذي **كان**، والذي **يأتي**» (رؤ١: ٨)؛ «**والحي**، وكنتُ ميتاً، وها أنا **حي** إلى أبد الآبدين.» (رؤ١: ١٨)

وهكذا نجد في الأناجيل الأربعة صورة للمسيح صحيحة متكاملة تماماً، ومن الأربعة الأناجيل يتكون منهج اللاهوت الكامل الذي دخلت فيه الكنيسة وعبرت به ثلاثة مجامع مهيبة وثلاثة قرون طويلة مع جهاد الإيمان الدامي، خرجت بعدها باستعلان وحدة الناسوت واللاهوت فصارت الكنيسة بلاهوتها التوحيدي ضامنة وحدة الأناجيل الأربعة، وصارت الأناجيل الأربعة ضامنة لكيان الكنيسة كمصدر لحياتها وبقائها.

ومن هنا وبالتالي، نرى التقليد الكنسي حارساً لصحة العقيدة ووحدة الأناجيل. فقد تسلمت الكنيسة القبطية من آباء الكنيسة العظام من بدء القديس اكليمندس الإسكندري (١٥٠ — ٢١٥م)، وهو تلميذ بنتينوس مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية وقد خلفه عليها سنة ١٩٠م، تسلمتْ منه هذا التسجيل الهام الذي وصلنا عن طريق كتاب: «تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري»:

[وفي ذلك الوقت كان يوحنا الرسول والإنجيلي الذي كان يسوع يحبه، لا يزال حيًّا في آسيا يدير كنائس ذلك الإقليم، إذ كان قد عاد من منفاه في الجزيرة بعد موت دوميتيان.

واكليمندس في كتابه المعنون: «كيف يتسنى للغني أن يخلص» يحدد الوقت (الذي عاد فيه يوحنا من منفاه) قائلاً: «لقد عاد من جزيرة بَطْمُس إلى أفسس بعد موت الطاغية» (أي دوميتيان سنة ٩٨م).][6]

[وأيضاً يقدّم اكليمندس تقليد الآباء الأولين عن ترتيب الأناجيل على الوجه التالي فيقول... وآخر الكل لما رأى يوحنا أن المظهر البشري τὰ σωματικόν قد استُوفي في الأناجيل (الثلاثة)، لذلك ألّف إنجيله الروحي πνευματικόν وذلك برجاء من أحبائه وباستنارة الروح القدس.][7]

[6] Euseb. E.H. III, 23,1,5,6.
[7] Ibid. VI, 14,5-7.

وهكذا نرى كيف أن تاريخ الكنيسة يحفظ لنا تراثنا التعليمي سليماً من جهة الإتجاهات الروحية واللاهوتية في الأناجيل الأربعة. وهذا يقرره أخيراً العلماء بعد بحوث مستفيضة استمرت ما يقرب من قرن كامل من الزمان. فيقول العالم لايتفوت: [إن إنجيل يوحنا هو المفتاح الذي به نستطيع أن ندرس عليه الأناجيل الأخرى. لأن الرابطة بين إنجيل يوحنا وبقية الأناجيل الثلاثة هي رابطة تقليد واحد متكامل.](٨)

كما يُعتبر القديس أغسطينوس أقوى من دافَعَ عن إنجيل يوحنا ووحدته مع الأناجيل الثلاثة الأخرى. وقد كانت تعاليمه ذات تأثير بليغ في كل العصور الوسطى(٩).

أهم نقاط التلاقي والإختلاف بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى:

أما النقاط الأساسية التي تجمع بين نقاط التلاقي والإختلاف في إنجيل يوحنا مع الثلاثة الأناجيل الأخرى فيمكن أن نختصرها كالآتى:

أ — الأناجيل الأربعة يجمعها إطار واحد، يبدأ بمعمودية المسيح في الأردن وينتهي بالآلام والصلب والقيامة، حيث تُستعلن فيها اللحظة الحاسمة لإنفتاح الأبدية واستعلان الخلاص كأعظم حَدَث حمله التاريخ البشري الذي يكوِّن المركز الحقيقي لقوة الإنجيل كما يصف ذلك سفر أعمال الرسل بمنتهى القوة والإختصار:

«أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا. يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلِّط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم. الذي قتلوه معلِّقين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات. وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعيَّن من الله ديَّاناً للأحياء والأموات. له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا.» (أع ١٠: ٣٧—٤٣)

ثم في أع ١٣: ٢٢—٣٢:

«... وأقام لهم داود ملكاً الذي شهد له أيضاً إذ قال: وجدتُ داود بن يسى رجلاً حسب قلبي الذي سيصنع كلَّ مشيئتي. من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لإسرائيل مخلِّصاً يسوع. إذ سبق

8 Lightfoot, R.H., St. John Gospel, pp. 26-42.

9 St. August., De Consensus Evang. 26.4.

يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل. ولما صار يوحنا يكمّل سَعْيَه جعل يقول مَنْ تظنون أني أنا؟ لست أنا إياه. لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه. أيها الرجال الإخوة بني جنس إبراهيم والذين بينكم يتّقون الله، إليكم أُرسلت كلمة هذا الخلاص. لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا. وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه. ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يُقتل. ولما تمموا كلّ ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات. وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب. ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لآبائنا».

ب — الأناجيل اهتمت بتاريخ المسيح قبل تاريخ ميلاده. فالقديس متى والقديس لوقا اهتما بذكر النسل الذي انحدر منه. فالأول أوصله إلى إبراهيم أب الآباء لأنه كتب لليهود، والثاني أوصله إلى الله لأنه كتب للأمم أي كل العالم.

والقديس يوحنا تتبع ما قبل التاريخ، ميلاده في السجلات السماوية عينها. وهكذا اشتركت الأناجيل في تسليط الضوء على ما قبل الميلاد أي التجسد، كلٌّ من منظار رؤياه.

ج — المسار التاريخي المحقَّق والذي له القيمة الذاتية العظمى في الأناجيل الأربعة هو خط سير المسيح في كرازته من الجليل إلى أورشليم، الذي يقدمه كل إنجيل من زاوية لاهوتية معينة تعطي له الصبغة التقليدية الحقيقية التي تقوم عليها رواية الإنجيل. هذا المسار عينه يقدمه إنجيل يوحنا مع تركيز شديد حسب وجهة نظر لاهوتية غاية في الحكمة وعمق المعنى والأصالة، إذ يوضح في هذا المسار المرات العديدة التي صعد فيها إلى أورشليم لحضور كل الأعياد الرسمية، التي إذا توقعت على الزمن أشارت إلى ثلاث سنوات كاملة في الخدمة، وكانت هي الحَكَم الأعلى لحصر طول خدمة المسيح على الأرض. كما أوضحت، من جهة أخرى، القيمة الإلهية لبروز خدمة المسيح في أورشليم والهيكل التي سبق أن تركزت عليها كل النبوات بتكرار لا يمل.

د — طُبُوغرافية الأناجيل الأربعة موزعة بالتساوي على جميعها ما عدا إنجيل يوحنا، إذ يقدم فوق التقليد الذي سارت عليه الثلاثة الأناجيل مواقع جديدة لمدن وقرى ومواضع وأسماء في فلسطين ذات أصالة وعراقة، حقق مصداقية أسمائها ومواقعها بكل دقة علماءُ الآثار والبرديات الحديثة، مما يشير إلى تقليد عريق ممتد قبل وبعد ما سجله الثلاثة الأناجيل. وهذا بحد ذاته أضاف إلى «الإنجيل»، ككلٍّ، مساحة جديدة لمعرفةٍ أكثر وأدق تشمل التاريخ والجغرافيا وإضافات لحوادث وأعمال دخلت في حوزة الإنجيل ككل. ونلخصها في الآتي:

١ — بيت عَبْرَة عبر الأردن حيث كان المعمدان يعمد (١ : ٢٨)، (١٠ : ٤٠).

٢ — بيت صيدا باعتبارها الجديد أنها وطن بطرس وأندراوس وفيلبس (١ : ٤٤).

٣ — قانا الجليل حيث صنع الرب المعجزة الأولى (٢ : ١—١١)، كذلك معجزة شفاء خادم الملك (٤ : ٤٦—٥٤)، وباعتبارها وطن نثنائيل (٢١ : ٢).

٤ — عين نون بقرب ساليم (٣ : ٢٣)، وهو موضع آخر من المواضع التي كان يعمد فيها المعمدان.

٥ — بئر يعقوب في السامرة، وكذلك سوخار (٤ : ٥و١١و٣٩).

٦ — بركة بيت حسدا والخمسة الأروقة في أورشليم (٥ : ٢).

٧ — مدينة طبرية على بحيرة جنيسارت (٦ : ١و٢٣ و٢١ : ١).

٨ — بركة سلوام في أورشليم (٩ : ٧و١١).

٩ — أفرايم في بيرية (١١ : ٥٤).

١٠ — جباثا أي الرصيف بقرب البريتوريم (١٩ : ١٧).

١١ — قبر المسيح في بستان (١٩ : ٤١ و٢٠ : ١٥).

هـ — أضاف إنجيل يوحنا إلى خدمة المسيح في الثلاثة الأناجيل جزءاً هاماً للغاية لم يُذكر في الثلاثة الأناجيل، وهي خدمته المبكرة في اليهودية قبل ظهوره في الجليل، حيث يذكر فيها حوادث دقيقة غاية في الأهمية:

١ — البعثة الرسمية التي أرسلتها السلطات الدينية من أورشليم لإستجواب يوحنا المعمدان (يو١ : ١٩—٢٨).

٢ — وصف يوحنا المعمدان لشخصه ورسالته وشهادته للمسيح (١ : ٢٩—٣٤).

٣ — انضمام التلاميذ الأوائل للمسيح الذين انتقلوا من مدرسة يوحنا المعمدان ليلتحقوا بالمسيح، وذلك في (١ : ٣٥—٥١).

٤ — ذكر المعجزة الأولى في عرس قانا الجليل وإظهار مجده (٢ : ١—١١).

٥ — تطهير الهيكل في أورشليم في بداية خدمته (٢ : ١٣—٢٢).

٦ — الحديث مع نيقوديموس وتوضيح معنى المعمودية بالماء والروح ولزومها الحتمي (٣ : ١—١١).

٧ — ممارسة التلاميذ لعمل العماد في اليهودية (٣ : ٢٢—٣٠).

٨ — العودة إلى الجليل عبوراً بالسامرة (٤ : ١—٤٢).

٩ — المعجزة الثانية في قانا الجليل (٤ : ٤٦—٥٤).

وهذه الأعمال كلها كانت تهدف إلى توضيح أسس الإيمان واستعلان المسيح بالكلمة والآية.

و — خطاب الوداع بعد العشاء بحجمه المطوّل الذي يشمل أسس العلاقات الوطيدة والحميمة مع أولاده ومحبيه، الذين أحبهم إلى المنتهى؛ حيث تتركز فيه كل الوصايا والنصائح التي جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. ويلاحظ أن مادة حديث الوداع في إنجيل يوحنا تأتي روحية أخروية مطروحة للإيمان والممارسة، مع وعد أكيد بإرسال الروح القدس، وهي تقابل في المكان من رواية الإنجيل عامة حديث المسيح الخاص لتلاميذه في الثلاثة الأناجيل الأخرى عن علامات الأزمنة الأخيرة (الأخرويات) في صورتها الزمنية الأرضية وتكوين صورة لمجتمع التلاميذ بعد انطلاق الرب.

ز — صلاة المسيح بنبرة رئيس كهنة أعظم يتشفع وكأنه قائم في الأقداس العليا بهيئته الملكية؛ وهي مزدحمة بصور لاهوتية للعلائق التي تربط الآب بالإبن وبالكنيسة.

ح — تحويل خط المعجزات في الثلاثة الأناجيل من الصورة الإعجازية، كحوادث خارقة للعادة يُستدلُّ منها ضمناً أن أصبع الله فيها، إلى آيات في إنجيل يوحنا تشير بالتعليم الذي يرافقها إلى شخص المسيح لإستعلان لاهوته وإرساليته مباشرة. فالهدف واحد ولكن عرض المعجزات وشرحها يختلف. والإختلاف ينتهي إلى ائتلاف في النهاية لخدمة معنى الإنجيل.

ط — أخيراً، الأسرار التي حددتها الأناجيل بصورتها الليتورجية العملية المصوَّرة بالحركة أخذها إنجيل يوحنا كما هي دون الناحية العملية، وشرحها على المستوى اللاهوتي.

التقابل بين إنجيل القديس يوحنا،
وكلٍّ من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا:

أولاً: التقابل بين إنجيل القديس يوحنا وإنجيل القديس مرقس:(١٠)

أ ـ التقابل في المواضيع والتحركات:

إنجيل القديس يوحنا	إنجيل القديس مرقس
عمل المعمدان وشهادته: ١:١٩ــ٣٦	١ : ٤ــ٨
مغادرة اليهودية والذهاب إلى الجليل: ٤ــ٣	١ : ١٤
إطعام الجموع: ٦:١ــ١٣	٦ : ٣٤ــ٤٤
السير على الماء: ٦:١٦ــ٢١	٦ : ٤٥ــ٥٢
إعتراف بطرس: ٦:٦٨و٦٩	٨ : ٢٩
مغادرة الجليل نحو أورشليم: ٧:١٠ــ١٤	٩ : ٣٠ و١٠:١و٣٢و٤٦
دخول أورشليم والدهن بالطيب: ١٢:١٢ــ١٥ و١٢:١ــ٨	١١ : ١ــ١٠ و١٤:٣ــ٩
العشاء الأخير والتنبُّؤ بالتسليم: ١٣:١ و١٧:٢٦	١٤ : ١٧ــ٢٦
القبض: ١٨:١ــ١١	١٤ : ٤٣ــ٥٢
الآلام والقيامة: ١٨:١٢ــ٢٠:٢٩	١٤ : ٥٣ــ١٦:٨

ب ـ التقابل في الألفاظ التي باليونانية بصورة حرفية:

١:٢٧: «هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».

١:٧ «وكان يكرز قائلاً: يأتي بعدي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه».

10 Barrett, C.K., The Gospel Acc. to St. John, pp. 34,35,36.

١: ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٣٤:
«أنا أعمد بماء».
«رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه».
«فهذا هو الذي يعمدكم بالروح القدس».
«وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله».

١: ٨ و١٠ و١١:
«أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس».
«وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه.
وكان صوت من السموات: أنت ابني الحبيب الذي سررت به».

٦: ٧ و٩ و١٠ و١٣:
«أجابه فيلبس: لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً».
«هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان».
«إجعلوا الناس يتكئون وكان في المكان عشب كثير».
«فجمعوا وملأوا اثنتي عشر قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين».

٦: ٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٣ و٤٤:
«أعطوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له أنمضي ونبتاع خبزاً بمئتي دينار ونعطيهم ليأكلوا».
«كم رغيفاً عندكم. اذهبوا وانظروا ولما علموا قالوا خمسة وسمكتان».
«فأمرهم أن يجعلوا الجمع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر».
«ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشر قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل».

٦: ٢٠:
«فقال لهم: أنا هو لا تخافوا».

٦: ٥٠:
«فللوقت كلمهم وقال لهم: ثقوا. أنا هو لا تخافوا».

٦: ٦٨ و٦٩:
«فأجابه سمعان بطرس: ... ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

٨: ٢٩:
«وأنتم من تقولون إني أنا؟
فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح».

١٢ : ١٣ :
«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون: **أوصنا مبارك الآتي باسم الرب** ملك إسرائيل».

١١ : ٩ :
«والذين تقدموا والذين تبعوا **كانوا يصرخون قائلين أوصنًا مبارك الآتي باسم الرب**».

١٢ : ٣ :
«فأخذت مريم مناً من **طيب ناردين خالص كثير الثمن**، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها».

١٤ : ٣ :
«وفيما هو في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص وهو متكىء، جاءت امرأة معها **قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن** فكسرت القارورة وسكبته على رأسه».

١٢ : ٥ :
«**لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعْطَ للفقراء**».

١٤ : ٥ :
«لأنه كان يمكن **أن يباع هذا بأكثر من ثلثمائة دينار ويعطى للفقراء**».

١٢ : ٨ :
«**لأن الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين**».

١٤ : ٧ :
«**لأن الفقراء معكم في كل حين** ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً **وأما أنا فلست معكم في كل حين**».

١٣ : ٢١ :
«ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وشهد وقال: **الحق الحق أقول لكم أن واحداً منكم سيسلمني**».

١٤ : ١٨ :
«**الحق أقول لكم أن واحداً منكم يسلمني**».

١٣ : ٣٨ :
«الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى **تنكرني ثلاث مرات**».

١٤ : ٣٠ :
«الحق أقول لك إنك اليوم في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرتين **تنكرني ثلاث مرات**».

١٨ : ١٠ :	١٤ : ٤٧ :
«ثم أن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. وكان اسم العبد ملخس».	«فاستل واحد من الحاضرين **السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه**».
١٩ : ١٩ :	١٥ : ٢٦ :
«وكتب بيلاطس عنواناً ووضعه على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري **ملك اليهود**».	«**وكان عنوان علته مكتوباً ملك اليهود**».

وتعليق العالم شناكنبرج على هذا التوافق في المواضيع والمواضع، وفي الحوادث والأحاديث في كل من إنجيل القديس مرقس والقديس يوحنا، وأيضاً في التشابه الحرفي واللفظي في الآيات، يقول إنه يُحتمَل جداً أن يكون القديس يوحنا قد اطّلع مباشرة على أقوال مختصرة من إنجيل مرقس وأعاد صياغة الكلام، أو ربما يكون قد بلّغه مجمل التقليد الذي ينسب للقديس مرقس بواسطة السماع فقط، أو ربما يكون هناك مصدر واحد مختصر أخذ منه الجميع، كلٌّ بقدر وعيه ولغته وأسلوبه، مما أنشأ بعض الإختلافات. ولكننا نظلم النصوص إذا قلنا إن القديس يوحنا كان عنده النص الحرفي لإنجيل مرقس.(١١)

ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا:

إن الصلة الوثيقة بين الإنجيلين تدعونا هنا لمزيد من الإهتمام أيضاً.

١ — السؤال الذي كان قد حيَّر الشعب في البداية: **هل يوحنا المعمدان هو المسيح؟**

لوقا ٣ : ١٥ : «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح؟»

يو ١ : ١٩و٢٠ : «وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم ينكر **وأقرّ إني لست أنا المسيح**».

٢ — **صيد السمك الوفير**: حيث يذكر لوقا وحده هذه الحادثة، ولكن في بدء الخدمة:

لوقا ٥ : ١—١١ : **«يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك ألقي الشبكة، ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق».**

---

11 Schnackenburg, op. cit., p. 29,30.

يوحنا ٢١: ١—١٩: «وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطيء... فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك».

٣ — دهان الطيب: في إنجيلي مرقس ومتى يوصف الدهان أنه للرأس، ولكن إنجيل لوقا يتفق هنا مع إنجيل يوحنا في نفس التقليد بالنسبة لدهن الرجلين:

لوقا ٧: ٣٦—٥٠: «وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنه متكىء في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلُّ قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبِّل قدميه وتدهنهما بالطيب».

يوحنا ١٢: ٣: «فأخذت مريم مناً من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها».

٤ — أختا بيت عنيا: خدمة مرثا؛ وقعود مريم.

لوقا ١٠: ٣٨—٤٢: «وفيما هم سائرون، دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تُدعى مريم، التي جلست عند قدميْ يسوع، وكانت تسمع كلامه. وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة فوقفت، وقالت: يا رب أما تُبالي، فإن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقُلْ لها أن تعينني. فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا، أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنْزَع منها».

يوحنا ١٢: ٢و٣: «فصنعوا له هناك عشاءً. وكانت مرثا تخدم، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه. فأخذت مريم مناً من طيب ناردين...»

٥ — دخول أورشليم: اتفاق كل من إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا في ذكر المتاف بالمسيح «كملك»، وذكر الفريسيين فقط:

لوقا ١٩: ٣٨و٣٩: «مباركٌ الملك الآتي باسم الرب. سلامٌ في السماء ومجدٌ في الأعالي».
«وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم انتهر تلاميذك».

يوحنا ١٢: ١٣و١٩: «وكانوا يصرخون: أوصنّا، مباركٌ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».
«فقال الفريسيون بعضهم لبعض: أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً؛ هوذا

العالم قد ذهب وراءه».

٦ — **على العشاء الأخير:** حيث يعطي إنجيل لوقا بعض الكلمات التي تكشف عن وجود حديث مطول لم يسجّل (إلا في إنجيل يوحنا):

لوقا ٢٢: ٢٤—٢٨: «**وكانت بينهم مشاجرة من منهم يُظن أنه يكون أكبر** (بطرس أم يهوذا)».

«**وأما أنتم فليس هكذا. بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم**».

«لأن من هو الأكبر؟ الذي يتكيء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكيء ولكن **أنا بينكم كالذي يخدم**».

يوحنا ١٣: ٤—١٤: «وابتدأ **يغسل أرجل التلاميذ** ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها. **فجاء إلى سمعان بطرس...**».

قوله هنا فجاء إلى سمعان بطرس يكشف أن أحد التلاميذ سبق بطرس! هل هو يهوذا؟ غالباً. وهل المشاجرة على من يجلس بجوار الرب على العشاء كانت بينهما؟ غالباً. فلما صمم يهوذا أن يُغسل أولاً، وغُسل، وهذا لم يَرُقْ للمسيح، قال تعليمه عن مَنْ ينبغي أن يكون الأول، ومَنْ السيد. وكذلك لم يعجب بطرس الذي أراد أن يُظْهِر بجاحة يهوذا، فلما جاء عليه الدور بعد يهوذا رفض أن يغسله المعلم لإظهار الإلتزام بالإتضاع تجاه المعلم والرب.

وبعد أن غسل الرب أرجلهم جاء دور التوبيخ: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلتُ أرجلكم، فأنتم يجب عليكم (كتلاميذ ومُرسَلين) أن يغسل بعضكم أرجل بعض...» هنا كلمة «أتفهمون» موجهة للمتشاجرين سواء ليلة العشاء أو في القرن العشرين، من رؤساء كراسٍ وطوائف وملل. وهي توضح أنه إنما يقدم درساً عملياً لخطأ حدث وهو المشاجرة، والتي أمسك القديس يوحنا عن ذكرها حسب خط الفكر الإنجيلي السائر عليه أن لا يُظْهِر عيوب التلاميذ.

لوقا ٢٢: ٣٥: «**حينما أرسلتكم** بلا كيس ولا مزود هل أعوزكم شيء».

يوحنا ١٣: ١٦: «الحق الحق أقول لكم أنه ليس ... **رسول أعظم من مُرْسِلِهِ...**».

وواضح هنا أن خدمة غسل الأرجل ارتبطت بالإرسالية وطقس المرسَلين. والمسيح أعطاهم مثالاً لخضوع بعضهم لبعض في عمل الإرسالية، إذ وهو الذي أرسلهم وسيرسلهم، غسل أرجلهم

باعتبار أن التلاميذ عبيد الرب وهو السيد الذي أرسلهم والذي غسل أرجلهم، ليكون هذا طقساً أبدياً للمرسلين، لا كبير فيهم ولا صغير. بل الكبير والسيد هو العبد والخادم.

والعجيب أن التقليد الذي يقدمه إنجيل لوقا ربط إتضاع الخدمة بعمل الإرسالية أيضاً؛ مما يوضح بلا شك أن المحور الأساسي الذي كان يقوم عليه تعليم الرب من جهة غسل الأرجل، كطقس إتضاع الخدام والمرسَلين، مربوط أصلاً بالإرسالية.

٧ — يهوذا وليلة القبض:

لوقا ٢٢:٣:	«**فدخل الشيطان في يهوذا** الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الإثني عشر».
يوحنا ١٣:٢:	«فحين كان العشاء وقد **ألقى الشيطان في قلب يهوذا** سمعان الإسخريوطي أن يسلِّمه».
لوقا ٢٢:٥٣:	«لكن هذه ساعتكم **وسلطان الظلمة**».
يوحنا ١٣:٣٠:	«فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان **ليلاً**».
يوحنا ١٩:١١:	«لم يكن لك عليَّ **سلطان** البتة».
يوحنا ٩:٤:	«**يأتي ليلٌ** حين لا يستطيع أحد أن يعمل...» (انتهاء عمل المسيح بظهور سلطان الظلمة).
يوحنا ١١:١٠:	«إن كان أحد يمشي **في الليل يعثر** لأن النور ليس فيه» (سلطان الظلمة في غياب النور).
يوحنا ١٢:٣٥:	«فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم **الظلام**» (عدم الإيمان بالنور دخول في الظلمة).
لوقا ١٢:٣٩:	«اعلموا هذا أنه لو عرف **ربُّ البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر**...»
يوحنا ١٨:٢و٤:	«وكان يهوذا مسلِّمه (اللص الذي جاء لينقب دار المحبة) **يعرف الموضع**...»
	«فخرج **يسوع وهو عالم** بكل ما يأتي عليه (رب البيت الذي يعرف في أية ساعة سيأتي السارق...)».

٨ — **إنكار بطرس:** إنكار بطرس لثاني مرة ولثالث مرة ليس أمام جارية، كما جاء في إنجيل مرقس وإنجيل متى. وليس جزافاً أن يتفق إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا أن الإنكار الثاني والثالث كانا أمام رجل آخر وليس جارية.

لوقا ٢٢: ٥٨—٦٠: «وبعد قليل رآه آخر وقال: **أنت منهم** فقال بطرس: يا إنسان لست أنا».

«ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً **بالحق هذا أيضاً كان معه** لأنه جليليٌ أيضاً فقال بطرس: يا إنسان لست أعرف ما تقول».

يوحنا ١٨: ١٨ و٢٥—٢٧:

«وكان العبيد والخدَّام واقفين وهم قد أضرموا جمراً لأنه كان بَرْدٌ...».

«وسمعان بطرس كان واقفاً يصطلي **فقالوا له: ألستَ أنت أيضاً من تلاميذه.** فأنكر ذاك وقال: لستُ أنا. قال واحد من **عبيد رئيس الكهنة**، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه: **أما رأيتك أنا معه في البستان؛** فأنكر بطرس...».

٩ ـ **المحاكمة أمام بيلاطس:** ليس أمراً بسيطاً أن يقرر كل من الإنجيليين القديسين لوقا ويوحنا أن الوالي الروماني أعلن ثلاث مرات أن يسوع كان بريئاً، وأن الشعب (كما في الإنجيلين)، وليس الرؤساء، كانوا في موضع المسئولية الظاهرة. كما يتضح من الإنجيلين أنه ليست هناك ملامة على الوالي الروماني، أكثر مما هو واضح في كل من إنجيل متى وإنجيل مرقس.

لوقا ٢٣: ٤ و١٤ و١٥ و٢٠ و٢٢:

«فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: **إني لا أجد علةً في هذا الإنسان**».

«وقال لهم: قد قدمتم إليَّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم **ولم أجد في هذا الإنسان علةً مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً**».

«فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع...».

«فقال لهم ثالثة: **فأي شر عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علةً للموت**».

يوحنا ١٨: ٣٨: «ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم: **أنا لست أجد فيه علةً واحدة**».

١٩: ٤ و٦: «فخرج بيلاطس أيضاً خارجاً وقال لهم: أنا أخرجه إليكم لتعلموا **أني لست أجد فيه علةً واحدة**».

«قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واصلبوه **لأني لست أجد فيه علةً**».

١٠ — **الآلام:** هنـا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا في كونهما لم يذكرا شُرْب الخل لإحداث تخدير لرفع المعاناة الشديدة والآلام. وذلك بعكس إنجيل متى وإنجيل مرقس.

١١ — **إرسال الروح القدس:**

لوقا ٢٤: ٤٩: «وهـا أنا **أرسل إليكم موعد أبي.** فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تُلبَسوا قوة من الأعالي».

يوحنا ١٥: ٢٦: «ومتى جـاء المعزِّي (البارا كليت) **الذي سأرسله إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب** ينبثق، فهو يشهد لي».

ويعلِّـق العالم شنـاكنبرج على هذا التوافق الشديد بين تقليد الإنجيل في إنجيل لوقا وفي إنجيل يوحنا، ويقول:

[ليس من السهل أن يتجاهل الإنسان هذا التوافق الذي يربط بين الإنجيلين في موضوع التقليد وتاريخه. ولكنه ليس بالدرجة التي تجعلنا نقرر أن القديس يوحنا كان أمامه إنجيل لوقا أو رجع إليه في تدوين إنجيله، كما يقول العالم باريت Barrett والعالم لي Lee ، ولا حتى يجوز أن نتصور أن يوحنا قابل لوقا واستقى منه شيئاً من مراجعه، ثم استعادها بالذاكرة كما يقول كوميل Kümmel].

ولكن من المعقول أن نقول إن القديس لوقا رجع إلى المصادر التي لها دراية بما يعرفه القديس يوحنا أو إلى نفس القديس يوحنا، ولكن ليس العكس؛ خاصة وأن القديس لوقا أعلن في إنجيله أنه استقى معلوماته من الذين «كانوا معاينين وخُدّاماً للكلمة»؛ خاصة وأن رواية الميلاد بكل أسرارها ودقائقها تكشف ببيان عن أن القديسة العذراء مريم كانت وراء هذه البيانات السرية والخطيرة. ومعروف أن القديسة مريم كانت تعيش مع القديس يوحنا.

مجمل الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة علاقة إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى:

١ — كون القديس يوحنا اعتمد في تدوين إنجيله على نصوص الثلاثة الأناجيل، فهذا أمر غير محتمل.

٢ — التقابل الوارد بين إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس يوحنا في مواضع متعددة، يطرح احتمال إطّلاع القديس يوحنا على نصوص أُولى من التقليد الذي اعتمد عليه القديس مرقس في تدوين إنجيله.

٣ — التقابل الوارد بين إنجيل القديس لوقا وإنجيل القديس يوحنا، لا يوحي قطعاً باحتمال إطّلاع القديس يوحنا على نصوص كتابية للقديس لوقا، ولكن التقابل بينهما يشرحه وحدة التقليد الذي اعتمد عليه كلٌّ منهما، وتقليد القديس يوحنا يبدو أسبق تاريخياً في بعض النواحي من تقليد بقية الأناجيل.

٤ — تقليد القديس يوحنا على وجه العموم يبدو فريداً، حرًّا، لا يعتمد على ما ورد في الإناجيل الثلاثة.

٥ — إنجيل القديس يوحنا لا يُصدر أحكاماً، لا ضمنياً ولا من قريب أو من بعيد، على ما ورد في الأناجيل الثلاثة.

٦ — كذلك فإنجيل يوحنا له أسلوبه المنفرد به وطريقته في عرض مواضيعه وحوادثه، ولا يظهر منه أي بادرة تثبت أنه يصحح ما ورد في الأناجيل الأخرى أو يحل محله.

٧ — كون إنجيل يوحنا على دراية بالتقليد سواء شفاهياً أو على هيئة نصوص متفرقة — والذي استقت منه الأناجيل الثلاثة موادها — أمر وارد، بل وواضح أن إنجيل يوحنا يفترض في قرائه وسامعيه أنهم على دراية بكل ما جاء في التقليد القديم والذي انتشر عن طريق الكرازة في كل الأنحاء، وصار معروفاً ومحفوظاً ومدروساً لدى كل الخدّام والوعاظ والمبشرين؛ سواء من دقائق سر العماد أو سر الإفخارستيا أو خدمة الكنيسة، أي الليتورجيات أو قوانين الرسل من جهة السلوك ووصايا الإيمان. بل وإن الجميع يعرف عن معجزات للمسيح أكثر مما أورده هو في إنجيله.

وكان للقديس يوحنا ملاحظات على أسس الإيمان والتعليم السائد في الكنائس عن حياة المسيح، وهي التي أنارت روحه حتى وجد أنه قد وُضع عليه، بل تحتّم، أن يكتب إنجيله، حتى يجعل هذه الأسس عينها التي للإيمان أكثر عمقاً وتجذُّراً في الحق والحياة الأبدية، وأن تكون ذات معرفة لاهوتية مكشوفة وقوية بالرب.

٨ — من جهة الروايات التصويرية لحياة المسيح وتحركاته وأقواله وأمثاله الحيَّة المبدعة التي تغطي كل أحوال الناس وحياتهم وأفكارهم وسلوكهم وهمومهم وآمالهم، فإن إنجيل يوحنا يبدو فيها مقسَّطاً جداً عن الأناجيل الأخرى، بل ومختصراً وملتزماً وحذراً أشد الحذر عن بقية الأناجيل الثلاثة التي انطلقت على سجيَّة الفكر تروي بلا حذر وبلا هدف محدد مسبقاً عمَّا رأت وسمعت وتركت للقارىء أن يستخلص لنفسه ما ينفعه.

ولكن إنجيل يوحنا يعطي معلومات لاهوتية جد خطيرة وكثيرة، بل ووفيرة، أكثر من كل الأناجيل الثلاثة مجتمعة، أحكم القديس يوحنا حبكها بالروح على مستوى الرواية والتاريخ. ولكن أيّ رواية وأي تاريخ؟ رواية كسَهْمٍ من النور خاطف ومصوَّب لقلب القارىء، لا يلوي يميناً أو يساراً حتى يصيب هدفه الذي وُضع الإنجيل كله من أجله: لاهوت المسيح! بل إن إنجيل يوحنا صاغ الروايات الأخرى صياغة في قالب لاهوتي، لا تُقرأ إلاّ على مستوى الرؤية الأعلى والهدف الأسمى، سواء حينما طرح رواية المعمدان وشهاداته، أو حينما عرض للآلام وأنينها ومعانيها، أو لقيمة الصليب ومجد المصلوب عليه في اليوم والساعة حيث وحين كان يُذبح الخروف تماماً!

٩ — إنجيل يوحنا يطرح أمام القارىء الباحث تقليداً رسولياً موازياً لما جاء في الثلاثة الأناجيل، يحمل رسوخاً في الأصالة وفي الأقدمية الزمنية، يضارع الثلاثة الأناجيل ويحملها على كتفيه. فهو يقدم خدمة المسيح في اليهودية قبل خدمة الجليل من الأصحاح الأول وحتى الثالث، وبعد الجليل من الأصحاح السابع حتى الحادي عشر، في حين اقتصرت الأناجيل الثلاثة على خدمة المسيح في الجليل فقط وانشغلت بها حتى الصلب.

ويركِّز إنجيل يوحنا على أعياد اليهود جميعاً في هيكل أورشليم حيث يحضرها المسيح جميعها، ويخصها بالمعاني الإلهية الجديدة التي أعطت للعهد الجديد جِدَّته. ففي عيد المظال تذكار التيه والصخرة والماء، حين يحتفل اليهود بذكرى الماء، فيقف المسيح في الهيكل وينادي: «إن عطش أحد فلْيُقْبِلْ إليَّ ويشربْ. مَن آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح...» (يو٧: ٣٧—٣٩). ولما جاء ميعاد إيقاد المنارتين العظيمتين في بيت النساء — وهذا تذكار لعمود النور الذي كان يرافقهم في ليل التيه — وقف المسيح قائلاً: «أنا هو نور العالم مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو٨: ١٢)

وفي عيد الفصح وفي بكور خدمته دخل الهيكل، «ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً...» (يو٢: ١٤)، «طرد... الغنم والبقر وكبَّ دراهم الصيارف وقلب موائدهم. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من ههنا» (يو٢: ١٥و١٦). فقد انتهى عهد الذبائح جميعاً، والخلاص لم يَعُدْ بذهب ولا فضة!!.

وهكذا تعقَّب إنجيل يوحنا فصول القصة والرواية يستخلص منها الجوهر — πνευματικόν — بعد أن استنفذت الأناجيل الأخرى جمال المظهر — σωματικόν (١٢) — وهذا واضح غاية

(١٢) راجع ص ٢١ وهو اقتباس يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة لتقليد كليمندس الإسكندري عن الدافع لكتابة إنجيل يوحنا.

الوضوح في:

أ — قصة الخمس الخبزات([١٣]) والسمكتين، فبعد أن عرضتها الأناجيل الثلاثة في أسلوبها القصصي الإعجازي المبدع، أخذها إنجيل يوحنا كما هي ليعرض عليها شرح حقيقة الخبز الحي النازل من السماء، أساساً ومنطوقاً للإفخارستيا بكل أسرار لاهوتها ومفهومها الروحي!! وهكذا قدم إنجيل يوحنا التقليد الرسولي عينه مقروءاً على مستوى العقيدة والإيمان والحق والحياة. له صيغة القِدَم التي للتاريخ وجِدّة الروح التي للحياة.

ب — في قصة تفتيح عينيْ الأعمى، التي جاءت مثيلاتها في الثلاثة الأناجيل كقصة إعجاز لرحمة الله على يدي المسيح، يأخذها القديس يوحنا ويوضِّح أن المولود أعمى إشارة إلى احتجاب نور المسيح عن المولودين من الرحم، ثم يقول المسيح للأعمى: اذهب اغتسل في بركة سلوام، حيث تأتي كلمة «اغتسل» بمعنى العماد في اللغة اليونانية، هنا تبدأ قصة الأعمى لتهدف إلى كشف سر المعمودية. ثم يقول الإنجيل أنه أتى بصيراً، ليشير إلى موهبة الإستنارة، ليدخل هذا الإصطلاح في علم لاهوت الأسرار في الكنيسة في وصف العماد.

ولكن إنجيل يوحنا لا يكتفي بالعماد فقط ليكون وحده فعل استنارة حقيقياً، لذلك يبحث عنه المسيح فيجده في الهيكل (عابداً) فيقول له: هل تؤمن بإبن الله؟ ويعرِّفه المسيح بنفسه فيؤمن، ثم يسجد سجوداً حقيقياً، وهكذا يضع الإنجيل الإيمان ختماً للمعمودية حتمياً، والسجود فعلاً ملازماً ضرورياً.

فانظر، أيها القارىء، كيف يضع إنجيل يوحنا اللمسات الروحية واللاهوتية والإيمانية والعبادية في القصة التي وردت في الثلاثة الأناجيل كمجرد معجزة، ليشرِّع بها ومنها قانون الإيمان بالأسرار والعبادة للكنيسة على ممر الدهور.

ج — وإذا أخذنا حديث الرب مع نيقوديموس «معلم الناموس لإسرائيل»، نرى كيف يكمِّل إنجيل يوحنا توضيح قوة سر العماد في معناه اللاهوتي والخلاصي، كحتمية لا مناص منها لرؤية ملكوت السموات والدخول إليه، فالعماد هنا على مستوى «الميلاد الثاني» للإنسان ليصير الإنسان

---

(١٣) ولا تزال الكنيسة القبطية تحتفظ ضمن ممارستها للإفخارستيا بعدد «الخمس الخبزات» في تقديم الحمل، إشارة وتحقيقاً لسر الإفخارستيا في هذا الرقم الذي يشير إشارات مبدعة إلى مجيء المسيح من صلب الخمسة الأسفار لتوراة العهد القديم، وإلى مجيء المسيح بعد خمسة آلاف سنة من عناء بني آدم بعد خروج أبيهم آدم من لدن الله مطروداً، وإلى اكتمال أجيال غضب الله على بني العصاة «لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ» (خر٢٠: ٥)، ففي المسيح وبه أشرق الجيل الخامس جيل الإحسان ومحبة الله.

بواسطته طفلاً مرة ثانية مبرَّراً بالروح، «كخليقة جديدة» بحد ذاتها، كما من آدم ثانٍ بفعل الروح القدس — روح الله، وليصير إنساناً روحياً بعد الترابي ليرث مُلْكَ الحياة الأبدية مع الله. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد شرح الموقفين معاً (الحديث مع نيقوديموس ومعجزة المولود أعمى)، مُسْتعلناً فيهما ومنهما سر حضور المسيح كنور، وسر فعل المسيح الخلاصي كولادة، وسر الروح للخلقة، كل ذلك مكنوزاً ومختوماً عليه في سر المعمودية.

١٠ — إن كل اختلاف عثر عليه النقاد بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى هو اختلاف في الحرف، يحتِّمه الأسلوب الأدبي وقصد الراوي. ولكنه هو هو بعينه ائتلاف بالروح ما بعده ائتلاف، ولكن إذا قُرِىء بالروح وليس على مسطرة التاريخ!

ويصوِّر العالم شناكنبرج صورة بديعة لإنجيل يوحنا بقوله:

[إن الموضوع الأساسي عند يوحنا الذي أخذه على نفسه بشجاعة وجرأة هو: أن يضع الحدود والمعالم الواضحة لشخصية المسيح المهيبة، الذي أتى بالخلاص واستعلن لنا آفاق الخلود؛ وأن يكشف عن بهاء مجد الكلمة اللوغُس من واقع حياته على الأرض وحلوله بيننا؛ وأن يوضح أهمية حوادث الخلاص الذي تمَّ والدائم كما هو إلى الأبد، والذي كان قد اختزنه لنا الماضي؛ وأن يسجل لنا الكلمات التي قالها مرة ابن الله عندما دخل إلى العالم، لكي تُسمع بعد ذلك بلا انقطاع. وتبقى كما هي مُلحَّة تفرض ذاتها. وكان هاجس يوحنا الأوحد أن يُعرِّف يسوع بين الناس أنه هو المسيح الحاضر في جماعته، سواء في الكلمة الملقاة على الأسماع أو في العبادة أو الأسرار.

وكان اشتياق يوحنا الذي كان يبثُّه بالروح القدس حسب وعد المسيح، أن يربط ويوثِّق زمن المسيح وأيامه بأيام الروح القدس (التي نحياها): «وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية؛ ذاك يمجِّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم... ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو١٦: ١٣و١٤— ١٤: ٢٦)، لأن يوحنا كان يدرك أن الروح سوف يُعْطَى بكلمة المسيح (٦: ٦٣)، وفي الأسرار التي فيها يتحقق فعل الخلاص ويثمر (١٩: ٣٤— ١يو٥: ٦)، بواسطة الكنيسة التي حملت رسالة المسيح وتبنَّت فه المتكلم والمبشِّر وسلطانه أيضاً لخلاص الإنسان (٢٠: ٢٢).](14)

---

14 Schnackenburg, op. cit., p.43.

الباب السادس

شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا

على مدى العصور

الفصل الأول

شرح إنجيل القديس يوحنا
عند آباء الكنيسة

تراث الشرق

شرح العلامة أوريجانوس:

هذا العملاق الإسكندري الذي أرهق التاريخ بسيرته وبلبل أفكارنا بعقيدته، كتب شرح إنجيل يوحنا بناءً على رجاء أحد أصدقائه المدعو أمبروسيوس. كتب الخمسة الأجزاء الأولى في الإسكندرية سنة ٢٢٥م[1]، وذلك قبل رسامته كاهناً في قيصرية سنة ٢٢٨م. ثم جاءت الإضطرابات التي دخل فيها فتوقف العمل. الباقي من الشرح كتبه في المنفى ثم في قيصرية. ويقول يوسابيوس المؤرخ إن كل ما وصل إليه من شرح أوريجانوس لإنجيل يوحنا يقع في ٢٢ كتاباً. ويقول القديس چيروم إنها تقع في ٣٤ كتاباً. ويقول روفينوس إنها تقع في ٣٢ كتاباً. أما الواقع والحاضر بين أيدينا الآن فهي ثمانية كتب فقط، وهي تحوي أجزاءً من الشرح متفرقة حتى الأصحاح الثالث عشر من عدد ٢—٣٣. ويقدّر العلماء أن ما كتبه يتجاوز الخمسين كتاباً[2].

ويقول العلاّمة «وستكوت» أسقف دورهام، إن شرح أوريجانوس يحوي أخطاءه وإبداعاته معاً وبأعلى قياس، وهو شرح مطوّل ولكن متقطع ينتحي ناحية التأمل والتخيُّل، ولكن تربطه أفكار سامية ونبيلة وومضات من الحق.

ويُعتبر أوريجانوس، في مجال شرح الإنجيل، صاحب مدرسة جديدة في الأدب اللاهوتي. ويقول

[1] Euseb., Hist. Eccl. VI.24,1.

[2] Westcott, The Gospel according to Saint John, p. xcv.

العلاّمة شناكنبرج إن أوريجانوس كتب شرحه لإنجيل يوحنا بقصد تفنيد ومقاومة شرح الغنوسيين المزيّف لإنجيل يوحنا الذي كتبه أحد أئمتهم المدعو «هيراكليون»، وأن شرح أوريجانوس أصيل بحسب عقيدة الكنيسة(٣).

وقد استخرج أوريجانوس المعاني الروحية العميقة من آياته، ولكنه استخدم المجاز أو الإستعارة التمثيلية (أي مشبّهاً شيئاً بشيء ليبلغ إلى معنى أعمق) إلى حد كبير. كان ملتصقاً دائماً في شرحه إما بالتقليد اليوناني أو اليهودي. وقد بلغ منتهى العمق في استعلان عظمة «**كلمة**» الله التي كانت مختبئة تحت ستار الحرف في العهد القديم وخاصة في حادثة «**تطهير الهيكل**» (الكتاب العاشر: المقطع ٢٣)، وفي المقابل في كيف بلغ «**الكلمة**» إلى قامة التواضع وذلة (العبد) في العهد الجديد في حادثة «**غسل الأرجل**» (الكتاب ٣٢: المقطع ٤)، مدّثراً بثوب معفّر بتراب الأرض.

وأوريجانوس لم يشأ في شرحه أن يلغي الحرف في المعنى، ولكنه حاول دائماً أن يتجاوزه فيقول:
[إني أعتقد أن كل الأسفار حينما تبلغ إلى معناها الكامل والصحيح، فهي تبقى مجرد مدخل إلى معرفة الأسس البسيطة للإيمان. فكّر قليلاً في بئر يعقوب التي شرب منها الآباء وأبناؤهم يوماً ما، فهم الآن لا يشربون منها ولا أبناؤهم لأن لهم الآن مشرباً أفضل مما كان، لأن الماء الذي يعطيه المسيح الآن هو أسمى من المكتوب.] (كتاب ١٣: مقطع ٥)

وكان مفتاح الأمان والضمان للشرح الصادق الأمين عند أوريجانوس الذي يضبط الكلام ويتفوق عليه هو:

أولاً: سلطان كنيسة المسيح المقدسة (الكتاب ٥: مقطع ٨).

ثانياً: التعليم الرسولي فيما يختص بمعرفة الأسرار (الكتاب ١٠: مقطع ١٨).

أما نقطة الهجوم التي ركّز عليها أوريجانوس ضد الغنوسيين، فهي أنهم [وضعوا شرحاً جزافياً يتناسب مع أفكارهم وليس له شهادة من التقليد] – (كتاب ٢: مقطع ١٤ وكتاب ١٣: مقطع ١٧).

والمضمون العام لشرح العلاّمة أوريجانوس يهدف نحو ترسيخ الإيمان المسيحي عامة والإيمان بالأمور المستقبلية أي الأخرويات. أما أسفار العهد القديم التي يمثلها «بئر يعقوب»، [فهي إذا

---

(٣) توجد بعض التفسيرات في شرح أوريجانوس تُعتبر خارجة عن التقليد الصحيح والعقيدة.

3 Schnackenburg, The Gospel according to Saint John, p. 202.

فُهمت جيداً فإنها تؤدي إلى المسيح وتصبح حينئذ بالحق تنبع إلى حياة أبدية.] (كتاب ٣: مقطع ٦). [وكلمة المسيح الآن تقودنا إلى الفصح الثالث، حيث البصخة اليهودية هي الفصح الأول، وفصح المسيح الحمل الذي ذُبح لأجلنا هو الفصح الثاني. أما الفصح الثالث فهو الذي نعيِّده معاً في ألفة المعيِّدين مع ربوات ملائكة بلا عدد في الفصح الأكمل للخروج السعيد.] (الكتاب العاشر: مقطع ١٨).

واستخدام الإستعارة عند العلاّمة أوريجانوس، ولو أنها تبدو غريبة على أسماعنا (الكلام هنا للعلاّمة «شناكنبرج» وهو كاثوليكي غربي)، ولكن إذا استوعبنا هذه الطريقة وانتهينا إلى خلفيتها، نجد وراءها معرفة عميقة لكلمة الله التي تجسدت في اللوغُس المتجسد ولكن بقيت هكذا محتجبة، حتى إنه لا يمكن تفريغ كل ما تحويه من الشرح.

+ + +

والخطوة التالية بعد العلامة أوريجانوس في شرح إنجيل القديس يوحنا تأخرت كثيراً: من سنة ٢٢٥م حتى سنة ٣٩١م أي أكثر من قرن ونصف، ولم تأتِ من الإسكندرية بل أتت على يد مدرسة أنطاكية وهي المنافسة لمدرسة الإسكندرية.

وكان هناك اختلاف في التراث الفكري بين الإسكندرية ويمثلها العلامة أوريجانوس، وبين أنطاكية ويمثلها القديس يوحنا ذهبي الفم(٤).

أنطاكية تبحث في الأسفار المقدسة عن معناها المقدس الواضح.

الإسكندرية (وقيصرية وفيها أوريجانوس) تبحث في الأسفار المقدسة عن شخص المسيح.

أنطاكية تطعن في استخدام الإستعارات والتأملات كونها تهدم القيمة الواقعية للإنجيل كوثيقة تاريخية تمتُّ إلى الماضي وتحوله إلى تعابير من الخيال (كذا).

والإسكندرية تسخر من أنطاكية وتسمي كل من يتمسك بحرفية الكلمة أنه جسداني!

غير أنه لم يكن بين أنطاكية والإسكندرية صراع أو تعارض، بل بالعكس كان هناك اتفاق عريض مؤسس على أهمية التقليد في الشرح أهمية مطلقة.

على أن العلاّمة أوريجانوس كان يرمي بثقله نحو اكتشاف الصور البارعة للمسيح من خلال

---

4 Quasten, Patrology II, p. 122.

الإلهام الذي تحويه الكلمة بحد ذاتها، أكثر من انحصاره في حوادث الإنجيل. فكل سطر في الإنجيل مملوءٌ بأسرار المسيح المذخرة والمدفونة خلف السطور.

ولكن أنطاكية انشغلت بالبحث عن صور المسيح في العهد القديم.

وما اختلاف الأسلوب في الشرح بين المدرستين إلا اختلاف في الفكر. فالإسكندرية مدرسة المُثُل Idealism والتأملات Speculation ، التي تستمد انتسابها من أفلاطون؛ أما أنطاكية فهي مدرسة الواقعية Realism (الحسية) والتجريبية Empiricism ، التي تستمد انتسابها من أرسطو. فالأولى تميل إلى التصوُّف؛ والثانية تميل إلى العقلانية.

وكان القديس يوحنا ذهبي الفم أشهر تلامذة مدرسة أنطاكية؛ وكان ثيئوذور المبسوستي أشهر متطرِّفيها!!

ولكن للأسف، فالعقلانية الأنطاكية انتهت بمدرستها إلى الهرطقة على يد لوسيان معلم أريوس.

وفي ختام الكلمة عن شرح إنجيل يوحنا للعلاَّمة أوريجانوس، يتحتم أن نعترف أنه إذا كان القديس أثناسيوس قد حطم أريوس والأريوسية في مصر والعالم كله معتمداً على إنجيل يوحنا، فالعلاَّمة أوريجانوس هو الذي حطَّم الغنوسية في مصر وأيضاً في العالم معتمداً أيضاً على إنجيل يوحنا (٥).

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم:

القديس يوحنا ربيب المدرسة الأنطاكية بكل مذخراتها الفكرية. بليغ وحكيم لذلك دُعي بذهبي الفم.

قدَّم ٨٨ عظة على إنجيل القديس يوحنا مسجَّلة كلها ومحفوظة في مجموعة الباترولوجيا جريكا أي الآباء الذين كتبوا باليونانية (PG 59). وهي عظات جاءت أقصر من عظاته على إنجيل القديس متى. ألقاها حوالي سنة ٣٩١م. وكل عظة لم تكن تستغرق أكثر من ١٠ — ١٥ دقيقة. وكان يلقيها في الصباح. وأسلوبها جدلي لأنه كان يوجهها نحو الأريوسيين الذين كانوا يستخدمون الآيات التي تحقِّر وتصغِّر من المسيح. لهذا بلور القديس ذهبي الفم نظرية التنازل συγκατάβασις بالنسبة لله ليصدَّ بها تهجُّم الأريوسيين على بشرية المسيح وضعفه. ويقصد بها القديس ذهبي الفم كيف جسَّد

[5] Barrett, op. cit., p. 116.

الله كلمته في الإنجيل على هيئة الإنسان ولغته. وهذا التعبير اللاهوتي يقف مساوياً لتعبير العلاّمة أوريجانوس في استعلان معنى الكلمة في الأسفار، غير أن القديس ذهبي الفم لم يتبع الخط الروحي مثل العلاّمة أوريجانوس.

وكعيِّنة من الشرح(٦) اللاهوتي للقديس يوحنا ذهبي الفم نقدم بلسان المسيح المقطع الآتي:

[أنا الإله وابن الله بالحق، وأنا من جوهره البسيط المبارك، لست في حاجة أن يشهد لي أحد، وحتى إذا لم يشهد أحد فأنا لا أفقد شيئاً من جوهري. ولكن لأني أهتم بخلاص الكثيرين قد نزلت إلى هذا الإتضاع حتى أطلب شهادة لي من إنسان.] (العظة ٦)

ويعود يشرح هذا الموضوع مراراً وتكراراً هكذا:

[لأنه صار ابن بشر، الذي هو ابن الله ذاته، حتى يجعل بني الإنسان أولاد الله. لأن العالي إذا التأم مع الحطيط فهذا لن يمس كرامته؛ في حين أنه يرفع الآخر من الحضيض، وهذا هو الحادث مع الرب. فهو لم يُنقص من طبيعته شيئاً بتنازله هذا Condescension، ولكنه رفعنا نحن الذين كنا في العار قعوداً، ومن الظلام جلوساً انتشلنا إلى نوره العجيب.] (العظة الحادية عشر)

ومثل العلاّمة أوريجانوس، يعتبر القديس يوحنا ذهبي الفم أنه ليس للهراطقة المفصولين عن الكنيسة الحق في استخدام الأسفار المقدسة، لأن الأسفار تستمد حقها من حق الكنيسة.

ويقول العلاّمة «وستكوت» أن شرحه واستشهاده بالآيات واضح، شديد الحيوية وبليغ؛ ولكن القارىء إذ يؤخذ بأسلوبه، تفوته المعاني والإتجاهات السرية التي للإنجيل نفسه(٧).

شرح القديس كيرلس الإسكندري:

هو واحد من أعظم قديسي الكنيسة الأولى، لذلك يدعى بالكبير. ألَّف شرحه لإنجيل يوحنا من بداية سنة ٤٢٥م. ولم يكمل إلا سنة ٤٢٨م. أسلوبه كما يصفه «كواستن»(٨) أبعد من أن يكون جذَّاباً للقارىء، متداخل، وأحياناً يتجاوز الحد في التمادي في الشرح، مزخرف، جميل، ولكن محتوياته تكشف عن عمق الفكر وغنى في الآراء، مجادل واضح ذو حجَّة، تأملاته ومحاجاته تكشف عن موهبته كمؤلِّف وتجعل من كتابه منابع لتاريخ العقيدة والعلم المسيحي بالدرجة الأولى.

---

6 Quasten, op. cit., III, p. 439.
7 Westcott, op. cit., p. xcv.
8 Quasten, Patrology III, p. 119.

وفي مقدمة شرحه نبَّه أنه سيعطي عناية خاصة إلى المعنى العقيدي للنص، ودحض تعاليم الهراطقة. والقديس كيرلس يجهد في شرحه ليثبت أن الإبن له جوهر الآب، وأن الآب والإبن كلٌّ منهما له شخصه القائم.

وهو يقف معارضاً لمدرسة أنطاكية. وواضح أنه ألَّف شرحه لإنجيل يوحنا قبل قيام نسطور، لذلك لم يذكر في كتابه شيئاً عن نسطور، كما لم يذكر الإصطلاح المحبب عنده «الثيئوتوكس» (والدة الإله) الذي نحته خصيصاً لمقاومة بدعة نسطور. كما يُعتبر شرحه لإنجيل يوحنا هو أول تآليفه في الشرح. وقد احتفظ لنا الزمن بكل شرحه للإنجيل في اثني عشر كتاباً كلها موجودة، ونسبتها للقديس كيرلس مُثْبَتة، ما عدا الكتابين السابع والثامن اللذين ضاعا ولم تصل لنا منهما إلا أجزاء قليلة مشكوكٌ في صدق نسبتها للقديس كيرلس(٩).

ولكن بالرغم من ذلك يبقى هذا الشرح ذخيرة عقائدية آبائية. ويعبِّر القديس كيرلس فيه عن أن لغة البشر عاجزة عن أن تستوفي الحق الإلهي فيه كما يجب؛ أو أن تكشف عن مقدار تنازل الكلمة في الأسفار كما يقتضي بالعدل.

أما رأينا الخاص في شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا، فهو كنز لاهوتي وروحي وكنسي وسرائري مليء بالدرر المختفية وراء الجدل العنيف ضد الهراطقة، وهو يحتاج إلى صبر كثير وكثير جداً لكي يستوعب القارىء كنوزه.

ويقول العالم «وستكوت» عن شرحه: أنه بشرح القديس كيرلس الكبير يكون قد انتهى عصر كبار شُرَّاح الإنجيل للعصر الآبائي.

القديس أثناسيوس:

وفي مجال القيمة الشرحية لإنجيل يوحنا لا نستطيع أن ننسى القديس أثناسيوس، فهو وإن لم يصدر شرحاً لإنجيل يوحنا، ولكنه أقام لاهوته على «**تجسد الكلمة**»، وحارب حروب الرب ضد أريوس بسلاح إنجيل يوحنا، ووضع أساس الأرثوذكسية راسخاً معتمداً على هذا الإنجيل، فحوَّل مجرى المسيحية في العالم: «العالم كله ضدك يا أثناسيوس»، وأجاب أثناسيوس ومعه إنجيل يوحنا: «وأنا ضد العالم».

---

9 Quasten, op. cit., III, p. 123.

شرح القديس أغسطينوس:

يقول قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن كتاباته وشروحاته هكذا: [إن أهمية القديس أغسطينوس تكمن في قدرته الفذَّة في فهمه للحق المسيحي... وبدون هذه الألمعية الفكرية (موهبة) وعمق الإدراك الروحي، كان لا يمكن أن يأخذ اللاهوت الغربي شكله المعروف لنا الآن.](١٠)

قدم القديس أغسطينوس شرحه لإنجيل يوحنا ضمن عظات – جاءت في مقالات سنة ٤١٤–٤١٦م. ويقول عنها العالم «وستكوت»(١١) إنه فيما كان القديس يوحنا ذهبي الفم ضعيفاً في بعض نواحي شرحه، برز القديس أغسطينوس فيها قوياً لا يُجارَى. ولكن جهله باللغة اليونانية خانه كثيراً في تبني بعض المعاني غير الصحيحة للكلمات. ولكن ذكاءه الفذ جعله يدخل بالرغم من ذلك في المعنى الأصيل الذي يقصده الإنجيل، وبمنتهى الوعي والبصيرة التي ربما تفوت على شارح آخر عالم لغات متضلع في اليونانية. ولكن من الصعب جداً ترجمة شرحه الذي جاء باللاتينية ترجمة تصيب كل الأعماق التي انتهى إليها.

ويقول عنه «شناكنبرج»(١٢) إن أسلوبه يخلو من المحاجاة ويتجاوز المناوشات العقائدية. وشرحه في إنجيل يوحنا بلغ منتهى النضج اللاهوتي. فهو ينطلق مباشرة نحو التأمل بالآية دون التوقف على معاني الكلمات. ومثل نظرائه الآباء القديسين الأوائل، ركَّز بصورة أساسية على اللاهوت، يعجنه بالآيات ويقدمه طعاماً للمسيحي يسند إيمانه في وسط فوضى المراطقة. وعظاته هذه لا تزال محتفظة بحظوتها ومكانها الأثيل في الخدمات الكنسية لدى الغرب، شأنها شأن القديس يوحنا ذهبي الفم في الشرق.

[10] Op. cit. p. 107.
[11] Op. cit. p. xcv.
[12] Schnackenburg, op. cit., p. 205.

الفصل الثاني

تتبُّع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا في العصر الحديث

في ضوء عمليات النقد والدفاع

نقدّم للقارىء مختصراً للبحث الذي قام به العالم H.R. Reynolds في المقدمة التي كتبها لشرح إنجيل يوحنا في مجموعة Pulpit Commentary المجلد السابع عشر.

— منذ عصر ما بعد الرسل حتى نهاية القرن السابع عشر لم يرتفع صوت واحد ينتقد إنجيل يوحنا من حيث أصالة مؤلفه، القديس يوحنا اللاهوتي، ومادته، وعلاقته الصحيحة بالأناجيل الثلاثة الأخرى، وخطه التاريخي.

— ولكن بدأ النقاش في التباين بين الأناجيل الثلاثة والإنجيل الرابع في أوائل القرن الثامن عشر افتتحه العالم «لُكْلِرْك» Le Clerc [1] (١٦٥٧–١٧٣٦) مع العالم Lampe، وعلى مدى قرن من الزمان استمر هذا النقاش الذي بلغ حد الصراع.

— ثم هدأت حدة هذا النقاش إلى أن أشعله العالم الإنجليزي «إيفانسون» Evanson [2] (١٧٣١–١٨٠٥)، وذلك سنة ١٧٩٢. وللأسف، أنه بالرغم من تفاهة وزنه الروحي فقد كان أثره مسموماً في أوروبا. وقد قام في المقابل له في ألمانيا الناقد «إيكرمان» Eckermann

(١) وهو أرمني الأصل، عالم لاهوتي، وأستاذ مادة الكتاب المقدس، وأستاذ فلسفة، منهجه عقلي. وقد طعن في أصالة التوراة لموسى النبي. وهو متحرر الفكر غير تقليدي. عدو القواعد التعليمية، أعطى للعقل حق نقد الإيمان.

(٢) وهو ضد الثالوث ولا يؤمن بلاهوت المسيح. ويُعتبر أول من أشعل الهجوم ضد إنجيل يوحنا، منكراً أن يكون القديس يوحنا هو كاتبه. ولا يؤمن إلا بإنجيل القديس لوقا.

(١٧٩٦)، وبعده الناقد الأكثر خطورة «برتشنيدر» Bretschneider (١٨٢٠).

– وقام «برايستل» Priestel مع العالم «سمبسون» Simpson بالرد.

– ولكن دخل معركة النقد لاهوتي ألماني شديد الوطأة اسمه «هردر» Horder Gottesied (١٧٤٤–١٨٠٣)، معلناً أن القديس يوحنا إنما كان يتعامل في إنجيله مع «مسيح نموذجي» وليس «مسيح التاريخ – (هكذا)». وبذلك بدأت المدرسة الألمانية وتزعمت النقد.

– فقامت مدرسة لاهوتيي روما بالرد، وتصدت لكل هذا النقد، وآزرها العالم الكاثوليكي «هوج» Leunord Hug (١٧٦٥–١٨٤٦)؛ وبعض العلماء اللوثريين وأهمهم الألماني المستشرق «أيشورن» Eichorn (١٧٥٢–١٨٢٧)، وهو أستاذ ضليع في الإنجيل واللغات الشرقية ومادة الفلسفة في جامعة جوتنبرج. وهو أول مَن أحيا علم المقارنات العلمية والبحث الدقيق لإثبات صحة الأناجيل من الكتابات الشرقية والمخطوطات القديمة الأخرى. وآزره في الرد العالِم Koind .

– وبأعمال هؤلاء المدافعين توقفت حركة المقاومة.

– ولكن بعد ذلك بقليل انفجرت حدة النقد السلبي المتحرر على يد «برتشنيدر» Bretschneider [٣] سنة ١٨٢٠. وقد تمادى في التفريق بين المسيح في إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى. وقد رد عليه كل من «أولهوزن» و«لوكه» Lüke.

– وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مفتونة بمواهب «شلايرماخر» (١٧٦٨–١٨٣٤)، وهو لاهوتي ألماني عبّر عن «الإيمان بأنه الإحساس بالإعتماد الكلي على الله». وقد تأثر به كثيراً العالم المشهور «هارناك». وكان «شلايرماخر» معجباً بإنجيل يوحنا أشد ما يكون الإعجاب. وقد انبرى للنقد السلبي الموجّه لإنجيل يوحنا حتى أوقفه. وكان واسع التأثير بأسلوبه التقوي والتأملي. وقد تأثر به أيضاً العالم والمؤرخ الكنسي الليتورچي (اليهودي الأصل) «نياندر» وتنصّر على يديه وتعمّد. وهدأت حدة النقد ضد إنجيل يوحنا حتى سنة ١٨٣٥.

– ثم قام «شتراوس» (١٨٠٨–١٨٧٤)، وهو لاهوتي ألماني هاجم حياة المسيح وأنكر أن يكون القديس يوحنا الرسول هو صاحب إنجيل يوحنا. وكان له أسوأ الأثر على كل المدرسة اللاهوتية البروتستانتية في توبنجن، وازداد تأثيره حتى طُرد منها. ولكن عاد «شتراوس» نفسه بتأثير

(٣) لاهوتي ألماني أشد من هاجم صحة الخط التاريخي في إنجيل يوحنا، وذلك سنة ١٨٢٠.

العالم اليهودي المتنصّر الفذّ «نياندر» Neander (١٧٨٩–١٨٥٠) الذي حاججه حتى ردّه إلى الصواب. فعاد وصحّح إيمانه في الطبعة الثالثة من كتابه (١٨٣٨). ولكنه عاد إلى نقده ومهاجمته لإنجيل يوحنا في الطبعة الرابعة من كتابه سنة ١٨٤٠، محاولاً بذلك مهادنة مدرسة توبنجن Tübingen التي قامت في ذلك الوقت لمساندة «شتراوس» في نقده السلبي لإنجيل يوحنا، مدّعية أنه من وضع متأخر عن القرن الأول بمائة سنة، ولا علاقة له بالقديس يوحنا الرسول، وأنه من تأليف غنوسي.

وحينما ظهرت مؤلفات «ڤايس» C.H. Weisse سنة ١٨٤٠ الذي اعتبر أن إنجيل يوحنا ما هو إلا قصة خيالية مؤلَّفة غير واقعية، انبرى له العلاّمة «فورمان» Formann ونقد نظريته ودحضها بمقدرة عالية فأسكته. ولكن الأثر السلبي ما فتيء يشتعل تحت التراب.

— وانضم إلى حركة النقد «بور» F.C. Baur (١٨٠٩–١٨٨٢). وهو لاهوتي ألماني فاق «شتراوس» في نقده، وهو مؤسس مدرسة توبنجن النقدية على أسس تاريخية. كما انضم إليه أيضاً «شويجلر» (١٨١٩–١٨٥٧)، و«زلّلر» Zeller، مؤكدَيْن أن إنجيل يوحنا من وضع سنة ١٦٠.

— وازدادت حركة النقد بواسطة مدرسة توبنجن على يد «ألبرت توما» Albrecht Thoma (١٨٨٢)، و«هولتزمان» Holtzmann (١٨٨٥) اللذين جاهرا بأن تعاليم القديس يوحنا مأخوذة من رسائل القديس بولس الرسول.

— وفي أوج عصر المدرسة النقدية السلبية المتحررة التي يُعتبر أصحابها خارج دائرة الإيمان السليم، قامت مدرسة «النُّقَّاد المعتدلين»، كما سماهم التاريخ. وبالرغم من صدق النوايا لدى هؤلاء في الجري العلمي وراء الحقيقة التاريخية، كما يقولون، إلاَّ أنهم أضرُّوا بالإنجيل أكثر مما نفعوا، وأساءوا إلى حرارة الإيمان وقوة تماسك الكنيسة في كل أنحاء أوروبا وأمريكا دون أن يدروا، بسبب تنشيط ذهن الشباب في النقد وضياع هيبة الإنجيل والإيمان المسيحي عامة؛ وإليهم يعود السبب في هبوط مستوى الإيمان واضمحلال التقوى وضياع الشباب وتخبُّط رجال الدين وتمرد الإكليروس الكاثوليكي على النمط التقليدي والسلوك التقَوي. لذلك فعليهم دينونة لا يعرف قسوتها إلاَّ الديَّان.

ويتزعم هذه المدرسة — غير بعض الذين سردنا أخبارهم — وعلى مدى السنين كل من: برونو Bruno Bauer، «فردناند» Ferdinand، «شفجلر» Schwegler، «يوليخر» Jülicher، «رڤيل» Reville، وآخرهم تاريخياً وأكثرهم تأثيراً على العلماء الآخرين هو العالم الكاثوليكي

«لـويـزي» Loisy (١٨٤٧–١٩٤٠)، وهـو «مودرنست» أي تقدمي، ناقد متحرر غير منضبط، كـان يـدرس إنجـيل يـوحـنـا على أسـاس أنـه مـن وضـع ما بعد منتصف القرن الثاني، مؤكّداً ذلك كـحقيقة لا تُنقض. حتى ظهرت بردية رايلاند في صعيد مصر تؤكّد في المقابل أن الإنجيل من وضع لا يـتـجـاوز الـقرن الأول بأي حال، وكانت لطمة له. وكان إيمانه الكاثوليكي متزعزعاً خاصة بعد أن درس على «ريـنـان» الـفيلسوف والمؤرخ (الملحد). وكان قد وصل إلى أستاذية كرسي الأسفار المقـدسة بـالـرغـم مـن مـيوله نحو عقيدة الـ pantheism أي تألُّه الكون أي أن الكون والله أو الله والـكـون شـيء واحـد، وهـي عقيدة هندية الأصل. وأخيراً انتهى إلى مجرد مدرس تاريخ في الكوليج دى فـرانـس. والـعـجيب أنه ما من شارح حديث لإنجيل يوحنا إلاّ ويتخذ شرح لويزي هذا مرجعاً له.

– وفي الـوقـت الـذي تـضـافـرت فيه العقول الجبّارة لهدم إنجيل يوحنا بالنقد السلبي غير البنّاء، كـانـت هـنـاك مجـمـوعة من العلماء من مختلف الجنسيات يحدوهم روح الإيمان والتقوى والعلم أيضاً للـدفاع عن صحة إنجيل يوحنا وأصالة مستواه الروحي، وحقّـقوا أن كاتبه هو القديس يوحنا الرسول بـن زبـدي، وأن الخـط الـتـاريخي فـيه أشد صحة مما كان يظن هؤلاء النقاد، وأن منهجه اللاهوتي والسرائري والكنسي فائق القيمة، وقد استخدم معظمهم المنهج التقليدي في البحث العلمي الدقيق. وأثـبـت مـعـظـمـهـم أن إنجيل القديس يوحنا من وضع نهاية القرن الأول سنة ١٠٠م.، أو ربما أقل قـلـيـلاً. الأمـر الـذي أثـبـتت البرديات التي اكتُشفت بعد ذلك بنصف قرن صحة وصدق أبحاثهم. ولـكـن لا تخـلـو هـذه الأبحـاث والـشـروحات من الهنّات التي يمليها الفكر العلمي، فتقف ذات لون باهت يسهل فرزها إزاء ضوء الإيمان الأرثوذكسي الساطع.

وأهم هؤلاء العلماء بوجه عام ومختصر هم:

الـعـالم الألمـاني «بـلـيـك» Bleck (١٧٩٣–١٨٥٩)، الألماني «دي وت» De Wette، «رويـز» Reuss، «لـوثـاردت» Luthardt، «جـوديـت» Godet، «زَهـن» Zahn، «شـانـز» Schanz، «كـنـابـنـبـور» Knabenbaur، «لـبـين» Lepin، «جـرانـدمـيـزون» Grandmaison، «تلمان» Tillmann، «لاجرانج» Lagrange.

أمـا الـعـلماء ذوو الـشـهرة العالمية القدامى والمحدثين الذين استطعنا الحصول على شرحهم لإنجيل يوحنا، واطّلعنا على أبحاثهم ودراستهم، إما مباشرة أو عن طريق تعليقات لعلماء آخرين عنهم، فنأتي على ذكرهم هنا بشيء من التفصيل دون أن نستطرد في بقية المؤلفين العديدين ذوي الشهرة المحدودة في بلادهم والذين لم نغفل ذكرهم أثناء الدراسة والتعليق والشرح.

١ ــ اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية، وشروحاتهم لإنجيل القديس يوحنا:

وهم المعتبرون البقية الباقية من المحافظين القدامى الذين يمتُّون بشيء كثير إلى فكر الآباء القديسين الأوائل. والعجيب أن معظمهم له سيرة في التقوى مشهودٌ لها، ومؤلفاتهم تُعتبر أهم ما يمكن أن يتثقف به أي دارس للإنجيل دون خطر كثير.

وهم حسب ترتيب ظهور شروحاتهم لإنجيل يوحنا زمنياً كالآتي:

١ ــ هنجستنبرج: HENGSTENBERG, ERNEST WILHELM

(١٨٠٢—١٨٦٩)

لاهوتي ألماني درس على نياندر. أصدر شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٨٢١ على أسس دفاعية عن الإيمان والأخلاق والتقوى الشخصية. يستشهد فيه بالآباء القديسين الأوائل وعلى خلفية غزيرة من العهد القديم. ولكن المؤلَّف يخلو من الأبحاث العلمية للكلمات والمواضيع. وهو مؤلَّف قيِّم في مجلدين ضمن مجموعة «كلارك» للمكتبة الكاثوليكية اللاهوتية.

٢ ــ ثولوك: THOLUCK,F.AUGUST

(١٧٩٩—١٨٧٧)

درس على نياندر. لاهوتي ألماني تقي.

قاوم العقلانية في ألمانيا في جيله. أخرج شرح إنجيل يوحنا سنة ١٨٢٧ لتثبيت الإيمان وتقويم الأخلاق. له دراسات تقوية. كان ذا تأثير أخلاقي كبير على جيل الشباب، فكان راعياً من الدرجة الأولى.

٣ ــ ماير: MEYER, H.AUGUST WILHELM

(١٨٠٠—١٨٧٣)

عالم ألماني. كاهن زاول خدمته بنجاح. ضليع في اللاهوت. شرح الأناجيل كلها ومنها إنجيل يوحنا وسفر الأعمال ورسائل القديس بولس الرسول بين سنة ١٨٣٢—١٨٥٢. وهي تُمتدح من كافة العلماء والمؤلفين، فقد استوفى كل أصول الشرح الدقيق واهتم بمعاني الكلمات لأنه كان ضليعاً في اللغة اليونانية. أُعيد طبع مؤلفاته العديد من المرات، وخرجت باللغة الإنجليزية في عشرين مجلداً، ولا تزال تُطبع، وهي متداولة حتى اليوم.

٤ — بليك: BLEEK, FRUDRICH

(١٨٩٣—١٩٥٩)

لاهوتي ألماني محافظ، أستاذ شرح الإنجيل. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٤٠ على أصول تقليدية. محاجج ومدافع عن الأصول التقليدية مع أنه باحث ومحلل.

٥ — وستكوت: WESTCOTT, B.FOSS

(١٨٢٥—١٩٠١)

إنجليزي. أسقف دورهام. صديق العمر للعالم لايتفوت.

مؤلف لتاريخ الأسفار المقدسة وقانونها، ولشرح مقدمات الإناجيل. أستاذ لاهوت سابق في كَمْبردج. نقَّح وصحَّح الإنجيل باللغة اليونانية. أخرج شرحه القيِّم لإنجيل يوحنا ورسالته سنة ١٨٨١ بحسب الأصول اليونانية آية آية على مثال شرح المدرسة الإنجليزية. كرَّس نفسه لمساعدة الإرساليات التبشيرية. ورعاية الطلبة روحياً في كمبردج ولا تزال هناك المؤسسة التي تحمل اسمه. ذاع صيته بسبب شرحه لإنجيل يوحنا، إذ اعتُبر لدى لاهوتيي كل إنجلترا وأوروبا بأجمعها أساساً لا غنى عنه لكل شرح مهما كان. تمسك بالناحية التقليدية، سواء للشرح أو للمعنى أو التاريخ أو صحة نسبة الإنجيل الرابع لكاتبه القديس يوحنا الرسول والتلميذ، وأفرد لذلك جزءاً كبيراً من كتابه يصح أن يكون كتاباً بمفرده. له بصيرة نافذة نحو عمق المعاني. واعتمد في بعض الأحيان على شروحات الآباء القديسين الأوائل. ورفع من رؤية المسيح الإله المتجسد.

٦ — هوسكنز: HOSKYNS, SIR EDWYN CLEMENT

(١٨٨٤—١٩٣٧)

لاهوتي إنجليزي حديث محافظ تقي. عميد إحدى كليات كمبردج.

إشتهر بسبب مؤلَّفه «مسيح الثلاثة الأناجيل»، الذي فيه حاجج وبرهن أن المدعو «يسوع التاريخ» لدى البروتستانت الأحرار ليس يسوع التاريخ في شيء ولا يمت للتاريخ. ودافع عن الأناجيل بشدة ضد مدارس النقد وهو عقائدي، موضوعيُّ المبدأ. للأسف مات دون أن ينتهي من الورقات الأخيرة في مؤلفه اللاهوتي في شرح إنجيل يوحنا الذي بدأه سنة ١٩٢٣، والذي أكمله له F.N. Davey سنة ١٩٤٠.

وقد عارض وحاجج النقاد. مُثْبتاً وحدة وأصالة إنجيل يوحنا. وأبرز المعنى والمعيار اللاهوتي فيه ككل. جمع بين أسلوب الآباء القديسين مستشهداً بهم، وبين البحث العلمي الحديث برصانته ودقته. وقد كان لهذا العالم تأثيره الروحي على كافة طلبة اللاهوت في جيله، وترك أثره اللاهوتي

الحميد لكل إنجلترا.

٧ — دودد: DODD, Charles Harold
(١٨٨٤—١٩٧٣)

إنجليزي لاهوتي متخصص لدراسة العهد الجديد، خادم إنجيل للكنيسة. أستاذ لاهوت في مانسفيلد وأكسفورد ومنشستر وكامبردج.

تعيَّن سنة ١٩٥٠ رئيس هيئة إعادة ترجمة الإنجيل. يتمسك بسلطان الإنجيل ويؤلِّف له، وبسلطان التقليد الرسولي والمناداة بالإنجيل. واهتم وكتب عن الأُخرويات كما جاءت في العهد القديم، وبتحقيقها في كلمات المسيح من جهة مجيء ملكوت الله، وكيف تمت بالتجسد وأثرها على البشرية. كذلك كتب عن خط الخلاص في المسيحية كما أعلنه الله على مدى التاريخ الكتابي وتحقق بقيامة المسيح. كما قدَّم لكتابه عن إنجيل يوحنا سنة ١٩٥٣، وأضاف إليه أبحاثاً أخرى سنة ١٩٦٣ فيما يختص بالخط التاريخي.

وقد جاهد هذا العالم المتحفظ بأقصى طاقته لكي يملأ الفجوات التي استحدثها النقاد في إنجيل يوحنا من جهة الخط التاريخي فيه، ومنابع النصوص، ومدى أصالة النقل والتسجيل في حدود الإيمان، ولكنه تمشى مع العلم والعقل والمنطق إلى أقصى الحدود التي يسمح بها الإيمان، ولكنها خرجت به اضطراراً عن أصالة التقليد.

ويقرر هذا العالم في مقدمة كتابه للإنجيل هكذا: [لقد نحَّيت جانباً الأسئلة التي تختص بالنقد الخالص]، مما يفيد صدق إيمانه. كما كتب في خاتمة كتابه بحثاً مقتضباً للغاية عن الخط التاريخي لإنجيل يوحنا مدافعاً عنه قدر ما يحتمله «المنطق». كما أثبت هذا العالم المدقق [أن وراء إنجيل يوحنا تقليداً رسولياً أقدم في أجزائه من التقليد العام الذي يقف خلف الثلاثة الأناجيل الأخرى.](٤)

٨ — باريت: C.K. Barrett

إنجليزي. لاهوتي. لغوي. أسقف دورهام. أصدر كتابه عن «شرح إنجيل القديس يوحنا» سنة ١٩٥٥ معتمداً على النص اليوناني. تشابك مع الفكر النقدي وظل يتأرجح بين إغراء الأخذ به والدفاع ضده. لذلك، فبالرغم من أصالة الشرح على النص اليوناني إلاَّ أن الخلفية غير صلبة. وقد ظل مأخوذاً بآراء بولتمان Bultmann العالم الألماني الناقد الذي لا يؤمن بالمعجزات ولا بالخوارق،

[4] C.H. Dodd: Hist. Trad. in the Fourth Gospel, p. 423.

ولكنه خالفه وقاومه في أمور كثيرة. وقد ردَّ ردوداً قوية ومقنعة على نظرية إحلال بعض أجزاء في إنجيل يوحنا موضع الأخرى، وعلى نظرية دخول مؤلفين كثيرين للإنجيل غير كاتبه (أنظر كتابه ص ١٨ — ٢٠).

كما تحدى بولتمان في قوله إن القديس يوحنا فقد الرؤية الواضحة للكنيسة، لأن الكنيسة غير موجودة في إنجيل يوحنا في نظر بولتمان. فردَّ عليه «باريت» في كتابه ص ٧٨ بقوله: [إن يوحنا كان أكثر وعياً من أي إنجيلي آخر بوجود الكنيسة]، مقدِّماً صلاة المسيح من أجل كل مَن يؤمن بالمسيح في كل أنحاء العالم هكذا: [«ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو١٧: ٢٠). وعاد واستشهد بالمسيح في إنجيل يوحنا، حينما طوَّب كل شعب المسيح الذين يؤمنون به دون أن يروا المسيح أو معجزاته: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو٢٠: ٢٩). بل وفي بداية إنجيل يوحنا رفع القديس يوحنا الكنيسة الجديدة لتحل محل المرفوضة: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، أما كل الذين قبلوه — أي المسيحيون — فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون بإسمه» (يو١: ١١و١٢)، موضحاً أنهم ليسوا أولاد إبراهيم بعد بل أولاد الله] — أي المولودون له من الماء والروح.

٩ — رايموند براون: Raymond E. Brown = وينطق ريمون بالفرنسية.
أستاذ لاهوت أمريكي في ولاية بلتيمور. عالم كاثوليكي متحرر.
أصدر شرحه لإنجيل يوحنا في جزئين ضمن مجموعة «أنكور بايبل» Anchor Bible (١٩٦٦ — ١٩٧١). ويقول عن نفسه أنه حصد ثمار أفضل الأبحاث والآراء التي خرجت لجميع المؤلفين كاثوليك وبروتستانت. عارضاً إياها ضمن آرائه الخاصة في عرض زاخر بالفكر. وهو، في مضمونه العام، تقليدي ومدافع عن أصالة الإنجيل وتقليده وتاريخه ضد جميع عناصر النقد لكافة النُّقَّاد مع هنَّات لا يخلو منها الفكر الحر مهما كان.

١٠ — لايتفوت : Lightfoot
لكي لا يرتبك القارىء الباحث في هذا الإسم، يلزم أن نفرق بين ثلاثة بهذا الإسم كلهم إنجليز:
الأول: John Lightfoot
(١٦٠٢—١٦٧٥)
وهو يهودي ربي متنصِّر — كان علاَّمة زمانه وأسدى أفضالاً في شرح نصوص العهد الجديد. وكان مَنْجماً لذخائر المعرفة، لم يتفوق عليه أحد من بعده. وشغل مناصب رئاسية في جامعتي

وستمنستر وكمبردج.

الثاني: Joseph Barber Lightfoot

(١٨٢٨ — ١٨٨٩)

وهو أسقف دورهام — كان أستاذاً للاهوت. وأحد الذين راجعوا الإنجيل باليونانية — الإنجليزية. وقد اهتم بأبحاث العهد الجديد. واشتغل في إخراج مجموعة أبحاث الآباء الرسوليين وأظهر في ذلك مقدرة علمية عالية.

ومن جهة إنجيل يوحنا فقد اشترك مع العلاَّمة اللاهوتي الألماني Zahn (١٨٣٨ — ١٩٣٣) (وهو أيضاً آبائي محافظ بارع ألَّف شرحاً لإنجيل القديس يوحنا سنة ١٩٠٨). وقد اشترك الإثنان في مقالة ضد حاخام يهودي يدعى «بار صليبي»، أوضحا فيها أصالة إنجيل القديس يوحنا وسمو مستواه الروحي والتاريخي. وأثبتا أن تاريخ كتابة إنجيل يوحنا لا يتعدى سنة ١٠٠ م.

الثالث: Robert Henry Lightfoot

(١٨٨٣ — ١٩٥٣)

عميد إحدى كليات أكسفورد، وكتب كتابه في شرح إنجيل القديس يوحنا، ولكنه توفي قبل أن يصدره وأخرجه له C.F. Evans سنة ١٩٥٦. ويتميز بالدقة والحرص الشديد في البحث والرد على النُّقَّاد الشكليين. له إيمان مسيحي عميق صامت. وكان له تأثير تقوي بليغ على طلبة أكسفورد في أيامه.

١١ — شناكنبرج: Schnackenburg Rudolf

(١٩١٤ —   )

عالم كاثوليكي ألماني — أستاذ لاهوت في جامعة ڤورزبرج. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٦٥. هو شارح للأسفار المقدسة قدير، متحفظ تقليدي، يسير في خطه الفكري حسب أصول تعليم الكنيسة بدقة وحسب أصول العلم بمنتهى الدقة. قد قيَّضه الله والتاريخ ليرد على أصحاب التحرر الفكري في النقد السلبي والشك كأساس لكل شرحهم، أمثال «بولتمان» الذي يقول عنه قاموس أكسفورد: «قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية» في صفحة ٢٠٦ بالحرف الواحد: [وفي كتابه «عن المسيح سنة ١٩٢٦» تمادى في نقده إلى الحد الذي قرر فيه تجاهل وإنكار العمل الفدائي للمسيح بل وتعاليمه الأخلاقية — وذلك بمنتهى النقد والشك معاً ووضع ثغرة بل فجوة بل جفوة بين الإيمان والتاريخ. ونادى بحتمية إخلاء أسفار العهد الجديد من (الخرافات Entmythologisierung). وهو لا يعتبر أن الميلاد البتولي من العذراء للمسيح ليس وحده هو

الخرافة فحسب بل إن الإنجيل كله مبنيٌّ على الخرافات]. هذا هو بولتمان المرجع الذي تهافت عليه جميع النقاد الذين شرحوا الإنجيل في أوروبا وأمريكا حتى اليوم.

نقول إن الله قيَّض لنا هذا العالم القدير شناكنبرج ليكبح جماح هؤلاء النقاد الذين أتلفوا الإيمان والكنيسة بإفراط.

وعن شناكنبرج يقول العلماء الذين باشروا أبحاثه:

[إن «مشكلة إنجيل يوحنا» التي أزعجت وكدَّرت كل باحثي العهد الجديد إلى ما يقرب من مائتي سنة — قد أرسى هذا العالم حلولاً لها. وفوق الأسئلة المطروحة للبحث والفحص التي تخص إنجيل يوحنا مثل علاقته بالثلاثة الأناجيل الأخرى واختلاف تكوينه الكلامي من جهة الشكل والمصادر التي يعتمد عليها، كان ولا يزال الهمُّ الأول — الذي أغفله جميع النقاد — هو رسالته الروحية كأساس للديانة. وهذا المجال عينه هو الذي اهتم به شناكنبرج في إنجيل يوحنا: «فهو شرح لاهوتي». وإن كان لم يضع ثقله على المشاكل اللفظية والكلامية أو المقارنات أو الأحوال التاريخية، إلا أنه عرض لها وخاض فيها بقدر ما يمكن أن تعطي معرفة أفضل لرسالة الخلاص المذاعة في هذا الإنجيل الذي أثبت أنه أغنى الأناجيل].

وشناكنبرج هو صاحب المبدأ القائل: [الذي يهمنا للغاية هو قصد كاتب الإنجيل وليست آراؤنا نحن فيما كان لازماً عليه كيف يدوِّن إنجيله بحسب معاييرنا نحن عن التاريخ](٥). علماً بأن هذا العالم استشهد بجميع كتب الآباء القديسين الأوائل ولم يترك مرجعاً كنسياً واحداً إلا واستشهد به.

٢ — مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر:
(بحسب رؤية العالم شناكنبرج)

أولاً: المدرسة الألمانية النقدية:

وقد وضع بولتمان بصمته عليها، فهي لا تزال تحت تأثير شرحه لإنجيل يوحنا الذي أرجع أصوله إلى التعاليم الغنوسية، وجرَّده من أسمى ما فيه بدعوى تنقيته من الخرافات، وعلى الأخص إلغاؤه لحقيقة الفداء. وقدم تحليله ببراعة العقل الذي أخذ بالعقول. وبحسب رأينا فإنه أحلَّ حذق النقد بدل قناعة النعمة. ويعتبره العلماء المفتونون به أنه بلغ القمة في أسلوب الشرح اللاهوتي التقدمي.

5 Schnackenburg, op. cit., p. 24,25.

أما رأي المتحفظين والكنسيين من زملائه الألمان(٦)، فهو أنه قد أصاب الذين يتتبعونه بالغثيان بسبب تعقيداته في إرجاع أصول الإنجيل إلى عديد من الجذور اليونانية والغنوسية وحتى الإيرانية والوثنية!!، مما جعل حمل النقد الذي طال زمنه في هذا المجال فوق الإحتمال. وقد صبغ بولتمان طريقة شرحه وتفسيره لبشارة القديس يوحنا بالوجودية، وأقام لاهوته على التطبيق الوجودي أي مواجهة لاهوت المسيح بالواقع العملي في الحاضر الزمني بالنسبة للإنسان. أما كيف يكون ذلك مع أنه جرَّد اللاهوت من عمل النعمة والإعجاز وتدخُّل الله الفائق، فهذا وإن كنا نندهش له، إلا أن هذا — رغماً عن أنفنا — صار موضة العصر في شرح إنجيل يوحنا عند المدرسة الألمانية النقدية ومن يتبع رأيها وهم الأكثرون.

ثانياً: المدرسة الإنجليزية التقليدية:

وهي قائمة على أعمال رجال عظماء حقاً تبوأوا المراكز العليا في الكنيسة وفي العلم والتقوى بالدرجة الأولى. وأهم هذه الأعمال هي للعالم «هوسكنز» و«دودد» من الأنجليكان. وقد تبوأت مركزاً سامياً بسبب التزامهم بالتقليد والآباء. وقد بقيت مدرستهم حيّة حتى هذا اليوم علماً بأنها استقت أصولها التقليدية الرزينة ممن سبقوهم مثل العالم «وستكوت» الذي لا يزال شرحه منذ ٨٠ عاماً متداولاً حتى اليوم. وقد نأت المدرسة الإنجليزية بنفسها حتى اليوم عن التحليل والنقد الحرفي.

وفي مواجهة المدرسة الألمانية الحديثة، قام العالم الإنجليزي التقي الأسقف باريت C.K. Barrett وقدم شرحه اللاهوتي الدقيق القائم على أصول الشرح التقليدي عند الإنجليز وهو التعمق في النص والإلتزام بمعنى الكلمات والآيات في مواضعها. ويُعتبر شرحه عملية موازنة رائعة وملفتة للأنظار بحسب رأي شناكنبرج الألماني. كذلك العالم اللاهوتي چون مارش عميد كلية مانسفيلد في أكسفورد الذي قدم شرحه سنة ١٩٦٨.

ثالثاً: المدرسة الألمانية التقليدية:

ويتزعمها فريقان متفقان: الفريق البروتستانتي وأهم علمائه:

Kümmel, T. Zahn, A. Schletter, F. Büchcel

والكاثوليك وأهمهم شناكنبرج. وهؤلاء يقفون الآن في مواجهة هذا التيار النقدي العنيف يصدونه بأقصى قدر من الدراسة والمعرفة والإتزان مع تمسكهم بالإيمان الصحيح والتقليد. ويساندهم بالطبع الكاثوليك من أوروبا وأمريكا أمثال: **Raymond E. Brown, Xavier Léon-Dufour, S.J.**

ولاجرانج **Lagrange**

6 Schnackenburg, op. cit., p. 211.

وعلى العموم فإن المدرسة الحديثة التقليدية انتحت ناحية الشرح اللاهوتي لإنجيل يوحنا متمسكة بالنص وبالمعنى الحرفي للكلمة والآية قبل كل شيء، لتُخرج الكنوز المختفية في هذا الإنجيل.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر الضئيل من عرض كتب الشرح لإنجيل يوحنا عند الغرب والتعرف على أهم شارحيها. والذي يريد أن يدرس إنجيل يوحنا لا يستثقل مشقة البحث. وطالما كان القارىء أو الباحث والشارح متسلحاً بالإيمان عن وعي مسيحي، فسوف يسخِّر له الروح معرفة الحق مهما اختفت وراء الأغلفة التي يصطنعها العقل البشري.

الفصل الثالث

النقد الموجّه لإنجيل القديس يوحنا والرد عليه

كنا نود أن لا نشغل فكر القارىء القبطي، وهو بوجه عام صاحب فكر إيجابي وتقليدي، بهذا الموضوع المثير. ولكن إذ قد أُقحم على الكنيسة في كل العالم وبالتالي على جميع المؤمنين، شاءوا أو أبَوْا، هذا الصراع الخاص بالخط التاريخي في إنجيل يوحنا؛ وذلك ليس من طرف معلم واحد أو مدرسة فكر معينة، بل من جميع مدارس اللاهوت في كافة أنحاء العالم حيث يتزعم هذا الفكر جماعات من ألمع أساتذة اللاهوت ومن جميع الطوائف في أوروبا وأمريكا على السواء؛ لذلك فإننا ونحن لا نريد أن يظل القارىء والدارس القبطي خالي الذهن من جهة هذا النقد، بل هذا الصراع الفكري العالمي، خاصة وأن كثيرين من شبابنا وربما بعض رجال الكهنوت يدرسون في هذه المعاهد أو ينقلون عنها؛

لذلك، حاولنا عرض خلاصة لنواحي هذه الدراسات النقدية، والرد عليها قدر الإمكان.

ويقدم لنا العالم اللاهوتي الأمريكي الكاثوليكي «رايموند إي براون» Raymond E. Brown ملخص هذه الإنتقادات في مقدمة كتابه الحديث في إنجيل يوحنا في الجمل الآتية:

[في نهاية القرن السالف وفي السنين الأولى من القرن العشرين الحالي، دخلت مدارس المعرفة في حقبة من التطرُّف الشكَّاك نحو هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا). وقد وضعوا **تاريخاً** لكتابته متأخراً للغاية، إذ جعلوه من إنتاج منتصف القرن الثاني الميلادي، كما ادَّعوا أنه **نتاج الفكر اليوناني، وجرَّدوه نهائياً من أي قيمة تاريخية** مدَّعين أن لا علاقة له بيسوع الناصري إلاَّ في القليل: وحتى النواة الصغيرة التي تمتُّ للحقيقة التي اتخذها المؤلف أساساً لعمله هي في اعتقادهم **منقولة من الثلاثة الأناجيل**... ومن نافلة القول أن نذكر أن قلَّة من الناقدين هم الذين كانوا يعتقدون أن هذا الإنجيل **يحمل مجرد ظل علاقة بيوحنا بن زبدي**

الرسول والتلميذ. وإن بعضاً من هذه المواقف الشكّاكية و بالأخص المتعلقة بكاتبه، والمصادر التي أخذ منها مادته لا تزال تتردد في تآليف بعضٍ من ألمع العلماء حتى اليوم.

ولكن المكتشفات الأثرية والبردية من النصوص القديمة التي ظهرت أخيراً، وقد أصبح لها الأثر البليغ غير المرتقب؛ جعلتنا نتحدى، عن علم وأصالة فكرية، كل وجهات النظر النقدية التي كانت قد وطّدت أقدامها وأخذت طابع الرسوخ ظلماً. والآن، أدركنا كم كانت الأسس التي بُنيت عليها هذه التحاليل الشكّاكية الضخمة أنها تافهة وقابلة للكسر.](1)

ولا يزال أمامنا الهجوم السافر الذي بلا أي أساس الذي قام به «كيرسوب ليك» Kirsopp Lake منذ أربعين سنة فقط، وها نحن نورده بالحرف الواحد:

[إنجيل يوحنا قد يحتوي على متناثرات قليلة من التقليد الحقيقي، ولكن على العموم هو قصة خيالية تعتمد على الوهم (كذا).](2)

وقد علق على قوله هذا أحد اللاهوتيين التقليديين المدافعين عن الإنجيل وهو العالم هنتر A.M. Hunter بقوله: [هذا الحكم لا نسمعه عادة إلاَّ بخصوص كتب الهراطقة].

ولكن بعد ذلك ليس بكثير، بل وفي غضون ثلاثين سنة، ردَّ عليه العالم الباحث دودد C.H. Dodd في بحثه الذي أخرجه عن: «التاريخ في إنجيل يوحنا» بقوله: [إن وراء إنجيل يوحنا تقليداً قديما — أقدم من الثلاثة الأناجيل، ومستقلاً عنهم، هو جدير بالتقدير التام لخطورته، لأنه سيعيننا في التعرف على الحقائق التاريخية التي تخص الرب يسوع المسيح.](3)

كما ينتهي هذا العالم الأمريكي الكاثوليكي في بحثه لإنجيل يوحنا في طبعته الأخيرة سنة ١٩٨٤ إلى الحقيقة الآتية: [ونحن نؤمن أن إنجيل يوحنا يقوم على تقليد راسخ من الأقوال والأعمال للمسيح. وهذا التقليد في بعض نواحيه واضح أنه أصيل وأولي. كما نؤمن أن إنجيل يوحنا يعطينا معلومات تاريخية صحيحة عن المسيح لم يحتفظ بها أيٌّ من الأناجيل الثلاثة.](4)

1 Brown, Raymond, p. XXI.
2 Albert Schweizer Jubilee Book p. 431.
3 Dodd, C.H., The Hist. Trad. in the fourth Gospel, p. 433.
4 Brown, Raymond, op. cit., p. 41.

أولاً: المصادر المزعوم أنها أثّرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله

وسنعرض أولاً إلى الإدّعاءات التي تقول أن إنجيل يوحنا أخذ مادته من أصول غير مسيحية.

و باديء ذي بدء نقول:

إن إنجيل يوحنا كُتب باللغة اليونانية، وفي مدينة أفسس إحدى مواطن الحضارة اليونانية. وقبل أن يدخلها القديس يوحنا الرسول بحوالي ٥٠٠ سنة، كان فيها الفيلسوف هيراكليتوس Heraclitus أول من استخدم لفظة «اللوغُس» أي «الكلمة». لذلك يظن كثير من العلماء أن بعض أسفار العهد الجديد مدين نوعاً ما للفلسفة اليونانية، كما تمادى غيرهم من العلماء في اعتبار إنجيل يوحنا يردد أفكاراً لأفلاطون مثل قوله: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق.» (يو٨: ٢٣)

῾Υμεῖς ἐκ τῶν κάτω ἐστέ, ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμί·

كذلك «الخبز الطبيعي Natural »، و«الخبز الحقيقي Real ».

غير أنه لا تقلقنا هذه التصورات؛ فالأفلاطونية كانت تملأ جو العالم آنئذ، وقد رشح منها كثير من الإصطلاحات في التعاليم العبرية.

كما أتى غيرهم من العلماء مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ عن «فيلو» الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح وللقديس يوحنا الرسول. ولكن لم يستطع أحد قط أن يبرهن هذا الزعم(٥). فلقد ظل الفيلسوف اليهودي خامل الصيت حتى في أيام زمانه، بينما صار إنجيل يوحنا وهو تحت الفحص الجمهري نحو ألفي سنة شامخ الرأس، يمسك بناصية عالم الروح والإيمان والحب والعبادة والتصوف المسيحي واللاهوت، في أعلى وأعمق مُدركاته!!

١ ــ فلسفة هِرْمِسْ وإنجيل يوحنا(٦):

كثير من العلماء، ومنهم C.H. Dodd ، غرَّتهم المشابهة بين الكتابات التصوفية التي نشأت في مصر المسماة Hermetic writings ، وكان لها أتباع روحيون وفلاسفة. ونحن لا نستخف بهذا التراث، ولكن التحقيقات أثبتت أنه من عصر متأخر عن زمن الإنجيل.

هذه الكتابات تأخذ اسمها من الإله المدعو Hermes Trismegistus ، وهو اللقب اليوناني للإله المصري توت Thoth، وتعاليمه عبارة عن عدة رسائل أهمها الرسالة المدعوة Poimandres ،

---

[5] Hunter, A.M., Accord. to St. John, p. 33.

[6] Ibid., p. 24.

وهي لجماعة الهرماتيين الذين كانوا يعيشون في مدينة الأقصر بصعيد مصر كجماعة إخوة روحيين fellowship حوالي القرن الثاني الميلادي(٧). وكانت لهم مواهب روحية فائقة. وهم يُعتبرون الورثة الشرعيين لحكماء مصر وأسرارها. وفلسفتهم تخلط بين الأفلاطونية والرواقية الهللينية مع مواريث الشرق، سواء الهند أو مصر، لتخرج بتعاليم تصوفية عن الخلاص بالمعرفة.

وبالرغم من وجود بعض انطباقات بين هذه التعاليم وبين إنجيل يوحنا، إلاَّ أن تاريخ هذه التعاليم لم يتحقق تزامنه مع إنجيل يوحنا. فهي لا تزال محصورة بين القرن الثاني والقرن الثالث بعد الميلاد. لذلك، فمن المستحيل القول بأن إنجيل يوحنا اقتبس من اصطلاحاتها، بل ربما العكس. ولقد تأكد ذلك بعد ظهور بعض الآثار المكتشفة حديثاً، والتي توضح أن هذه الكتابات المنسوبة لهذه الجماعات أخذت وجودها باللغة اليونانية بعد القرن الثاني(٨).

٢ — الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا: Gnostics

كان العالمان «رايتزنشتين» Reitzenstein و«بوسيه» Bousset أول مَنْ نادى بالتأثير الذي جرى على إنجيل يوحنا من الغنوسية وفلسفتها، وذلك في السنين الأولى من القرن العشرين. وقد تبنَّى نظرتها بشيء من الإصرار والتمادي كلٌّ من العالمين W.Bauer & Bultmann . وذلك في العصر الحديث.

والمسألة الغنوسية مسألة عويصة ومعقدة. وقد قرر العالم J. Munck (٩) أن: [الغنوسية كمصطلح علمي لم يُقبل حتى الآن بوجه عام بتحديدات علمية مُتَّفق عليها]. وكل ما هو معروف منها الآن هو الثنائيات التي تقوم عليها كأساس لكل تعاليمها.

والغنوسية تؤمن بالوسائط المتعددة بين الله والإنسان، ومنها وسائط معادية. وهي تقول بأن النفس البشرية هي شرارة إلهية حبيسة المادة، وأن المعرفة وحدها كفيلة بأن تخلِّص النفس من الشرور وتوصلها إلى النور، وأن الذين يبلغون ذلك قليلون. وهي فلسفة معقدة على العموم، وكانت محدودة بين الذين يعرفونها.

وفلسفة الغنوسية تقوم، مثل جميع ديانات الفراعنة والشرق القديم، على فكرة أن الله سيخلِّص العالم بواسطة عملية موت وقيامة حيَّة، وأن الداخلين في هذه الديانات عليهم أن يمارسوا طقوساً

7 Wagner, O.H., U.S.A. The Light of Egypt. T.H. Burgoyns, 1889, 2 Vols.

8 Hunter, A.M., idem.

9 CINTI (Current Issues in New Testament Interpretation), New York, 1962.

وأسراراً معينة تختلف باختلاف الديانة والعصر لكي يصيروا معدودين لهذا الإله، وأنهم سيقومون بعد الموت بقوى كوكبية تحفظهم من الموت. فالخلاص عند الغنوسيين لم يكن أكثر من تأملات وتعاريف ومسرّات عقلية وممارسات تصوفية، كانت تقتحمها قوى سحرية ينهزم أمامها العقل.

وواضح أن المسيحية، وبخاصة إنجيل يوحنا، تقف كواقع تاريخي مشاهد، مشهوداً له وفعّالاً بالروح؛ في مقابل هذه القصص الخرافية التي من نسج الخيال والتي لم تكن إلاّ إرهاصات من الروح البشرية وهي تنزع إلى الخلاص، الذي كان قد أعده الله، وسبق وتنبأ عنه جميع الأنبياء القديسين منذ القِدَم، ولكن بصورة معتمة جداً.

وماذا حدث بظهور إنجيل يوحنا؟ لقد انحسرت كل هذه الديانات، وتلاشت كما تتلاشى الخرافة أمام الحقيقة، لأن إنجيل يوحنا — وإن كان قد استخدم بعض ألفاظ أو اصطلاحات الغنوسيين — فقد كان ذلك لأنه كان يكتب إلى الوسط الذي كانوا يعيشون فيه وأثَّروا عليه، بل وكان يكتب لهم هم أيضاً ولكثير من المسيحيين الذين كانوا قد انضموا إليهم. وأقوى تشبيه عملي يمكن أن نقدمه لهذه المقابلة بين المسيحية في إنجيل يوحنا والغنوسية، هو ما جاء في سفر الخروج بخصوص الحقيقي والسحري هكذا: «وفَعَلاَ هكذا كما أمر الرب: طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة، ففعل عرَّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هرون ابتلعت عصيَّهم.» (خر٧: ١٠—١٢)

وهكذا عاشت المسيحية وتنصَّر الغنوسيون، وعاش إنجيل يوحنا وصار دستور الإيمان لكل مسيحيي العالم. واندثرت الغنوسية بكل تعاليمها وكتبها.

وإن كان إنجيل يوحنا قد تأثر كذلك ببعض الأفكار والعبارات اليونانية، فيقول العالم باريت(١٠): [وهل ننسى أن فلسطين كانت جزءاً من العالم اليوناني؟ وكلٌّ من العنصر الفلسطيني الحر واليوناني الحر أيضاً هو موجود في كافة أسفار العهد الجديد، ولا يمكن فصلهما، ولكنهما ملتحمان معاً ومتفقان معاً في إبراز شخص يسوع المسيح. ولم يكن إنجيل يوحنا وحده الذي ظهر فيه العنصر اليوناني، فالعنصر اليوناني كان قد ضغط بشدة على المضمون والشكل للتراث اليهودي].

ولكن بظهور مخطوطات وبرديات نجع حمادي سنة ١٩٤٦ وهي مكتبة للغنوسيين، عُثر فيها على إنجيلهم الأساسي إنجيل الحق، وإنجيل توما مترجماً بالقبطية عن اليونانية، وفيها شخصية المسيح

---

10 Barrett, op. cit., p. 32.

بأوصاف مزيّفة تطابق تعاليمهم؛ بهذه المكتشفات أصبحت المقارنة سهلة وواضحة بين إنجيل يوحنا وهذه المزيّفات الهللينية الأصل، كما تأكّد أن زمان انتشار هذه الفلسفة كان في القرن الثاني، أي بعد إنجيل يوحنا، وإن كان يُعتقَد أن لها جذوراً وثنية أقدم. ويقول العلاّمة «و. ف. أَلْبْرَايْت» W.F. Albright (١١) أن هؤلاء الغنوسيين الذين شغلوا بال آبائنا القديسين إيرينيئوس وهيبوليتُس مدة في مواجهات ساخنة، هم في حقيقتهم أسوأ بكثير مما ظنّوهم، فالخط الوثني ظاهر في تعاليمهم. وإنجيل يوحنا يحمل ضمناً ما يصلح أن يكون قطعاً لخط الرجعة على جميع تعاليمهم. وكذا تعاليم الدوسيتيين الذين كانوا يدّعون أنهم فرع من الغنوسية أيضاً. كل هؤلاء شجبهم إنجيل يوحنا دون مواجهة.

٣ ــ الماندیون وإنجیل القدیس یوحنا:

المانديون يُدعَوْن أيضاً بالناصريين Nasareans أي «النصارى». وأصل تسميتهم Manda من كلمة «ماندا» التي تعني «المعرفة»، أي جماعة المعرفة. وهم قسم من الغنوسيين يتخذون القديس يوحنا المعمدان شفيعاً لهم ويعتبرون أنفسهم من أتباعه. وبعضٌ من هذه الشيعة لا يزال يعيش إلى الآن في جنوب العراق. وعندما قام العلاّمة الألماني «ليدزباركي» Lidzbarki بترجمة كتبهم (١٩١٥ــ١٩٢٥)، وأهمها الجنزا أو الكنز Treasure وهو من القرن السابع، ظهر فيها بعض ألفاظ متشابهة مع إنجيل يوحنا مثل الحياة والنور والمجد ورموز الماء والخبز والراعي، وتعاليم عن فادٍ نزل من السماء إلى عالم الظلمة ليمارس الفداء لأتباعه قبل عودته إلى السماء. وفي الحال انتشرت حمّى «الماندية» بين العلماء، إذ وجدت كل أدوات التشابه في التعليم مع إنجيل يوحنا. وأشد مَنْ أصابت هذه الحمّى كان هو العلاّمة الألماني «بولتمان» للأسف، الذي ظن، بل أقدم على القول، أن هذه الشيعة أقدم من المسيحية؛ ولكنه لم يستطع أن يوفر لهذا الظن أي برهان. إذ أن كل ما يعرّفنا عن هذه الشيعة إنما هو كتابات القرن السابع الميلادي، حيث لا يُذكر فيها القديس يوحنا المعمدان بإسمه الإنجيلي بل بإسمه العربي «يحيى» بن زكريا. والمعتقد أن هذه الشيعة فرع شارد من المسيحية، وأتباعها من أشد أعداء المسيحية. وكانوا يدعون أنفسهم «نصارى» وقت الغزو الإسلامي حتى يتهربوا وراء «أهل الكتاب». وكانت لهم صلة بجماعة الإيبيونيين(١٢).

ومن أسرارهم **تكرار المعمودية** لمساعدة الروح على ترك الجسد بعد الموت. ولكن للأسف ليست أمامنا مراجع كافية لكشف الغطاء عن هذه الجماعة، لأن كل مراجعهم لا تزال باللغة الألمانية،

---

11 Albright, W.F., The Background of the New Testament and its Eschatology, Cambridge University Press, 1965, p. 162.

12 Hunter, A.M., op. cit., p. 23-33.

إلاّ مرجع مختصر للمؤرخ العلاّمة نياندر[13] مترجم إلى الإنجليزية، وهو الذي أعطانا صورة مبسطة عن العلاقة القائمة بين «الإيبيونيين» Ebionites والنصارى أي «المانديين» الذين كانوا يقدّسون يوحنا المعمدان وينسبون إليه كل مواهب إيليا، لما كانوا يعتبرون أورشليم (قبل خرابها) أنها مدينة الله. وكانوا يعيشون على أمل عودة المسيح السريعة ليعيد لأورشليم أمجادها وملوكيتها لحكم الألف سنة (هكذا). وقد كان الإيبيونيون بؤرة فساد بالنسبة للشعب المسيحي الذي تأثر بهم.

ويمدنا أوريجانُس[14] — بصفة خاصة — ببعض الأخبار عن وجود بقايا لهم (في زمانه) في فلسطين. واستطاع أن يعرف أنهم قسمان: قسم يؤمن بميلاد المسيح الإلهي من العذراء، وقسم يرفض ذلك. كذلك يمدُّنا چيروم[15] بمعلومات تفيد أن جماعة أخرى منهم كانت تعيش في «بيريه» بسوريا في القرن الرابع، وكانوا يُعرفون بإسم «النصارى» Nazareth، وكانوا يقاومون العزوبية ويأمرون بالزواج، وهؤلاء هم الذين عُرفوا بعد ذلك بالماندية.

٤ — مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا:

وهي الكتابات التي اكتُشفت حديثاً في التلال المطلّة على البحر الميت. وأهم هذه المخطوطات هي: «منهج التلمذة» وهو كتاب قوانين الجماعة، و«العهد الدمشقي»، و«شرح على حبقوق»، و«دَرَج التطويبات»، و«دَرَج الشهادات»، و«حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة». وهذه المخطوطات تحمل بقايا تعاليم حياة الأسينيين، وهم جماعة رهبان اليهود، وتعاليمهم يهودية تقدمية تقترب من تعاليم العهد الجديد، ومن إنجيل يوحنا بصفة خاصة. وتغطي هذه الكتابات حقبة زمنية تنحصر بين نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي. وربما يكون القديس يوحنا قد اطّلع على شيء منها.

وأول عالم جمع بين تعاليم هؤلاء الأسينيين وبين إنجيل يوحنا، هو العالم K.G. Kuhn، وذلك سنة ١٩٥٠. وأهم هذه التعاليم، المتقابلات: أولاد النور وأبناء الظلمة، الخير والشر، الذين يعملون الحق علماً بأن الحق لا يُعمل بل يُعرف فقط في المنهج الفكري اليوناني. إذن، نحن في عمق تراث العهد القديم حيث يتركز تعليمهم: «كل مَنْ يعمل الحق يكره الخطأ»، و«كل مَنْ اختار الخطأ فهو يسلك في الشر ويخاف من الحق». هذه الإصطلاحات قريبة من لغة إنجيل يوحنا.

ولكن الروابط بين هذه الكتابات وبين إنجيل يوحنا تبدو ضعيفة. فزعماء النور وزعماء الظلمة

---

[13] Neander, General Ch. Hist., vol. II, 13-34.

[14] Origen, C. Cels., I, V, c. 61.

[15] Hieronymos, Commentar in Jsai. I. IX. c. 20.

هي مخلوقات في تعاليم القمرانيين – فزعيم النور هو ملاك – ولكن في إنجيل يوحنا النور مشخّص في المسيح ابن الله؛ كذلك فإن معركة أبناء النور ضد أبناء الظلمة لن تنتهي إلاَّ بالمعركة الفاصلة القادمة، وهي عقيدة يهودية عامة من حيث المبادىء العامة التي تحكم العالم. أما في إنجيل يوحنا فهذه المعركة انتهت على الصليب بالنصرة الأبدية لحساب النور وأبناء النور، وبالقيامة داس المسيح على رأس رئيس الظلام وكل جنوده. «الآن النور يضيء»!! «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

وعندما قال القديس يوحنا في الأصحاح الأول أن «النور الحقيقي» كان آتياً إلى العالم لم يقصد نور المعرفة أو نور معرفة الناموس ولا نور الفكر، إنما نور الحياة الأبدية، نور استعلان الخليقة الجديدة «الجالسون في الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور» نور الحياة!! هذه هي الحياة الجديدة بالروح. هذا الفهم بعيدٌ غاية البعد عن مفهومات وادي القمران بالنسبة للنور وأبناء النور وحرب أبناء النور!!

فإذا كان رد القمرانيين على السؤال كيف أصير «ابناً للنور»؟ هو بأن أسلك بحرفية الناموس وأتتلمذ لمعرفة التوراة! فإن ردّ إنجيل يوحنا هو أن أؤمن بالمسيح!! وبالإختصار، فالفارق الأعظم بين تعاليم وادي القمران وإنجيل يوحنا هو شخص يسوع المسيح ابن الله المتجسد. وهذا غائب عن فكر، بل وعن خيال عُبّاد وادي القمران.

إن الضجّة الكبرى التي واكبت اكتشاف مخطوطات وادي القمران قد خمدت بعد التمعن فيما تعنيه الكلمات والمسمّيات والإصطلاحات. فهي وإن كانت متشابهة مع إنجيل يوحنا، ولكن مدلولها يختلف اختلافاً لا وفاق فيه على الإطلاق.

٥ – فيلو العلاَّمة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا:

لقد وُلد العلاَّمة فيلو سنة ٢٠ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٤٩ ميلادية. وهو إسكندري المولد والوطن. وقد آل على نفسه أن يصالح العبرية والهللينية، ونحو هذه الغاية ركّز كل كتاباته الغزيرة، شارحاً وموضحاً المعاني الدفينة التي احتوتها نصوص العهد القديم بطريقة روحية فلسفية تجريدية لا تخلو من إبداع.

وقد امتد أثره امتداداً ضعيفاً لا يُذكر بين يهود الإسكندرية، ولكن بلغت تعاليمه، عن طريق الصدفة، إلى مدينة أفسس بآسيا الصغرى بنزوح أحد تلاميذه إلى هناك، وهو أبلُّوس المذكور في سفر أعمال الرسل (أع١٨: ٢٤و٢٥): «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبلُّوس إسكندري الجنس رجلٌ فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب، وكان وهو حار بالروح يتكلم

ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط».

وقد كان، في غالبية الأمر، تلميذاً لفيلو قبل أن ينتهي في علمه بأسفار العهد القديم إلى حقيقة الرب يسوع المسيح. وعن طريق أبُلُّوس هذا، عرفت أفسس شيئاً عن اللوغُس الذي اتَّخذه فيلو أساساً لشرح التوراة وعماداً لمذهبه اللاهوتي الفلسفي.

ولكن ليس هذا معناه أن أبُلُّوس أو فيلو أخصب إنجيل يوحنا بمعرفته الفلسفية، ولكن كل ما يمكن أن يُقال أن كل استفادة القديس يوحنا لا تخرج عمَّا استفادته الكنيسة من أبُلُّوس قبل أن يعتمد ويقبل المسيح على يديْ أكيلا وبريسكلا. أو كما كان بولس الرسول وعاءً صالحاً لقبول معرفة الرب يسوع المسيح بسبب غيرته على معرفة الله والحق. أي أنه بسبب ما أضفاه فيلو من معرفة روحية بالأسفار المقدسة، وبعد ما أرساه القديس بولس الرسول أيضاً، فقد تهيَّأ لأهل أفسس استعداد صالح لقبول إنجيل يوحنا بمستواه اللاهوتي الفائق..

وقد كان فيلو يهودياً مُخْلِصاً لميراثه يدين بالخضوع الكلي للتوراة، معطياً إياها السلطان المطلق. ولكنه كان يطرق الآيات بفكر قد تشبَّع بالفلسفة الأفلاطونية الرواقية إلى الدرجة التي استطاع أن يحوِّل فيها كل اصطلاح طقسي أو ناموسي في التوراة إلى إحساس روحي محض، كذلك يحوِّل كل إحساس روحي إلى اصطلاح أفلاطوني رواقي. وكان يجني من عمله هذا تزكية عظمى للديانة اليهودية لدى العالم اليوناني.

ولكن هناك فرق شاسع بين مذهب فيلو الذي يرفع حقائق التوراة إلى المثال المطلق الأفلاطوني، وبين إنجيل يوحنا الذي يقدم المثال المطلق الإلهي في حالة متجسدة ملموسة ومنظورة.

فمثلاً، نحن نجد في كلٍّ من إنجيل يوحنا وكتابات فيلو هذه الحقيقة: «الله نور». أما فيلو فقد التقطها من المزمور «الرب نوري وخلاصي» (مز٢٧: ١)، فرفع هذه الحقيقة إلى فكر تأملي مجرَّدٍ، قرر بعده أن «الله نور» ثم استرسل في هذا المعنى، ثم يستخرج بطريق المنطق ما يلي: [بما أن الله هو النور فهو يرى ذاته، وهو قادر أن يعلن عن ذاته. وبما أنه بالنور نرى النور (اقتباس من مزمور آخر)، فالله لا يمكن أن يُرى إلا بواسطة الله]. والذي يقرأ هذا، يظن أنها مطابقة إلى حد ما لِمَا جاء في إنجيل يوحنا: «أنا هو نور العالم»، «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة»، «أنا أشهد لنفسي وشهادتي حق»، «ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلاَّ بي». ولكن بالرغم من المشابهة المعنوية إلاَّ أن هناك خطاً فاصلاً يفصل كلام فيلو المصنَّع عن كلام إنجيل يوحنا الصادر من منبع النور؛ كما تفصل العين الحاذقة الوردة الصناعية عن الوردة الطبيعية الحيَّة. فيلو يتكلم عقلياً عمَّا استطاع

أن يدركه بالتأمُّل. وإنجيل يوحنا يتكلم الله فيه عن نفسه كنور حقيقي أظهر ذاته للعالم، فاستنار؛ كما فتح عينيْ المولود أعمى فرأى نور العالم. فأية مطابقة هذه تلك التي يراها النُقَّاد بين فيلو والإنجيل؟

كذلك فإن كُلاً من فيلو والإنجيل يقول إن: «الله ينبوع ماء حي»، وبهذا يمكن أن يقع الناقد في ضلالة الإقتباس، أي اقتباس الإنجيل من فيلو! ولكن فيلو قرأ آية إرميا النبي: «تركوني أنا ينبوع المياه الحيَّة» (إر٢: ١٣)، التي تُقرأ أيضاً «ينبوع الحياة». ثم تأمل فيلو في مفهوم الماء، وفي الحال قال إن الماء هو كلام التوراة، أي الحق أو الحكمة أو الحياة ذاتها، وانتهى بذلك فيلو إلى القول أن الله هو المصدر أو الصلة الأولى أو المثال الأول للحياة والحق والحكمة.

فمَنْ يقرأ لفيلو هذا الكلام يتذكر قول الإنجيل: «مَنْ يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو٤: ١٤). وهنا أيضاً يظهر الفارق الشاسع بين الإثنين، فالأول كرسام يرسم الماء على الحائط للعطشان، والثاني يقدِّم ماءً حقيقياً يروي العطشان ريًّا. وهنا المسيح إنما يحقق قول إرميا النبي، لأنه قد جاء ليكمل النبوة بالفعل والعمل. فإرميا كان يتنبأ عن المسيح، فإذا تكلم المسيح بما قال إرميا فهو إنما يتكلم عن نفسه بالحق، فهو صاحب العهد القديم بكل نبواته: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ١٩: ١٠). ولكن إذا تكلم فيلو عمَّا قاله إرميا، فهو، في حقيقة الأمر، يتكلم عن المسيح، ولكن **دون أن يدري**(١٦).

٦ - أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا:

الأسفار التي تتكلم عن «**الحكمة**» في العهد القديم إما من الأسفار المعتبرة من الأسفار القانونية الأولى مثل سفرَيْ الأمثال والجامعة، أو من تلك الأسفار المعتبرة أسفاراً قانونية ثانية مثل سفرَيْ الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ، أو من الأسفار غير القانونية ولكن المعتمدة لدى الباحثين مثل سفر أخنوخ.

ومن قراءة هذه الأسفار يتضح لنا أن إنجيل يوحنا كان في تقديمه للمسيح قبل التجسد بأنه هو «**الكلمة**» و«**الإبن الوحيد**» مُشخَّصاً تشخيصاً كاملاً، أي بلغة اللاهوت كأقنوم إلهي قائم في الله ومع الله، كان ذلك بإلهام الروح القدس الفائق، بحيث لم تخرج أوصافه عن الخط النبوي الذي

---

16 - ICC, Bernard, pp. 93,94.
- Hoskyns, op. cit., p. 158.
- Dodd, C.H., op. cit., pp. 54-74.

كـان قـد سبق الروح وأعطى ظلالاً عنه في أسفار الحكمة. ولكن معرفة القديس يوحنا بـ« الكلمة» هـي مـعـرفـة اختـبارية مُعَاشة، ولم يستمدها من دراسة أسفار الحكمة ولا أية كتب أخرى: « الذي رأيناه بعيوننا... ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة.» (١يو١:١)

ويتضح هذا التوافق من الجدول الآتي(١٧):

	إنجيل يوحنا		أسفار الحكمة
١:١	«في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله».	أم٨:٢٢	«الرب قناني (جعلني) أول طرقه».
		أم٨:٣٠	«كنت عنده».
٣:١	«كل شيء به كان».	حكمة ٩:٢	«خالق الإنسان بحكمتك».
		أم٨:٣٠	«كنت عنده صانعاً».
		أم٣:١٩	«الرب بالحكمة أسس الأرض».
		حكمة ٧:٢٢	«الحكمة صانعة كل شيء».
٤:١	«فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس».	أم٨:٣٥	«مَنْ يجدني يجد الحياة».
		حكمة ٧:٢٦	«الحكمة ضياء النور الأزلي».
٥:١	«والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه».	حكمة ٧:٢٩	«إذا قيست بالنور تقدمت عليه».
		حكمة ٧:٣٠	«لأن النور يعقبه الليل أما الحكمة فلا يغلبها الشر».

[17] Hunter, op. cit., p. 33.

١٠:١	«كان في العالم».	سيراخ ٢٤: ٥و٦	«إني خرجت من فم العلي بكراً قبل كل خليقة. وجعلت النور يشرق في السموات على الدوام وغشيت الأرض كلها بالضباب».
١٠:١	«والعالم لم يعرفه».	أم ١: ٢٩	«رفضوا الحكمة».
١١:١	«جاء إلى خاصَّته وخاصَّته لم تقبله».	أخنوخ ٤٢: ٢	«ذهبت الحكمة لتجعل مسكنها بين الناس فلم تجد لها مكاناً».
١٢:١	«وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله».	حكمة ٧: ٢٧	«تحل في النفوس القديسة فتنشيء أحباءً لله وأنبياء».
١٤:١	«وحلَّ بيننا».	سيراخ ٢٤: ٨	«والذي صنعني عيَّن مقر مسكني وقال اسكُني في يعقوب».
	«مجد ابن وحيد لأبيه».	حكمة ٧: ٢٢—٢٥	«فإن فيها ,,الروح الفَهِمَ، القُدُسَ،،، المولود الوحيد، بخار قوة الله، وصدور مجد القدير الخالص».

قدَّم هذه المقابلة الجيدة الإختيار العالم رندل هَرِّس J. Rendel Harris (١٨)، وفيها يتضح أمام القارىء مقدار القُرْبى الشديدة في الأسلوب والمعنى بين أسفار الحكمة وإنجيل يوحنا، وكيف أن

---

18 Harris, J. Rendel, The Origin of the Prologue to St. John, G 1917.

الحكمة يقدمها الوحي مشخَّصة قائمة مع الله، وعند الله، وأمام الله. وكثيراً ما كان ينتقل كاتب سفر الحكمة من الحكمة إلى الله ومن الله إلى الحكمة، في العمل، دون أدنى تفريق أو حذر!! حيث تتقارب بصورة ملفتة للنظر أوصاف الحكمة وأوصاف الكلمة عند القديس يوحنا، وكلاهما يأتي مُعبَّراً عن فكر الله، وعمل الله، وإرادة الله، لا على مستوى الفكر الخالص أو مجرد العمل، بل ككيان قائم بذاته متغلغل في الكون وفي الإنسان والخليقة.

والقديس بولس الرسول يلمح هذا ويعبِّر عنه هكذا: «بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله و برًّا وقداسة وفداء.» (١كو١: ٣٠)

ولكن مهما كان التشابه والتقابل والتناسق بين الحكمة و«الكلمة» عند القديس يوحنا، إلاَّ أن «الكلمة» يظل متميزاً بتفوُّق شخصي في وضوح بلغ عظمته وتفرُّده حينما بلغ حد الظهور العلني متجسداً!! «والكلمة صار جسداً» ومتأنساً «كابن الإنسان»، ليستعلن في نفسه ومرَّةً واحدة وإلى الأبد سِرَّ أبوَّة الله التي اكتمل حنانها وحبها في شخص يسوع المسيح نحو العالم والإنسان الخاطىء!!

ثانياً: النقد الموجَّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا

وهذا النقد بنوع خاص شغل العلماء المحافظين والتقليديين، وخاصة الأتقياء منهم، بل وأقضَّ مضاجعهم. وقد حاولوا جميعاً، كلٌّ منهم حسب قامته في الإلهام والمعرفة، معاً، أن يرد على احتجاجات المؤرخين العلميين ويصدَّ الثغرات التي فتحوها للنَّيْل من الأصالة التاريخية لهذا الإنجيل؛ كما يقول العالم اللاهوتي التقليدي هوسكنز: [إن الدراسة الحديثة للإنجيل الرابع قد ألقت على الكنيسة مشكلة ضاغطة ألا وهي مشكلة التاريخ][19]. ثم يعود ويسخر من هؤلاء العلماء الملتزمين بالعلم التاريخي حينما أرادوا أن يطبّقوا علمهم على منهج إنجيل يوحنا بقوله:

[إن كاتب الإنجيل الرابع من ناحيته يضغط أكثر على قرَّائه بعمق لاهوتي متفتح نحو ما هو أكثر أهمية من مشكلة التاريخ، وما هو محيِّر أيضاً — لأي فكر علمي — حينما يطرح «جسد» يسوع ابن الإنسان للأكل، ودمه للشرب!! ثم يضغط أيضاً بضرورة أن يتذكر الناس كل ما قاله[20] (يو١٤: ٢٦)؟

---

19 Hoskyns, op. cit., p. 58.

(٢٠) الإعتماد هنا لم يصبح على دقة الكاتب أو دقة التسجيل أو دقة التاريخ أو دقة الفهم، إنما على الروح القدس.

مرة أخرى نقول: جسد، دم، أكل، شرب، وضرورة تذكُّر كلامه؟؟ إنه صعب أن يتصور الإنسان مثل هذه اللغة التي تصعق الفكر، وبالأكثر حينما نحاول أن ننظر من خلالها إلى العنصر التاريخي! ولكن وبإصرار أكثر لا يقنع كاتب الإنجيل أن يستقر فكر القارىء حتى على نوعية وأهمية التاريخ هنا، بل يعود ويزحزح الفكر: «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً!!» (يو٦: ٦٣)

إذن، على قياس الروح القدس وقيادته فقط تصبح كلمات المسيح ذات قيمة وقدر عال: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣). ولكن إذا لم يفهموا كلام المسيح فالعلّة تكون هنا أن المسيح نفسه «ككلمة» = **لوغُس قد فات عليهم هم إدراكه: «لماذا لا تفهمون كلامي.** لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (كلمتي = لوغُس) τὸν λόγον τὸν ἐμόν» (يو٨: ٤٣). والنتيجة بالضرورة أن كلمات المسيح تحتاج لفهمها إلى شرح خاص من الروح ومن الحق فقط! «وأما المُعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب بإسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو١٤: ٢٦)... فإذا أُخذت كلماته باعتبار أنها رواية تاريخية وحسب، فإنها تصبح تافهة للغاية وبلا معنى! «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته[٢١]، يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا به من نفسي.» (يو٧: ١٦و١٧)

نعم، هذه هي شهادة كاتب الإنجيل شهادة تنطلق كطعنة خنجر في قلب العالم!! ذلك إن كان العالم هو العالم الذي أوْجَدَ نفسه بنفسه وأن له نظامه وحقَّه الطبيعيين (أي إن كان بلا تاريخ إلهي)، وهي هي أيضاً الشهادة التي يطرحها الإنجيل الرابع كطعنة أيضاً في قلب التاريخ، إن كان التاريخ هو التاريخ الذي يحوي في طيّاته برهان نفسه ومعناه الذي يقبل وحده التحليل والوصف.

بل لا نبتعد عن الصواب إذا ما قلنا أن المسيح نفسه كان مهدَّداً في وجوده — إن كان كما تصوره اليهود — قد ظهر على **مسرح التاريخ «بتأكيد من ذاته وحسب»** مبتدرين إيّاه بسؤال التحدي: **«مَنْ تجعلْ نفسك؟»** (يو٨: ٥٣)، حيث إذا أراد كلمة واحدة فيكون هذا هو التجديف! وهنا نقف ونلتفت إلى ما كان يدور في ذهن كاتب الإنجيل آنئذ، إذ علينا أن نتصور أي وعي للتاريخ وأي إحساس كان يتجاوب في قلبه حينئذ عن مشكلة التاريخ. هنا الكاتب كان بصدد مشكلة لا يمكن التهرُّب منها، فحقيقة موت وحياة يسوع الناصري تاريخياً كان يتحتَّم أن تدعمها معرفة بتعاليمه وأعماله وظروف موته بالقدر الذي

(٢١) أي مَنْ أراد في قلبه أن يعمل حسب مشيئة الله، تنفتح بصيرته ويعرف في الحال مصدر تعليم المسيح.

يكفي لكي يتجرأ ويكتب، لا عجالة عن أصول الديانة المسيحية، ولكن إنجيلاً!](٢٢)

وفي النهاية يقول هذا العالم المدافع عن الأصالة التاريخية لإنجيل يوحنا:

[ونحن نصرُّ على أن كاتب الإنجيل الرابع لم يضع بإنجيله ملحقاً تاريخياً لإضافة شيء على المعرفة التاريخية للكنيسة الأولى، بل إنه أعاد لها صياغة التاريخ الإنجيلي برُمَّته، وذلك بمقتضى تقارير ذات أصالة من واقع تعاليم المسيح وأعماله. وقد صنع الكاتب هذا ليس بسلطان شاهد عيان كرسول، بل بسلطان أعظم، كتلميذ كان يسوع نفسه يحبه، وقد ائتمنه وأسرَّ إليه بمعنى حياته وموته!... **بهذا يكون الإنجيل الرابع قد أصبح هو الوثيقة التاريخية بالدرجة الأولى**، أما الثلاثة الأناجيل الأخرى فهي، من بعده، وثائق أيضاً تاريخية لها أهميتها، ولكن ليس بينها من تناقض، وليس فيها ما يتعارض مع التاريخ بحسب قصد الإنجيل الأسمى.](٢٣)

---

22 Ibid., pp. 58,59.

23 Ibid., pp. 67,68.

الرد على النقد التاريخي لإنجيل القديس يوحنا

١ — إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ:

إنجيل يوحنا له هدفه المحدد الذي يسعى إليه كاتبه القديس يوحنا منذ أول كلمة فيه، ليكمّله بالروح حسب مشيئة الله المستعلنة له. تماماً كما نقرأ للقديس لوقا في مطلع إنجيله عن الهدف المحدد الذي أوحى به الروح القدس له ليكمّله حسب مشيئة الله المعلنة له. أما القديس لوقا فكان هدفه أن يستعرض تاريخ قصة الأمور المتيقنة عنده كما سلّمها له الذين كانوا معاينين وخداماً «للكلمة»، أي المسيح منذ البدء. ووعد الكاتب أن يكون ذلك بالتدقيق ليتأكد القارىء من صحة الكلام الذي سمعه سابقاً بالنقل الشفهي (لو١: ١—٤).

أما القديس يوحنا فهدفه المحدّد له من الروح سجله في ختام إنجيله، حينما أحس بالروح أن الذي كتبه فيه الكفاية ليحقق الهدف. وهدفه كان إيمان القارىء بشخص يسوع المسيح إيماناً يكفيه ليستعلن منه أن **يسوع المسيح هو ابن الله**؛ لأن بهذا الإيمان، كان القديس يوحنا متيقناً أن القارىء سوف ينال الحياة الأبدية «باسم» المسيح (يو٢٠: ٣٠و٣١). والقديس لوقا، إن كان قد اعتمد في سرد رواية إنجيله على ما تسلمه من الذين عاينوا المسيح وخدموا الكلمة أي التلاميذ: «أنتم الذين تبعتم معي في التجديد»؛ فالقديس يوحنا كان هو الذي عاين الرب يسوع وخدم معه كتلميذ امتاز عن جميع التلاميذ الآخرين بأن يسوع كان «**يحبه**». وهذه الكلمة «يحبه» تشير إشارة بليغة إلى ما وراءها: «الذي يحبني، أحبه **وأُظهر له ذاتي**». وبالفعل نتيقَّن نحن من إنجيله أن الرب أعلن له «ذاته». وكلمة «ذاته» — أي ذات المسيح — تفيد «**مَنْ هو**»، وما هي «**صلته بالله**»، وسر «**عمله ورسالته**». وهذا هو بعينه ما سلّمه إلينا القديس يوحنا في إنجيله. وقد كان هذا هدفه من بدء الإنجيل حتى نهايته.

إذن، فإنجيل يوحنا لم يأتِ قصة ولا مجرد سرد أخبار مسموعة أو منقولة كما هي عن المسيح، ولكن استعلاناً لشاهد عيان مؤتمن لدى المسيح نفسه كتلميذ محبوب مفتوح العينين والسمع، يشهد أن يسوع المسيح نفسه هو ابن الله. ولهذا الهدف اختار القديس يوحنا من بين الأقوال التي قالها الرب وسمعها هو والأعمال التي رآها هو، ما يثبت للقارىء أن المسيح هو ابن الله. والقديس يوحنا لم يُلْزم نفسه ولا ألزم القارىء — كما تعهّد القديس لوقا — أنه سيتبع الخط التاريخي بدقة لحياة السيد المسيح من البداية حتى النهاية، كما قال القديس لوقا، بل قال بكل وضوح إن: «**آيات أُخَر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب**» (يو٢٠: ٣٠). أي أنه تخلى عن الرتابة

التاريخية كما تخلى عن أن يكتب كل ما رأى وسمع، لأنه واحد من التلاميذ الذين صُنعت قدامهم هذه الآيات. ولكنه اختار ما يختص بهدفه فقط: «وأما هذه (الآيات) فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله؛ ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة بإسمه.» (يو٢٠: ٣١)

٢ - تحرُّك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي:

وواضح من إنجيل يوحنا، كيف خضع والتزم بهذا الهدف بكل دقة، سواء في مجموعه ككل أو في أجزائه التي يقدمها الكاتب لتخدم قضية الإيمان بيسوع المسيح ابن الله، لينال القارىء والسامع حياة بإسمه. لذلك نلحظ بشيء من الإندهاش روح الإلهام واضحة وكيف ينمو خط الإستعلان نمواً متزايداً متَّزناً نحو هذه الغاية بكل انتباه كلما اقتربنا من النهاية. كما نلحظ أن خط النمو الإستعلاني هذا يربط بإحكام بين الحوادث والأقوال، وينتقل بها جميعاً في قوة وانسجام وترابط، وكأن الأصحاحات حيّة تسير مع القارىء، لا يُترك منها كلمة واحدة، بل الكل يتحرك معاً صوب الهدف!

على أن هذا التوقيع للحوادث والأقوال توخَّى الإلتزام بالخط التاريخي قدر ما يسمح به الحال، لأن حركة الإنجيل مرتبطة أساساً بهدف لاهوتي صميم. فالقارىء المتفتح الوعي والبصيرة يمكنه أن يلحظ عدم غياب الخط التاريخي هذا من داخل الحركة الإستعلانية.

فعوَض أن يبدأ الإنجيل بقصة ميلاد المسيح زمنياً على مستوى التاريخ المدني كبقية الأناجيل، قدَّم لنا هذا الميلاد بعينه وما هو قبل الميلاد أيضاً، إنما على المستوى اللاهوتي. إذ قال أولاً: «**في البدء كان الكلمة**... وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، ثم «**والكلمة صار جسداً** وحل بيننا.» (يو١: ١٤)

وعوَض أن يقدِّم يوحنا المعمدان على مستوى التاريخ كمعمِّد للمسيح، قدَّمه كشاهد لاهوتي لبنوة المسيح لله «وأنا قد رأيت وشهدت أن **هذا هو ابن الله**» (يو١: ٣٤)، وأنه سيعمد بالروح القدس. وأضاف شهادة أخرى للمسيح تشير إلى نهاية عمله الخلاصي بالصليب حينما قال المعمدان: «هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). وهكذا حملت الشهادة كل ما يختص بالمسيح لاهوتياً!!

وحياة السيد المسيح العلنية التي يقدمها إنجيل يوحنا تبتدىء **في عمق الزمن وعمق الله معاً**: «**والكلمة صار جسداً** وحل بيننا ورأينا مجده، مَجْدَ **وحيدٍ لأبيه**، مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١: ١٤). وهكذا تفصح الآية أن «الكلمة» صار ابن الإنسان، وهو ابن الله، بآن واحد.

ثم أنهى إنجيل يوحنا حياة الرب العلنية **بالموت، وباستعلان مجد الإبن معاً**: «**أيها الآب قد أتت الساعة، مجّد ابنك.**» (يو١٧: ١)

والآن، فلينظر القارىء ويحكم هل يمكن أن يكون تلاحم بين التاريخ واللاهوت أكثر من هذا تلاحماً؟ أو بين الزمن والأبدية؟

وبديهي أن يدرك القارىء أن **ما كان يحتفظ به القديس يوحنا من الحضور الإلهي في ذهنه وتقييمه لدقائق حياة المسيح وربطها بالهدف، كان من المستحيل أن يتخلى عنه لحظة واحدة لكي ينتبه لمجرى التاريخ** فيبحث، مثل القديس لوقا، عن أوغسطس قيصر روما في ذلك الزمان وعن كيرينيوس والي سوريا، أو يبحث مع القديس متى عن هيرودس ملك البلاد وخوفه على عرش مُلْكه، أو يتبع منهج القديس مرقس في البحث عن حياة المعمدان الخاصة في البراري ولِبْسه وبَرّ الإبل وأكلهِ العسلَ والجراد. هذا كله كان، في الحقيقة، يخرج عن منهج الروح الذي كان يعمل في قلب يوحنا وفكره، **فلم يكن يلمع في ذهنه إلاَّ شخص يسوع المسيح المستعلَن في بنوَّته الأزلية لله**. ونحو هذا الهدف ركَّز فكره وقلمه وذاكرته وروحه متحسساً قصاصات الورق أو الرق التي كان قد سجل عليها مذكراته منذ أيامه الأولى مع المعلم.

لهذا كان القديس يوحنا يكتب على خلفية حية تحمل صدق تاريخها معها دون بحث منه أو عناء. فلم تفقد هذه الخلفية ضياء الحق واللاهوت فيها. لذلك، فإنه في توقيعاته للحوادث، ومهما استطرد فيها، فإن القارىء يشعر أن القديس يوحنا وهو يكتب ويسجل أقوال الرب وأعماله لم يكن يعمل حساب النُّقَّاد والمتشككين، المعتَبَرين عالة على الإنجيل، بل نحَّاهم من رؤيته ومن إنجيله منذ البداية: «الذي لا يؤمن قد دِيْنَ» (يو٣: ١٨). وكان يكتب عن الحق وقد التزم به، وكان يسجل عن «الحياة» فانحصر فيها. فلا الطابع الرسولي المتميز بسلطانه، ولا الأمانة التاريخية، أصاب أيٌّ منهما أدنى انحراف على مدى الكتاب كله، بالرغم من أنه كان عليه أن يصيغها بلغة اليونان بينما هي حاضرة في ذهنه برطانتها الآرامية (الآرامية هي لغته الوطنية).

٣ ــ مميزات القديس يوحنا التي أهّلته لإستعلان أسرار المسيح، وتدوين الإنجيل:

وهناك سؤال محيِّر يطرح نفسه على فكر القارىء إذا هو انتحى ناحية الفحص **العقلي** أو الفهم **المنطقي**: وهو إلى أي مدى يستطيع رسول ــ مثل القديس يوحنا ــ أن يسترجع حياة المسيح، حتى وإن كان كشخص كان يعاشره بلا تحفُّظ، إذ كيف يسجل ما قاله المسيح وما عمله والمناقشات التي دارت بدقتها المتناهية والأحاديث المطوَّلة وصلاته السرية الخاصة للآب كما سجلها في إنجيله؟

مع ما كانت تنطوي عليه هذه المناقشات والأحاديث من اتجاهات خفيَّة في ذهن المسيح أو ذهن الجموع أو الأفراد المجادلين؟ هذا وبعد عدد عديد من السنين يزيد عن نصف قرن؟ علماً بأنها لم تسجَّل في الأناجيل الأخرى؟

وللرد على هذا السؤال البالغ الأهمية بالنسبة لحياة القارىء نقول:

إن كان «ابن الله — الكلمة» قد تجسد، أو بتعبير القديس بولس الرسول «الله ظهر في الجسد»، إذن فهنا استعلان فائق قد حدث بالفعل، وقد حدث ومعه مجاله الإستعلاني لفتح بصيرة الإنسان، وهذا ما حدث وما كان قائماً في ذهن القديس يوحنا، وقد حمَّله الروح مسئولية استعلان هذا الحدث الإلهي. والإستعلان في ذاته كمٌّ روحيٌّ هائلٌ لا يتناقص قط بمرور السنين، بل يزداد توهجاً ولمعاناً في الذهن، لأن من صميم طبيعة استعلان الله الإمتداد والإنتشار في كيان الإنسان إلى مالانهاية. بهذا يكون إنجيل يوحنا يُشكِّل فيضاناً إلهامياً من الإستعلانات المتتابعة المقترنة بالحوادث لكشف أخطر أسرار الله استعلاناً وهي «**طبيعته الذاتية**»، التي هي طبيعة المسيح؛ والتي استطاع القديس يوحنا بالجهد أن يصيغ لها حدوداً بالقلم، فاختار من ألوف الحوادث والأقوال والآيات ما يستطيع أن يقدمه ليغطي حياة المسيح كلها باختصار بالغ دون أن يخرج عن التقليد الرسولي المعروف والمذاع في الأناجيل آنذاك.

هذا الجهد الروحي المبذول، بالرغم من ضخامته، اعتبره القديس يوحنا قاصراً ومقصِّراً في استيعاب كل أطراف حياة المسيح وكل ما قال وعمل، وعبَّر عن ذلك بتصوُّره أن العالم كله لا يسع الكتب أو المكتوب إن هي استوعبت حياة المسيح بدقائقها!!! «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب.» (يو٢٠: ٣٠)

«وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبتْ واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.» (يو٢١: ٢٥)

(أ) أما كيف سجل القديس يوحنا أحاديث المسيح، وبالأخص الصلاة الأخيرة في أصحاح ١٧ بعد العشاء الأخير بما تحتويه من أسرار وعمق لاهوتي ومخاطبة مباشرة للآب تُعْتَبر كلها أحاسيسَ وعواطف ذاتية (علماً بأن القديس يوحنا حسب ما نعرفه عنه من الأناجيل الأخرى لم يختلِ وحده بالمسيح بعد العشاء الأخير، وأنه كان نائماً ولم يستطع أن يسهر في جثسيماني بحسب القديس لوقا، وكان المسيح بعيداً، وعلى بعد رمية حجر من القديس يوحنا، ومعه بطرس و يعقوب الثلاثة الذين اختارهم المسيح أن يكونوا بقربه وقت الصلاة التي قدمها بعرق يتصبب كالدم)؛ فمتى وكيف عرف يوحنا دقائق هذه الصلاة؟

للإجابة نقدّم أولاً هذه الآيات:

١ — «قد كلمتكم بهذا بأمثالٍ ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثالٍ بل أخبركم عن الآب علانية» (يو١٦: ٢٥). وهذا ما قاله المسيح للتلاميذ قبل صلاته المسجلة في الأصحاح ١٧ بدقائق؟!

٢ — «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه.» (يو١٦: ١٢و١٣)

وهذا قاله يسوع لتلاميذه قبل صلاته المسجّلة في أصحاح ١٧ مباشرة.

٣ — «أيها الآب البار... عرَّفْتُهم اسمك، وسأُعرِّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به...» (يو١٧: ٢٥و٢٦)

بخصوص الآية رقم (١):

والآن متى أتت هذه الساعة التي تكلم عنها المسيح التي كلمهم فيها عن الآب علانية؟

+ واضح، إذن، أن ما كتبه القديس يوحنا لا يقع تحت بند «الكلام بأمثال» — الأناجيل الثلاثة — بل هي إخبار عن الآب علانية، وهي التي تشمل كل تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا عن الآب، ومعها الصلاة في الأصحاح ١٧. هذه هي كلها الكلام عن الآب علانية، وهو من تعليم المسيح المباشر للقديس يوحنا بالروح القدس.

وهذه الساعة هي ما بعد القيامة، لأن «قد أتت الساعة» هي ساعة الصليب. ولكن «تأتي ساعة» هي بالضرورة ما بعد ساعة الصليب.

بخصوص الآيتين رقم (٢) و(٣):

كذلك ما هي الأمور التي لم يكونوا يستطيعون أن يحتملوها حتى قبل هذه الصلاة؟ وقالها لهم بعد ذلك؟

ومتى عرَّفهم المسيح بالمزيد عن اسم الآب بعد أن صُلب أمامهم؟

+ إذاً الأمور التي لم يكونوا يحتملونها والتي اضطلع بها الروح القدس بعد حلوله، والتعريف الإضافي الذي يختص بإسم الآب، فهو ما اكتسبته الكنيسة بالروح القدس، سواء في إنجيل يوحنا أو على مدى القرون الأربعة الأولى، وهو الذي بواسطته دافعت عن إيمانها وانتشر وجودها في كل أنحاء العالم ولا يزال. إذن، كان يتحتّم أن يتكلم المسيح علانية عن الآب، وبدون أمثال، في إنجيل يوحنا — الذي خلا من الأمثال بالفعل — حتى يكون الله صادقاً، وحتى نعرف الأمور التي لا

يحتملها أي إنسان بدون نعمة الروح القدس.

(ب) كذلك السؤال الذي قد يطرحه الفاحص العقلاني: كيف ومتى عرف القديس يوحنا حديث السامرية مع المسيح؟ علماً بأن التلاميذ كانوا قد ذهبوا ليبتاعوا طعاماً.

(ج) أو كيف وممَّن عرف القديس يوحنا الحديث الذي دار بين بيلاطس والمسيح؟

نقول: إذا لم يكن المسيح هو الذي قصَّ على يوحنا ما حدث، وإذا لم تكن هي السامرية نفسها، وإذا لم يكن بيلاطس، الذي تنصَّر وتعمَّد بحسب التقليد، هو الذي قصَّ ما دار بينه وبين المسيح، وإذا لم يكن القديس يوحنا موجوداً بالفعل دون بقية التلاميذ مع المسيح على بئر يعقوب؛ فالرد قد يمتد أيضاً ليشمل معظم أحاديث المسيح، وهو كالآتي:

معروف جيداً ومسجَّل في سفر الرؤيا أن طبيعة القديس يوحنا طبيعة رؤيوية، أي أن روحه حرة تستطيع في أي وقت أن تدخل في مجال الروح الخالص لترى حوادث في غاية من الدقة والتسلسل والخطورة، وتسمع حديثاً حدث أو سيحدث سيَّان، بل وتسمع حواراً درامياً حزيناً بين أرواح الذين قُتلوا وبين المسيح. وأُعطي للقديس يوحنا أن يعي بالروح ويفهم ويتذكر ويسجل بعد ذلك كل ما سمع بالحرف الواحد، وأن يصف ما رأى بمنتهى الدقة دون أن يزيد أو يُنقص، رغماً عن أن ما رأى يفوق العقل والوصف. وكان محدِّث القديس يوحنا مرة ملاكٌ معيَّنٌ للتفهيم والتعريف، ومرة كان المسيح نفسه وهو في مجده. كذلك ومن سفر الرؤيا عرفنا وتأكدنا كيف أن المسيح كان يعرِّفه بالأمور، مرة بالرموز ومرة بالعَلَن جهاراً، فتعلم يوحنا كيف يعبِّر وكيف يسجل. لذلك أصبح واضحاً أمامنا إمكانية استقبال القديس يوحنا لكل المعارف والمفهومات، سواء في ماضيها أو مستقبلها، سيَّان، وذلك من مصادرها العليا بلا عناء، سواء بإملاء، أو إعلان الروح، أو بإرشاد الملاك بكل ما تم على مستوى حياة المسيح، بل ومن الأشخاص الذين تكلموا مع المسيح بأنفسهم، لأن «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء.» (١كو١٤: ٣٢)

وهل ينسى الفاحص العقلاني أن المسيح نفسه تحدث بنفسه حديثاً مطوَّلاً في سفر الرؤيا — وذلك بعد قيامة المسيح وصعوده بما لا يقل عن ثلاثين سنة أو يزيد؟ بل وأمر القديس يوحنا أن يكتب ما سمع ورأى في سِفْرٍ وأن يعلنه للناس: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب، وبيَّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه.» (رؤ١: ١و٢)

فإن جاء سفر الرؤيا برموز وأمثال، فقد أُعطي ليوحنا أن يكتب إنجيلاً ليس برموز وأمثال، بل

بما أخبره المسيح عن الآب علانية. ألم يَعِد المسيح بذلك؟ وهوذا قد حقق وعده.

كذلك لو فحصنا الأمر ذاته مع القديس بولس الرسول، نجده يصرّح بمنتهى الوضوح أنه لم يستلم إنجيله من إنسان، بل ولم يتعلمه من إنسان، بل قد استلمه وتعلّمه من المسيح مباشرة بإعلان: «وأُعرِّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بَشَّرتُ به إنه **ليس بحسب إنسان، لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.**» (غل ١: ١١و١٢)

أليس هذا مثالاً حيًّا وشهادة ناطقة يمكن أن ندرك بها كيفية كتابة الأناجيل؟ وسرد حوادثها وتسجيل كلماتها؟ لكي نطمئن تماماً أن كل ما لا نعرف مصدره، بالتحقيق أو بالمقارنة أو حتى بالعقل، فحتماً يكون مصدره الإعلان الفائق، لأننا نتعامل مع إنجيل الله وليس كتاب تاريخ. وليكن في الحسبان أن القديس بولس لم ير المسيح بالجسد إطلاقاً. والقديس بولس الرسول كان يعرف تماماً أنه ليس له فقط أُعطي إعلان الإنجيل، بل ولبقية الرسل، وخاصة الذين تعامل معهم، وهم بطرس ويعقوب ويوحنا المعتَبَرين أعمدة الكنيسة. «أنه بإعلان عرَّفني بالسرّ — كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز — الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تعرفوا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيالٍ أخر لم **يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرُسُله القديسين** وأنبيائه بالروح» (أف ٣: ٣—٥). واضح إذن أن بني البشر عليهم أن يخضعوا لمعرفة إعلان يسوع المسيح فيما يخص إنجيله إن كانوا يريدون الإيمان به، لا أن يبحثوا عن مصدره الذي أُعطي فقط لرسله وأنبيائه بالروح.

وفي النهاية هنا نقول ما يقوله التقليد الرسولي، أن مَنْ يريد أن يقرأ الإنجيل أو يفحصه، عليه أن يضع في اعتباره أنه يقرأ أو يفحص على أساس أنه يتبع قصد كاتب الإنجيل وما يريد أن يعلنه ويبشِّر به، باعتبار أن مادة الإنجيل هي تقرير يشمل البشارة ملتحمة بالتاريخ. وليس له أن يقرأ على أساس كيف كُتب، أو ما ينبغي أن يُكتب عليه إنجيله من معايير نضعها حسب قصدنا. لأن القصد الأول والأخير من القراءة أو البحث هو الوصول إلى الإيمان، والإيمان في البداية والنهاية هو تصديق ما فوق التاريخ، وتسليم الفكر والقلب والحياة كلها له — أي لله. علماً بأن القديس يوحنا الرسول يقدم لنا إنجيله أو المسيح من خلال إيمانه! وهذا لا يمنعنا من أن نستخدم كل أسلحة العلم لبلوغ اليقين لإيماننا، ولمزيد من المعرفة والفهم، حيث يبقى العلم أو كل العلوم في موضع الخادم للحقيقة لا سيداً عليها.

ولكن أن نبحث عن الحَبْك التاريخي في صياغة عمق روحي هائل مثل هذا له هدفه الروحي الأوحد، فهذا مطلب تعسُّفي مماحك.

٤ – إنجيل القديس يوحنا اختص بالناحية اللاهوتية معتمداً على التقليد الرسولي العام:

لم يقل إنجيل يوحنا أنه الإنجيل الوحيد، بل هو كُتِبَ بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى كل ما يختص بالتاريخ المدني الروماني واليهودي، وبعد أن تتبَّعت التاريخ الآبائي حتى إبراهيم وآدم، واستوفت طوبوغرافية الأرض التي سار عليها المسيح وتنقَّل بين ربوعها، وبعد أن رصدت السنين والشهور والأيام والليالي حتى استوفت الإطار الإنساني الذي يخص المسيح من كافة الوجوه. هكذا قال التقليد الآبائي الكنسي بأعلى صوته مؤكِّداً أن القديس يوحنا كتب إنجيله الروحي بإلحاح زملائه بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى ما يخص الأمور الظاهرة أي الجسدية التي للمسيح، والقديس يوحنا نفسه كتب على هذا الأساس.

ويقول التقليد الكنسي:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ، كتقليد، أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بالحقائق الجسدية — أي التي تخص الجسد τὰ σωματικά — في تسجيلها وإذ ضُغِط عليه من قِبَل أحبائه، تحرك بالروح من قِبَلِ الله وكتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον .][٢٤]

(إكليمندس الإسكندري)

(سنة ١٥٠–٢١٥)

ونحن لا يمكن أن نغفل شهادة الآباء القديسين الأوائل وأساقفة الكنائس العظمى، التي بها استطاع إنجيل يوحنا أن يقف أمام أعنف التيارات المعادية للإيمان، لأنه يحمل جوهر الإيمان بالمسيح ودقائق العناصر اللاهوتية التي أقامت الهيكل العام للإيمان المسيحي مع الأناجيل الثلاثة.

ولقد واجه المسيح نفسه مثل هذه الأفكار فقد سأل تلاميذه يوماً: «مَنْ يقول الناس إني أنا؟» (مت١٦: ١٣، مر٨: ٢٧، لو٩: ١٨). وكأن المسيح بهذا السؤال يسبق ويخاطب علماء اللاهوت في هذه الأيام الذين يطالبونه — كما طالبه اليهود «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو٨: ٥٣) — بتحقيق ذاته تاريخياً في إنجيل يوحنا. فكان رد التلاميذ أن بعضهم يقول: «إنه إيليا». وهكذا تطوح التاريخ ألف سنة عن الواقع أمام عيونهم. لأن التقييم المباشر للإستعلان الباهر يلهي الذهن عن مفردات التاريخ. ولكن رسوخ الإستعلان الإلهي في ذهن القديس يوحنا وامتداده ونموّه وانتشاره على مسافة زمنية كبيرة للغاية (نصف قرن ويزيد) مع نضوج الشيخوخة، كل هذا جعله قادراً حقاً أن يحيط

24 Clement of Alex., cited by Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,7; cited by Westcott, op. cit., p. XXXV.

بحدود هذا الإستعلان في اختصار مدهش، دون أن يتوه في شعاب التأمُّلات أو غيبوبة الرؤى.

فالواقعية في إنجيل يوحنا قوية، والواقع هو دائماً ابن أمين للتاريخ. فالقديس يوحنا قبل أن يكتب إنجيله، كان يملك في مخازن قلبه المضيء وثائق تاريخية حدثت أمامه في الزمان والمكان تتعلق بهذه الإعلانات الإلهية، والتي هي على أعلى ما يمكن من الخطورة، إذ تختص بالكنيسة وحياة العالم وتطور البشرية، أؤتمن عليها هذا القديس بكل ذخائرها. وكان يجترُّها كل يوم ويحكي عنها ويعظ، فكان بريقها يزداد مع الأيام ويتوضح. وأخيراً، وبعد إلحاح أحبائه ورؤساء الكنائس السبع من حوله مع جميع أولاده صمَّم أن يكتب، فكان الإنجيل. وهو عبارة عن وثائق تحمل مفرداتها ويحملها الإستعلان الخاص بحياة وخلاص العالم!! ولكن لأن مادة هذه الوثائق تختص بلاهوت الإبن ومستقبل البشرية والحياة الأبدية، فمن المعقول أن يتضاءل فيها العنصر التاريخي كعنصر حرّ منفرد بجوار الأغوار اللاهوتية. ولا لَوْمَ على الكاتب؛ إذ كان يكفيه أن يكون أميناً للحادثة اللاهوتية أولاً وقبل كل شيء، فهي التي يهدف إليها.

وكما كان القديس يوحنا، كذلك كانت الكنيسة في القرن الأول والثاني. فقد اعتبر القديس يوحنا أن كل ما غاب في إنجيله هو مسجَّل في التقليد الرسولي الذي يحفظه الناس كما هو في الأناجيل الثلاثة. لأن التقليد الشفاهي بتاريخه ودقائقه كان متواتراً ومحفوظاً في الكنيسة كلها آنئذ، بل وكان المادة الحية للوعاظ والأساقفة يكتبون ويعظون ويعلِّمون منه. فتعاليم القديس بولس الرسول كانت تملأ كل آسيا واليونان وروما. وبالإطلاع على رسائل القديس بوليكاربوس (استُشهد سنة ١٥٥م عن ٨٦ سنة) تلميذ يوحنا الرسول وأسقف أزمير، يتضح أن كل التقليد الرسولي في الثلاثة الأناجيل وتعاليم إنجيل يوحنا — دون النص — حاضرة في كتاباته!! وكذلك تعليم القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا؛ وأيضاً تعاليم القديس إيرينيئوس الذي صار أسقفاً على ليون بفرنسا، وهو تلميذ بوليكاربوس، فهو أصلاً مواطن أزميرلي (من سميرنا) (١٣٠—٢٠٠م)، وهو المحسوب أنه أبو التقليد. إذن، فالقديس يوحنا كتب إنجيله معتمداً على أساس التقليد الرسولي بتاريخه ودقائقه. والمعروف والمتداوَل في كل الكنائس آنئذ، وليس كإنجيل منفرد. لذلك نجده لا يستطرد في المجال التاريخي.

والواقع أن مردَّ هذا الصراع الفكري ضد الخط التاريخي لإنجيل يوحنا، هو بالأساس في فكر ووعي هؤلاء العلماء القدامى والمحدثين الذين طفحوا بالنقد المرير تجاه غياب العنصر التاريخي من إنجيل يوحنا؛ وذلك بسبب عدم القدرة الإيمانية في هؤلاء لرؤية الزمنيات ملتحمة مع الأبديات، سواء في شخص المسيح نفسه أو في أقواله وأعماله. ومما سبق وقلنا يتبين للقارىء زَيْف هذا النقد،

فالأناجيل عموماً وإنجيل يوحنا على وجه الخصوص، ليست وثائق تاريخية تُحاسَب على صحة أو دقة التاريخ فيها، بل هي «**وقائع روحية**»، أو «**حوادث إلهية**» تمّت في صميم الزمن، كما سبق وقلنا: فـ«**الله ظهر في الجسد**» بحسب القديس بولس الرسول، أو «**الكلمة صار جسداً**» بحسب القديس يوحنا التلميذ والرسول، تماماً كما جاء في إنجيل لوقا «فلذلك أيضاً **القدوس المولود منك يُدعى ابن الله**» (لو١: ٣٥). فسجل ميلاده حوَّل من سجل سابق مركزه السماء بعيداً عن أيدي المؤرخين. أو كما قال القديس يوحنا في رسالته الأولى «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١: ٢). **فالله دخل التاريخ الإنساني واقتحم الزمن**، ليس بالرؤيا ولا في حلم ولا بصوتٍ يسمعه القلب كما في العهد القديم، بل على واقع إنساني حيٍّ منظور وملموس، هو الرب يسوع المسيح. وهذه معجزة التجسُّد، وهي معجزة الله والإنسان.

فالآن، لا يمكن فَصْل العنصر الإلهي الخالص عن العنصر الزمني الخالص، كما يقول ويؤكِّد علم اللاهوت عن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح — الذي هو أساس التضادِّ بين الزمنيِّ والأبديِّ — الذي صار توافقاً واتحاداً في المسيح. فهذا الإتحاد غير منقسم ولا منفصل، فمن جهة اللاهوت لم يحدث له أي تغيير بعد التحامه بالإنسان وزمن الإنسان، سوى الظهور والإستعلان عن طريق الكلمة والمعجزة والآية. **ولكن الزمن هو الذي انفتح على اللاهوت لما انفتح اللاهوت له، فرأى ما لا يُرى وسمع ما لا يخطر على قلب بشر. والإنسان والزمان أخذا ما لم يكن لهما أصلاً**. فالمسيح كإنسان سار على الماء، فأين الجاذبية الأرضية وأين رعبة الأعماق واللجج؟ كما غطَّى اللاهوت ضعف الجسد وألغى سلطة الموت ومحنة الزمن، فالمسيح أقام لعازر من الموت بعد أن أنْتن، والمسيح نفسه قام من بين الأموات في اليوم الثالث: «فأين شوكتُك يا موتُ؟ وأين غلبتكِ يا هاوية؟» (١كو١٥: ٥٥)، وأين أنت أيها التاريخ؟

— «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مُقصَّر... والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه، لأن هيئة هذا العالم تزول، فأريد أن تكونوا بلا همٍّ.» (١كو٧: ٢٩—٣٢)

هذا هو طغيان المستقبل على الحاضر الزمني في المسيحية. أو كما قال المسيح لتلميذٍ دعاه فأراد أن يدفن أباه أولاً: «دَعْ الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهبْ ونادِ بملكوت الله» (لو٩: ٦٠)، أو كما وضعها القديس متى: «**اتبعني، ودَعْ الموتى** يدفنون موتاهم» (مت٨: ٢٢). وهذا هو طغيان الروح والحياة الأبدية في المسيحية على أمور العالم الزائلة!!!

كل هذا صار لحساب الإنسان ليدخل ويمتد في الحياة الأخرى، الحياة الأبدية غير الزمنية. لذلك، فالذي يريد أن يقرأ الإنجيل، أيَّ إنجيل، أو يدرسه؛ فإن لم يكن له الحاسة الإيمانية، أي

البصيرة الروحية المفتوحة على الله بحسب الوعي المسيحي التقليدي الصادق، فهو لن يدرك هذا **الإلتحام الذي أكمله المسيح — الكلمة المتجسد — في نفسه، التحام الأبدي والزمني، الإلهي والإنساني معاً.** أما الذي يريد أن يفصل العنصر الإنساني في المسيح عن العنصر اللاهوتي ليتمعن في «يسوع التاريخ»، أو يوقّع حياة المسيح على الأصول التاريخية، فسيفصل بين ما هو إنساني وما هو لاهوتي. **مع أن المسيح لن يُعرف ولن يُستعلن إلاّ إلهاً متجسداً.** لذلك فإن محاولة توقيع حياة المسيح على الزمن استرضاءً للعقل وعلم أصول التاريخ وإراحةً للمنطق، هي نكسة تشبه نكسة توما: «إن لم أُبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن.» (يو٢٠: ٢٥)

إذن، فالذي يتحتّم على كل لاهوتي أن يفهمه أن التاريخ والعنصر الزمني لدى الإنسان الجديد، أخذ طبيعة جديدة بعد الإيمان بتجسد ابن الله وموته وقيامته من بين الأموات وإرساله الروح القدس. فبعد أن كانت الحادثة الزمنية — كولادة إنسان مثلاً — تؤول بعد حدوثها بكل دقائقها وصحتها وفن تسجيلها إلى سجل الأموات وتصير إلى العدم، صار الآن تاريخ البشرية الجديدة أو الزمن الجديد الحي في الإنجيل يؤرِّخ للأحياء وليس للأموات، ويسجَّل في السموات: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣: ٢٠) — كإنسان يعتمد ويؤمن بالمسيح ويعيش بالتقوى والمحبة الأخوية — فهذا كما يقول القديس يوحنا (عن نفسه) «قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤، ١يو٣: ١٤)، وسيظل حيًّا «ولن يموت إلى الأبد» كما قال المسيح ووعد، وسيُكتب اسمه في سفر الحياة، وإيمانه سيولِّد إيماناً لآخرين، وهكذا إلى أبد الآبدين. «لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس... بل... وإلى وسيط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رشٍّ يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢: ١٨—٢٤)

كذلك، فإن كل ما لمسه المسيح وتبنَّاه من الإنسان وزمنيات الإنسان سواء بيده أو بالكلمة، فإنه تجلى وأخذ طبيعة جديدة أو خلقة جديدة أو خلقة ثانية: كالماء، والخمر، والخبز، والجسد، والدم، والأعمي، والمشلول، والكسيح، والميت، والقبر، حتى الموت نفسه تحول إلى حياة؛ فأين متطلب منطق التاريخ؟ وأين رتابة الزمن ومادته؟ وكيف نقرب هذه المواد عقلياً بعد تحولها؟؟ ونكاد نقول قول القديس بولس الرسول إن نظام الزمن وحتمية التاريخ، بقسوته وبهمومه وأحزانه وأوجاعه، كان مؤدِّبنا طوال أزمنة ما قبل المسيح؛ و بعد أن صرنا في المسيح، فلسنا بعد تحت رحمة أنظمة الزمن وحتميات ومنطق التاريخ، بل تحت رحمة الحياة الجديدة الأبدية ونعمة رب الحياة وتدبير الروح القدس.

لقد كان حقاً ما قاله الآباء والأنبياء بالروح عن زمن المسيح أنه «أواخر الأيام» أو «الأيام الأخيرة»، وأنه «ملء الزمن»، أو «ملء الدهور»؛ بمعنى أنه بمجيء المسيح يكون قد اكتمل «**زمان العقوبة**» للإنسان، وانتهى «**تاريخ اللعنة**» وحكم الموت، وابتدأ «**زمان الحياة**»، زمان الروح القدس الذي أعطى التاريخ الإنساني أبعاداً جديدة ومعنًى جديداً وثوباً جديداً.

٥ - مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر،
ومقياس اللاهوت يتجه نحو الجوهر:

اللاهوتي الذي نوى أن يفحص ويُقيِّم التاريخ الزمني في إنجيل يوحنا، يلزمه أن لا يغفل مقياس التاريخ الحقيقي اللاهوتي الذي تعيش به الكنيسة الحياة الأبدية وتحيا خلاصها فيه ألفي سنة، حتى أصبحت هي بحد ذاتها شهادة لصدق الإنجيل. وعليه أن يفرز بروحه ويتحسس بحسِّه الإيماني حركته، أي حركة التاريخ اللاهوتي وهدفه، ولا مانع أن يقارن بينه وبين التاريخ الزمني ليعرف ويُطبِّق سرعة حركة الكنيسة الروحية والخلاصية بالنسبة لمسار العالم والزمن على مرِّ السنين، فينقد الكنيسة وليس حق الإنجيل!!

إن وقوف العالِم اللاهوتي الذي يحكم بالتاريخ ويحتكم له ضد حادثة من حوادث الإنجيل باعتبارها لم توفِّ الشروط العلمية للحادثة الزمنية ولمظهرها وقياسها الزمني بحسب العقل وعلم التاريخ الأصولي، إنما هو يحاول أن يطمس معالم تدخُّل الله في الحادثة الزمنية، الذي هو جوهر الحادثة، أو كمَنْ يحاول أن يختزل المسيح إلى مجرد إنسان «يُدعى يسوع».

فالذي يقف أمام معجزة تحويل الماء إلى خمر بالنسبة إلى مفهومها الزمني كأن في ذلك ترفاً بحسب منظرها الخارجي، يفقد في الحال تقييم قوة التحويل الإلهية التي ابتدأ بها الله أعماله في المسيح وبالمسيح في جوهر المادة، ليبرهن أن العتيق قَدِمَ وشاخ، وأن الكل يَلْزَم أن يولد من جديد ليصير جديداً. وكأنه يقول للتلاميذ وكل العالم: هذا هو معنى وحقيقة رسالتي أن أحوِّل الماء إلى خمر، أحوِّل الميت إلى حياة والحياة إلى فرح، وأن ليس بالتطهير بالماء ينجو الإنسان من الدنس والخطية بل بشرب الروح والدم يخلص ويتقدس. ثم إذا هو نظر إلى كمية الخمر البالغة في حجمها أمراً فائقاً لحد التعقُّل، إذ أن الستة الأجران ماءً تحولت بحجمها إلى خمر بما يساوي ١٢٨ جالوناً، فيرى في هذا الكم الهائل دعوة إلى عدم الإتزان والإدمان.

فهذه الرؤيا النقدية تنحصر فقط في فكر الإنسان الناقد فتُفقده في الحال رؤيا المجد، لأنها تطمس معالم اليد العالية التي تدخلت في تشكيل هذا الرقم، والسرُّ الذي يختفي وراء هذه الوفرة

والـكـثـرة، وهـو الإشارة الواضحة إلى التحوُّل المقصود من بؤس الحاجة في القديم: «ليس لديهم خمر (فـرح)»، إلى مـلء البهجـة والـوفـرة والمسرة الروحية بسبب حضور الله بتدخُّل العريس الحقيقي في حـفلة عرس الإنسان. وكأن المسيح حينما قال للخدم: «**استقوا الآن**» ينبّه نظر اللاهوتي القدير أن يكمل من عنده قول الأنبياء «**من ينبوع الحياة مجاناً**» الذي يفيض بلا حدود.

وإذا لاحـظ الـقـارىء يجـد أن الـتـعـظيم والمـغـالاة الـرقـمـية أمرٌ مقصودٌ في إنجيل يوحنا على وجه العـمـوم. فـالـسـامـرية كان لها **خمسة أزواج وحتى الذي معها ليس زوجها** (منتهى الفجور)!!، والأعـمـي **أعـمـى مـنذ ولادته** (منتهى الشقاء)!!، والمقعد له **٣٨ سنة** (منتهى الذل)!!، والخمر المحوَّل **١٢٨ جالوناً** (منتهى الوفرة)!!، والخبز: **خمس خبزات لخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطـفـال** (مـنتهـى الـسـخـاء)!!، ولـعازر **له أربعة أيام في القبر وقد أنتن** (منتهى اليأس)!!. والإنجـيـل لم يختـَرْ هـذه الأرقـام، ولـكن الذي اختارها حقاً هو المسيح عن قَصْدٍ ليُجْري فيها عمله، ولـيـسـتـعـلـن فيها سلطانه على فك الحدود الضيقة والميتة والذليلة البائسة، والإنطلاق بقلب الإنسان وفكره المحدود إلى رَحْبِ وفرح اللامحدود واللازمني!!

كـذلك، إذا توقف اللاهوتي الذي يقيس الإنجيل والمسيح بمقياس الزمن وشروطه ومتطلباته إزاء حديـث مـطوَّل، أو وصف معجزة الخمس الخبزات التي أطعم بها المسيح خمسة آلاف بكل دقائقها؛ فيرى فيها خروجاً عن حدود المنطق الزمني، مُستَنْقصاً من القديس يوحنا كمؤرخ إنجيلي كيف يؤرخ لحادثة يزعم أنه رآها وذلك بعد خمسين سنة من حدوثها؛ فإن مثل هذا المؤرخ اللاهوتي يكون قد فقد عاملين أساسيين هما اللذان يسندان هذه الحادثة.

الأول: وهـو الشرح الذي قدمه إنجيل يوحنا بفم المسيح عن سر هذا الخبز، وعن معنى الكثرة والوفرة فيـه حينما قال أن هذا الخبز هو في الحقيقة جسده المقدس، وأنه مُزمع أن يمزقه على الصليب ويطرحه على العالم كله، وليس على خمسة آلاف فقط، ليأكل منه الإنسان ويشبع ويفيض.

وهـنـا أيـضـاً عـودة إلى سر الـتـحـوُّل، فبعد أن كان الإنسان يأكل خبزه بعرق جبينه والآكلون يمـوتـون بـعـد حين، صـار الإنسان مُخوَّلاً أن يأكل من خبز السماء والآكل منه لا يموت، إذ هو خبز الحياة الأبدية. وهكذا تمَّت النبوة «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ,, كلمة ،، تخرج من فم الله**» (تث٨: ٣، مت٤: ٤). وتمَّت كما ذكرها الإنجيل في المسيح، هوذا: «**الكلمة صار جسـداً**» (يـو١: ١٤)!! و«خذوا **كلوا هذا هو جسدي**» (مت٢٦: ٢٦، مر١٤: ٢٢). [خذوا **كـلـوا مـنـه كلكم** لأن هذا هو جسدي] (القداس الإلهي). إذن، فمعجزة الخمس الخبزات تكون قد استوفت أسبابها واستُعلِنَ الحق المختفي في مظهرها.

العامل الثاني: وهو الرواية: فإن كان القديس يوحنا يؤرخ لأعمال «الكلمة»، وهذا واضح منذ بدء إنجيله، فالأناجيل الأخرى أخذت على نفسها أن تضع اللمسات التاريخية، كُلٌّ في مجاله بصدق وإحكام، وذلك في هذه القصة التي تحمل كل المواصفات التاريخية هكذا: «فمضوا في السفينة إلى موضع خلاء... فرآهم الجموع... فتراكضوا إلى هناك من جميع المدن مشاةً... فتحنن عليهم... وبعد ساعات كثيرة... الموضع خلاء والوقت قد مضى... إصرفهم... ليبتاعوا لهم خبزاً.. أعطوهم أنتم ليأكلوا... كم رغيفاً عندكم... خمسة وسمكتان... فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاتّكأوا صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين. فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك ثم كسّر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا إليهم. وقسّم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل.» (مر٦: ٣٢—٤٤)

إذن، لا يمكن أن يحكم التاريخ على هيكل هذه القصة بالزّيف، لأن مظهرها مطابقٌ للتاريخ، كما لا يمكن أن يحكم التاريخ على المسيح في إنجيل يوحنا أنه خرج عن حدوده فيما عمل، لأن جوهر القصة مطابقٌ لهدف لاهوتي أكمله المسيح في قلب التاريخ.

وحينما يتوقف اللاهوتيون المدافعون عن التاريخ إزاء معجزة إقامة لعازر من الموت، يطرحون مشكلتين: **الأولى:** هل أو كيف نصدق أن المسيح أقام لعازر من الموت حقاً؟ **والمشكلة الثانية:** لماذا لم يذكر الإنجيليون الثلاثة هذه المعجزة أيضاً وهي هامة؟

والرد على المشكلة **الأولى** نقول: إن المسيح سبق وأعلن مراراً أنه سيقيم الموتى موتى الخطية وموتى القبور! وسواء في إنجيل يوحنا «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع **الأموات** صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥)، «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع **جميع الذين في القبور** صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٨و٢٩)؛ وكذلك في الأناجيل الأخرى «أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العُمْي يُبصرون والعُرْج يمشون والبُرْص يطهَّرون والصُمُّ يسمعون **والموتى يقومون...**» (مت١١: ٢—٦، لو٧: ٢٢)؛ فواضح هنا من كلمة «الموتى» التي أتت بالجمع، أن المسيح أقام عدة أموات وليس لعازر فقط. ويروي الإنجيليون أيضاً قصة إقامة ابن أرملة نايين، وابنة يايرس. بهذا تكون رواية إقامة لعازر من الموت مدعَّمة من التاريخ المعترَف به في الأناجيل الثلاثة الأخرى.

أما المشكلة الثانية: أن الأناجيل الأخرى لم تذكر حادثة إقامة لعازر من الموت؛ فمن متابعة خدمة المسيح نجد أن الثلاثة الأناجيل لم تذكر خدمة المسيح في اليهودية التي بدأت مع يوحنا المعمدان، والتي ذكرها إنجيل يوحنا فقط في الأصحاحات (١—٣)، (٧). ويذكر إنجيل يوحنا فقط دون باقي الأناجيل أنه دعا له خمسة تلاميذ من هناك. وهذا مسجَّل في كتاب «تلمود» اليهود(٢٥).

ويُلاحَظ في رحلة المسيح إلى اليهودية قبل الصليب بأسبوعين تقريباً حينما وصله خبر مرض لعازر، أن إنجيل يوحنا لم يذكر وجود التلاميذ الإثني عشر، ويبدو واضحاً أن كثيراً من تلاميذه كانوا غائبين عن هذه الرحلة، ومنهم غالباً القديسين متى وبطرس، وهما اللذان تفرَّع منهما التقليد الرسولي في الأناجيل الثلاثة. وهذا قد يكون هو السبب الأساسي في عدم ذكر حادثة إقامة لعازر من الموت، واكتفى الإنجيليون الآخرون بذكر حادثتي إقامة ابن أرملة نايين وابنة يايرس كما رأوهما، واكتفى يوحنا بذكر إقامة لعازر من الموت.

واهتمام القديس يوحنا بذكر حادثة إقامة لعازر من الموت دون غيرها، فذلك يعود إلى أهمية لاهوتية رفعت القصة إلى أقصى خطورتها التاريخية، إذ التحمت بموت المسيح وقيامته لأنه، كما سبق وقلنا، فإن السبب الأساسي الذي من أجله اجتمع السنهدريم وقرر قتل المسيح مذكور في إنجيل مرقس وكذلك كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا، أنه تم بعد عملية تطهير الهيكل التي أجراها المسيح قبل الصلب بأسبوع واحد، ولكن إنجيل يوحنا ذكر عملية تطهير الهيكل في بداية خدمته مشيراً بذلك إلى سلطانه وإلى مفهوم رسالته في جملتها. أما السبب الأساسي الذي اجتمع السنهدريم من أجله فجعله بعد إقامة لعازر من الموت: «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه.» (يو١١: ٥٣)

وبتحقيق أدق المؤرِّخين واللاهوتيين رُئي أن تاريخ تسلسل الأحداث والأسباب لقتل المسيح صحيحة في إنجيل يوحنا، ومدعَّمة للتاريخ بدرجة كبيرة.

وهكذا نجد أن تركيز المدارس النقدية على معجزات المسيح في إنجيل يوحنا فاقدة للرؤية اللاهوتية، بل وللرؤية التاريخية الصحيحة المنسجمة مع الإنجيل.

وبهذا يثبت لنا أن الهيكل العام لإنجيل يوحنا مترابط، يسير بالحوادث والكلمات ككلٍّ متحرك نحو هدف لاهوتي خطير لا ينبغي إغفاله، بل يلزم تثبيت النظر إليه إذا أراد أي إنسان أن يفهم الإنجيل أو ينقده، فهو ينتهي إلى علاقة حية بين الله والإنسان كواقع لا يحتاج إلى برهان، لأن

[25] Hunter, A.M., op. cit., p. 58.

الكنيسة تعيشه في ملء صدقه وهي تتحرك نحوه عبر الزمان دون توقُّف، حتى تبلغ إليه ويبلغ فيها الإنسان إلى مكانته الأولى في حضن الله.

٦ – منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت:

قيمة التاريخ أو الزمن في إنجيل يوحنا هي «الإستعلان» الإلهي موقَّعاً على التاريخ والزمن خطوة خطوة، **وبهذا يكون قد أصبح للتاريخ والزمن الإنساني قيمة إلهية جديدة**، ويكون هناك بالنهاية استحالة أن يخضع الإستعلان الإلهي الذي هو جوهر الحادثة للزمن وللتاريخ البشري الذي هو مظهر الحادثة. فالإستعلان قد يختار خطوة متقدمة لاهوتياً على خطوة متأخرة زمنياً حسب قياس عمل الروح وإلهام النعمة وغاية الإستعلان. أي أن الزمن فيما يخص المسيح عليه أن يخضع للإستعلان ويقبل بالترتيب الإستعلاني الذي جاء في الإنجيل، ويراجع نفسه، فربما يُرغمه الإستعلان لجعل «الأحد» قبل «السبت» كما سجَّل القديس يوحنا حادثة تطهير الهيكل في مستهل إنجيله وبداية الخدمة، أي قدمها ثلاث سنوات عن ما سجلته الأناجيل الأخرى في ختام الخدمة ونهاية الإنجيل قبل الصليب مباشرة، فاستحسن المؤرخون اللاهوتيون هذا العمل جداً مع أنه مخالف لمنطق التاريخ. لأن الترتيب الإستعلاني هو السيد والسائد، وقد جاء ليُعيد صياغة التاريخ الذي أفْسده الإنسان أو الذي أفسد الإنسان، سيَّان.

وهنا كان اعتراض المسيح العنيف على الذين آخذوه كيف يصنع معجزة شفاء لأعمى أو كسيح يوم السبت؟ لأن هذا العمل في مضمون الفكر الناموسي نقضٌ للتاريخ وإهانة لكرامة السبت الزماني وقداسته أما رد المسيح فكان بالإيجاب، أي: نعم أنا أنقض التاريخ بالرغم من الوصية حتى لا يسود الزمن على الله الذي هو واضعُه وخالقُه: فـ «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوه:١٧)، بمعنى أن «**عمل الله الإستعلاني**» لا يخضع للتاريخ ولا رتابة الزمن: فـ «السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مر٢:٢٧). والإنسان خُلق قبل السبت، فإن كان السبت خُلق أو أقامه الله ليخدم الإنسان، فكم يكون الزمن بالنسبة لأمور الله أو لإستعلان شخصه أو طبيعته؟؟ فـ «**ابن الإنسان هو رب السبت أيضا**» (مت١٢:٨) أي خالقه، أي أعلى من السبت وأسْبَق وأبْقى. فكلُّ ما كان يعمله المسيح هو قبل السبت، حتى ولو كان في السبت، بمعنى أن **تدبير الله هو قبل الزمن وأزليٌّ في أصله ومَنْشَئه**، «لأنه متمِّمُ أمرٍ وقاضٍ بالبر، لأن **الربَّ يصنع أمراً مقضيّاً به على الأرض**.» (رو٩:٢٨)

وبهذا يكون تحليل قضايا إنجيل يوحنا من قِبَل اللاهوتيين النقديين تاريخياً أي زمنياً، أمراً مشيناً للإيمان المسيحي ولمعنى الخلاص ولإستعلان شخص يسوع المسيح والآب! وكان الأجدر والأصح أن

يُحلِّل الإستعلان على مستواه الخاص به، فيكون هو تاريخ الإنجيل الصحيح.

٧ – التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون قاعدة للإيمان:

التحليل التاريخي العلمي للحوادث، أي التاريخ الحرُّ، يقيِّم الحادثة على أساس العِلَّة والمعلول، أي السبب والأثر، مع تقييم القيمة الظاهرية من الشيء أو الموضوع أو الإنسان بالنسبة لغيره من الحقائق التي على نفس مستواه سواء من جهة أي إنسان أو عمله.

وهذا النوع من التحليل التاريخي لا يستقيم تطبيقه على حوادث وأقوال المسيح وشخصه. بل لا يمكن ولا يصح، وليس من الحق أو العدل، لأن المسيح – بأقواله وأعماله – يحمل الحق في جوهره وليس في مظهره أو في مظهر أعماله. فالمسيح في مظهره «عَبْدٌ متألم»؛ وفي جوهره إله ممجَّد. وهذه كلها يستحيل قياسها على أشخاص آخرين أو أعمال لأشخاص آخرين. والمسيح يؤكِّد ذلك: «لو لم أكن **قد عملتُ** بينهم **أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري** لم تكن لهم خطية» (يو١٥: ٢٤). فكل آيات المسيح وتعاليمه لا تقيَّم ولا توصَف بلغة التاريخ، لأنه لا توجد ثوابت أخرى يُقاس عليها لا من جهة شخصه ولا من جهة أعماله. فبالأَوْلى، لا يُحكَم عليها من أحد بل هي تَحكُم على كل أحد.

صحيح أن الثلاثة الإنجيليين وقَّعوا حياة المسيح على التاريخ قدر ما استطاعوا، **هذا حسب الظاهر**، وهذا حسن. ولكن من أجل أن الأناجيل الثلاثة أخذتها الكنيسة هكذا على المستوى التاريخي **كقصة متيقَّنة عندها** وجعلتها أساساً لإيمانها، نقول إنه بسبب هذا الأمر نفسه انطلق القديس يوحنا في آخر القرن الأول لتاريخ الكنيسة – حينما رأى أن الكنيسة اكتفت بظاهر حياة المسيح ليكون هو إنجيلها وبشارتها بملكوت الله – انطلق مُسَاقاً من الروح القدس **ليستعلن لاهوت المسيح** من داخل حياة المسيح هذه وتعاليمه نفسها التي قدَّمتها الأناجيل الأخرى في ظاهرها التاريخي. وهذا هو نص التقليد الكنسي الذي استلمته الكنيسة عن القديس إكليمندس الإسكندري الذي سجَّله له يوسابيوس القيصري وأذاعه. يقول القديس إكليمندس:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ كتقليد أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين **حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بحقائق الظروف الخارجية** τὰ σωματικά **في تسجيلها**، وإذ ضُغط عليه من قِبَل أحبائه **تحرَّك بالروح من قِبَل الله وكتب إنجيله الروحي** = τὸ πνευματικὸν εὐαγγέλιον .](٢٦)

---

26 Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,5-7.

لذلك، فعلى مدى إنجيله كله أرسى القديس يوحنا كل مفردات المنهج اللاهوتي منطوقاً بفم المسيح، ومُنتخَباً من تعاليمه وآياته ليخدم إيمان الكنيسة التي بَنَتْ عليه لاهوتها وعقيدتها، والتي دافعت به عن كيانها مقابل الهراطقة الذين تضافروا على مدى أربعة قرون لهدمها، مستخدمين ضدها أسلحة المنطق والتاريخ والتعاليم المزيَّفة.

٨ ــ **صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن:**

القديس يوحنا وهو يكتب عن «**الحق**» كان يعلم ماذا يكتب، ولمَنْ يكتب، ولماذا يكتب. وعلماء اللغة أثبتوا أن لغة إنجيل يوحنا جاءت في معظمها في صيغة المستقبل، فقد كان يرى التاريخ أمامه بما سيأتيه الزمن، وعمل له ألف حساب. والمسيح كان يتكلم عن نفسه بالصيغة الحاضرة الدائمة «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، لأنه كان يرى نفسه في لاهوته ويتكلم عن الأزلية القائمة فيه: «**قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن**» (يو٨: ٥٨)، هي لغة تسمو فوق الزمن والتاريخ معاً. كما يعبِّر بالصيغة الدائمة القائمة عن علاقته الأزلية بالآب: «الآب يحب الإبن» (يو٣: ٣٥؛ ٥: ٢٠). فإذا تكلم المسيح عن الإنسان الذي يؤمن به، فإنه يرفع عنه ثقل الزمن ويحصره معه في الأبدية بصورة غاية في الروعة والإعجاب: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا.» (يو١١: ٢٥)

وهكذا جاءت صيغ الماضي والحاضر والمستقبل في إنجيل يوحنا لا تخدم التطوُّر الزمني كما جاءت في الأناجيل الأخرى، كأن تقول عن المسيح «وأما يسوع فكان **يتقدَّم** في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو٢: ٥٢)، بل كلها جاءت لتخدم تدرُّج استعلان طبيعة المسيح بقدر استيعاب إيمان الناس: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو١: ١٦)، «مجَّدتُ وأمجِّد أيضاً» (يو١٢: ٢٨). كما اتجهت أفعال الخلاص نحو الأخرويات، ولكن في صورتها الحاضرة: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠). ولقد ألمحت الأناجيل الأخرى إلى هذه الحقيقة: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: **قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله** فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر١: ١٤و١٥)؛ أين التاريخ هنا وأين الزمان؟ لقد وضعه الرب خلف ظهره: «قد كمل الزمان» ــ حتى يستطيع أن يبدأ الكرازة بالأزليات والأخرويات التي تدفقت وأشرقت على الإنسان النائم الجالس في الظلمة وظلال الموت. فالمسيح لم يُلغِ الزمن، ولكن استعلن الملكوت من فوقه فأضاء ظُلماته.

فإذا حاول اللاهوتيون أن يؤرِّخوا «ليسوع التاريخ» كما يقولون، فإنهم يفصلونه عن لاهوته، ويُفسدون كرازته ويُخفون مجد الأخرويات وحضورها في الزمن.

ويلاحظ القارىء أن مجيء الروح القدس في ملء الزمن — في اليوم الخمسين لقيامة الرب — هو الذي كشف الأخرويات لروح الإنسان، وجعلها حاضرة في قلبه وروحه وعاملة فيه في حاضره الزمني. فالپاراكليت في إنجيل يوحنا منوط به **استعلان الأخرويات** وتذوُّقها، وهذه وظيفته بالأساس: «**ويخبركم بأمور آتية**» (يو١٦: ١٣). وبهذا تجلى الزمن في حاضره عند الإنسان بواسطة الروح القدس، وصار جزءاً لا يتجزأ من المستقبل الأبدي — والروح القدس لم يُلغ الزمن، بل استعلن فيه الأبدي.

وهذا هو المعنى الخفي وراء قول المسيح: «الحق أقول لكم: إن من القيّام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» (مر٩: ١)، والقديس يوحنا شهد بذلك: «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه... فإن الحياة أُظهرت... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١: ١و٢)، مشيراً بذلك إلى مجيء الروح القدس ومعه ملء الملكوت وطبيعته. المستقبل هنا دخل في الحاضر الزمني.

وقول المسيح في إنجيل يوحنا: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩): هنا الرؤيا ليست للجسد مع أنها في الجسد. فهي ليست في السمات الزمنية للمسيح، وإلاَّ فلن يروا فيه إلاَّ إنساناً «مضروباً من الله ومذلولاً» (إش٥٣: ٤)، «مكروه الأمة وعَبْد المتسلِّطين» (إش٤٩: ٧)، بل هي رؤيا الإيمان من خلال كلامه وأعماله واسمه المعلَن دائماً: «أنا هو» (يهوه الكائن بذاته)، ومن خلال قيامته بعد موت الفداء الذي أكمله. هذه كلها أكملها في الجسد في وسط الزمان ولكن ليست بالجسد. لذلك يعثر فيه اللاهوتيون الذين يؤرِّخون «ليسوع التاريخ». فجسد المسيح لا يؤمَن به في ذاته، بل في اللاهوت المستعلَن فيه، فنرى فيه قوة الله و برَّه وقداسته وفداءه لنا، حيث تتركز كل آمال الإنسان وخلاص البشرية الذي هو وَعْد الله للعالم: «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنِّي... إذاً لستَ بعدُ عبداً بل ابناً وإن كنتَ ابناً فوارثٌ (أنت) لله بالمسيح.» (غل٤: ٤—٧)

٩ — التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل:

والأمر الذي فات على المؤرخين اللاهوتيين، الذين دخلوا في سباق النقد لإنجيل يوحنا كونه لم يأخذ الخط التاريخي أساساً لروايته، (مع أنه لم يَقُلْ أنه يكتب رواية، بل تحقيقاً لاهوتياً انتخبه من أقوال المسيح وتعاليمه التي بناها على معجزات جعلها آيات لصدق ما يقول ويعلِّم)، نقول أن الذي فاتهم هو: أن المؤرخ مهما توخَّى الدقة في بحثه وراء الحقائق نفعاً للحقيقة — كما يقولون — فهو يبحث في الماضي، والماضي فقط! لأن التاريخ لا يبحث في الحاضر ولا المستقبل؛ ولكن الإنجيل

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوچي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلاَّ مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كان حياً **(الآن)** وآمن بي فلن يموت ,,**إلى الأبد**،،». لماذا؟ لأن المسيح وهو هو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنِيَّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب **الكائن** والذي **كان** والذي **يأتي** القادر على كل شيء» (رؤ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرْف الإنجيل إلاَّ بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فمثلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوَّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!! المسيح أعطى الحلَّ لهذه المحنة العظمى التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطبَّق على كل حاضر لكل إنسان آتٍ إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطَّى المسيح العجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأنينه، بل أدخل الماضي في نور استعلانه.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنىً متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته — **الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدِّب الزمني** — وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واسْتَعلَن جنين «**الخلاص والحق والحياة الأبدية**» الذي كان مُصوَّراً في أحشائه ولم يقْوَ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجِنَّة دَنَتْ إلى المولد، ولا قوة على الولادة.» (إش٣٧: ٣)

فالتجسُّد جلَّى التاريخ — أي غيَّر هيأته — وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، **فأفْقَدَ** التاريخ الإنساني عتامته. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خُطى السائرين فيه. «ومفديُّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم وفرح أبديٍّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد» (إش٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والإستعلان الذي حدث، أخذ يؤرِّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه **قد اقترب** منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعَّمه بالحياة: «ها ملكوت الله **داخلكم**». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

أقواله، وهي متأكدة أنها لن تفقد كيانها في مسار الزمن، مهما تكتلت عليها جحافل الظلمة: «أن الظلمة قد مَضَتْ والنور الحقيقي الآن يضيء» (١يو٢: ٨)، «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون.» (يو١٤: ١٩)

الكنيسة الآن تمخر عباب بحر التاريخ الزمني في داخل قارب النجاة صوب شاطىء الأبدية السعيدة، بزمن وتاريخ آخر غير زمن الشمس والقمر وتحرُّك الأرض، هو زمن الخلاص؛ فذاك يؤرِّخ للعالم، وهذا يؤرِّخ للسماء. «لأن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلِّصاً.» (في٣: ٢٠)

إنجيل يوحنا، ومعه بقية الأناجيل، كتب المنهج الجديد للكنيسة، ليس بتسجيل الزمن وتوقيع الحوادث، ولكن بكلمات المسيح التي هي روح وحياة، وبأعماله التي هي أعمال الآب التي تخصُّ خلاص الإنسان وحياته الجديدة. وقد رتبها القديس يوحنا بحسب درجات استعلان المسيح وقصد الله ترتيباً لاهوتياً هو نفسه التاريخ اللاهوتي الذي بدأ: **«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله»** (يو١: ١)، وتوقف قليلاً عند محطات إلتحام الأبديّ بالزمنيّ **«والكلمة صار جسداً»** (يو١: ١٤)، ثم **«الكلمة المتجسد مصلوباً وقتياً»**، ثم **«مدفوناً»**، ثم **«قائماً وجالساً عن يمين الآب حيث كان أولاً»**.

هذه هي رحلة الزمن الخلاصي وتاريخ الفداء: «**خرجتُ** من عند الآب، وقد **أتيتُ** إلى العالم، وأيضاً أترك العالم، **وأذهب** إلى الآب» (يو١٦: ٢٨). هذا هو تاريخ المسيح الذي يؤرِّخ له الإنجيل. وواضح أنه تاريخ إلهي فائق، سمائي في جوهره، ولكنه يلقي ظلَّه على الأرض. وهذا التاريخ اللاهوتي عينه سلَّمه الروح في إنجيل يوحنا للكنيسة لتعيشه وتحيا به، ناظرة إلى فوق، وترجى غايته، برجاء أثبت من الحاضر نفسه: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة وإلاَّ فإني كنت قد قلت لكم. **أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً**. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي **أيضاً وآخذكم إليَّ**.» (يو١٤: ١-٣)

والمسيح لكي يُحيي تاريخ الكنيسة لتعيش أزمنة التجلِّي المستقبلية، أرسل إليها روحه القدوس ليعلن لها الأخرويات، ويلقِّنها الحق «**كل الحق**»، حتى لا يعود الفكر البشري قادراً أن يزيِّف لها الحقائق أو يُخفي عنها النور الأبدي الذي تعيش على هداه وتسير في نوره، حتى تتم لها أزمنة الغُربة لتؤخذ في المجد. فالكنيسة تحمل المسيح وتسير به، مستوطنة في السماء وهي على الأرض. فأصبحت بمؤمنيها هي التجسُّد، **هي المسيح المستعلَن في أبناء الله، المحمولة بالروح لتسير فوق الزمن.**

لذلك، إذا تدخل العالِم اللاهوتي ومعه مقياس الزمن الطبيعي — الذي ينظر دائماً إلى الوراء — ليقيس به قامة المسيح في الحوادث والأعمال المعمولة، فهو فوق أنه يخطىء فإنه يعطّل مسار التاريخ الحقيقي أو الإلهي المندفع إلى الأمام وإلى فوق، ويظلمه أشد الظلم. فالنقد «غير الحقيقي» ، أي الذي يصطدم بالحق، يوقف حركة الكنيسة بإعثار أولاد الله، فيعرقل مسيرة الخلاص ويحمل دينونة تعثُّرها الذي تعانيه الآن في كل أوروبا وأمريكا.

– إنتهى الكتاب –

ويليه كتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

كتابات الأب متى المسكين

(مارس ١٩٩٧)

١. حياة الصلاة الأرثوذكسية
٢. الرهبنة القبطية
٣. الإفخارستيا والقداس
٤. القديس أثناسيوس الرسولي
٥. المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا
٦. شرح إنجيل القديس يوحنا – ج ١
٧. شرح إنجيل القديس يوحنا – ج ٢
٨. القديس بولس الرسول
٩. شرح الرسالة إلى رومية
١٠. شرح الرسالة إلى العبرانيين
١١. شرح الرسالة إلى أفسس
١٢. شرح سفر أعمال الرسل
١٣. شرح الرسالة إلى غلاطية
١٤. الإنجيل بحسب القديس مرقس: دراسة وتفسير وشرح
١٥. التقليد المقدس
١٦. القديسة العذراء مريم (ثيئوتوكس)
١٧. الصليب المقدس
١٨. التسبحة اليومية ومزامير السواعي
١٩. أعياد الظهور الإلهي
٢٠. الصوم الأربعيني المقدس
٢١. مع المسيح في آلامه حتى الصليب
٢٢. القيامة والصعود
٢٣. الروح القدس الرب المحيي
٢٤. الخدمة
٢٥. المسيحي في المجتمع
٢٦. المسيحي في الأسرة
٢٧. كيف تقرأ الكتاب المقدس

٢٨. في التدبير الروحى
٢٩. توجيهات فى الصلاة
٣٠. القيامة والخليقة الجديدة
٣١. القيامة والرجاء الحى
٣٢. رسائل ومقالات في عيدي الصعود والعنصرة
٣٣. يوم الخمسين في التقليد الآبائي
٣٤. صوم الرسل ومكانته الروحية في الكنيسة والروح القدس وصوم الرسل
٣٥. الشهادة والشهداء
٣٦. التوبة
٣٧. التوبة والنسك في الإنجيل
٣٨. العمل الروحى
٣٩. الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل
٤٠. رسائل القديس أنطونيوس
٤١. الإيمان بالمسيح
٤٢. حبة الحنطة
٤٣. أين شوكتك يا موت، أين غلبتكِ يا هاوية
٤٤. التبرير بين الماضي والحاضر وبين الإيمان والعمل
٤٥. الوحدة المسيحية
٤٦. مقالات بين السياسة والدين
٤٧. ملكوت الله
٤٨. المرأة حقوقها وواجباتها
٤٩. الكشف الأثرى في دير القديس أنبا مقار عن رفات القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي
٥٠. لمحة سريعة عن دير القديس أنبا مقار والرهبنة في مصر
٥١. رسائل روحية
٥٢. إماتة الذات بهدف الحب الإلهي واختبار الله في حياة الراهب
٥٣. غاية الحياة المسيحية
٥٤. مع الروح القدس فى جهادنا اليومي
٥٥. القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي
٥٦. صوم العذراء وعيد صعود جسدها إلى السماء
٥٧. رأي فى تحديد النسل
٥٨. الكنيسة الخالدة

٥٩. كلمة الله : شهادة وخدمة وحياة
٦٠. الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم
٦١. لقد وجدنا يسوع – دعوة تعارف
٦٢. قصة الإنسان (حول الخطية والخلاص)
٦٣. تغيَّروا عن شكلكم
٦٤. حاجتنا إلى المسيح
٦٥. الكتاب المقدس رسالة شخصية لك
٦٦. الروح القدس وعمله داخل النفس
٦٧. النعمة في العقيدة والحياة النسكية
٦٨. التجسد الإلهي في تعليم القديس كيرلس الكبير مع عظة عن الميلاد للأب متى المسكين
٦٩. الحدود المتسعة للإيمان بالله
٧٠. فى تعليم المبتدئين
٧١. فى تعليم المبتدئين – خاص بالرهبان
٧٢. سيرة القديس أنبا مقار
٧٣. ميـلاد المسـيح وميلاد الإنسان
٧٤. قصص مسيحية للحياة (مجلد)
٧٥. رسالة توعية
٧٦. الإنسان والخطية – رسالة سلام للنفس المتعبة
٧٧. تسليم الحياة للمسيح – رسالة حياة لمن يطلب الحياة
٧٨. "الله واحد" مع شرح صلاة "أبانا الذي في السموات"
٧٩. ميلاد يسوع المسيح ابن الله
٨٠. أنشودة للتجسد يقدِّمها بولس الرسول

مجموعة مقالات في اللاهوت : ألقاب المسيح

٨١. ماهية المسيح – لاهوت المسيح الذي حدَّد مصير الإنسان
٨٢. المسيح ابن الله
٨٣. ابن الإنسان : اللقب المحبوب عند المسيح
٨٤. المسيح والمسيا
٨٥. المسيح رب
٨٦. المحبوب
٨٧. الفدية والكفارة

٨٨. الخلاص والإيمان
٨٩. عمانوئيل
٩٠. رئيس الحياة
٩١. أنا هو نور العالم
٩٢. العريس
٩٣. أنا هو الطريق والحق والحياة
٩٤. أنا هو خبز الحياة
٩٥. أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرَّام
٩٦. حمل الله
٩٧. أنا هو القيامة والحياة
٩٨. مشتهى كل الأمم
٩٩. أنا هو الراعي الصالح

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة : ٥٠ "أ" شارع شبرا - شقة ٤ - ت ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء - ناصية شارع الغرفة التجارية - ت ٤٨٤٠١١٠